دكتور
عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني

خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية

« رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز
مع مرتبة الشرف الأولى »

الجزء الأول

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

هذا العمل الذى بين يديك هو - فى الأصل - بحث علمى تقدمتُ به إلى كلية اللغة العربية جامعة الأزهر ، للحصول على درجة الدكتوراة (العالَمية) فى البلاغة والنقد . وفى صبيحة يوم الاثنين ٢٥ من شهر إبريل عام ١٩٧٤ نوقش البحث فى مدرج « العقاد » من العاشرة صباحاً حتى الواحدة ظهراً . وكانت الهيئة العلمية المنوط بها أمر المناقشة والتقويم مكوَّنة من ثلاثة أساتذة مخضرمين ، ولهم قدم راسخة فى قادة التخصص - البلاغة والأدب والنقد - وهم رحمهم الله :

الأستاذ الدكتور كامل إمام الخولى عميد كلية اللغة العربية - وقتذاك - ورئيس قسم البلاغة والنقد بها .

والأستاذ الدكتور حامد حفنى داود أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد فى كلية الألسن جامعة عين شمس - حينذاك .

ثم الأستاذ الدكتور يوسف البيومى البسيونى أستاذ البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية - إذ ذاك .

وبعد المناقشة قررت الهيئة العلمية بالإجماع منح البحث : تقدير « ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى » .

وفى أثناء التقدم بالبحث كنت أعمل محرراً مراجعاً بقسم المراجعة والتصحيح بجريدة الأهرام . وفى اليوم التالى للمناقشة نشرت « الأهرام » خبراً مبروزاً فى صفحتها الأخيرة أو الأولى الثانية فى العُرف الصحفى . ووضعت للخبر عنواناً لافتاً للأنظار : « ثانى دكتوراة خلال شهر لعضو بقسم المراجعة والتصحيح »

وكان زميلى الأستاذ الدكتور عبد العزيز رضوان الذى يعمل بنفس القسم قد حصل على الدكتوراة قبلى بثلاثة أسابيع . وقد تضمن الخبر عنوان البحث : « خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية » ثم التقدير الممنوح عليه ، وما كادت الصحيفة - الأهرام - تلامس أيدى القرأء صباحاً حتى انهالت علىَّ العديد من المكالمات التليفونية يطلب أصحابها أن أدلهم على كيفية الحصول على نسخ من البحث ، ولم يكن لذلك من سبيل ؛ لأن النسخ المطبوعة كانت محدودة للغاية ، حيث جرت العادة - فى ذلك الوقت - على طبع نسخ محدودة جداً بحيث لا تتعدى أعضاء لجنة البحث وبعض الإخوة الحاضرين لمشاهدة المناقشة .

ومن الذين هاتفونى مستشارون بمجلس الدولة أذكر منهم الآن « المستشار محمد عطية » .

كما تلقيت رسائل بريدية لنفس الغرض . وقد عزَّ علينا كثيراً أنى كنت عاجزاً عن تلبية هذه المطالب النبيلة التى ما كان وراءها من سبب سوى حب المسلمين لكتاب ربهم العزيز ، والدراسات الجادة المتعلقة به .

وبعض دور النشر أبدت استعدادها لطبعة آنذاك ، ولكن الشروط التى حددتها لم تكن موضع ارتياح . ومن ذلك أن شركة « أرامكو » الخليجية طلبت - عن طريق أحد الوسطاء - شراء حق التأليف وطبع البحث لحسابها . ورغم أن العرض كان مغرياً فإن بعض المخلصين من معارفى نصحونى بعدم الموافقة ؛ لأن بيع حق التأليف سيقطع صلتى بالبحث تماماً ، ولن أستطيع طبعه أو التصرف فيه مستقبلاً .

ومن ذلك الوقت - صيف ١٩٧٤ - ظل البحث حبيس « مكتبتى » إلا نسخاً نادرة جداً كانت باقية من لجنة المناقشة وكنت قد أهديتها لبعض الأصدقاء . والآن .. قد قيَّض اللّه لطبعه ونشره « مكتبة وهبة » التى نذرت نفسها لخدمة الدعوة الإسلامية أكثر من نصف قرن ، وتخصصت فى نشر الأعمال الجادة الهادفة ، وتبنت الكلمة الصادقة والهادئة والرزينة .. شكر اللّه لصحابها الأستاذ « وهبة حسن وهبة » الذى بذل من جهده وماله لإخراج هذا العمل من الظلام إلى النور ، فجزاه اللّه عن العلم وأهله خير الجزاء .

* * *

وفى هذه المقدمة يحسن بنا أن نشير إلى عدة حقائق تتعلق بهذا العمل الذى لم نزد به إلا وجه اللّه الكريم والإسهام فى خدمة كتابه المعجز أبد الدهر :

أولاً : أن هذا النص المنشور - هنا - هو نفس النص الذى تمت مناقشته منذ ثمانية عشر عاماً ، بلا حذف ولا إضافة ؛ لأن هيئة المناقشة لم تبد عليه ملاحظات جوهرية تقتضى حذفاً أو إضافة . وذلك من فضل ربى ذى الجلال والإكرام .

ثانياً : لم نشر فى هذه المقدمة إلى منهج البحث وثماره التى أسفر عنها وأقرها أساتذتنا المناقشون رحمهم اللّه ، لأننا أوجزنا الحديث عن ذلك فى المقدمة التالية التى كانت قد أُعِدت لتلاوتها على جمهور مشاهدى المناقشة .

ثالثاً : الاسم العلمى لهذا البحث المسجَّل فى الوثائق الرسمية هو : « خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية » وعند صدور هذه الطبعة « الأولى » اقترح علينا الناشر الأستاذ « وهبة حسن وهبة » أن يكون العنوان هكذا :

« خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية »

فبادرنا إلى الموافقة . وليس بين العنوانين فرق قط من حيث المعنى سوى فرق لفظى طفيف صار به « الثانى » أوجز من « الأول » مع وحدة المعنى .

رابعاً : إن عنوان هذا البحث وإن لم يشر أية إشارة إلى قضية الإعجاز فإنه - أعنى البحث - تطبيق عملى موضوعى للكشف عن سر الإعجاز فى القرآن الكريم على المذهب المختار من مذاهب جهات الإعجاز فى القرآن الكريم .

فقد تباينت وجهات النظر قديماً وحديثاً حول : بِمَ كان القرآن مُعْجِزاً ؟ صال العلماء وجالوا قديماً حول معرفة وجوه الإعجاز .

وحديثاً أضاف الباحثون مذاهب عدَّة إلى مذاهب العلماء ، ومن أبرز ما قاله المحدَثون أنَّ فى القرآن - بالإضافة إلى وجوه الإعجاز عند القدماء - إعجازاً آخر فى مجال الكشوف العلمية ، وفى مجال التشريع ، وفى مجال العلوم الإنسانية كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس .. إلخ .

ومع تسليمنا بصدق ما يقوله المحدَثون فإن أمامنا حقيقة يجب أن نبرزها بكل وضوح .. وهى :

إنَّ القرآن صالح لأنواع عدة من الإعجاز كالإعجاز العلمى الكونى ، والإعجاز التشريعى . ولكن الإعجاز الذى وقع به التحدى فى عصر الرسالة ، لم يكن إعجازاً علمياً وتشريعياً ، أو تاريخياً أو غيبياً ، بل كان محصوراً فى جهة واحدة هى الإعجاز البيانى البلاغى المتمثل فى أسلوب القرآن ونظمه وتراكيبه اللغوية . فالعرب الذين تحداهم اللّه تعالى بأن يأتوا بمثل كتابه - سورة أو سورتين أو عشر - لم يكونوا مشرِّعين ولا أطباء ولا كيماويين ، ولا مؤرخين ، بل كانوا مضرب المثل فى الفصاحة والبلاغة وإحكام البيان ، لذلك تحداهم اللّه من جهة هم فيها ضالعون . وهذا أظهر للعجز ، وأمكن لقيام الحُجَّة عليهم حيث زعموا أنَّ القرآن كلام بَشر . فما الذى يمنعهم وهم بَشر من أن يأتوا بمثله ؟ مع شدة حاجتهم للإتيان بمثله ؟

هذا هو الإعجاز الذى وقع به التحدى وترتب عليه العجز من جهتهم وصدق الرسالة من جهة صاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم . وإذا تقرر هذا فإنَّ موضوع هذا البحث يدور حول تجلية كثير من خصائص النظم القرآنى ، وسمات بلاغته المعجزة التى أعجزت الجن والإنس .

وقد سلكنا فى ذلك مسلكاً حمدنا اللّه تعالى عليه . وسيلم القارئ عند مطالعته للمقدمة التالية بأصول المنهج ، وسيقف على كثير من التفاصيل والشروح عند مطالعته أبواب وفصول هذا الكتاب ، وإنى لعلى الرحب والسعة أن أتلقى ملاحظات أهل العلم ، وأعدهم بأنى سأعمل بها إن قُدِّرَ لهذا الكتاب أن يُطبع مرة ثانية وأنا على قيد الحياة . والحمد للّه فى الأولى والآخرة .

البلد الطيب الأمين : مكة المكرمة . حى العزيزية ..

عصر السبت ١٢ من شهر ربيع الثانى ١٤١٢ هـ الموافق (١٩ من أكتوبر ١٩٩١ م) .

عبد العظيم بن إبراهيم المطعنى

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

القرآن الكريم هو معجزة الخلود ، بل هو المعجزة الفريدة التى لم يُعرف لها مثيل ، وهو معجزة خالدة فريدة لأنه لم يتقيد بما قُيِّدت به غيره من المعجزات ، من ظهورها فى لحظة معينة تتاح خلالها مشاهدتها لمعاصريها فتؤدى وظيفتها فيهم بما تحمل من الخوارق وتعيها - بعد - الذاكرة ، ويظل سلطانها قوياً على النفوس ما دام مَن شاهدوها أحياء صالحين لتحملها وروايتها لمن لم يحظ بتلك المشاهدة من الأجيال . أمناء فى نقلها وصدق الإحساس بعظمة مدلولها : صدقاً يبدو من جدية الحديث ، أو استقامة السلوك ، أو رهبة الموقف وجلال الأثر .

فإذا لبثت المعجزة عمراً ذهب خلاله مَن كان حياً من مشاهديها . وأغمض الموت أعيناً كانت قد شاهدتها . وفَنِىَ مَنْ فَنِىَ مِمَّن سمعوها عنهم مشافهة فإنها حينئذ تصبح واقعة من وقائع التاريخ ، لا ينكرها مَن آمن بمصدرها لأنه يثبت له قدرة ليست ذات حدود . أما لدد الخصوم ، فإنَّ لهم جرأة حمقاء تحملهم على إنكارها ونفيها ، ما دامت لم تقع تحت حاسة يمكن عن طريقها إدراكها وفحصها.

فقد فلق موسى عليه السلام البحر بعصاه - هذا حق - وقد أحيا عيسى عليه السلام الميت بإذن ربه - وهذا حق كذلك - ولكن كم من المعاندين رفضوا كل ذلك ، وغير ذلك مما تقدَّم عليه فى الرسالات السابقة . وهم لا يعدمون شُبهة يتمسكون بها ، لأنهم لو ذهبوا إلى البحر الذى فلقه موسى عليه السلام لوجدوه

ملتئماً . ولأن مَن أحياه عيسى عليه السلام بإذن ربه ، قد مات مرة أخرى . وحتى معجزات الإسلام غير القرآن - كالإسراء والمعراج - لهم فى رفضها شُبَه وأحاييل .

* * *

أما القرآن الكريم فإنه معجزة خالدة لأنها مستمرة لا تنقطع ، مشرقة لا تغرب وإن غربت الشمس ، لامعة لا تأفل وإن أفلت النجوم . باقية لا تذهب وإن ذهب الكون . ليس من سبيل لإنكارها ؛ لأنها مرئية بالبصر ، ومسموعة بالأذن ، وملموسة باليد . وتلك روافد هذه المعجزة إلى الإحساس المفضى بالتسليم والإذعان ، المؤدى إلى التصديق والإيمان ، المقنع للعقول والممتع للعواطف .

ومن هنا كان اهتمام العلماء والدارسين فى كل عصر ومصر بالقرآن الكريم ، حفظاً ودراسة ، وبحثاً واستنتاجاً . فللفقهاء والأصوليين والمشرِّعين فيه أهداف ، ولهم إليها طريقة ومنهج ، وللفلاسفة والمتكلمين فيه أهداف ، ولهم إليها طريقة ومنهج ، وللغويين فيه أهداف ، ولهم إليها - كذلك - شِرعة ووسيلة . وللبيانيين فيه أهداف ، ولهم إليها طريقة ومنهج ، ولغير هؤلاء من طُلاَّب العلم والدرس أهداف ومناهج . وعلى كثرة ما كتبه الكاتبون حول القرآن ، ويخصنا هنا الجانب البيانى ، فإنَّ القرآن ما زال - وسيظل - جديداً فيه لكل دارس مجال ، ولكل باحث مقال .

ولما كان القرآن هو معجزة الإسلام . وإعجازه - فى المختار - راجع إلى بيانه وأدبه ، وبلاغته وفصاحته ، وأسلوبه ونظمه . فإنَّ الحاجة فى هذا العصر الذى يتسم بالتنكر لحقائق الإيمان ، والتمرد على سلطان الدين - تصبح ماسة إلى ما يساعد على جلاء تلك المعجزة ، وتقريبها إلى الأفهام .

ومن هنا كان اختيارى لهذا الموضوع « **خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية** » . على أن يكون خطوة على الطريق . وتجربة قابلة للتوجيه والتقويم . وبدهى أننى لم أبدأ من فراغ ، ولذلك فإننى استفدتُ

كثيراً من كتابات السابقين قدماء ومحدَثين . كما أننى أفرغت ما أملك من جهد ، واستنفدت ما أجد من طاقة فى التأمل والنظر فى ما درستُ من نصوص قرآنية لم أجد لسابق فيها توجيهاً ، أو وجدتُ ولكن لم يبلغ مرحلة الإقناع .

وإن كان هناك فَرق بين هذا البحث المتواضع ، وبين ما سبقه من بحوث . فإنه يهتم بالناحية الموضوعية غالباً . ولم يكتف بمجرد التمثيل على فن بلاغى ، أو ملحظ بيانى كما صنع جُلّة الكاتبين إلا ندرة منهم ، ويَهتم هذا البحث كذلك بتتبع الظاهرة البيانية فى القرآن مع سوق الدليل عليها ، ولم يكتف بمجرد التعميم والوصف دون لفت النظر إلى الحقيقة المدروسة وتحديدها وإقامة الدليل عليها . وكثير من الكاتبين يهملون هذا الجانب كالقاضى أبى بكر الباقلانى من القدماء فى كتابه « إعجاز القرآن » ، وكمصطفى صادق الرافعى من المحدَثين فى كتابه « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » .

ومن أبرز ما يهتم به هذا البحث الاعتماد على القرآن نفسه فى استنتاج ما أمكن استنتاجه . بالنظر فى طُرق الصياغة ، وبالرجوع إلى أسباب النزول ، وبالوقوف على السابق واللاحق نزولاً ، وبالتفريق بين ما هو مكى وما هو مدنى ، وبقرائن الأحوال ومقتضيات المقامات ، ثم بالرجوع إلى الدلالات اللغوية لألفاظه من حيث اللغة فى نفسها ، ومن حيث وجودها فى سياق معيَّن . وسيرى القارئ أن هذا الطابع هو الغالب على وسيلة الدرس فى هذا البحث فى كثير من موضوعاته .

* * *

ولعلك تسأل الآن عن الخُطة التى اتبعت فى هذا العمل . وأنا أستأذنك لأختلس من وقتك قليلاً فى بيان تلك الخُطة ، وهى فى إيجاز جاءت على الصورة الآتية :

الباب الأول : مدخل إلى البحث . وتحته فصلان . الأول : وظيفة التعبير اللغوى وتطورها . وقد درستُ فيه كثيراً من المسائل كتعريف التعبير اللغوى

والحاجة الداعية إليه ، وأنواعه وخصائصه ومراحل تكوينه وعناصره وفائدته . وانتهيتُ من هذا كله إلى أن اللغة لم تقف عند الجانب النقلى للأفكار من متكلم إلى سامع . بل لها وظيفة جمالية إمتاعية غير وظيفتها العملية النفعية . تبرز أولاهما فى لغة الآداب والفنون الرفيعة وتكون اللغة - حينئذ - فى أسمى مظاهرها .

وقد تأتى وظيفة اللغة فى غير هاتين فلا يُراد بها النقل ولا الإمتاع . كما فى عبارات الترويح عن النفس ، وعبارات التحية والتأسف ، وكما فى « المنولوج » (١) .

وكان هدفى من هذا الفصل معرفة ما به تسمو وظيفة اللغة . ومنها الوجوه البلاغية التى هى محور الدراسة فى هذا البحث .

لذلك جاء الفصل الثانى من المدخل : الوجوه البلاغية وقيمتها فى جمال التعبير . وأوجزتُ فيه القول عن البلاغة الفنية فى عصورها الأولى - الجاهلى والإسلامى والأموى والعباسى - وأبنتُ كيف نشأت توأماً مع النقد توجهه وتعضده . وبيَّنت دور النقد فى تكوين الملاحظات البلاغية حتى انفصلا فى كتاب « البديع » لابن المعتز ، وأبنتُ قيمة هذا الكتاب . كما تعرضتُ لجهود بعض البلاغيين من بعده كقدامه بن جعفر وأبى هلال العسكرى وابن طباطبا ؛ لأضرب مثلاً بأصالة البلاغة فى النقد والتوجيه . كما ذكرتُ دور البلاغة العربية فى قضايا النقد الكبرى ومنها الصراع بين القديم والجديد ، والطبع والصنعة . ومنها نقد الموازنات بين نصَّين اتحدا موضوعاً واختلفا شكلاً . ومنها قضية الإعجاز التى شغلت العلماء على مختلف مناهجهم ومشاربهم . كما كان لها دور كبير فى قضية اللفظ والمعنى .

---

(١) حديث النفس .

كما أوضحتُ دور البلاغة فى التشريع للعمل الأدبى لفظاً ومعنى . وكان هدفى من ذلك أنَّ بلاغتنا العربية ذات شأن عظيم فى توجيه الأدب ونقده ، وأنَّ مراعاتها تسمو بالأسلوب حتى لا تكون هناك درجة يمكن أن يقصر دونها ، فلا وجه إذن للطعن فيها والتقليل من شأنها ، ثم تتويج ذلك كله بإشارة القرآن الكريم إلى فضل القول البليغ ، ممثلة فى إحدى آيه الكريمة .

كان ذلك هو دور المدخل .. أما موضوع البحث فقد جاء فى أربعة أبواب وثلاثة عشر فصلاً . الباب الأول - هو الباب الثانى من جملة البحث - ترجمت له بـ : « خصائص التعبير فى القرآن الكريم » . وتحته أربعة فصول :

الفصل الأول : فى الإعجاز التشريعى والعلمى . ورددتُ فى مطلع هذا الفصل على شُبهة الصرفة .. بيَّنتُ المراد منها وفندتها تفنيداً لا يُبقى لها على أثر . كما تعرضتُ لقضية المعارضات ، ولم أنسق مع القائلين بنفيها أساساً، وخلصتُ من ذلك إلى أنَّ التسليم بوجود المعارضات يخدم قضية الإعجاز .

أما الإعجاز التشريعى والعلمى .. فلم أذكرهما على أنهما من الإعجاز المقصود بالتحدى ، فهما وإن كان فيهما إعجاز فليسا بمرادين لله حين تحدى العرب بالقرآن . واتخذتُ من ذلك وسيلة للحديث عن الإعجاز البيانى الأدبى . وكان ذلك هو موضوع الفصل الثانى . وقد عرضتُ فيه آراء مَن وضعوا فى الإعجاز مؤلفات قديماً وحديثاً ، مناقشاً لكل رأى موافقاً ومخالفاً . فمن الأقدمين عرضتُ آراء الواسطى والخطابى والرمانى والباقلانى وعبد القاهر الجرجانى ... ومن المحدَثين عرضتُ آراء الرافعى ودراز والزرقانى وعبد الكريم الخطيب وأبى زهرة وبنت الشاطئ . ثم اتبعتُ ذلك بآراء منثورة فى الإعجاز للقدماء والمحدَثين وخلصتُ فى النهاية إلى أنَّ الإعجاز المقصود لله - سبحانه - إنما هو الإعجاز البيانى الأدبى بما تحمل هاتان الكلمتان من بيان وأدب . وفى كل ذلك لم أترك رأياً إلا ناقشته نقاشاً موضوعياً هادفاً ذاكراً لكل ذى فضل فضله .

والفصل الثالث سميته « خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ » .

ودرستُ فيه خمس خصائص : فواتح السور - الفواصل - اللفظ القرآنى - النغم الصوتى - التكرار . ففى مجال الفواتح كانت الخلاصة أنَّ ذلك إشارة واضحة للإعجاز البيانى الأدبى . وفى مجال الفواصل هُديتُ للفروق بين فواصل الآى الطويلة وفواصل الآى القصيرة ، ولم أر أحداً تنبه إلى هذه الفروق ، وفى مجال اللفظ فإنَّ ظاهرة الترادف تكاد تكون معدومة فى لغة القرآن فلكل لفظ موضع ودلالة . والقرآن يدعو إلى اختيار الألفاظ فى آيتين من آياته ذكرناهما مع التوجيه . وفى مجال النغم الصوتى فإنَّ القرآن يمتاز بخاصة صوتية فريدة كفلتها حروفه ، وحركاته وسكناته ، وجمله وأسلوبه - سواء المرسل منه والمسجوع - ومع هذا فإنَّ القرآن ليس فيه موضع واحد يُصار فيه إلى حلية اللفظ أو الصوت دون أن يكون هناك معنى اقتضى هذا العمل . فهما متعانقان. لذلك ترى طائفة من الآيات مقسَّمة إلى مجموعات ، كل مجموعة تنتهى بفاصلة متحدة ، ثم تأتى آية فاصلتها مختلفة عما قبلها وعما بعدها مع اتحاد فواصل ما بعدها وذلك كالآيات : ﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ .. ﴾ (١) إلى آخر سورة عبس . فإن آية : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ (٢) تفصل ما قبلها عما بعدها وفاصلتها فى نفسها مختلفة عن جاراتها . وذلك لأنها رأس موضوع جديد مؤذنة به مشروحاً فيما تلاها . أما من حيث التكرار فقد أثبتُ بالدليل أنَّ ما جاء فى القرآن مكرراً إنما هو صنع حكيم . وسردتُ أمثلة موجَّهة من تكرار الأداة ، أو الكلمة ، كما تعرضتُ للتكرار فى القصة واخترتُ نموذجاً لذلك قصة آدم عليه السلام . ذكرتُ كل نصوصها فى القرآن ، ودرستها دراسة مقارنة أحسبها فريدة فيما يبدو . وبيَّنت عناصر القصة فى كل نص . ثم جمعتُ العناصر المشتركة فى كل النصوص وتحدثتُ عنها . ثم العناصر المشتركة فى مجموعة دون أخرى

---

(١) عبس : ١٧ (٢) عبس : ٢٤

وتحدثتُ عنها كذلك . ثم الملامح الخاصة بكل نص . وكانت النتيجة أنَّ سياق كل نص قد اقتضاه ، وأنه ما من نص منها إلا اشتمل على جديد لم يرد فى غيره ولو كان هذا النص آية واحدة كما فى آية الكهف ، وبذلك بان للباحث نفى الفضول عما ورد فى القرآن مكرراً . بل هو سر من أسرار إعجازه .

والفصل الرابع . ترجمت له بـ « خصائص يغلب عليها جانب المعانى » . ودرستُ فيه كذلك خمس خصائص : ثراء معانى القرآن - دقة النظم - اختلاف الأغراض - الإقناع والإمتاع - التصوير والتشخيص .

ففى مجال ثراء المعانى أوضحتُ أنَّ القرآن قد يستعمل اللفظ الواحد فى ما يقرب من عشرين معنى كلفظى : « الهدى » و « السوء » ، وقد يوضع اللفظ الواحد ويراد به معان متعددة دون تعدد اللفظ ككلمة « حساب » فى قوله تعالى: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) ، وأوضحت أنَّ تلك المعانى المرادة لا تتنافى مع طبيعة اللغة ولا مع مقاصد الشرع ، فهى إذن فضيلة بيانية مطلوبة . كما بيَّنتُ دور القراءات وجمل القرآن فى ثراء معانيه وتعدد جهات فهمه ، وفى مجال دقة النظم ذكرتُ بعض ما قاله العلماء قدماء ومعاصرين ، وخطوتُ بمثال عندهم خطوة أخرى إلى الأمام . وهو آية المحرَّمات من النساء وهى آية لا مجال فى مثلها للإبداع المجازى وغيره ، ومع هذا فقد اشتملت على أسرار آسرة ، كما حلَّلت سورة الغاشية تحليلاً شاملاً بيَّنتُ فيه جهات الترابط الوثيق بين معانى تلك السورة . كما قمتُ بعمل جديد هو البحث عن العلاقة بين سورة وبين جارتيها فى المصحف وبين جارتيها فى النزول ، تلك السورة هى « الكوثر » ، وقد أسفرت التجربة عن وجود روابط قوية بين السورة وما تقدَّم عليها وما تأخَّر عنها فى المصحف ، وما تقدَّم وما تأخَّر عنها فى النزول ، وبذلك تبدو وحدة النسج بين سور القرآن وكلماته على أى وجه طُلِبت تلك الوحدة .

---

(١) البقرة : ٢١٢

وفى مجال اختلاف الأغراض فإنَّ القرآن يمزج المقاصد مزجاً قوياً مؤلفاً بينها برباط آسر ، ولم يقتضب فى موضع فيه القول اقتضاباً ، ولا حُجَّة لمن قال بهذا كالعز بن عبد السلام ، والغانمى . وقد أثبتُ فى ما ذكرتُ من نصوص قوة الربط بين جمل وفقرات القرآن كما وضح فى الخاصة السابقة . كما ذكرتُ العِلَّة فى هذا الصنع الحكيم من تيسير القرآن للعظة والانتفاع . والهداية والتوجيه . وفى مجال الإقناع والإمتاع فإنَّ القرآن يخاطب العقل ويمتع العاطفة فى أسلوب واحد ومقام واحد ، جامعاً بين مقصدين يعزان على طالبهما ، ولو كان ذلك فى تقرير حقيقة كونية ، أو بيان حكم شرعى . فليس هناك موضع فيه مطلوب من ورائه موقف تأثيرى عند السامعين - أمراً أو نهياً - إلا تجد القرآن يخاطب به كل حاسة مدركة من حواس الإنسان : العقل والعاطفة ، والنفس والوجدان .

وقد بينتُ هذه الطريقة فى كثير من المقاصد القرآنية كالتشريع والجدل .. وخاصة فى قضيتى التوحيد والبعث .

أما التصوير والتشخيص فإنَّ القرآن فيها يمنح الجمادات حياة والمعدوم وجوداً؛ فالليل يعسعس ، والصبح يتنفس ، والدعاء له طول وعرض .. إلى آخر هذه الصورة الخلاَّبة . وتلك سمة بارزة فى أسلوب القرآن وظيفتها التوضيح والبيان ، كما لا تخلو من الإمتاع والإقناع ، إذ الفصل بين هذه السمات أو الخصائص إنما هو نسبى ، وحقيقة التعبير القرآن أنه مَجْمَعُ أشعة يأتيك من كل ناحية أبصرته منها شعاع وضياء .

والباب الثالث .. وقفته على دراسة بعض فروع علم المعانى فى القرآن الكريم، وتحته ثلاثة فصول . الأول : من أسرار الحذف ، وتتبعتُ فيه مظاهر الحذف المختلفة من حذف الحرف ، إلى حذف الكلمة سواء أكانت مبتدأً أو خبراً ، أو مفعولاً أو فاعلاً ، أو موصوفاً أو صفة ، أو حالاً أو تمييزاً . وذكرتُ ضابطاً جديداً لحذف الحرف فى القرآن كأن يُحذف ويبقى أثره . أو يُعتبر الحرف محذوفاً لوروده فى موضع مماثل مذكوراً ، وأثبتُّ سر ذلك كله . كما تحدثتُ عن حذف الجملة وحذف الفقرات ، وأثبتُّ بالدليل أنَّ الحذف فيه يؤدى إلى فخامة العبارة

ولا يؤدى إلى الغموض . وأنه أبلغ من الذكر فى موضعه ، ولم يُصر إليه لهدف بلاغى أصيل . كما أثبتُّ أنَّ الحذف فى الفقرات يحكمه إما ترتيب زمنى بين المذكور والمحذوف وإما ترابط طبيعى بينهما . فهو إذن بلاغة آسرة ، وليس تعسفاً وجرأة معيبة . وفضلاً عن بيان أسرار الحذف تحدثتُ عن منهج البلاغيين فيه ، وبيَّنتُ اهتمامهم ببعض المواضع دون بعض ، كما تحدثتُ عن طريقة ابن الأثير . ورددتُ - بالدليل - أن يكون مجرد الإختصار أو رعاية الفاصلة وحدهما سبباً فى حذف ما يُحذف ، وخرَّجت مواضع أرجعوا الحذف فيها إليهما على غير الوجه الذى ذكروه ، مما ظننته أولى من صنعهم . كحذف المفعول فى قوله تعالى : ﴿ أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ (١) ، وكحذفه أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

كما ذكرتُ قانون الحذف الذى نصَّ عليه السيوطى فى كتاب له نُشِر لأول مرة (٣) ، وناقشتُ هذا القانون وذكرتُ فى النهاية أنَّ الحذف فى القرآن يخضع لسمتين بارزتين .. أولاهما : دليل قوى يدل على المحذوف . بل ويعينه - أحياناً - وثانيتهما : داع بلاغى اقتضى ذلك الحذف . وبهذا كان الحذف فى القرآن فى جميع مظاهره ومواضعه - بلاغة - فَخُمَ معه المعنى وحَسُنَ اللفظ . وكم من الإبهام والغموض نتج عن الحذف خارج دائرة القرآن . وضربتُ لذلك أمثلة مع شهادة النقَّاد أنفسهم .

والفصل الثانى .. درستُ فيه التقديم فى القرآن من خلال أربعة مناهج : منهج البلاغيين ، ومنهج شمس الدين بن الصائغ الحنفى ، ومنهج ابن الأثير ، ثم منهج المفسرين ممثلاً فى كشاف الزمخشرى وتفسير أبى السعود . وناقشتُ كل منهج على حدة مبيناً محاسن كل ، ومشيراً إلى القصور إن وجد ، وعقدتُ مقارنة بين

---

(١) الفرقان : ٤١ (٢) الأعراف : ١٤٣

(٣) معترك الأقران فى إعجاز القرآن . وسيأتى التعريف به .

منهجى البلاغيين وابن الصائغ ذاكراً الفروق بينهما ، مسجلاً لكل ذى فضل فضله ، وبيَّنتُ نواحى القصور فى كل منهما . وكذلك بيَّنتُ غلو ابن الأثير - أحياناً - فى تفسيره لأسرار التقديم على غير المقبول مع أنَّ النصوص التى ذكرها لا اختلاف بينها يؤذن باختلاف توجيهها بلاغياً .

أما الفصل الثالث .. فقد درستُ فيه نوعاً جديداً من التقديم أطلقتُ عليه : التقديم غير الاصطلاحى ، أو : اختلاف النظم فى العبارات ذات المدلول الواحد . وقد عرَّفته وذكرتُ الفرق بينه وبين التقديم الاصطلاحى . الذى عنى به البلاغيون عناية فائقة . كما نبهتُ فى مطلع هذا الفصل على نوع ثالث من التقديم اهتم به المفسرون وابن الصائغ .

والتقديم غير الاصطلاحى سمة خاصة بأسلوب القرآن ، وقد جمعتُ من أمثلته عشرين نصاً اختلفت الصياغة فى كل نصين متقابلين منها أو أكثر ، واتحد أصل المعنى . مثل : ﴿ قُلْ إنَّ هُدَى اللَّه هُوَ الهُدَىٰ ﴾ (١) مع قوله تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ الهُدَىٰ هُدَى اللَّه ﴾ (٢) .. حيث قدَّم « هُدَى اللَّه » فى الأولى واختلف الوضع فى الآية الثانية فقدَّم « الهدى » على « هُدَى اللَّه » .

هذا النوع من التقديم لم يهتم به أحد ، لا البلاغيون ، ولا المفسرون . اللّهم إلا ندرة يسيرة من التوجيهات ، يغلب عليها طابع التعميم قال بها جماعة من العلماء والمفسِّرين ، وهى لا تُفسِّر الظاهرة ولا تقنع الباحث . وقد أفرغتُ جهدى فى هذا الفصل مستعيناً بإطالة النظر والتأمل . معتمداً على أسباب النزول والسابق واللاحق وأحوال البيئتين المكية والمدنية . وقد انتهيتُ من هذا كله إلى نتائج أطمع أن أُوافَق عليها . وحسبى أنها تجربة ، خاضعة للتوجيه والأخذ والرد . على أنى بعد الفراغ من توجيه تلك المواضع العشرين عثرتُ على كتاب للخطيب الإسكافى عرَّفت به فى موضعه . وفى هذا الكتاب حديث عن بعض

---

(١) الأنعام : ٧١ (٢) آل عمران : ٧٣

تلك النصوص المتقابلة ، وعند الوقوف على آرائه فيها لم أغيِّر مما كنتُ قد هداني النظر إليه ، واكتفيتُ بذكر رأيه فى نهاية حديثى عن كل موضوع وجدتُ له فيه تعليلاً ، كما نبهتُ إلى إغفاله بعض الموضوعات التى درستها. وهذا الفصل أحسبه من الجديد الذى جاء به هذا البحث .

أما الباب الرابع .. فقد جعلته : سحر البيان فى القرآن الكريم . وجاء فى ثلاثة فصول ..

الفصل الأول : درستُ فيه التشبيه والتمثيل دراسة تقرب من الاستقصاء وقسَّمتُ فيه التشبيه والتمثيل إلى مجموعات :

المجموعة الأولى : فى شأن الكافرين وتحتها أربعة فروع : ضلال المعتقد - ضعف المعتقد - بطلان الأعمال - سوء المصير .

والمجموعة الثانية : فى شأن المؤمنين . وتحت هذه المجموعة غرضان رئيسيان تحت كل منهما صور مختلفة وهما :

الترغيب : سواء أكان فى عقيدة ، أو سلوك ، أو حسن مصير .

والثانى - الترهيب : سواء أكان من عقيدة ، أو سلوك ، أو سوء مصير .

والمجموعة الثالثة : فى مظاهر القُدرة الإلٰهية .

والرابعة : باقة من الزهور . درستُ فيها نصوصاً كثيرة

وفى كل هذه لم آل جهداً فى بيان قيمة التشبيه والتمثيل فى القرآن ، والصور الأدبية التى تشع منها متحدثاً عن خصائص كل مجموعة منها يجمعها غرض واحد ، مبيِّناً دور التشبيه والتمثيل القرآنى بيانياً ودينياً . وقد أتبعتُ هذا كله بحصر لما رأيته من خصائص التشبيه والتمثيل القرآنى ونبَّهتُ فى أثناء الدراسة إلى بعض الأخطاء التى وقع فيها بعض المعاصرين داعماً ما ذهبتُ إليه بالدليل .

على أنَّ من أهم مباحث هذا الفصل ، وهو مما أطمع أن يكون جديداً كذلك هو نوع من التشبيه لا وجود له خارج القرآن ، وقد سميتُه : التشبيه السلبى ،

وذكرتُ نصوصه وعرَّفته وبيَّنتُ لماذا كان هذا النوع من أخص خصائص القرآن . ووجهّتُ ذلك توجيهاً مستمداً من طبيعة الظاهرة نفسها . وفصل التشبيه بعامة أرجو أن أكون وُفِّقتُ فى دراسته على نفس الصورة التى ورد عليها ، والتى أظن أنها يمكن أن تأخذ بعض ملامح الجديد .

والفصلان الثانى والثالث .. درستُ فيهما المجاز القرآنى فى صوره المختلفة مع التركيز على الاستعارة.وإنما جعلتهما فصلين ؛ لأن الثانى درستُ فيه المجاز من خلال نص « مختار » من سورة البقرة ، والثالث درستُ فيه المجاز من خلال نص « مختار » من سورة الأعراف . ومنهج البحث فى الفصلين واحد حيث درستُ الكلمة المستعملة مجازاً فيهما فى كل صورها فى القرآن ، وبعد جمع تلك الصور قمت بالنظر فيها لأوجه مجازها ثم أتبع كل مادة درستها بما لاحظته على استعمالها فى القرآن . وقد درستُ فى هذين النصين مواد متعددة على سبيل الاستقراء التام لمواضعها فى القرآن - فيما عدا مادتين اكتفيتُ ببعض أمثلتهما لورودهما كثيراً كثرة يصعب معها ذكر كل نصوصهما فى بحث كهذا . على أنَّ ما ذكرته منها كاف لإيضاح منهج القرآن فيهما ، وهما : « تبع »، و « أخذ » .

ومن أهم النتائج التى أسفرت عنها الدراسة فى هذين الفصلين أنَّ القرآن الكريم يستخدم كل مادة على منهج معيَّن ، ولاعتبارات دقيقة . ثم يلتزم هذا المنهج فى جميع صور المادة ، وذلك الإلتزام يكون فى المجاز - مثلاً - أو المدح ، أو الذم ، أو غير هذه جميعاً فمثلاً : مادة « ذاق » . لم ترد فى القرآن إلا مجازاً استعارياً ، ولم ترد - كذلك - إلا فى مواضع المخالفة والمؤاخذة . مثل: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ (١) .

ومادة « ختم » يستخدمها القرآن إذا كانت « فعلاً » فى مواضع الذم والتهديد ، وإذا كانت « اسماً » يستخدمها فى مقام المدح والترغيب . الأول

(١) القمر : ٤٨

مثل : ﴿ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ (١) ، والثانى مثل : ﴿ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ (٢) .

ومادة « مرض » يستخدمها « فعلاً » استخداماً مجازياً استعارياً ، وتختص حينئذ بمواضع الذم إلا فى موضع واحد وردت فيه - فعلاً - محتملة للحقيقة والمجاز وذلك هو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٣) .. أما إذا كانت « اسماً مفرداً » أو « مثنى » أو « مجموعاً » فإنه يستخدمها إستخداماً « حقيقياً » لا مجازياً وتختص حينئذ بمواضع التشريع ، وهكذا تجد كل مادة فى القرآن لها قاعدة وقانون . وهذا شجعنى على أن أقترح أن نسمى هذا المنهج البيانى الآسر بـ « منهج الالتزام » (٤) وقد أشرقت بوادر هذه النظرية عند دراستنا لألفاظ القرآن فى الباب السابق . وستطالعك فى غضون البحث عنوانات ربما بدت غريبة فى أول الأمر مثل : « الأب ليس والداً - النعمة ليست نعيماً - المرأة ليست زوجاً » .

وسوف تزول تلك الغرابة عندما نقف على النصوص القرآنية التى نُسلِّم من تأملها بصحة تلك العنوانات وغيرها مما لم نذكره هنا .

لتلك الاعتبارات - جميعاً - فإنى أطمع فى اتفاقك معى على « نظرية الالتزام » فإن شرفتُ بذلك ، فتلك مِنَّة من الله .

وقد أثبتُّ - بعد - ما بان لى من خصائص المجاز القرآنى ، وسماته التى تميِّزه من أساليب الناس .

أما الباب الخامس .. فقد وقفته على دراسة « البديع » فى القرآن ، ووزعته فى ثلاثة فصول :

الأول : درستُ فيه بعض المحسِّنات المعنوية ، كالطباق والتورية . والثانى : درستُ فيه بعض المحسِّنات اللفظية ، كالجُناس والمشاكلة . وكان هدفى من هذين

---

(١) يس : ٦٥ (٢) المطففين : ٢٥ - ٢٦ (٣) الشعراء : ٨٠ .

(٤) هذه نظرية بالنسبة لمنهج البحث . أما فى الواقع النصى للقرآن فهى منهج بيانى أصيل .

الفصلين التدليل على أصالة « البديع » فى القرآن سواء المعنوى واللفظى منه ، وقد تبيّن من الدراسة أنّ أصالة « البديع » القرآنى قد أخرجته من كونه حلى للمعنى أو اللفظ تأتى بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، إلى كونه قريباً من ذلك المقتضى إن لم يكن منه . وقد استشهدتُ فى بعض المواضع بآراء مَن سبقوا من علماء البلاغة ، الذين لهم فيها قدم راسخة .

أما الفصل الثالث .. فقد درستُ فيه « البديع » معانى وألفاظاً من خلال ثلاثة نصوص قرآنية حللّتُ كل ما بدا لى من صور « البديع » فيها ، وقمتُ بإحصاء شامل لمظاهر « البديع » التى وردت فى تلك النصوص فبلغت - بعد حذف المكرر منها - واحداً وأربعين نوعاً ، فإذا علمنا أنّ تلك النصوص الثلاثة لم تزد فى جملتها على خمس آيات فإنّ مقابلة هذين الرقمين تفيد أنّ الآيات الخمس قد حفلت بصور « البديع » وكثر هو فيها كثرة يُحَذِّر النقاد منها فى غير القرآن لأنهم يشترطون فى تناوله شرطين أساسيين هما :

١ - جريه مع الطبع .　　　　٢ - الإقلال منه .

وإنما فعلوا ذلك ليأمن الأديب الزلل . وهذان الشرطان سلم أحدهما فى القرآن الكريم وهو : جريه مع الطبع وعدم التكلف . أما الثانى فلا مفهوم له فيه ، ومع هذا فإنّ بديع القرآن بديع حقاً وَفَّى بحق اللفظ والمعنى . وذلك هو الفارق بين القرآن فى بيانه المعجز ، وبين غيره من الآداب الرفيعة .

ثم ذكرتُ نصوصاً للشعراء تناولوا فيها « البديع » فأصابوا وأخطأوا حتى المقلون منهم . حيث لم يكن الإقلال منه عاصماً لهم من الزلل . ولذا سيظل الفرق بين أدب القرآن وبين الآداب الأخرى كالفرق بين الصوت صادراً من مصدره الأصيل ، والصدى لا تلوى منه على شئ .

كما بيَّنتُ فى مطلع الباب خلط العلماء بين فنون « البديع » ، وبيَّنتُ السبب فيما ظهر لى ، وأوضحتُ فى نهايته إسرافهم فى أنواعه . والإعتدال كان أحوط .

وبهذا تنتهى أبواب وفصول هذا البحث واضعاً أمامك صورة تقريبية فى وصف كل باب وفصل . وبقيت - بعد - كلمة أخيرة عن المراجع والرجاء .

فمن حيث المراجع .. فقد رجعتُ إلى كل ما أمكن الاطلاع عليه مما يتصل بالموضوع من كتب التفسير ، واعتمدتُ منها على كشاف الزمخشرى وتفسير أبى السعود ، وهذا لم يمنع من الرجوع إلى غيرهما أحياناً . كما رجعتُ إلى مَن كتبوا فى الإعجاز قديماً وحديثاً حتى المقالات التى صدرت أثناء كتابة هذا البحث وأثناء مثوله للطبع ، كما رجعتُ إلى كتب البلاغة المختلفة ، وإلى كتب اللغة وغيرها . وقد بلغت جملتها ما يقرب من مائة وخمسين مرجعاً متباينة فيما بينها فى الأهمية من حيث صلتها بالموضوع . واستفدتُ - كذلك - من كتب النقد وقد وجُهتنى كثيراً . ولسهولة الوقوف عليها جملة وتفصيلاً أثبتها فى نهاية البحث مرتبة ترتيباً أبجدياً حسب أسمائها .

هذا جهد متواضع أضعه أمامك لتشجعنى على صواب ، أو ترشدنى إلى خطأ ، فإنَّ جلال كلام اللّه يجعل الثقات يضعون أيديهم على قلوبهم حين يتصدون لبيان شئ فيه ، وأين أنا منهم ؟ وما حملنى على الكتابة فيه - فوق ما قدمت - إلا حب أكنه لهذا البيان العالى ، وإلا عظمة وعزة وروعة يحسها فيه كل مَن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد . وحسبى أنى مجتهد ، والمجتهد لا يخلو من الأجر . أصاب أو أخطأ ، وفرق ما بين الأجرين فرق ما بين الصواب والخطأ . وكفى هذا البحث أن يكون بناناً تومئ من بعيد إلى تلك العظمة فى آفاقها ، وإنَّ البنان - على الإشارة - لأقدر من الباع على الإحاطة، وخير من عجز المحيط طاقة المشير .. و الحمد لله فى الأولى والآخرة .

﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ ﴾ [١] .

جمادى الأولى سنة ١٣٩٣ هـ (يونيو سنة ١٩٧٣ م) .

عبد العظيم إبراهيم محمد المطعنى

* * *

(١) آل عمران : ٨

الباب الأول

مدخل إلى البحث

- وظيفة التعبير اللغوى وتطورها .
- قيمة الوجوه البلاغية فى جمال التعبير اللغوى .

الفصل الأول

وظيفة التعبير اللغوى وتطورها

التعبير اللغوى أسمى أنواع التعبير ، وأوضحها فى الدلالة على المراد ، وأيسرها على المعبِّرين ، وهو الأصل فى الإبانة والكشف ، وبه تتفاوت الدلالات فى القوة والضعف ، والغموض والوضوح ، وبه تظهر الميزة بين قول وقول ، ومعنى ومعنى ، وهو أقدرها على تصوير المعانى الدقيقة ونقلها إلى السامعين .. وهو الذى يميِّز الإنسان بأسلوبه الراقى مما سواه من كائنات لها القُدرة على أن تطلق أصواتاً .

ومن هنا ساغ للمناطقة أن يعرِّفوا الإنسان بأنه حيوان ناطق . ويريدون بالنطق التفكير وهو لا يكون إلا بوساطة عبارات تكونه وتظهره . وقد فرَّق المشتغلون بالدراسات اللغوية بين التعبير عند الإنسان والتعبير عند الحيوان . بأنَّ اللغة عند الإنسان ذات مقاطع صالحة للدخول فى تراكيب تدل دلالة واضحة على معان كلية . أما لغة الحيوان فهى لغة انفعالية غرزية تتكون من أصوات طولية مصحوبة بحركات تدل على معان مبهمة لا تتضح إلا بالتكرار وهى غير صالحة للدخول فى تراكيب تدل على معان كلية واضحة .

فالتعبير الواضح الجميل خاصة من خصائص الإنسان الراقى . ولعل الآية الكريمة : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (١) تدل على هذا المعنى .

---

(١) الرحمن : ٤

وقد عرف المجتمع البَشرى - منذ بداوته - التعبير اللغوى ، لأنَّ الإفصاح عما يحول فى نفسه من معان وخيالات ضرورة من ضرورات حياته الجَماعية ، وللعلماء - قديماً وحديثاً - بحوث ونظريات حول « نشأة اللغة الإنسانية » والمراحل التى مرَّت بها حتى وصلت إلى مرحلة الكمال أو قربت منها .

* * *

● الآراء حول نشأة اللغة :

ويمكن إيجاز تلك البحوث فى أربعة اتجاهات :

الاتجاه الأول : مؤداه أن الفضل فى نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهى هبط على الإنسان وعلَّمه النطق وأسماء الأشياء . ومن أنصار هذا الاتجاه فى العصور القديمة الفيلسوف اليونانى « هيراكليت » ، وأحمد بن فارس فى كتابه « الصاحبى » [(١)] وابن جنى فى « الخصائص » [(٢)] .. وفى العصور الحديثة طائفة من المستشرقين على رأسها الأب لامى فى كتابه « فن الكلام » والفيلسوف « دبونالد » فى كتابه « التشريع القديم » [(٣)] وليس لهؤلاء دليل قوى يمكن الاعتداد به .

الاتجاه الثانى : وفحواه أن اللغة ابتدعت بالمواضعة والارتجال وقد ذهب إلى هذا الرأى الفيلسوف اليونانى القديم « ديموكريت » و « آدم سميث » الفيلسوف الإنجليزى [(٤)] وآخرون ، وليس لهذا الاتجاه سند عقلى أو نقلى يمكن الاعتماد عليه .

وقد نُقِد بأنَّ المواضعة لا تتم إلا عن طريق عُرف لغوى سابق عليها ، وهذا يلزم عليه الدور - كما يقولون - لأنَّ المواضعة تحتاج إلى مواضعة يتم بها الوضع .

---

(١) انظر : الصاحبى - ص ٥ ، ٧ (٢) انظر : الخصائص : ١/ ٤٥

(٣) علم اللغة - للدكتور عبد الواحد وافى ص ٨٩ ، والفلسفة اللغوية لجورجى زيدان ص ١٢٩

(٤) نفس المصدر .

الاتجاه الثالث : وترجع فيه اللغة إلى غريزة خاصة زُوِّدَ الإنسان بها منذ القِدَم . وهذه الغريزة كانت تحمل كل فرد من بنى الإنسان على التعبير عن كل مدرك حسى أو معنوى بكلمة خاصة . ، وكانت عند جميع الأفراد [١] متحدة فى طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ، لذلك اتحدت المفردات أو تشابهت فى طُرق التعبير . ولكن تطاول العصور أثَّر على تلك الغريزة فتلاشت !؟

ومن القائلين بهذا الاتجاه العلاَّمة « ماكس مولر » الألمانى [٢] . وقد بنى هؤلاء رأيهم على أدلة مستمدة من دراسة أصول الكلمات فى اللغات الهندية الأوروبية . فقد تبيَّن لهم أنَّ مفردات تلك اللغات ترجع إلى خمسمائة أصل مشترك . وأنَّ هذه الأصول تمثل اللغة الأم التى تشعبت عنها اللغة . فهى لذلك تمثل اللغة الإنسانية فى أقدم عصورها ! ! ؟

وعلى طرافة هذا الاتجاه ، ودعمه بالدراسات الحية ، فإنه فاسد من وجوه :

١ - أنه لا يحل المشكلة حتى يضع مكانها مشكلة أخرى هى افتراض الغريزة الكلامية .

٢ - وأنَّ ما يقرره من قبيل تفسير الشئ بنفسه .

٣ - أنه لا يعالج جوهر المشكلة ، لأنَّ المهم هو معرفة أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها فى تكوين الكلام الإنسانى ، والأسلوب الذى احتذاه الإنسان فى وضع أصوات معيَّنة لمسميات خاصة . والكشف عن العوامل التى وجَّهته إلى هذا الأسلوب .

٤ - وأكبر خطأ وقع فيه هذا الاتجاه أنَّ الأصول المذكورة التى اعتمدوا عليها فى الاستنتاج تدل على معان كلية - كما قالوا - والمعانى الكلية تحتاج إلى درجة عقلية راقية لم يجرؤ باحث منصف على إثباتها للإنسان فى عصور بداوته .. فكيف يصح جعل هذه اللغة « الهندية - الأوربية » اللغة الأم للغات الإنسانية ؟

---

(١) منهم ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة ص ٤٠ .

(٢) علم اللغة ص ٩٢

الاتجاه الرابع : وخلاصته أنَّ أصل اللغة نشأ من محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة (التعبير الطبيعى عن الانفعالات : أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة التى تحدث عن الأفعال الطبيعية كالشرب والقطع والكسر) وسارت فى سبيل الرقى تبعاً لارتقاء العقل وازدهار الحضارة ، وممن قال به من العلماء العرب ابن جنى فى الخصائص [1] .

وقد رجَّح المحدَثون [2] هذا الاتجاه لاتساقه مع طبيعة التطور ودعموه بأنَّ لغة الطفل تتفق فى مراحل تكوينها وتطورها مع ما تقرره هذه النظرية من مراحل تكوين وتطور اللغة الإنسانية فى الدهور السحيقة . كما دعموه بأنَّ ما يقرره يتفق مع ما عُرِف من خصائص اللغات فى الأمم البدائية .

لهذا رجَّح المحدَثون هذا الرأى .

* * *

● أنواع التعبير اللغوى :

التعبير اللغوى نوعان .. الأول : تعبير لغوى طبيعى انفعالى بحت . ويشمل جميع الأصوات الفِطرية - مقصودة أو غير مقصودة - التى تصحب مختلف الانفعالات السارة والمحزنة . كالضحك والبكاء والصراخ والأنين والتأوه . وهذا النوع يتألف - فى الغالب - من أصوات مبهمة تشبه أصوات الطبيعة وأصوات العجموات . مختلطة - أحياناً - بأصوات ذات مقاطع - حروف ساكنة - كالأنين والتأوه وأصوات لين (حروف مد) كالصراخ - ومن مميزات هذا النوع اتحاده عند جميع الناس لا فَرق بين جنس وجنس ، ولا بيئة وبيئة . وخلوه من الوضع .

---

(١) الخصائص : ١/٤٤ - ٤٥

(٢) منهم العلاَّمة « وتنى » الإنجليزى - انظر علم اللغة للدكتور على عبد الواحد وافى ص. ٢٦

والثانى : هو التعبير الوضعى الإرادى .. ويشمل جميع الألفاظ الإرادية التى يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن المعانى التى تجول فى نفسه لينقلها إلى الآخرين ..

ويقصدون بهذا النوع : الأصول المركبة ذات المقاطع التى تتألف منها الكلمات وإليه تنصرف اللغة عند الإطلاق .. وهو أسمى مظاهر التعبير اللغوى .

وخصائصه كالآتى :

١ - أنه مكتسب لا فطرى .　　　　٢ - أنه إرادى لا آلى .

٣ - أنه يتمثل فى أصوات مركبة تتألف منها كلمات وجمل (أسلوب) لا فى أصوات .

٤ - أنه يُعبِّر عن معان تجول فى النفس لا عن انفعالات مبهمة .

٥ - أنه يختلف باختلاف الأجناس والبيئات ، ويحتاج إلى وضع واضع .

٦ - أنه وسيلة سهلة ميسَّرة للتخاطب ونقل الأفكار ولا يتوقف الانتفاع به على وسيلة سوى السمع (١) .

* * *

● تطور التعبير اللغوى :

رأينا اختلاف العلماء حول نشأة اللغة الإنسانية ، والبواعث التى حملت الإنسان الأول على التعبير والكيفية التى بدأ بها تعبيره . وتلك مشكلة ما زالت قابلة للبحث والدراسة ، ثم هناك مشكلة أخرى متفرعة عنها ، وهى : ما هى المراحل التى اجتازها التعبير اللغوى حتى أصبح لغة متكاملة اتخذها الإنسان وسيلة للتخاطب ونقل الأفكار بين أفراد المجتمع .. ويمكن حصر هذه المراحل فيما يأتى :

---

(١) بخلاف الإشارة فلا بد من وضوحها فهى مقيَّدة بظروف معيَّنة .

المرحلة الأولى : مرحلة الصراخ . وفى هذه المرحلة لم يكن فى أصوات اللغة الإنسانية أصوات مد (لين) ولا أصوات ساكنة . بل كانت مؤلَّفة من أصوات مبهمة كدوى الريح وخرير الماء ، وحفيف الأوراق .

المرحلة الثانية : مرحلة المد ، وفى هذه المرحلة ظهرت أصوات المد فى اللغة الإنسانية وتخلصت من الأصوات المبهمة .

المرحلة الثالثة : وفى هذه المرحلة ظهرت الأصوات الساكنة فى اللغة مثل الباء ، والتاء ، والثاء ... وهكذا .

ويعتمد الباحثون فى تقرير هذه النظرية على ما هو مشاهدٌ من لغة الطفل فى مراحل نموها المختلفة . وهذا التقسيم من حيث تطور الصوت اللغوى نفسه . أما من حيث دلالته على معناه فلهم فيه مذهبان :

المذهب الأول : وعلى رأس القائلين به « ماكس مولر » ، مؤداه أنَّ الألفاظ بدأت دالة على معان كلية ثم تفرعت عنها المعانى الجزئية . ودليلهم عليه ما سبق ذِكره من الدراسة التى قاموا بها حول اللغات « الهندية - الأوروبية »، وقد سبق هناك أنَّ هذه النظرية غير مسلَّمة ، فكذلك ما أثبت - هنا - اعتماداً على صحتها .

المذهب الثانى : مؤداه أنَّ المعانى الجزئية سابقة على المعانى الكلية . لأنها - أى المعانى الكلية - مرحلة أرقى من تلك . لذلك فإنَّ النفس ترتاح لهذا الرأى .. ويمكن الاعتماد فيه على تطور الدلالة فى لغة الطفل .. كما أنَّ المعانى الحسية سابقة على المعانى الذهنية . والمعانى الحقيقية سابقة على المعانى المجازية .. لأنَّ كلاً من المعانى الكلية والذهنية والمجازية تتطلب رقياً فكرياً لم تتوافر أسبابه لدى الإنسان الأول .

وفريق آخر من الباحثين يقولون - اعتماداً على نظرية تُعرف بنظرية العلاَّمة ريبو -: إنَّ أول ما نشأ من اللغة الصفات . ثم أسماء المعانى . ثم أسماء الذوات ، ثم ظهرت الأفعال واختتمت مراحل رقيها بظهور الحروف [١] .

* * *

● اللغة - إذن - ما هى ؟

إنَّ أشهر تعريف للغة شاع فى العصور الوسطى - وما زال العلماء يرددونه حتى الآن - هو أن اللغة : أصوات يُعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم [٢] . وفى العصور القديمة تحدث « أرسطو » عن ماهية اللغة ووظيفتها وهى عنده وظيفة عضوية فى الإنسان ورموز لمعانى الأشياء .. بدأت حسيِّة ثم صارت تجريدية فهى إذن رموز لتجارب أفادها الإنسان فى حياته [٣] .

والمحدَثون لم يستريحوا للتعريف الذى شاع فى القرون الوسطى . ورأوا فيه قصوراً فى التطبيق ، ففيه التعبير بالأصوات دون الألفاظ ، وهو لا يمنع من اندراج الصراخ والموسيقى فى مفهوم اللغة . كما أنه لا يشمل أغراض اللغة المتطورة لأنه يحصر غرضها فى التعبير عن المقاصد مع أنَّ أغراض اللغة - كما سنرى - قد تجاوزت هذا الحد بكثير .

لذلك حاول المحدَثون وضع تعريف للغة يساير تطورها كما نراه الآن . ونورد فى هذا المجال تعريفين ، أحدهما للمفكرين من غير علماء النفس ، والثانى لعلماء النفس .

---

(١) استقينا معظم هذه المعلومات من كتاب « علم اللغة » لعلى عبد الواحد وافى والفلسلفة اللغوية لجرجى زيدان

(٢) النقد الادبى الحديث (بتصرف) - محمد غنيمى هلال ، ص ٣٧

(٣) نفس المصدر .

أما تعريف المفكرين من غير علماء النفس فهو : « اللغة ألفاظ يُعبِّر بها كل قوم عن مقاصدهم . وتتخذ أداة للفهم والتفاهم والتفكير ونشر الثقافة والمعارف الإنسانية » .

وقد روعى فى هذا التعريف ما تتركه اللغة من آثار فى واقع الحياة وهى :

١ - التعبير عما يجول فى النفس من أحاسيس وأفكار .

٢ - سهولة التفاهم بين الناس . وفهم ما يتبادلونه من آراء وأفكار .

٣ - ضبط التفكير ودقته .

٤ - نشر الثقافة بين الناس وتسجيلها ونقلها للأجيال .

وأما تعريف علماء النفس فهو : « اللغة هى الوسيلة التى يمكن بها تحليل صورة أو فكرة ذهنية إلى أجزائها أو خصائصها بحيث يمكن بها تركيب هذه الصورة مرة أخرى فى أذهاننا أو أذهان غيرنا بوساطة تأليف كلمات فى وضع خاص »(١) .

هذا التعريف يبيِّن الخصائص النفسية للغة . وقد روعى فيه جانبان :

١ - حالة التعبير أو الإرسال .

٢ - حالة الاستقبال أو التلقى .

* * *

● عناصر اللغة :

وما دامت اللغة هى ألفاظاً ، فإن موضوعها يشمل العناصر الآتية :

---

(١) اللغة العربية .. أصولها النفسية وطرق تدريسها - عبد العزيز عبد المجيد - ط . دار المعارف : ١٥/١ .

١ - المفرد :

واللفظ المفرد هو أول ما وُضِعَ من الكلام . وفيه تبدو اللغة فى أبسط مظاهرها . لأنَّ دلالته هى الفكرة الواحدة البسيطة سواء أكانت دلالة مستقلة أو بطريق الاشتراك مع ألفاظ أخرى مثل المترادفات .. وسواء خُصَّ اللفظ بمعنى واحد أو كانت له معان ويظهر المراد منها بالقرائن ..

ونريد بـ « اللفظ المفرد » - هنا - الأسماء مطلقاً . دون الأفعال أو الحروف . لأنَّ الفعل لا يقع مفرداً وإن أمكن النطق به كذلك . لاستلزام الفعل فاعله . والحروف ليست لها دلالة مستقلة .

والاسم المفرد - سواء أكانت دلالته حسِّية مثل الورق ، أو معنوية مثل الحرية . فإنَّ هذه الدلالة لا يمكن استفادتها من الاسم إلا بعد تجارب يمر بها الإنسان مع اللفظ نفسه ، وهذه التجارب فى الغالب تعتمد على المراحل الآتية :

أولاً : كثرة المشاهدة والتكرار .

ثانياً : موقف الإنسان من هذا الشئ المتكرر المشاهَد .

ثالثاً : اختيار الإنسان ضابطاً لهذا الشئ وإطلاقه عليه .

رابعاً : اشتهار ذلك الشئ بهذا الإطلاق وارتباطه به فى الذهن وجوداً أو عدماً .

هذه المراحل نظنها ضرورية لمشكلة وضع الأسماء على مسمياتها . ويمكن أن نسميها تجارب أصلية عامة كان لها دور كبير - وما زال - فى وضع المفردات . وهناك تجارب طارئة خاصة تكتنف دلالة المفرد . وتثير فى الذهن شعوراً خاصاً مفرحاً أو مقبضاً حسب تجارب الشخص ونوعها .

فكل لفظ يحمل معه تجربة عامة أصلية . كانت السبب المؤثر فى الوضع اللغوى ، ولعل هذه التجارب هى التى حدت ببعض اللغويين [١] إلى القول بأنّ بين الألفاظ ومدلولاتها تلازماً طبيعياً .

وقد يحمل اللفظ معه تجربة خاصة طارئه ، فكلمة « سجن » أو « حَبس » تثير فى النفس شعور القلق والنفور ... وهذه تجربة أصلية عامة . وقد تثير هذه الكلمة - سجن - شعور الابتهاج والسرور إذا كان بين مَن يسمعها إنسان قد عمل فى السجن ، وترقّى فى درجات الوظائف فيه . وعاد عليه نفع كبير طيلة توليه عمله به . أو تمتع فيه بإدارة عمل حققت له نجاحاً وشُهرة [٢] .

وهذه تجربة طارئة خاصة لا يحس بها إلا مَن كانت له هذه الصفة . فإذا سمع هذه الكلمة آخر كان قد أمضى عقوبة فى السجن وذاق فى أثنائها ألوان العذاب والبؤس . فإنه يكاد يطير فزعاً لما تثيره فيه هذه الكلمة من الظلال الرهيبة ، والذكريات الأليمة .. وذلك لاختلاف التجربة عند الرجلين فاختلفت آثار الكلمة فى النفس ، وتباينت قيمتها الشعورية .. كل حسب تجربته الخاصة . فهذه كلمة واحدة ولكن معناها النفسى يختلف من فرد إلى آخر ، لأنه معنى ذاتى خاص مقيَّد بتجارب الشخص نفسه .

فالمعنى النفسى للفظ إحساس وشعور خاص وليد التجارب ، والتجارب تختلف . فهو معنى ثانوى إذا ما قيس بالمعنى الواقعى لمدلول الألفاظ .

ويراد بالمعنى الواقعى : الخصائص التى استفيدت من التجارب الأصلية العامة التى مَرَّ بنا شرحها .

---

(١) مثل سليمان الصيمرى .

(٢) اللغة العربية .. أصولها النفسية (بتصرف) - عبد العزيز عبد المجيد ص ٢٩ - ٣٠.

وعلى هذا فإنَّ الدلالة الواقعية هى الأصل المعتَبر فى كل تعبير وهو المعنى الثابت للكلمة أو الدلالة القاموسية . وإلى هنا يمكننا أن نوجز وظيفة اللفظ المفرد من حيث الدلالة على معناه المستفَاد من التجارب الأصلية العامة . ونحلل هذه الوظيفة إلى المظاهر الآتية :

إنَّ لكل لفظ دلالة واقعية عامة هى الأصل . وقد تكون له دلالة طارئة خاصة ناتجة عن تجربة خاصة عاناها بعض الأفراد . والدلالة الواقعية العامة ضربان :

الأول : دلالة سارة بأصل وضعها مثل : السعادة ، النور ، الفاكهة ، الورد ، العسل .

الثانى : دلالة مقبضة بأصل وضعها - كذلك - مثل : الشوك ، الظلام ، الحنظل .

والمرجع فى هذا كله هو التجارب . فإذا وُجد إنساناً لم يكوِّنْ تجربة عن كلمة ، أو لم يدرك تجربتها الأصلية العامة . وجهل معناها . فإنه يكون ذا شعور متبلد لدى سماعه لها لا تثير فيه شعوراً أى شعور .

ويقارن علماء النفس بين الدلالتين - الأصلية العامة والطارئة الخاصة - على النحو التالى :

أولاً : أنَّ المعنى الواقعى العام موضوعى مشترك . يدرك مغزاه الجميع ، ويمكن نقله .

أما المعنى النفسى .. فذاتى خاص لا يدركه إلا الشخص نفسه موضوع التجربة ، ولا يمكن نقله .

ثانياً : أنَّ المعنى الخارجى العام هو الدعامة التى يقوم عليها أساس التخاطب بين الناس ليمكن تصور المعنى على وجهة لا تختلف من فريق إلى فريق .

والمعنى الذاتى بمنأى عن هذه المنزلة ، فهو معنى ثان قد يُثار لدى الشخص إذا توافرت عنده دواعيه . فلا يصلح أن يكون وسيلة للتفاهم .

* * *

● عناصر المعنى اللغوى :

الدلالة بنوعيها - الواقعى والخاص - تسمى الوظيفة الإشعاعية للفظ ، ويبدو الإشعاع واضحاً عندما يكون اللفظ دالاً على ذات ، لأنه عند سماعه يثير فى الذهن مدلوله الخارجى بشكله وهيئته وخصائصة وهذا هو المراد بالإشعاع . إذ هو قوة الإيحاء الذهنى ، ووضوح التصوير . وهذا المعنى هو ما كان شائعاً فى دلالات اللفظ فى اللغة القديمة قبل مرحلة التجريد . ويعزو بعض العلماء نشوء فكرة السحر والرقيا بوسيلة الكلمات إلى تلك القوة التصورية التى كانت تشع من اللفظ فجعلهم ينظرون إليه كأنه المدلول عليه نفسه بما له من قوة تصوير [١] .

أما عناصر هذه الدلالة الإشعاعية - أو المعنى - فإن العلاَّمة « ريتشاردز » يراها على النحو التالى [٢] :

١ - المدلول : وهو الشى المقابل للكلمة ، فى عالم الواقع . سواء أكان هذا المقابل ذاتاً أو معنى يحصل تصوره فى ذهن السامع .

٢ - الشعور الوجدانى : ويراد به شعور المتكلم نحو الشئ الذى هو موضوع الحديث . فلكل مدلول عليه شعور وجدانى خاص هو الذى يساورنا حين نذكر الكلمة الدالة عليه . مثل : أب - وطن - غول - تفاح .. ألا تحس بتغيير فى شعورك الخاص نحو مدلول كل من الكلمات السالفة ؟

وهذا الشعور الوجدانى هو الذى يرتبط بمدلول كل كلمة . فهو عنصر من عناصر المعنى الذى تحمله الكلمة فى مدلولها العام . وقلَّ أن تتجرد عنه كلمة

---

(١) النقد الادبى الحديث - محمد غنيمى هلال ص ٣٧ .

(٢) اللغة العربية .. أصولها النفسية وطرق تدريسها - عبد العزيز عبد المجيد ص ٣١

إلا إذا كانت رموزاً رياضية أو علمية لم ترتبط بشعور خاص مثل الرقم (٩٩.) والعلامة (+) ... وهكذا .

٣ - النغم : فكل متكلم يعطى اللفظ نغمة خاصة تناسب حاله النفسية وتدل عليها مثل أن تقول : أنا فلان - فى حالة فخر ، وفى حالة إجابة عن استفهام عادى . فإنَّ النغمة فى حالة الفخر تختلف عنها فى حالة الاستفهام العادى .. حادة قوية فى الأولى ، رقيقة فى الحالة الثانية .

ولذلك كان النبر فى الكلام ذا دلالة واضحة على اختلاف المعانى مع اتحاد العبارات . ولذلك فإنَّ كتابة العبارة تجردها من ميزة النغم . وتمخضها لدلالة واحدة هى التى جرى عليها الوضع والعُرف اللغوى .

٤ - القصد : وهو ما يرادف الحال فى البلاغة العربية . إذ هو الأمر الذى يدعو المتكلم إلى أن يقول كلاماً ما . وهذا العنصر خارج عن مدلول اللفظ الذاتى . بخلاف العناصر الثلاثة السابقة فإنها ذاتية له [١] .

* * *

● الجملة اللغوية :

الجملة اللغوية - سواء أكانت اسمية أو فعلية - أول مظهر مستقل من مظاهر اللغة لأن مدلولها معنى تام غالباً . وفى الجملة يظهر نوع من براعة التعبير حيث يُضَم معنى مفرد إلى آخر . واللوحة الفنية لا تحوز الإعجاب إن كانت مصنوعة من لون واحد . وإنما تحوز نصيباً منه إذا تألفت من لونين مثلاً .

وإلى هذا المعنى يشير شيخ البلاغة العربية عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الإعجاز » إذ يقول :

---

(١) اعتمدنا فى تلخيص نظرية هذا المستشرق على كتاب : اللغة العربية .. أصولها وطرق تدريسها المذكور .

« والألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة . ولا من حيث هى كلم مفردة ، ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك فى موضع آخر »[(١)] .

وتقوم فلسفة الجملة اللغوية على قاعدة مؤداها أن تكشف العلاقة بين مفردين حقيقة أو تقديراً . حقيقة فى الإسمية وتقديراً فى الفعلية . وهذا هو أبسط تصور للجملة . فإذا تجاور مفردان على جهة من جهات الارتباط المعتبرة فى تكوين الجملة . صار ذلك المفردان « جملة » أو ألفاظاً مركبة تؤدى معنى من أجله صيغ التركيب .

وأنواع الكلمات المكوَنة للجملة اسم أو فعل . لأن الاسم والفعل لهما دلالة مستقلة كل واحد على حدة . ولا يدخل الحرف فى تكوينها الأساسى لعدم دلالته على معنى مستقل يمكن جعله ركناً فى جملة التركيب . وقد تنوعت الجملة فى اللغة العربية إلى هذين النوعين :

جملة اسمية : وهى ما كان المسَند إليه فيها اسماً مقدَّماً على المسند حقيقة أو تقديراً ، سواء أكان المسند اسماً كذلك أو جملة أو شبه جملة . وهى تدل على ثبوت المعنى المؤدية له .

وجملة فعلية : وهى ما كان المسنَد إليه فيها اسماً مؤخَّراً على المسنَد « الفعل » ضرورة .. وتدل على تجدد المعنى المؤدية له وعلى حدوثه .

وقد تقترن كلتا الجملتين بعناصر ثانوية - بعد ركنى الإسناد - تزيد المعنى وضوحاً .. وترتيب تلك العناصر فى الذِكر راجع إلى قانون تنظيمى « نحوى » ، أو إلى اعتبار معنوى « بلاغى » .. ولا يجرى العمل فيها دونما توجيه .

والمنهج الذى تقوم عليه الجملة فى اللغة العربية يختلف باختلاف نوع الجملة نفسها . فإن كانت فعلية كان تكوينها على النحو الآتى :

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٥ - ٣٦

الفعل + الفاعل أو ما قام مقامه + متعلقات الفعل مثل المفعول به . وقد يُذكر بعد الفعل مباشرة غير الفاعل وغير المفعول به كالظرف إذا اقتضى ذلك مقتض .

وإذا كانت إسمية جاء تكوينها على الوجه الآتى :

- المسند إليه مع توابعه + المسند + متعلقات الإسناد .

والسير على هذا المنهج العادى ليس بلازم ، لأن تكوين الجملة فى اللغة العربية تراعى فيه أسس تعبيرية تقوم على اعتبارات بلاغية على هداها تكون الجملة فى وضع جديد . وهذا السلوك نراه فى الأنماط الأدبية الرفيعة ، كالقرآن الكريم ، والآثار النبوية ، والحِكَم والأمثال ، ونراه فى الأشعار الرائعة والنثر الفنى الأصيل .

فمن القرآن الكريم نذكر : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ﴾ (١) ، و ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (٢) .. ففى الآيتين تقديم المسند « الخبر » - وهو الظرف فى الآية الأولى ، والجار والمجرور فى الآية الثانية - على المسند إليه فيها وهو : « مفاتح الغيب » فى الأولى ... و « دار السلام » فى الثانية. ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ بِيَدِكَ الخَيْرُ ، إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (٥) .

والحال كذلك فى تقديم بعض المتعلقات كقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ (٦) ؛ فـ « رجل » : فاعل قُدِّمَ عليه متعلق الفعل : « من أقصا المدينة » فاصلاً بينه وبين الفعل ، والمنهج العادى يأبى مثل هذا لكن الاعتبار البلاغى يوجبه .

---

(١) الأنعام : ٥٩ (٢) الأنعام : ١٢٧ (٣) البقرة : ٢٤٧
(٤) آل عمران : ٢٦ (٥) الكافرون : ٦ (٦) يس : ٢٠

ومن الأدب النبوى قوله عليه الصلاة والسلام : « إخوانكم خَوَلكم »[1] والتقدير : خَوَلكم إخوانكم . وقد قال الشُرَّاح إنَّ المراد بهذا الحديث تشبيه « الخول » بالإخوان فى حسن المعاملة إليهم . وحفظ الود لهم . فهو من التشبيه البليغ المؤكد . فقدَّم المسند على المسند إليه اعتناءً بشأن المقدم . واهتماماً به . وفى الأدب النبوى كثير من اللفتات البلاغية من هذا النوع وغيره يطول بنا التطواف لو أرخينا العنان .. فلنكتف بما قَلَّ ودَلَّ .

ومن الشعر الرائع .. قال الشاعر[2] :

أأتركُ إنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالدٍ زِيَارَتَهُ إنِّى - إذَنْ - لَلَئِيمُ

وقال ابن المعتز :

وإنِّى على إشْفَاقِ عَيْنِى من العِدَى لَتَجْمَحُ مِنِّى نَظْرَةٌ ثم أُطْرِقُ[3]

وقال أيضاً :

وظَلَّتْ تُدِيرُ الرَّاحَ أيْدى جَآزِرٍ عِتَاقِ دَنَانِيرِ الْوُجُوهِ مِلَاحِ[4]

هذه ثلاثة أبيات من الشعر لم تجر على النسق العادى . ففى الأول فصل بين الفعل ومعموله بجملة الشرط ، والأصل اتصال العامل بالمعمول . كما فصل فى الشطر الثانى من نفس البيت بين اسم « إن » - الضمير - وخبرها بأجنبى هو « إذن » .

كما فصل ابن المعتز فى البيت الثانى بين اسم : « ظل » وبينها بالخبر : «تدير الراح » وفيه تقديم الخبر على المبتدأ أيضاً ، ففيه فصل وتقديم كما ترى.

---

(١) صحيح البخارى .

(٢) هو : عمارة بن عقيل بن بلال ابن جرير : والبيت فى الكامل : ١٤٩/١

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٣١ (٤) نفس المصدر .

وفى البيت الثانى فصل بين اسم « إن » وخبرها بأجنبى هو « على إشفاق عينى من العدى » كما فصل بين الفعل : « لتجمح » وفاعله : « نظرة » بالجار والمجرور : « منى » .. وغير ذلك كثير .

والطريقة التى يعتمد عليها المنهج العادى لتكوين الجملة الإسمية - إذا خلا المقام من دواعى التقديم والتأخير - أنه يفرق بين الأعرف والأقل أعرفية من ركنى الإسناد الخبرى . فالأعرف هو المسند إليه ، وتقديمه هو الأصل . والأقل أعرفيه هو المسند. وذلك لأن المسند إليه هو موضوع الحديث ومحط الحكم ، والحكم على المجهول لا يفيد . فإذا تساويا فى التعريف فهما سيان فى صحة وقوع كل منهما مسنداً إليه أو مسنداً . والفصل فى ذلك هو الاعتبار الذى يجعله المتكلم نصب عينيه - مراعياً فى ذلك حال المخاطب .

إنَّ طريقة التعبير فى اللغة لا تخضع لقوالب جافة . وإنما هى مرنة طوع يد المعبر تصور أحاسيسه ومعانيه . على أى وجه أراد حسبما يقتضيه الحال .

* * *

● الأسلوب اللغوى .. معناه ، وأنواعه ، ووظيفته :

معنى الأسلوب اللغوى : تشير معاجم اللغة إلى أن مفهوم الأسلوب هو الطريقة ، يقال : سلكت أسلوب فلان - أى طريقته . ويقال - كذلك - : كلامه على أساليب حسنة [١] .

كما يقال للسطر من النخيل : أسلوب ، وكل طريق ممتد فهو أسلوب . والأسلوب : الطريق والوجه والمذهب . يقال : أنتم فى أسلوب سوء ، ويجمع على أساليب ، والأسلوب : الطريق تأخذ فيه . والأسلوب : الفن ، يقال : أخذ فلان فى أساليب من القول : أفانين منه [٢] .

هذا معنى الأسلوب فى القواميس وأسفار اللغة . والمتأخرون متأثرون بهذه التوجيهات فى ضبط الأسلوب . ونعرض فيما يأتى آراء اثنين فذّين منهما :

---

(١) تاريخ الأدب فى عصره الذهبى : عبد الرحمن عثمان ص ١٠٢

(٢) الأسلوب : أحمد الشايب ص ٤١

● رأى عبد القاهر الجرجانى :

الأسلوب عند عبد القاهر الجرجانى يشمل جانبين : طريقة التفكير .. ثم طريقة الأداء اللفظى الذى يتجلى فى أنماط التعبير .. قال [١] : « واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء ، وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه . أن يبتدئ الشاعر فى معنى وغرض أسلوباً - والأسلوب : الضرب من النظم والطريقة فيه -فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجئ به فى شعره » ..

ويتسع معنى الأسلوب عنده فينتظم من حيث التقعيد له ، ووضع أصوله نظريات علم المعانى وما قرره فيها من توجيهات بلاغيه لها بالأسلوب أوثق صلة.

ولا يهمل عبد القاهر توجيهات علم « النحو » وعلم « التصريف » . بل جعل النظم - الذى يرادف الأسلوب عنده - هو توخى معانى النحو بين الكلم . وهو بهذا يضفى على النحو مفهوماً أوسع من عُرف النحاة أنفسهم . فحكم اللفظ النحوى تابع لمعرفة معناه ووظيفته فى الأسلوب . وتوخى النحو بين الكلمات هو معرفة مواضعها من الصياغة الأسلوبية . قال : « إنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى الترتيب فى الألفاظ - من حيث هى ألفاظ - توتيباً ونظماً دون أن تتوخى الترتيب فى المعانى . وتعمل الفكر هناك . فإذا تم لك ذاك أتبعتها الألفاظ ، وقفوت بها آثارها . وإنك إذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً فى ترتيب الألفاظ . بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى . وتابعة لها ، ولاحقة بها .. وأن العلم بمواقع المعانى فى النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق » [٢] .

والخلاصة أن عبد القاهر فى هذا النص يربط ربطاً محكماً بين مظهرى الأسلوب الآنفى الذكر : طريقة التفكير ، ثم الأداء اللفظى . فالأسلوب - عنده - مجموع الأمرين . وتوخى معانى النحو هو الذى يجعل الأسلوب يبدو بهذه الصورة المتألقة .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ (٢) نفس المصدر ص ٤٣

ويرى بعض المحدَثين [١] أنَّ عبد القاهر تفوته سمة لها وزنها فى الأسلوب لم يتحدث عنها وهى اختيار الألفاظ والتأنق فى الصياغة .

والمدقق فى هذا النص المذكور لعبد القاهر يرى أن عبد القاهر لم يفته ما آخذوه عليه . لأنه - أى عبد القاهر - لا يمنع على المفكر أو الأديب اختيار الألفاظ . ولعله ترك النص عليها - هنا - إحالة على ما ذكره فى موضع آخر مما هو صريح فى الدعوة إليها . وقد نقلنا نصاً له قبل ذلك بقليل [٢] يكفى مجرد الاطلاع عليه لتبرئة عبد القاهر مما رُمِىَ به فكان تحرى الدقة فى الحكم على الرجل وتوجيهاته أولى بالمتعجلين .

* *

● رأى ابن خلدون :

الأسلوب عند ابن خلدون لا يرجع إلى إفادة التراكيب أصل المعنى (النحو) ولا إلى كماله (البيان) ولا موافقته للوزن (العروض) فذلك كله خارج عن صناعة الأسلوب - شعراً ونثراً - . وإنما الأسلوب عنده هو : الأداء اللفظى المطابق للصورة الذهنية لمفهوم الأسلوب الناجم عن قوة الملَكة فى اللسان العربى الذى هو ثمرة الاعتماد على الطبع والتمرس بالكلام البليغ [٣] .

ويسوق ابن خلدون نصاً [٤] مطوَّلاً عن الأسلوب يخرج منه الباحث بالنتائج الآتية :

(أ) لا يدخل النحو ولا البلاغة ولا العروض فى مفهوم الأسلوب .

(ب) يرجع الأسلوب إلى الصور الذهنية للتراكيب المنظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص . وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب .

---

(١) هو عبد الرحمن عثمان فى كتابه « الأدب فى عصره الذهبى » ص ١٠٣ وما بعدها .

(٢) انظر ص ٣٧ من هذا البحث .

(٣) تاريخ الأدب فى عصره الذهبى : عبد الرحمن عثمان ص ١٠٣ - ١٠٤

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٠ - ٥٧١

ويصيرها كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى لها التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان .

(جـ) لكل فن من فنون الكلام أسلوب خاص يميزه عما سواه من الفنون . فأسلوب الشعر غير أسلوب النثر ... وهكذا .

(د) إن الأساليب ليست من القياس فى شئ . بل هى هيئة ترسخ فى النفس من تتبع التراكيب العربية شعراً ونثراً . لجريانها على اللسان . حتى تستحكم صورتها فيستفيد بها العمل .

ويلاحَظ أن ابن خلدون عندما تحدث عن الأسلوب إنما كان يضع نصب عينيه الأسلوب فى الصناعة الشعرية . ولكنه عاد فعمَّم تلك القواعد التى يراها هو للأسلوب على المنظوم والمنثور إذ يقول : « وهذه القوالب كما تكون فى المنظوم ، تكون فى المنثور » (١) .

هذه خلاصة مفهوم الأسلوب عند أديب ناقد ، هو عبد القاهر الجرجانى ، وعالم مؤرِّخ هو عبد الرحمن بن خلدون ، وإننا حين نقارن بين ما قرراه ، لا نجد كبير خلاف بل هما ينزحان من دلو واحدة ، وإن اختلفا فى طريق الورود .

فقد رأينا الشيخ عبد القاهر يجعل الأسلوب منتزعاً من توخى معانى النحو بين الكلم ، وفى نفس الوقت ينكر ابن خلدون هذا الفهم . ويجعله خارجاً عن مفهوم الأسلوب .

ويخص ابن خلدون الأسلوب بالصور الذهنية المنتزعة من التراكيب الصحيحة وقد رأينا عبد القاهر لا يغفل قضية هذه الصور الذهنية . بل يجعلها الأساس الذى يصنع التراكيب حين تؤدى أداءً لفظياً بحيث يكون الأداء اللفظى تابعاً لترتيب المعانى فى النفس .

---

(١) نفس المصدر السابق .

والحقيقة أن الخلاف بين الرجلين يكاد يكون لفظياً ، لأنهما يلتقيان عند الركنين الأساسيين للأسلوب : المعانى والألفاظ . وأحدهما ينظر إلى الألفاظ باعتبار تأديتها للمعانى وهو عبد القاهر . والثانى ينظر إلى المعانى باعتبار صياغتها فى تراكيب منتقاة . وهو ابن خلدون .. فهما - إذن - متفقان فى الجملة

وقديماً نحا أرسطو منحى عبد القاهر . إذ يرى أن الأسلوب هو « طريقة الصياغة » [1] أو الأداء اللفظى الذى يتخذه الأديب أداة للتصوير والإبانة عن مشاعره وأحاسيسه ونقل تلك المشاعر والأحاسيس إلى الآخرين .

كما نحا عبد الرحمن عثمان هذا المنحى إذ يقول : « الأسلوب هو طريقة التعبير اللفظى الجارية على نسق الفكرة والمعربة عن أدق خفاياها » [2] .

ولا أخفى أننى أميل إلى مدرسة عبد القاهر الجرجانى فى حد الأسلوب ومقوماته . وإن كنت أرى أن كلامه فيه مفتقر إلى الصقل والتركيز .

وقد قسَّموا الأسلوب اللغوى إلى قسمين هما :

أولاً - الأسلوب العلمى :

تتسع وظيفة الأسلوب فى العصر الحديث . وتخرج عن دائرة اختصاصها إلى ميادين أوسع وأرحب فيقال : أسلوب السياسة ، وأسلوب الحكم ، وأسلوب الإدارة .. هذه استعمالات نقرأها اليوم فى الصحف . ونسمعها فى الإذاعة والتليفزيون ولم تعد الكلمة مقصورة على فن القول .

ولا غرابة فإن الأسلوب ملحوظ فيه معنى الطريقة . وهذا المعنى هو الذى جوَّز التعميم فى الإطلاق ، ولكن المعتبر من هذه الإطلاقات التى شاعت الآن نوعان : الأسلوب العلمى ، والأسلوب الأدبى .. ولكل من النوعين خصائص ومميزات .

---

(١) النقد الأدبى الحديث : محمد غنيمى هلال ص ١٧٩

(٢) تاريخ الأدب فى عصره الذهبى ص ١٠٥

والفرق الجوهرى الذى يميز بين الإثنين هو موضوع الحديث ، والفكرة التى يكشف عنها . فإن كان موضوع الحديث حقائق ثابته يراد شرحها وتلخيصها لتقر فى الأذهان ، وتأخذ شكل القوانين اليقينية أو ما يقرب منها ، ويهدف منها الكاتب إلى إقناع القارئ أو السامع بالنتائج التى يتوصل إليها . ومثل هذا النوع من الأفكار يتطلب من الكاتب أو الباحث عملاً مخصوصاً ... وطريقة معيَّنة . وهذا يُعرف بالأسلوب العلمى . ويتبع فيه الكاتب الخطوات الآتية :

فعليه أولاً : أن يختار الأفكار التى يريد شرحها لجدتها أو قيمتها العلمية .

ثم عليه ثانياً : أن يرتب هذه الأفكار ترتيباً منطقياً ليكون ذلك أدعى إلى فهمها وحسن تنسيقها وارتباطها فى الذهن . وتسلسلها المؤدى إلى فهمها وقبولها .

وعليه ثالثاً : أن يختار الألفاظ الواضحة الدلالة الملائمة للفكرة ليكشف بها عما فى نفسه من قيم وحقائق وأفكار . وهو يتوجه بهذه الحقاق والأفكار إلى العقل ؛ لأنه مركز التلقى والتحليل والاستنتاج - فالأسلوب العلمى موضوعه حقائق ذهنية ومظهره العام خبرى يجلى الواقع ويوضحه مؤيداً حقائقه بالأدلة والبراهين - عقلية . أو نقلية . أو تجريبية - والفكرة فيه يجب أن تنمو نمواً تصاعدياً . وهذا يقتضى تقسيمها إلى أجزاء . والألفاظ فيه يجب أن تكون محددة المعنى حتى لا يؤدى ذلك إلى غموض فى الاستنتاج .

ومن المسلَّم به أن الأسلوب العلمى تستخدم فيه - أحياناً - بعض مظاهر الأسلوب الأدبى - كالتشبيه والمجاز ، ولكن معناه - والحالة هذه - يظل ذهنياً رتيباً . يدل على حقائق جافة تخاطب العقل . ليس للعاطفة فيها أدنى نصيب .

الكلمات فى الأسلوب العلمى لا بد أن تدل على معانيها الوضعية أو الاصطلاحية الفنية ، ولهذا اشترط المناطقة تجريد الألفاظ من معانى المجاز وإبقاءها على معانيها الوضعية وعابوا على السوفسطائيين استخدامهم المجاز فى القياس لأنه يؤدى إلى المغالطة فى الاستنتاج .

ثانياً - الأسلوب الأدبى :

الأسلوب الأدبى كالأسلوب العلمى فيه « أفكار » وله « ألفاظ » تحمل تلك الأفكار ، والاختلاف بينهما يأتى من حيث نوع الفكرة التى يؤديها كل منهما ، والعبارات الدالة عليها ووسيلة الإدراك التى يخاطبها . والفكرة فيه غير الحقائق الثابتة .

بل هى معان وليدة الإحساس والشعور ، ورؤى هى فى طبيعتها فردية خاصة وإن اشترك فيها كثير من الأدباء ، وقد تكون الفكرة فى الأسلوب الأدبى حقيقة ثابتة لكن الأديب لا يعرضها فى قوالب جافة وقوانين منطقية بل يعرضها عرضاً أدبيا أخاذاً كقوله عليه السلام : « إياكم وخضراء الدمن » .. قيل : من هى يا رسول الله ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المنبت السوء » [(١)] فالحقيقة الثابتة - هنا - معروضة مع دليل التنفير منها لكنه دليل أدبى ذوقى .. لا علمى منطقى . ولذلك اختص الأسلوب الأدبى بالخصاص الآتية :

(أ) استثارة العاطفة :

العاطفة هى قِبْلة العبارة الأدبية . إياها تعنى ولها تتحدث . والعاطفة تتلقى شعوراً وانفعالات . فتتأثر بها . وتتأمل ما تتأثر به . ولا بد لها من موقف إزاءه . هذا الموقف قد تتفق فيه العاطفة المتأثرة مع العاطفة المؤثرة . وقد تختلف معها . ولكنه على كل موقف صنعه ذلك التأثر . وهذا الموقف هو المسمى بالاستجابة للعمل الأدبى شعِراً أو نثراً وهو - كما فى الحديث - إثارة شعور النفرة من المرأة المذكورة . وقد تكون الاستجابة إمتاعاً جمالياً مستوحى من التجربة موضوع الحديث . وقد تكون إشفاقاً أو رثاءً .

---

(١) صحيح البخارى .

(ب) الخيال :

ليس من سبيل أمام الأديب عندما يريد نقل تجربته ، والتعبير عن شعوره وانفعالاته إلا الخيال الخصب . والصور الأدبية الناضرة يتخذ منها وسيلة للإبانة والكشف عما فى الشعور . شريعة الأديب فى البيان هى المجازات والتشبيهات والكنايات ، وتصيد المشاهد الحية .. فالذى يُشرك بالخالق هاوٍ سقط من السماء فتوزع فى حواصل الطيور . أو جرفته الريح إلى مهاوى الهلاك السحيقة . والرجل الشجاع القلب أسد يزأر فى صحراء مخيفة . والكريم الذى يصل رفده لكل سائل بحر زاخر يروى الظامئين . والمتردد فى أمره كالواقف فى مكان يرفع رِجلاً مرة ويضع مرة أخرى ... والأغصان تحركها النسمات عرائس تتعانق بعد غياب طال .

ولعل فى بيت ابن الرومى الآتى - يصف الطبيعة أيام الربيع - أكبر دليل على ما نقول :

تَبَرَّجَتْ بعد حَيَاءٍ وخَفَرْ ... تَبَرُّجَ الأُنْثَى تصَدَّتْ لِلذَّكَرْ !

والآن نوجز أهم الفروق بين الأسلوبين ..

● الفروق بين العلمى والأدبى :

١ - الأسلوب العلمى يخاطب العقل - وموضوعه حقائق ثابتة أو كالثابتة . وقَلَّ أن نجد فيه أثراً للانفعال ، بينما الأسلوب الأدبى يخاطب العاطفة فيثيرها بما يبسطه أمامها من تجارب وقيم شعورية ، وغايته الإمتاع الجَمالى والإقناع الذوقى ، أما العلمى فهدفه الإقناع العقلى بما يستخلصه من نتائج مدعومة بالدليل .

٢ - العبارات فى الأسلوب العلمى دقيقة محددة الدلالة لا إيحاء فيها ولا تعميم .

وفى الأسلوب الأدبى نجد فخامة الألفاظ والإيحاء والإثارة والشمول ، وشيوع الخيال بما فى اللفظ من دلالة مجازية وتشبيهية أو كنائية .

٣ - التجربة فى الأسلوب العلمى وسيلة إلى غاية أكبر منها تصير فى النهاية قاعدة أو قانوناً ، وليس للتجربة بعد صياغة القاعدة منها أى قيمة إلا من حيث هى مظهر « تاريخى » من مظاهر تطور العلوم [١] .

أما التجربة فى الأدب فهى نفسها « الغاية » .

(جـ) التكرار لا يُحمد فى الأسلوب العلمى ، بينما يقوم بوظيفة هامة فى الأسلوب الأدبى إذا دعت إليه ضرورة بيانية .

مثاله من القرآن تشبيه المنافقين بـ « رجل استوقد ناراً » مرة ، ثم تشبيههم بعد ذلك مباشرة بـ « ذى صَيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » ... !

وتشبيه أعمال الكافرين بـ « السراب يحسبه الظمآن ماءً » مرة ، ثم تشبيهها بعد ذلك بـ « ظلمات فى بحر لجى » ...

* * *

● صلة التعبير اللغوى بالتفكير :

ولتحديد المشكلة فى هذا الفرع نسأل سؤالاً فحواه :

هل يمكن التفكير بدون لغة ؟ أم اللغة ضرورية فى كل عملية تفكير ؟

ويجيب على هذا السؤال فريق من العلماء بما حاصله : إنَّ اللغة ليست ضرورية - دائماً - فى كل عملية تفكير . إذ يمكن التفكير بدون لغة كما فى حالات التأمل الذاتى - حديث النفس الصامت - وتنحصر وظيفة اللغة عند هذا الفريق فى نقل الفكرة إلى الآخرين . فهى مظهر خارجى للتفكير فقط ....

وآخرون أجابوا عن السؤال بما يلى : إنَّ اللغة ضرورية فى كل تفكير مفيد ، والإنسان يفكر بمعونة الكلمات لأنها ظلال للمعانى . ولا يمكن أن نفكر تفكيراً

---

(١) النقد الادبى .. أصوله ومناهجه : سيد قطب ص ٤٨

منتظماً سليماً إلا بإدراك العلاقات بين مدلولات الألفاظ سواء أكان ذلك تفكيراً صامتاً - حديث النفس - أو كان ذا صوت مسموع . أما التفكير بدون لغة فيمكن إذا استبدلنا باللغة رموزاً أخرى تحل محلها فى الدلالة . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذه الرموز تصير لغة بديلة . وتكن النتيجة أن اللغة ضرورية فى كل تفكير .

يقول الدكتور « بلارد » : هل نستطيع التفكير بدون لغة ؟ نعم .. إذا استطعنا أن نحل محل اللغة رموزاً أخرى . ولكن كلما زاد التفكير عمقاً من المقارنة والاستنباط والوصول إلى الأحكام العامة . زادت حاجة العقل إلى استخدام اللغة . وإذا أمكن التفكير بدون لغة فإن هذا التفكير لا يستمر طويلاً وهو فى هذه الحالة - أى التفكير - يحتاج إلى اللغة ليعتمد عليها فى تحديده ودقته . نعم إنَّ اللغة غير ضرورية لكل عمليات العقل . ولكنها لا بد منها عند التفكير المعنوى المحض [١] .

والذى أختاره فى هذا المجال أن اللغة ضرورية لكل تفكير ، لأن التفكير عمل ، ولكل عمل مادة ومجال ، ومادة التفكير لا تتحقق إلا عن طريق وحدات تدل على أجزائها وهى - هنا - المفردات اللغوية . وإذا تطورت الفكرة فلا بد من تركيب وحداتها الدالة عليها - فى جمل أو أسلوب - والعقل المفكر لا يصنع تفكيره من الوهم بل لا بد من ضبط أجزاء الفكرة بضوابط يستطيع إخضاعها فى عملية التفكير للتصور والقياس . وإلا كان التفكير أوهاماً تتبدد سراعاً .

والإنسان يفكر - أحياناً - نتيجة لما يسمعه أو يقرأه . والتفكير الاجتماعى يصحبه تعبير ، والتعبير فى أسمى مظاهره يتكوَّن من جمل وأساليب ، وإذن فلدينا دائرة متصلة الحلقات . تبدأ بتأثر الفرد بالمجتمع عن طريق اللغة - سمعاً أو قراءة أو رؤية - فيفكر نتيجة لهذا التأثر ثم يُعبِّر عن تفكيره وهكذا تصبح اللغة سبباً ونتيجة معاً . سبباً فى التفكير ونتيجة له .

* * *

(١) اللغة العربية .. أصولها النفسية ، وطرق تدريسها .

● مناقشة سريعة :

والآن هل يستطيع القائلون بجواز التفكير بدون لغة أن يجيبوا على هذه الأسئلة ، وإذا أجابوا فإلى أى مدى تكون إجاباتهم صائبة ؟

س : هل يمكن أن يجرى الإنسان معادلة جبرية دون أن تكون هناك رموز -نائبة عن اللغة - تمثل حدى المعادلة ؟

س : هل يمكن أن يتوصل إنسان إلى نتيجة قياس منطقى ما لم تكن هناك ألفاظ أو عبارات تتكون منها مقدمتا القياس ؟

س : لو عزلنا طفلاً - منذ ولادته - عن أى مؤثر خارجى يتعلم من خلاله مفردات لغوية وأهملناه من هذه الناحية حتى بلغ قادراً على الكلام . فإذا طلبنا منه أن يُكوِّن جملة لغوية فهل يمكن أن يفهم ما نقول ؟ . وإذا فهم - وهذا محال - فهل يستطيع أن يُكوِّن تلك الجملة ؟

لا أظن أن لدى القائلين بإمكان التفكير بدون لغة إجابات مقبولة على هذه الفروض ، وغيرها كثير .

ومن هنا تظهر أهمية اللغة فى التفكير إذ هى وسيلته تكويناً ونقلاً .. والذين يقولون بعكس هذا يجردون اللغة من أخص خصائصها .

* * *

● صلة التعبير اللغوى بالذكاء :

اللغة من حيث صلتها بالتفكير تكوِّنه وتبرزه ، ولها به صلة أخرى بعد الإيجاد والبروز ، هى أنها تسهم فى كيفيته فتجعله تفكيراً ذكياً فيكتسب المفكر عن طريقها مَلَكة الذكاء . والذكاء هو سرعة الفهم والاستنتاج ودقة القياس وسلامة النتائج .

وقد أشار الأستاذ « تشارلز سنكر » إلى العلاقة بين اللغة والذكاء فقال : «من المتفق عليه بين علماء اللغة عامة وجود عامل ارتباط إيجابى مهم بين نتائج قياس الذكاء والقدرة اللغوية . ذلك لأن جزءاً كبيراً من مقاييس الذكاء

المستعملة فى العادة لغوى . وعلى هذا فيجوز أن يكون هذا العامل نتيجة لأن بعض اختبارات الذكاء هى أيضاً لغوية . على أن ثمة أمراً واضحاً يستفاد من وجود هذا الأمر هو أن الإجابات اللغوية نوع هام من سلوك الإنسان الذى يمكن أن يوصف بالذكاء وعدمه » (١) .

والذى يُفهم من هذا النص أن قُدرة الإنسان اللغوية تتناسب تناسباً طردياً مع قدرات الذكاء . فكلما زادت مقدرته اللغوية رادت درجة الذكاء عنده . هذه صلة ، وصلة أخرى بين الذكاء واللغة باعتبار اللغة جزءاً هاماً من سلوك الذى يوصف بأنه ذكى أو غير ذكى .

ولتوضيح هذا يقول الأستاذ « ألبرت » ما نصه : « فنوع الإنشاء ذو قيمة أهم من كمها ، ولا يدل فقط على ما عند النشء من قدرة لغوية . ولكن يدل أيضاً على ما عنده من قدرة تربوية . بل وقبل هذا يدل على ذكاء الفرد العام ، فهو إذن مقياس دقيق من غير شك » (٢) .

و « ألبرت » فى هذا النص يتخذ « التعبير الإنشائى » مقياساً من مقاييس الذكاء وكيفية التعبير هى الدلالة دون الكم ، وكيفية التعبير المشار إليها تعتمد فى جودتها - كما يرون - على العناصر الآتية : صحة الأفكار وتنسيقها ، عمقها وجدتها ، ربطها ودقتها ، تسلسلها وتتابعها ، إصابه الهدف المقصود من الكلام (مراعاة الكلام لمقتضى الحال) ، اختيار اللفظ المناسب .

ولذلك فإنهم يرون أن ضعف الذكاء عند بعض الأطفال سببه ضعف القدرات العامة عنده . ولا سيما اللغة كالقراءة والهجاء . كما يرون أن الصم البكم لا تصل نسبة ذكائهم إلى ما تصل إليه نسبة الذكاء عند الأطفال العاديين . ذلك لأنهم محرومون من استخدام اللغة .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١ (٢) نفس المصدر ص ٥٢

والواقع أن اللغة عامل هام فى تنمية الذكاء وحدته . ما دامت اللغة هى الأداة فى التفكير . فالأشخاص الذين يفكرون تفكيراً عميقاً مضطرون للبحث عن معلومات ومعارف ، ونتيجة ذلك أنهم يحصلون على ثروة هائلة من تلك الأفكار . وبديهى أن هذه الأفكار تستدعى الكلمات التى تدل عليها . وبها يكون التحصيل والتفكير .. ونحن نطلق على مثل هؤلاء أنهم مفكرون أذكياء.

* * *

● وظيفة اللغة - إذن - ما هى ؟

إن الشائع بين الناس - قديماً وحديثاً - أن اللغة وسيلة لنقل الأفكار . وحول هذا المعنى حام كثير من المفكرين ، فهذا « هنرى سويت » يُعرِّف وظيفة اللغة تعريفاً كلاسيكياً فيقول : « إن اللغة هى التعبير عن الأفكار بوساطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فى كلمات » [(١)] .

ويذهب « إدوارد سابير » . نفس المذهب إذ يقول : « اللغة وسيلة إنسانية خالصة وغير غرزية إطلاقاً لتوصيل الأفكار . والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقه إرادية » [(٢)] .

ويتابع الأستاذين « هنرى » و « إدوارد » كثير من المحدَثين على ما بينهم من اختلافات فى المذاهب الفكرية ... إذ يرون أن الوظيفة الأساسية للغة هى أنها وسيلة من وسائل الاتصال أو التوصيل . أو النقل أو التعبير عن طريق « الأصوات الكلامية » وأن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعانى والانفعالات والرغبات ... إلخ ، فاللغة عندهم لا تعدو أن تكون مرآة عاكسة للفكر ، أو مستودعاً للفكر المنعكس .. ويلخص « جوفنز » الإنجليزى وظيفة اللغة فيما يأتى :

---

(١) اللغة والمجتمع : محمد السعران ص ١١ - ط . دار المعارف - الإسكندرية .

(٢) نفس المصدر ص ١٣

١ - إنَّ اللغة وسيلة للتفكير .

٢ - إنها عون آلى للتفكير .

٣ - إنها وسيلة للتسجيل وللرجوع إلى ما سجل .

ويقول « جوفنز » : « إن اللغة فى نشأتها الأولى كانت تستعمل فى الغرض الأولى على وجه الخصوص إن لم يكن استعمالها فيه وحده » (١) .

ولم يرتض الأستاذ « يسبرسن » ما قاله « جوفنز » وناقشه مناقشة خرج منها بأن الباحث المنصف لا يستطيع أن يتابع رأى « جوفنز » باعتبار ما ذكره من أن الأغراض الثلاثة هو الغاية الوحيدة للغة لأن هذا لا يتحقق إلا عند المفكرين فى أسمى لحظاتهم الأكاديمية (٢) .

وجاء « فالينوفسكى » العالم الأنثروبولوچى فخطا خطوات ملحوظة فى تغيير النظر إلى اللغة ، فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات البدائية والفطرية أن دراسته لن تصح دون معرفة الوظيفة التى تقوم بها اللغة فى المجتمع . ومن هنا كانت نظريته المهمة فى اللغة ... والتى أسهمت إلى حد كبير فى تطور الفكر اللغوى .. وخلاصة نظريته : « إنَّ اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو التوصيل ، بل هى حلقة فى سلسلة النشاط الإنسانى المنتظم . وهى جزء من السلوك الإنسانى . وهى ضرب من العمل وليست أداة « عاكسة» للفكر » (٣) .

تبلورت هذه النظرية وتبنّاها الكثيرون ، وذكروا أنماطاً من التعبير لم يكن المراد من اللغة فيها هو مجرد النقل . ومن تلك الأنماط التى ذكروها :

١ - المنولوج : ويُعرَّف بأنه حديث الإنسان لنفسه . أو الكلام الانفرادى كالتفكير بصوت مسموع ، ومثله الكلمات التى تتردد على الأفواه عند فقد عزيز. أو فراق صديق .

---

(١) المصدر نفسه . (٢) اللغة بين الفرد والمجتمع : عبد الرحمن محمد أيوب ص ٧

(٣) اللغة والمجتمع ص ١٧

٢ - السلوك الجَماعى : ويُطلق هذا النوع على ما يدور بين الجماعات فى المواسم الدينية - مثلاً - كالحج والجُمَع والأعياد ، وكالأناشيد والأدعية .

٣ - لغة التأدب : ويقصدون بها ما يجرى بين الناس فى مواقف معيَّنة مثل : شكراً ، وآسف .

٤ - عبارات التحية : ويقرب هذا النوع من سابقه مثل : « مرحباً بك » ، « كيف حالك » .

لاحظ الباحثون أن هذه الأضرب من التعبير وما ماثلها ، ليس ملحوظاً فيها معنى النقل ، لأن المراد بها مجرد الترويح عن النفس أو العبادة ، أو إظهار الأسف أو السرور .

ولذلك استنتجوا أن اللغة قد تستعمل - أحياناً - فى أغراض غير النقل والتوصيل ومَن يُقصر اللغة على هذه الوظيفة فقد قلّل من شأنها . وبعد هذا الغرض لآراء المفكرين نوجز وظائف اللغة فيما يأتى :

أولاً : أن اللغة نشأت كضرورة من ضرورات المجتمع البَشرى ، وكانت فى عصورها الأولى ذات مظاهر بدائية كبدائية الإنسان نفسه ، ثم تطورت بتطور الحياة المستمر فأخذت تنمو حتى أصبحت ذات قواعد وأصول وفروع . وأنها فى نشأتها الأولى كانت مقصورة على التفاهم البسيط ونقل الأفكار من طرف إلى آخر ، بعيدة كل البعد عن استخدامها فى أغراض جَمالية .

ثانياً : أن اللغة تؤدى دوراً هاماً فى صنع الحضارة الإنسانية وإليها يعزى كل تقدم حضارى باعتبارها وسيلة هامة فيه مباشرة أو غير مباشرة .

ثالثاً : وللغة - أيضاً - وظيفة نفعية ، وقد كانت - كذلك - فى عصورها الأولى .. ويراد بنفعية اللغة أنها كانت أداة من أدوات العمل لها علاقاتها المباشرة بالمدلول [١] ، لا يلحظ منها معنى فنى جَمالى . وعلماء النفس يسمون هذه الوظيفة : وظيفة اللغة الاجتماعية النفعية .. ويلخص « ألبرت » وظائف اللغة الاجتماعية فيما يأتى :

---

(١) النقد الأدبى الحديث : محمد غنيمى هلال ص ٣٦٩

١ - أنها تجعل للأفكار والمعارف الإنسانية قيماً اجتماعية .

٢ - أنها تحتفظ بالتراث والتقاليد الاجتماعية جيلاً بعد جيل .

٣ - أنها تساعد الفرد على تكييف سلوكه وضبطه .

٤ - إنها تزوِّد الفرد بأدوات التفكير [١] .

رابعاً : وللغة - كذلك - وظيفة جَمالية - وقد وُجدَت متأخرة عن الوظيفة النفعية العملية ، فجاءت الوظيفة الجَمالية نتيجة لرقى المجتمع وتطور الحياة .

ولعل أول مَن فرَّق بين وظيفة اللغة النفعية ووظيفتها الجَمالية الفنية هو « أرسطو » حين تصدَّى للرد على الذين يقولون : إنَّ القبيح يظل قبيحاً مهما كان التعبير عنه ، ويذكر أنَّ الأشياء القبيحة قد يُعبَّر عنها بما يستر قبحها - كما إذا أسمينا أرسطى « قاتل أمه » أو سميناه « المنتقم لأبيه » [٢] .

ووظيفة اللغة الجَمالية هى الهدف من كل الفنون والآداب .. وغايتها الإمتاع ولكنها لا تخلو من النفع غالباً ، لأن الفن الجدير بالتقدير هو ما كان للمجتمع وليس للفن . وهى فى « الفن للفن » ، وظيفة جَمالية إمتاعية فحسب ، أما فى « الفن للمجتمع » فهى وظيفة جَمالية إمتاعية نفعية .

ولا شك أن الوظيفة الجَمالية الإمتاعية تتفاوت فى القوة والضعف بحسب النماذج اللغوية التى تؤديها ، لأن الأساليب تتفاوت فيما بينها فى هذا المجال .. وللجمال الأساليب أسس ومقومات إذا توافرت فى الأسلوب عُدَّ من النماذج الأدبية الرفيعة وتناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل .

وسنعرض فى الفصل التالى للأسس والمقوِّمات التى تصقل العمل الأدبى وتُكسبه الأصالة والجدة الخالدة .

* * *

---

(١) اللغة العربية .. أصولها النفسية وطرق تدريسها ص ١٨

(٢) النقد الأدبى : محمد غنيمى هلال ص ٢٥٨ . وأرسطى هو بطل مسرحية يونانية قديمة قام بقتل أمه لأنها قتلت أباه بعد عودته من طروادة .

الفصل الثانى

قيمة الوجوه البلاغية فى جمال التعبير اللغوى

ندرس فى هذا الفصل المقوِّمات البلاغية فى تكوين الأسلوب الأدبى الرفيع ، ودور هذه الوجوه فى توجيه النقد الأدبى فى مراحله المختلفة . محاولين بلك دفع الهجوم الظالم على البلاغة العربية ومحاولة التهوين من شأنها فى مجال النماذج الأدبية ونقدها . عارضين كل ذلك فى إيجاز واف .

ويجب أن نُفرِّق - من الآن - بين مسألتين هامتين :

الأولى : البلاغة كفن من فنون الجَمال التعبيرى .

والثانية : البلاغة كعلم له قواعد وأصول .

والبلاغة كفن سابقة فى الوجود على البلاغة كعلم ، لأن البلاغة كعلم لم تُستنبط إلا فى مرحلة متأخرة عن وجود موضوعها ومجالها الذى برزت فيه . شأنها فى ذلك شأن جميع العلوم اللغوية ، فعلم النحو وعلم الصرف وعلم العروض إنما وُجِدَت نتيجة للبحث والدراسة فى النصوص النثرية والشعرية ... والعربى إنما كان يتكلم على هدى من علمى النحو والصرف دون وقوفه على تلك الاصطلاحات التى جَدَّت فى عصور الدراسة والتدوين ، والشاعر العربى كان ينطلق فى شعره دون أن يدرى على أى بحر من بحور الخليل أنشأ قصيدته . ودون أن يعلم ما شاع فى شعره من علل أو زحاف . وكذلك كان البليغ منهم يجرى فى تعبيره مع سجيته . ويصوِّر معانيه كما يحسها خياله مشبهاً ومكنياً ومستعيراً ، ومقدِّماً ومؤخراً . ومؤكداً أو تاركاً للتوكيد ... إلى آخر هذه الاعتبارات دون أن يلحظ ما توصَّل إليه السكاكى أخيراً من تأصيل وتقعيد لعلم البلاغة : معانيها وبيانها ومحسناتها فى المعنى أو اللفظ .

هذه حقيقة لا يمكن أن تُنكر .

● العصر الجاهلى :

وقد نشأت البلاغة كعلم نتيجة للملاحظات التى برزت أمام النُقَّاد فى التراث العربى الأصيل . بدأت هذه الملاحظات من العصر الجاهلى ، ذلك لأن الرواية العربية تنقل لنا من تلك الملاحظات ضوءاً ينبئ عن إحساس العرب بمواطن الجودة والرداءة فى الأساليب الأدبية .

تذكر الرواية العربية أن طُرفه بن العبد - الشاعر الجاهلى - عاب قول الملتمس - أو المسيب بن علس ، على خلاف فى هذه الرواية - لأنه قال :

وقَد أتناسَى الهمَّ عند احتِضارِهِ ... بِناجٍ عليه الصَّيْعَرِّيَةُ مُكْدِمُ

تقول الرواية : إن طُرفة حين سمع هذا البيت - وكان طفلاً - قال كلمته المشهورة : استنوق الجمل . إشارة إلى خطأ فى الاستعمال اللغوى لكلمة « الصيعرية » لأن الشاعر استعملها صفة للجمل ، وهى لا تكون إلا صفة للناقة فى العُرف اللغوى . ومن هذه الجهة كان نقده [١] .

ويبدو أن طُرفة كان متعجلاً فى نقده . لأن للشاعر مندوحة تصحح له هذا الاستعمال إذ تنص المعاجم اللغوية على أن اختصاص الناقة بهذا الوصف إنما هو فى لغة اليمن دون لغة الحجاز [٢] .

والمتتبع للملاحظات التى كان يدركها النقاد الجاهليون يمكن أن يخضعها لثلاثة مظاهر ..

أولها : خروج الشاعر عن الواقع أو مراعاة عنصر الصدق فى الحديث . وتطبيقاً لها المبدأ عابوا قول المهلهل بن ربيعة :

فَلَوْلاَ الرِّيحُ أسْمَعَ مَنْ بحُجزٍ ... صَلِيلُ البِيضِ تُقْرَعُ بالذّكُورِ

---

(١) معالم النقد الأدبى بتصرف : د . عبد الرحمن عثمان ص ٦٥

(٢) لسان العرب لابن منظور (جـ ٤) مادة « صعر » .

لاشتماله على مبالغة مستكرهة ، لأن بين « حجر » وهو قصبة اليمامة وبين مكان الموقعة مسيرة عشرة أيام . ولهذا عدُّوا قوله هذا « أكذب بيت قالته العرب » [١] .

ذلك لأن العربى لا يميل إلى المبالغة والتهويل فى تصوير عواطفه . وإنما يسير مع الواقع المحسوس ، أو يقاربه .

ولهذا - أيضاً - لم يعيبوا قول أوس بن حجر يصف السحاب :

دَانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الأرض هَيْدَبُهُ   يكادُ يَلْمسُهُ مَنْ قام بالرَّاحِ

لأنه لم يُغرب فى تصويره لدنو السحاب من الأرض ، فذلك منظر مألوف فى صحراء العرب ، والنفس العربية مولعة به دائماً لآن فيه أسباب الحياة ، والشاعر حتى مع هذا الإلف ، وحب النفس للسحاب ، احترس من الغلو فى المبالغة فأتى بكلمة « يكاد » ليكون معناه مقبولاً .

ثانيها : الربط القوى بين الألفاظ وما تدل عليه . وعليه عابوا قول الملتمس السابق لأنه خالف العُرف اللغوى فاستعمل اللفظ فى غير موضعه .. وإن التمسنا وجهاً لصحته كما سبق .

ثالثها : النظر فى اللفظ من حيث دلالته على معناه الجمالى ، ولذلك عاب النابغة الذبيانى قول حسّان بن ثابت :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى   وأسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَما

وَلَدْنا بَنِى العَنْقَاءِ وابْنَى مُحَرَّقٍ   فَأكْرِمْ بِنَا خالاً ، واكْرِمْ بنا أبْنمًا

قال النابغة لحسّان : « إنك لشاعر لولا أنك قلَّلتَ جفانك ، وفخرتَ بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلتَ : « يلمعن فى الضحى » ولو قلت : « يبرقن فى

---

(١) معالم النقد الأولى - المرجع السابق ص ١٠٥

الدُجَى » لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً . وقلت : « يقطرن من نجدة دماً » ... ولو قلتَ : « يجرين » لكان أكثر لانصباب الدم (١) .

هذه الملاحظات تدل - وإن تطرهَق إليها الشك أحياناً - على إدراك العربى لصقل الشعر ووقوفه على مواطن الجودة والجمال فيه . وقد نقلت هذه الرواية أن زهيراً كان يقلب النظر فى شِعره ينقحه ويهذبه حولاً كاملاً حتى سميت قصائده بـ « الحوليات » وكان زهير هذا رائد مدرسة أدبية لها أتباعها والمعجبون بها .. مثل ابنه كعب ، والحطيئة وهدبة بن الحشرم العذرى . وعنه أخذها جميل بن معمر ، وعن جميل تلقاها كثير عزة (٢) .

وللعرب فى الجاهلية أسواقهم المعروفة (عكاظ - وذو المجاز - وذو المجنة) التى كان الشعراء يعرضون فيها نتاجهم الأدبى ليقول النقاد فيه رأيهم ..فهى أشبه ما تكون بالمهرجانات الأدبية التى تُقام كل عام مرة فى العصر الحديث . بَيْدَ أن النقد عندهم كان يعتمد على اللمحة الخاطفة والبساطة والإيجاز ، ومرجعه فى الغالب إلى الذوق وإلى معايير غير الذوق كالجوانب الثلاثة التى عرضنا أمثلة لها آنفاً .

* *

● العصر الإسلامى :

وفى العصر الإسلامى جدّت ظاهرتان كان لهما أعظم الأثر فى توجيه الأدب وتهذيب الأساليب وتربية الذوق . وهما : القرآن الكريم ، والآثار النبوية الشريفة ، فقد جاء القرآن حافلاً بصور البيان . وضروب البديع . وجدة المعنى . وقوة الأسلوب وجزالته ووضوح المعنى وطرافته .

---

(١) الاغانى - دار الكتب : ٣٤٩/٥

(٢) من كتاب « البلاغة تطور وتاريخ » : د . شوقى ضيف ص ١٢

وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل ، فالقرآن - نفسه - شاهد صدق . وآياته تفيض بالبيان الرفيع فى كل حين بإذن ربها . فقد بهر العرب وتحدَّاهم فحاولوا . وحاولوا فجعزوا واعترفوا بأنه ليس من عمل بَشر .

فقد سمع الوليد بن المغيرة - أحد خصوم الرسول الألداء - الرسول ﷺ يقرأ صدر سورة « فصلت » فأعجب بها أيما إعجاب . ثم قال : « والله لقد سمعتُ من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن . وإنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنَّ أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق » .

وكان من أبرز الملاحظات التى أثارها القرآن تشبيهه طلع « شجرة الزقوم » برءوس الشياطين ، وهى ليست معروفة عندهم . وكانت هذه الملاحظة سبباً فى وضع أبى عبيدة كتابه « مجاز القرآن » .

وأسهمت أحاديث الرسول عليه السلام فى تطور الملاحظات البلاغية لأنه - عليه السلام - كان بليغاً فصيحاً - هو كما يقول الجاحظ : « لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشَّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة . وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام . مع استغنائه عن إعادته . وقلة حاجة السامع إلى معاودته » .

وكانت خطب الصحابة ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، والأمثال والحكم المأثورة عنهم وعن غيرهم نماذج رائعة للأسلوب البليغ فحفظها الناس وروتها الأجيال .

* *

● العصر الأموى :

وجاء العصر الأموى وهو عصر كان طابعه العام الفتن السياسية التى مزقت أوصال الأمة وفرَّقتها شيعاً وأحزاباً .. شيعة وزبيريين ، وأمويين وخوارج ، وأعادت العصبية العربية إلى الوجود مرة أخرى ، وكانت ملاحظات هذا العصر

ترجع إلى الذوق العربى والاحتكام إلى اللغة كالنحو والصرف واستقرت الاتجاهات النقدية فى هذه الفترة فى نواح ثلاث :

الأولى : نقد الذوّاقين من الأدباء والخلفاء والرواة .

والثانية : الموازنة الدقيقة بين نصين اتحدا فى الموضوع أو بين شاعرين يجمعهما مذهب شعرى واحد .

والثالثة : النقد العلمى المحتكم فيه إلى اللغة والنحو ، ونذكر لكل مثالاً فيما يأتى :

فمن نقد الذوّاقين قال أبو النجم يصف فرساً :

* يَسبَحُ أُخراهُ وَيطْفُو أوّله *

فنقده الأصمعى بقوله : إذا كان - الفرس - كذلك فحمار الكساح أسرع منه، لأن اضطراب مؤخره قبيح ، وإنما الوجه ما قال أعرابى فى وصف فرس أبى الأعور السلمى :

مرَّ كَلَمْعِ البَرْقِ شامَ نَاظِرُهْ   يَسْبَحُ أولاَهُ وَيْطفُو آخِرُهْ
فَمَا يَمَسُّ الأرضَ مِنْهُ حَافِرُهْ (١)

وقد طابق الأصمعى - هنا - بين المضمون والشكل - أو بين المعنى والصورة - فوجد اضطراباً فى المعنى نجم عن تعبير الشاعر عنه بقوله : « يسبح أخراه».

فنقده نقداً جمع فيه بين ذوق اهتدى بالفكر إلى فساد ما ذهب إليه الشاعر (٢) .

ومن نقد الموازنات أنشد بشار بن برد قول كثير عزة :

ألاَ إنَّمَا لَيْلَى عصى خَيْزَرَانَةٍ   إذَا غَمزُوها بِالأكُفِّ تَلينُ

(١) العقد الفريد : لابن عبد ربه : ١٧/٤ - ط . مصطفى محمد .

(٢) معالم النقد الأدبى ص ٧٤

فقال : للّه أبو صخر ، جعلها خيزرانة ، فواللّه لو جعلها عصا زبد لهجنها ، ألا قال كما قلت :

إذَا قَامتْ لحاجتِها تثنَّتْ   كَأنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْزَرَانِ

أقول : وقد فات بشاراً فى نقده للبيت المذكور ملحظ آخر .. هو أن كثيراً جعل « ليلى » فى قوله هذا مشاعاً بين الغامزين .. وكان الأحرى أن يثبت لها الصون والعفاف ..

ومن النقد العلمى المحتكم إلى اللغة قول الحضرمى ينقد الفرزدق فى قوله :

وعَضُّ زَمانٍ يا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ   مِنَ النَّاسِ إلاَّ مُسْحتاً أو مُجلَّفُ

فقد نقده أبو عبد اللّه الحضرمى النحوى بأنه عطف المرفوع : « مجلف » على المنصوب : « مسحتاً » [1] . والاحتكام فى هذا النقد راجع إلى النحو .

وقال الفرزدق أيضاً :

وإذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُم   خُضْعَ الرِّقَابِ نَواكِسَ الأبصارِ

فنقده أبو العباس محمد بن يزيد النحوى بأنه جمع « ناكس » على « نواكس » وفواعل خاص بالمؤنث .. ولم يجمع المذكر على فواعل إلا فى موضعين « فوارس » و « هوالك » والمحتكَم إليه فى هذا النقد هو الصرف .

« والحق أن الملاحظات البيانية كثرت فى هذا العصر ، وهى كثرة عملت فيها بواعث كثيرة ، فقد تمصَّر العرب واستقروا فى الأمصار وازدهرت حياتهم العقلية وأخوا يتجادلون فى جميع شئونهم السياسية والعقدية .. ونما العقل العربى نمواً واسعاً ، فكان طبعياً أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام ، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان لا فى مجال الخطابة والخطباء فقط . بل فى مجال الشعر والشعراء [2] .

---

(١) الوساطة ص ٩٢٨

(٢) البلاغة تطور وتاريخ : د . شوقى ضيف ص ١٥ – ط . دار المعارف .

ومع هذا الاتساع فى إدراك الملاحظات البلاغية ، فقد ظلت - كما هو الحال فى العصرين : الجاهلى والإسلامى - متصلة بالنقد فى أدق معانيه .

* *

● العصر العباسى :

وفى العصر العباسى تجددت الحياة فى كل جانب من جوانبها ، وازدهرت الثقافة والفكر ازدهاراً عكس آثاره على كل لون من ألوان الحضارة الإسلامية ، والباحث يرى خصائص العصر العباسى لم تتوافر لسواه ، وهى تتمثل فى ثلاث نواح :

الأولى : امتداد زمانى من سنة (١٣٢ إلى سنة ٦٥٦ هـ) حين سقطت بغداد فى يد المغول بزعامة قائدهم هولاكو .

الثانية : امتداد مساحى اتسعت رُقعة الدولة فيه وانتظمت تحت لوائها كثير من الأقطار والشعوب الأجنبية .

الثالثة : امتداد ثقافى فى جميع الفنون والعلوم ونشطت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، وامتزجت الثقافة العربية بغيرها من لغات الأمم التى شملها الفتح الإسلامى .

جاء فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » [١] لجرجى زيدان تلخيص للكتب التى نقلت إلى اللغة العربية فى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٣٣٢ هـ) نوجزه فيما يأتى :

بلغت الكتب التى نُقلت إلى اللغة العربية من اللغات الأخرى بضع مئات ، منها ثمانية فى الفلسفة والأدب لأفلاطون ، وتسعة عشر فى الفلسفة والمنطق والأدب لأرسطو ، وعشرة فى الطب لأبقراط . وثمانية وأربعون فى الطب لجالينوس .

---

(١) الجزء الثالث ص ٣٥

وبضعة وعشرون كتاباً فى الرياضيات والنجوم لأقليدس وآخرين ، ونحو عشرين كتاباً عن الفارسية فى التاريخ والأدب . ونحو ثلاثين كتاباً من السنسكريتية وأكثرها فى الرياضيات والطب والنجوم والأدب . ونحو عشرين كتاباً من اللغة السريانية أو القبطية ، وهناك بضعة كتب نقلت من اللاتينية والعبرانية ».

لهذه العوامل الثلاثة كان العصر العباسى هو العصر الذهبى بحق فى مجال العلوم والفنون ، وقد حفل شأن هذا العصر بفحول العلماء والأدباء والنُقّاد والقُرّاء والخطباء . ونبغ فيه أعلام الفكر العربى الإسلامى نبوغاً منقطع النظير ، ووُضِعت فيه كثير من الكتب .

فقد وضع كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة معمر بن المثنى (١٨٨ هـ) الذى ألفه للفضل بن الربيع . وبعده كان كتاب « معانى القرآن » لأبى زكريا الفرّاء (٢٠٧ هـ) وقد تحدّث فى كتابه هذا عن بعض الوجوه البلاغية مثل الكناية والتشبيه والتمثيل والاستعارة ، ولكنه لم يُصرِّح بذكر اسمها .

ووضع فيه الجاحظ (المتوفى ٢٥٥ هـ) كتابيه « البيان والتبيين » ، و « الحيوان » وفيهما - وخاصة الأول - كثير من التوجيهات البلاغية وهو أول مَنْ يُصرِّح باسم الاستعارة إذ يقول فى قول الشاعر :

وَطَفِقَتْ سَحَابَةٌ تَغْشَاهَا　　　تَبْكِى عَلَى إِعَرَاصِهَا عَيْنَاهَا

« جعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة . وهى تسمية الشئ باسم غيره إذ قام مقامه » [١] .

وللجاحظ كتاب آخر غير المذكورين سماه « نظم القرآن » تحدث فيه عن كثير من الفنون البلاغية ولهذا يعده بعض المحدَثين بأنه واضع علم البلاغة [٢] .

وجاء بعد الجاحظ تلميذه ابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ هـ) ووضع كتابه « تأويل مشكل القرآن الكريم » ، ولعله انتفع ببحوث أستاذه الجاحظ فى هذا

(١) مقدمة كتاب « تلخيص للبيان فى مجازات القرآن » - للشريف الرضى .

(٢) هو د . شوقى ضيف : « البلاغة تطور وتاريخ » .

المجال وتكاد تتفق تحليلاته البلاغية للنصوص مع ما انتهى إليه الرأى عند المتأخرين من علماء البلاغة .

انظر إليه يقول : « العرب تستعير الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجاوراً له ، أو مشاكلاً : فيقال للنبات : « نوء » ، لأنه يكون من النوء عندهم .. ويقولون للمطر : « سماء » لأنه من السماء ينزل ، فيقال : ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم .. قال الشاعر :

إذَا نَزَلَ السَّماءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وإنْ كانوا غِضابا

ويقولون : ضحكت الأرض - إذا أنبتت - لأنها تبدى من حسن النبات وتتفتق عن الزهر كما يفتر الضاحك عن الثغر .. ولذلك قيل لطلع النخل إذا انفتق عنه كافوره : الضحك ؛ لأنه يبدو منه للناظر كبياض الثغر »[(١)] .

وظاهر مما ذكره أنه لا يُفرِّق بين الاستعارة - التى يتحدث عنها - وبين المجاز المرسل . لأن ما ذكره فى المثال الأول مجاز مرسل . وكذلك الثانى ، أما المثالان الأخيران فإن أولهما يمكن حمله على الاستعارة التمثيلية أو المكنية . والثانى استعارة أصلية تصريحية .

وقد استغرق باب الاستعارة أكثر من أربعين صفحة من كتابه المذكور . وهو كغيره من السابقين لا يذكر قرينة المجاز .

هذه المحاولات - التى بدأت بوضع أبى عبيدة كتابه « مجاز القرآن » وانتهت بابن قتيبة حيث وضع كتابه « مشكل القرآن » - مهدت لظهور مرحلة جديدة أخذ العلماء فيها يسجلون من ملاحظاتهم الاصطلاحات الفنية للبلاغة ، بدأت هذه المرحلة بابن المعتز ، وانتهت بالسكاكى .

* *

---

(١) مشكل القرآن ص ١١٢

● كتاب البديع وسبب تأليفه :

ألَّف ابن المعتز - أبو العباس عبد الله بن المعتز (المتوفى ٢٩٦ هـ) كتابه « البديع » سنة ٢٧٤ هـ . وكان الباعث له على تأليفه ما يوضحه هو نفسه: « قد قدَّمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا فى القرآن واللغة ، وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم .. وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون بديعاً ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومَن تقيَّلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم إنَّ حبيب بن أوس الطائى - من بعدهم - شغف به حتى غلب عليه ... وأكثر منه فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض ... وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف » [١] .

● البديع .. خمسة :

وقد بحث ابن المعتز فى كتابه خمسة فنون تحت اسم « البديع » هى : الاستعارة والتجنيس ، والمطابقة ، ورد الأعجاز على الصدور ، والمذهب الكلامى .. وحين ينتهى من الحديث عنها يردف عليها فنوناً أخرى بلغ بها ثلاثة عشر فناً سماها « محاسن الكلام » . ويوضح أن هدفه من ذكر هذه الأنواع كلها لم يكن الحصر الشامل لجميع أنواع البديع ولا لجميع أنواع المحاسن ، وليس لأحد أن يدَّعى ذلك .

ويبدأ بالاستعارة فيُعرِّفها بأنها : « استعارة الكلمة لشئ لم يُعرف بها من شئ قد عُرف بها » . وساق لها شواهد كثيرة من القرآن منها : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [٢] ، ومن الحديث النبوى : « ... كلما سمع هيعة طار إليها » ، ومن كلامِ الصحابة قول علىّ كرم الله وجهه : « ... واحلل عُقَد الخوف عنهم » ، ومن كلام غيرهم قال : قال بعض الصالحين فى ذم الدنيا :

(١) ابن المعتز : د . عبد المنعم خفاجى . ومعه كتاب البديع ص ٦١٢

(٢) الإسراء ٢٤

دار غرست بها الأحزان ... » . وتكاد تكون الأمثلة التى ذكرها من قبيل الاستعارة المكنية ، كما تحدث عن الاستعارات الرديئة وذكر طائفة منها مثل :

فَضَرَبْتُ الشتا فى أَخْدَعَيْهِ ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْداً رَكُوبا [١]

وينتقل إلى الحديث عن التجنيس ، ويُعرِّفه بقوله : أن تجئ الكلمة تجانس أخرى فى شعر أو كلام ، ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على السبيل الذى ألف الأصمعى كتاب « الأجناس » عليها [٢] .. ويقسمه إلى نوعين : ما تجانس فيه الكلمتان فى الحروف والمعنى ، ومثَّل له بقول الشاعر:

يَوْمَ خَلَجْتَ على الخليجِ نُفوسَهُمْ غَضَباً ، وأَنْتَ بِمِثْلِهَا مُسْتَتَامُ

أو يكون تجانسهما فى الحروف دون المعنى ، ومثَّل له بقول الشاعر :

يا صاحِ إنَّ أخَاكَ الصَّبَّ مَهْمُومُ فَارْفِقْ بِهِ إنَّ لوم العَاشِقِ اللُّومُ ...

أى اللؤم .

وبقوله تعالى : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ ﴾ [٤] ... وبقوله عليه الصلاة والسلام : « عصيَّة عصت الله ، وغفار غفر الله لها » .

ومن الشعر بقول أبى تمام :

جَلاَ ظُلُمَاتِ الظُّلْمِ عَنْ وَجْهِ أُمَّةٍ أَضَاءَ لَهَا مِنْ كَوكَبِ الحقِّ آفِلُهْ

وقد ساق كثيراً غير الذى ذكرناه . وهو وإن لم يقسم الجناس إلى أنواعه المعروفة . فإن كثرة الأمثلة التى ساقها كانت دليلاً للمتأخرين الذين نظروا فيها وتوصلوا إلى وضع أقسام الجناس المختلفة وضبطها .

---

(١) هو لأبى تمام .
(٢) ابن المعتز : د . عبد المنعم خفاجى ص ٦٤٤
(٣) النمل : ٤٤
(٤) الروم : ٤٣

وطفق يتحدث عن الطِباق - أو المطابقة - ويذكر تعريف الخليل له : « يقال طابقتُ بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد » [١] .

ويمثل له من القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [٢] ، ويقول الرسول عليه السلام : « إنكم لتكثرون عند الفَزع ، ولتقلون عند الطمع » . ومن الشعر بقول عبد الله بن الزبير الأسدى :

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً ... وَرَدَّ وَجُوهَهُنَّ البِيضَ سُوداَ

وبعد أن أفاض فى ذكر أمثلة الطباق الجيد ذكر ما ردئ منه ممثلا له بقول الأخطل :

قَلْتُ المُقَامُ ، وَناعِبٌ قَالَ النَّوَى ... فعَصَيْتُ أمْرِى وَالمُطَاعُ غُرَابُ

ويُعلِّق عليه بقوله : وهذا من غث الكلام وبارده [٣] .

ثم تحدَّث عن رد الإعجاز على الصدور ، وقسَّمه ثلاثة أقسام . أولها ما وافق فيه آخر كلمة من البيت ، آخر كلمة فى نصفه الأول ، ومثَّل له بقول الشاعر :

تَلْقَى إذَا ما الأمْرُ كَانَ عَرَمْرَمَا ... فى جَيْشِ رَأْىٍ لاَ يُفَلُّ عَرَمْرَمُ

وثانيها : ما يوافق فيه آخر كلمة من البيت أول كلمة فى نصفه الأول ، ومثاله قول الشاعر :

سَرِيعٌ إلى ابْنِ العَمِّ يَلْطُمُ وَجْهَهُ ... وَلَيْسَ إلى داعِ النَّدَى بِسَرِيعِ

وثالثها : ما يوافق فيه آخر كلمة من البيت بعض ما فيه ، ومثاله قول الشاعر :

عَمِيـــدُ بَنى سُلَيْمٍ أقْصَدَتْهُ ... سِهَامُ المَوْتِ وَهِى لَهُ سِهَامُ

ثم ختم حديثه عن فنون البديع الخمسة بالحديث عن المذهب الكلامى ، ويقول : إن الجاحظ هو الذى دعاه بهذا الاسم وإنه باب لم يجئ فى القرآن منه شئ وهو ينسب إليه التكلف - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

---

(١) ابن المعتز : عبد المنعم خفاجى ص ٦٦١ — (٢) البقرة : ١٧٩

(٣) المصدر السابق ص ٦٧٥

وهو - لهذا - يقتصر فى أمثلته على غير القرآن والحديث . ولم يذكر له تعريفاً كما صنع فى الأنواع الأربعة السابقة ، وأمثلته التى ذكرناها لم تبلغ من حيث الإفاضة مثل ما أفاض فى غيره . ويبدو من هذا كله أن ابن المعتز - وهو الشاعر الرقيق الحس والناقد الحاد الذكاء - لم يرتح لهذا الفن لجريه على طريقة أهل المنطق ، كما جاء فى كتاب « الصناعتين » لأبى هلال [١] .

ونرى أبا هلال يحذ حذو ابن المعتز فى أن القرآن يخلو من استخدام المذهب الكلامى ، أو هو - على الأقل - يردد ما قاله ابن المعتز ، ثم يمثل له من غير القرآن ومن غير الأحاديث ، والباحث المدقق إذا نظر إلى هذا الفن - المذهب الكلامى - من حيث تعريفه عندهم ومن حيث الأمثلة التى ذكروها - تطبيقاً عليه - لا يعدم له مثالاً أو أمثلة فى القرآن الكريم بله السُنّة . والحُجَّة التى ذكروها وهى « التكلف » . ليست بلازمة فى المذهب الكلامى . وهى عيب اشترط النقاد براءة البديع كله منه لا المذهب الكلامى فحسب .

فكلما استخدم القرآن البديع بألوانه المختلفة - خالياً من كل عيب - استخدم - كذلك - المذهب الكلامى - خالياً من عيب التكلف وغيره من العيوب الأخرى .

وحسبنا أن نذكر أنّ له أمثلة من القرآن ، لا تختلف مع ما ذكروه من أمثلة عليه من خارج القرآن ، من حيث اندراجها تحت التعريف .

جاء فى هامش « الصناعتين » ما يأتى :

« قالوا فى تعريفه : هو إيراد حُجَّة للمطلوب على طريقة أهل الكلام . وهو أن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب .. وعلى ذلك لم يستشهد على المذهب الكلامى بأعظم من شواهد القرآن ، وأوضح الأدلة فى شواهد هذا النوع قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [٢] ، قالوا فى

---

(١) الصناعتين ص ٢٩٨ - ٣٩٩

(٢) الأنبياء : ٢٢

تقرير ذلك : وتمام الدليل أن تقول : لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة غير الله [١] .

وهذا الذى ذكره حق ، ومن أمثلته - أيضاً - فى القرآن : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [٢] .

وقوله : ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ ﴾ [٣] .

وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [٤] .

وقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [٥] .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُ الإنسَانُ أءِذَا مَا متُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [٦] .

وغير ذلك كثير ، وإذا جاز لابن المعتز ومن بعده أبو هلال أن ينكرا وجود هذا النوع فى القرآن ، ابن المعتز بالأصالة وأبو هلال بالتقليد ، فالأمر يسير لتقدم زمنيهما ، فكيف يجوز لبعض المحدثين متابعتهما فى ذلك ؟

فقد رأينا الدكتور شوقى ضيف يذكر عن ابن المعتز هذه الشُبهة - شُبهة التكلف فى المذهب الكلامى وعدم وروده فى القرآن لذلك - دون أن يُنبِّه إلى وجه الصواب فيها على كثرة معالجته لكثير من المشاكل التى تعرَّض لها كتاب « البديع »

* *

(١) الصناعتين ص ٣٢٦ (٢) يس : ٧٩ (٣) يس : ٨١

(٤) الأعراف : ٢٩ (٥) الأنبياء : ١٠٤ (٦) مريم : ٦٦ - ٦٧

● محاسن الكلام :

أما الأنواع الأخرى التى خصَّها باسم محاسن الكلام فقد ذكر منها : الالتفات - الاعتراض - الرجوع - حسن الخروج - تأكيد المدح بما يشبه الذم - تجاهل العارف - الهزل يُراد به الجد - حسن التضمين - التعريض والكناية - الإفراط فى الصفة - حسن التشبيه - لزوم ما لا يلزم - حسن الابتداء .

هذه إشارة سريعة لبديع ابن المعتز ، وهو أول كتاب حاول فيه وضع ضوابط للفنون البلاغية ، ولا شك أن ابن المعتز قد أفاد من إشارات السابقين مثل الجاحظ والأصمعى ، خاصة وأنه نقل عن الأصمعى بعض أمثلته فى الالتفات . وهى قول الشاعر :

أَتنْسَى إذْ تُودِعُنَا سُلَيْمَى بِعُودِ بَشَامَةٍ سُقِىَ البشَامُ

لكنه ينفرد عن السابقين بمحاولته الجادة ، وتضنيفه المتخصص . ولذلك كان لكتابه الآثار الآتية :

أولاً : أنه أول كتاب صُنِّف فى البلاغة العربية . وتخصص فيها ولم يخلطها بغيرها من فنون الأدب كما هو الحال عند الجاحظ والأصمعى .

ثانياً : أنه كشف عن زيف مدرسة البديع .. وادعائها أنها صاحبة الفضل فيه ، فالقرآن الكريم والأدب النبوى والأدب الجاهلى - شعره ونثره - والأدب الإسلامى - منظومه ومنثوره - هذه المصادر غنية بذكر الأمثلة التى تدل على أصالة هذا الفن وعمق جذوره فى الآداب الرفيعة .

ثالثاً : وكتاب « البديع » - بعد - دراسة فنية لعناصر الجمال فى الفن الأدبى جُمِعَ فيه محاسن الكلام التى ازدان بها كلام الفحول من الجاهليين والإسلاميين ووردت فى الكتاب الكريم ، وفى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والتابعين [١] .

---

(١) البيان العربى : د . بدوى طبانة ص ٩٨

رابعاً : أنه مهَّد لنوعين من الدراسات :

النوع الأول : البحث البلاغى نفسه . حيث كان هذا الكتاب الشعاع الذى أمسك به مَنْ جاء بعده من العلماء فعكفوا على دراسة الوجوه البلاغية وجمعها وتصنيفها والمضى بها خطوات إلى الأمام عصراً بعد عصر حتى اكتملت معالمها وأصبحت فناً مستقلاً بعد أن كانت مزيجاً مع الفنون الأخرى كاللغة والأدب ، وخاصة النقد .

والنوع الثانى : أنه مهَّد لنوع جديد من النقد الذى كان له عظيم الأثر فى إثراء النقد الأدبى عند العرب . واكتمال ووضوح دعائمه ، هو نقد « الموازنات » .

* * *

● قدامة بن جعفر :

وجاء قدامة بن جعفر (٢٧٥ - ٣٣٧ هـ) بعد ابن المعتز ، ووضع كتابه المعروف « نقد الشعر » وقد تحدَّث فيه عن البديع وفنونه بجانب حديثه عن الشعر ومعايير الجودة فيه حيث اللفظ ، والوزن ، والقافية ، والمعنى . والذى يهمنا من هذا الكتاب حديثه عن البديع لاتصاله بموضوعنا .

والبديع - عن قدامة - ثمانية وعشرون فناً وافق ابن المعتز فى ثمانية منها وهى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، والالتفات ، والاعتراض ، ويسميه « التتميم » ، والإفراط فى الصفة ويسميه « الغلو والتشبيه » (١) .

وينفرد قدامة بالأنواع الآتية :

١ - صحة التقسيم ٢ - صحة المقابلات ٣ - صحة التفسير

٤ - ائتلاف اللفظ مع المعنى ٥ - المساواة ٦ - الإشارة

---

(١) وقع خطأ فى المصدر المذكور إذ قال : توارد معه قدامة فى سبعة ، والصحيح : ثمانية .

٧ - الإرداف ٨ - التمثيل

٩ - ائتلاف اللفظ مع الوزن ١٠ - ائتلاف المعنى مع الوزن

١١ - ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت

١٢ - التوشيح ١٣ - الإيغال ١٤ - اعتدال الوزن

١٥ - ائتلاف لفظ مع لفظ ١٦ - تلخيص الأوصاف ١٧ - التوازى

١٨ - المضارعة ١٩ - عكس اللفظ أو عكس ما نظم من بناء

٢٠ - اتساق البناء والسجع [١] .

وليس يعنينا من قدامة أكثر من هذا فإنه أمسك بالشعاع الذى أشعل فتيلته ابن المعتز واستطاع أن يوسع دائرة الضوء فى نفس الاتجاه .

بَيْدَ أنَّ ما انتهى إليه ابن جعفر لم يكن موضع رضا عند المتأخرين نقاداً وعلماء ، وفضَّلوا عليه ابن المعتز فى كل موضع اختلف معه فيه قدامة ، ولعل السر فى ذلك أن قدامة قد سلك فى كتابه مسلكاً منطقياً جافاً متأثراً بالثقافة اليونانية القديمة .

* * *

● ابن طباطبا :

وجاء بعده ابن طباطبا [٢] فوضع كتابه « عيار الشعر»وهو يشرِّع فيه لصناعة الشعر ، وما ينبغى أن يلم به الشاعر فلا بد له من طبع وذوق ، قبل الوقوف على عروضه . ولا بد من معرفة علمى اللغة والنحو ، والوقوف على أيام العرب وشعرهم ونثرهم وحكمهم وأمثالهم . ولا بد من معرفة مناهج فن الكلام جزله وعذبه . ولا بد من الوقوف على ما يشين الشعر من سخيف الكلام وقبيحه ، ولا بد فيه من تمكين القوافى وإصابة الألفاظ مواضعها .

---

(١) نقد الشعر .

(٢) هو محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى (توفى سنة ٣٢٢ هـ) : معجم الأدباء : ١٥٦/١٨

وهو يُفرِّق بين حدى المنثور والمنظوم ، ويتحدث عن أنواع المنظوم فيقسِّمه إلى ما حسن لفظه وجاد معناه وما حسن لفظه دون معناه . أو معناه دون لفظه ، وما تأخر لفظه ومعناه .

ويتحدث عن طريقة العرب فى التشبيه - وهو من أهم مباحثه - ويقسمه إلى وجوه : تشبيه الشئ بالشئ صورة .. كقول امرئ القيس :

كَأنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا ... وَأرْحُلِنَا الجِـزْعَ الَّذِى لَمْ يُثقَّبِ

ثم تشبيه الشئ بالشئ لوناً وصورة كتشبيه الثغر بالأقحوان ، إذ لونهما وصورتهما سواء ، ثم تشبيه الشئ بالشئ صورة ولوناً وحركة وهيئة ؛ كقول الشاعر :

الشَّمْسُ كَالمِرْآةِ فى كَفِّ الأشَلِّ ... لَمَّا رَأَيْتُهَا بَدَتْ فَوْقَ الجَبَلِ

ثم تشبيه الشئ بالشئ حركة وهيئة كقول الأعشى متغزلاً :

كَأنَّ مِشْيَتِها من بَيْتِ جَارَتِهَا ... مَرُّ السَّحَابَةِ لا رَيْثٌ وَلاَ عَجَلُ

ثم تشبيه الشئ بالشئ معنى لا صورة ، كتشبيه الجواد بالبحر ، والشجاع بالأسد ، وماضى الأمور بالسيف .

ثم تشبيه الشئ بالشئ حركة وبطئاً وسرعة ؛ كقول امرئ القيس يصف فرسه :

مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُـدْبِرٍ مُقبِلٍ مَعاً ... كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِن عَلِ

وتشبيه الشئ بالشئ لوناً كتشبيه الخمر بالدم ، والليل بلون الغراب . وتشبيه الشئ بالشئ صوتاً كتشبيه صوت النبل فى الحروب ببكاء الثكلى . ويتحدث عن أدوات التشبيه : الكاف ، وكأن ، ومثل ، ويكاد ، وتخال .

كما يتحدث عن التشبيهات المعيبة لمخالفتها لمعايير الجمال ، كشدة الغلو فيها ، أو نبو التشبيه عن الذوق . كما تحدَّث عن التشبيهات البديعة الغريبة .

ويتحدث عن الكناية ويسميها « التعريض » . ويعرض لطائفة من الأبيات المستكرهة الألفاظ المتفاوته النسج . ولأخرى أفرط الشعراء فى معانيها وبالغوا مبالغة شديدة كقول أبى نواس يمدح الرشيد :

وَأَخَفْتَ أهلَ الشِّرْكِ حَتَّى أَنَّهُ ... لَتَخَافُكَ النُّطَفُ الَّتِى لَمْ تُخْلَقِ

وينقد قول زهير :

وَأَعْلَمُ مَا فِى اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِى عَنْ عِلْمِ مَا فى غَدٍ عَمٍى

فكلمة « عمى » عجيبة الموقع . ونسى أن يأخذ عليه كلمة « قبله » فقد عدّها النقاد حشواً لا معنى لها .

وفى الكتاب كثير من مسائل الأدب والنقد والبلاغة . وقد رأينا أن الأساس الذى بنى عليه ابن طباطبا نقده يعتمد فى كثير من الأحيان على التوجيه البلاغى ومقاييس البيان .

* * *

● أبو هلال العسكرى :

وتلا هؤلاء أبو هلال العسكرى ، ووضع كتابه « سر الصناعتين » سنة ٣٩٤ هـ ، ويُعد هذا الكتاب نقطة تحول فى البيان العربى تناول فيه البلاغة بروح الناقد ، أو النقد بروح البليغ ، وقد حدّد أبو هلال وظيفة البلاغة فى مقدمة كتابه المذكور . ونوجز ما انتهى فيها فيما يأتى :

أولاً : أنها وسيلة فهم الإعجاز فى كتاب الله ، والإعجاز عنده يقوم على الحُجّة والبرهان ، وعلم البلاغة هو الذى يقدّم ذلك البرهان ويكشف عنه .

ثانياً : وصنّاع الأدب ومنشئوه يقفون على الجيد الذى يقصدونه ، والقبيح الذى ينبغى أن يتحاشوه ، والأديب الذى يعدم هذا العلم يمزج الصفو بالكدر ، ويستعمل الوحشى العكر ، فيجعل نفسه مهزلة للجاهل ، وعبرة للعاقل .

ثالثاً : ورواة الأدب يعتبرون هذا العلم فى معرفة الجيد الذى يُروَى ، والردئ الذى ينبغى أن يُطرح ، وبهذا المقياس عاب أبو هلال - الأصمعى - الذى اختار قصيدة للمرقش جاء فى مطلعها :

هَلْ بِالدِّيَارِ أنْ تُجِيبَ صَمَمْ لو أنَّ حَيًّا نَاطِقاً كَلَّمْ [1]

يقول أبو هلال : « ولا أدرى على أى وجه صرف اختياره إليها ، وما هى بمستقيمة الوزن ، ولا مونقة الروى ، ولا سلسة اللفظ ، ولا جيدة السبك ، ولا متلائمة النسج » [2] .

وبه أيضاً عاب المفضل لأنه كان يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له . ويكثر فيه الغريب [3] . ويعلل نقده للمفضل كما علله للأصمعى فيقول :

« لأن الغريب لا يكثر فى كلام إلا أفسده ، وفيه دلالة الاستكراه والتكلف » [4] .

رابعاً : وعلماء العربية والنقاد إفادتهم من معرفة البلاغة تفوق إفادة الأدباء والرواة ، لأن البلاغة تقدِّم لهم المقاييس التى يعتمدونها فى الحكم على الأدباء والتمييز بين آثارهم .. وصاحب العربية إذا أخل بطلب هذا العلم بان جهله ، وظهر نقصه [5] .

* *

● قيمة الكتاب :

وكتاب « الصناعتين » غنى بالدراسات النقدية والأدبية والبلاغية . وتظهر فيه سمة التقعيد ورسم الحدود وتقرير الموضوعات واستقلال البحث البلاغى . وقد درس المؤلف من فنون البلاغة خارج دائرة البديع الفنون الآتية : التشبيه - الإيجاز والإطناب - السجع والازدواج .

---

(١) البيان العربى : د . طبانه ص ١٠٧ (٢) الصناعتين ص ٣٨
(٣) نفس المصدر ص ٤ (٤) نفس المصدر ص ٤ (٥) نفس المصدر ص ٣

ومعروف أن التشبيه من مباحث البيان ، والإيجاز والإطناب من مباحث المعانى . أما السجع والازدواج فمن مباحث البديع ، وللعسكرى عذرة فى إخراجهما من دائرة البديع لأن مسائل العلوم الثلاثة لم تتضح كل الوضوح فى عصره .

أما فنون البديع التى ذكرها فى كتابه هذا فقد بلغت خمسة وثلاثين وجهاً هى :

١ - الاستعارة والمجاز ٢ - التطبيق ٣ - التجنيس ٤ - المقابلة
٥ - صحة التقسيم ٦ - صحة التفسير ٧ - الإشارة ٨ - الإرداف والتوابع ٩ - المماثلة ١٠ - الغلو ١١ - المبالغة ١٢ - الكناية والتعريض ١٣ - العكس والتبديل ١٤ - التذييل ١٥ - الترجيع
١٦ - الإيغال ١٧ - الترشيح ١٨ - رد الأعجاز على الصدور
١٩ - التكميل والتتميم ٢٠ - الالتفات ٢١ - الاعتراض ٢٢ - الرجوع
٢٣ - تجاهل العارف ٢٤ - الاستطراد ٢٥ - المؤتلف والمختلف
٢٦ - السلب والإيجاب ٢٧ - الإستثناء ٢٨ - المذهب الكلامى
٢٩ - التشطير ٣٠ - المجاورة ٣١ - الاستشهاد والاحتجاج
٣٢ - التعطف ٣٣ - المضاعف ٣٤ - التطريز ٣٥ - التلطف [١] .

هذه أنواع البديع كما ذكرها أبو هلال وقد قال إنه زاد على ما ذكره المتقدمون ستة أنواع بينها وهى : التشطير ، والمجاورة ، والتطريز ، والمضاعف ، والاستشهاد ، والتلطف . وقد أفاض فى شرح هذه الفنون جميعاً وأكثر من إيراد الأمثلة عليها .

وجاء سهواً فى كتاب « البيان العربى » للدكتور بدوى طبانة أن أبا هلال زاد فنون البديع المعروفة عند المتقدمين سبعة فنون ، وهى كما ذكرنا آنفاً ستة

(١) الصناعتين ص ٢٠٤

وليست بسبعة .. كما وقع فى نفس الكتاب المذكور خطأ آخر هو إسقاط نوع مما زاده أبو هلال وإثبات آخر مما لم يزده مكانه ، ومن الخير أن نذكر ما جاء فى المصدرين ليسهل علينا إدراك الحقيقة .

أبو هلال يذكر فى كتابه الفنون التى زادها على الترتيب كما يلى : التشطير - المجاورة - التطريز - المضاعف - الاستشهاد - التلطف .

والدكتور طبانة يذكرها كما يلى : المجاورة - الاستشهاد - التعطف - المضاعفة - التطريز - التلطف - المشتق .

وبنظرة عابرة يتضح لنا أمران :

أولهما : أن الدكتور طبانه أسقط مما زاده أبو هلال « التشطير » وهو النوع الأول عند أبى هلال .

ثانيهما : أنه زاد على ما ذكره أبو هلال نوعين . هما : التعطف والمشتق [١] .

* * *

● الطبع والصنعة :

وقد كان القرن الرابع الهجرى حافلاً بجهود العلماء والنقّاد ، وساعد على جدية هذه الجهود وعظمة شأنها . أن وجد مذهبان فى الشعر . مذهبان متقابلان لكل منهما أنصار وأتباع ، ولكل منهما أعداء وقادحون .

أحدهما : مذهب « المطبوعون » الذين لا يتكلفون فى صناعة الشعر ، بل يسيرون مع طبائعهم ويمثل هذا النوع أبو عبادة البحترى .

---

(١) انظر : البيان العربى ص ١٢١ - ١٢٢ - الطبعة الثانية - الأنجلو .

وثانيهما : مذهب « المتكلفون » الذين يبعدون فى معانيهم ويحتالون لإيراد « البديع » فى شعرهم يزينونه به ، وإن كان ذلك على حساب المعنى . وجودة التعبير ، ويمثل هؤلاء أبو تمام .

وقد رأينا أن أول مَن حمل حملة شعواء على أصحاب البديع هو ابن المعتز، بل إنه وضع كتابه للرد عليهم خاصة ، وأنهم لم يأتوا بجديد لم يعرفه السابقون بل إن إسرافهم فيه جعل له بهم شبه إضافة .

نقول : كانت هذه البوادر كلها سبباً فى نشأة الخصومة الأدبية والفكرية بين أنصار القديم والطبع . وأنصار الجديد والصنعة . وهذه الخصومة لم تقم على غير أساس . بل كانت تعتمد على فروق فى الأساليب بين المذهبين . وهذه الفروق لم تتضح إلا من كتابات البلاغيين ، ولم تعتمد على شئ مثل اعتمادها على الوجوه البلاغية التى يستخدمها الشاعر أو الناثر فى أسلوبه للكشف عن معانيه .

* * *

● صلة البلاغة بقضايا النقد الكبرى :

ونتيجة لذلك عالجت البلاغة قضيتين من أخطر قضايا النقد . وهما قضية اللفظ والمعنى ، وقضية الموازنة بين معنى ومعنى .

وليس من اليسير معالجة هاتين القضيتين فى جزء من بحث . ولذلك فإننا نتناولهما فى إيجاز نتبين من خلاله صلة البلاغة بقضايا النقد الكبرى . ومدى تأثيرها فى صقل الأساليب وإجادة المعنى .

أما قضية اللفظ والمعنى فإن النقاد ينقسمون حولها ثلاثة أقسام :

فريق يُقدِّم المعنى على اللفظ . وينسب إليه كل فضل فى صناعة الأدب ونقده ، يقول ابن رشيق : « اللفظ جسم روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح

بالجسم . يضعف بضعفه ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً فى الشعر ، وهجنة عليه . كما يعرض لبعض الأقسام من العرج والشلل والعور ، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، كذلك إذا ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الروح . ولا نجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب قياساً على ما قدَّمت من أدواء الجسوم والأرواح . فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتاً لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة فى السمع . كما أن الميت لم ينقص من شخصه شئ فى رأى العين ، إلا أنه لا ينتفع به . ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لا نجد له معنى لأنَّا لا نجد روحاً فى غير جسم البتة »[(١)] .

فابن رشيق - وإن بدا أنه يسوِّى بين اللفظ والمعنى - فإنه يقدِّم المعنى على اللفظ ما دام المعنى روحاً والجسم هو اللفظ ...

وكذلك يرى ابن الأثير : « اعلم أن العرب كما كانت تعنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعانى أقوى عندها وأكرم عليها وأشرف قدراً فى نفوسها . فأول ذلك عنايتها بالألفاظ لأنها كانت عنوان معانيها . وطريقاً إلى إظهار أغراضها ، أصلحوها وزيَّنوها وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع فى النفس . وأذهب بها فى الدلالة على القصد ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسَّنوها . ورقَّقوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية إذ ذاك بالألفاظ فقط . بل هى خدمة منهم للمعانى . ونظير ذلك إبراز الصور الحسناء فى الحلل الموشية . والأثواب المحبرة ، فإنَّا قد نجد من المعانى الفاخرة ما يشوِّه من حسنه بذاذة لفظه وسوء العبارة عنه »[(٢)] .

---

(١) العمدة - لابن رشيق : ١/ ٨٢

(٢) المثل السائر ص ١٣٧

وابن الأثير - فى هذا النص - أقوى دلالة على بيان مذهبه من ابن رشيق - وإن سار هو على طريقته فى التقرير .

ويرى الجاحظ [١] أن أبا عمرو الشيبانى كان لا يحفل إلا بالمعنى ، فمتى كان المعنى رائقا حسناً ظل كذلك فى أى عبارة وُضِعَ فيها . ورأيه هذا مطابق لما حكاه « أرسطو » عن السوفسطائى « بريزون » من أنه لا حسن ولا قبح فى اللغة ، ففى أى الكلمات وضعت الفكرة فالمعنى سواء [٢] .

ومن أنصار المعنى ، الآمدى من النقاد ، وابن الرومى والمتنبى من الشعراء ، فهؤلاء يطلبون صحة المعنى . ولا يبالون - أحياناً - حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته [٣] .

على أنَّ من هؤلاء مَن لا يهمل اللفظ فى العمل الأدبى . بل ينظر إليه نظرة تقدير واحترام ، ولكنها نظرة ليست مثل نظرته إلى المعنى فهو السابق . وإليه يعزَى كل فضل .

والذى حمل هذا الفريق على التعصب لناحية المعنى . ما رأوه من جودة السبك دون العناية بجمال المعنى عند أصحاب التصنع الذين اتخذوا الأدب صناعة ، ولم يروا فيه إلا وصف الألفاظ وجودة السبك ، دون العناية بخطر الموضوع ، وأهمية الموقف ، وصدق المعنى وحسن الدلالة .. وهذا أمر ضاق به كثيرون من النقّاد .

يقول الآمدى : « وقد رأيتُ جماعة من متخلفى هذه الصناعة يجعلون كل همهم مقصوراً على الألفاظ التى لا حاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها . وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع ، على أى وجه كان من الغثاثة والبرد ، يعتقد أنه

---

(١) الحيوان للجاحظ : ٣ / ١٣١

(٢) النقد الادبى الحديث:محمد غنيمى هلال ص ٢٦ .

(٣) العمدة لابن رشيق : ٨٣/١

أتى بأمر عظيم ولا شك فى أنه صار كاتباً مفلقاً . وإذا نظر إلى كُتَّاب زماننا وُجِدوا كذلك ، فقاتل اللّه القلم الذى يجرى فى أيدى الجهال الأغمار » [١] .

* * *

• تقديم اللفظ على المعنى :

ويقابل هذا الرأى اتجاه آخر يرى القائلون به أن الصياغة هى المقوِّم الأساسى للأدب ، فلا بد أن يستوفى الأسلوب مقوِّماته اللفظية ، أن تكون الجمل مستوفاة خصائص الصياغة الفنية ليدخل الكلام فى باب الأدب لأن المعانى مشاع بين الأدب وغيره من العلوم ، ولكن الذى يُفرِّق بين الأدب والعلوم الأخرى إنما هى اللغة بما فيها من فنون تعبيرية وخصائص فنية ، ولذلك فإن المعانى العلمية يمكن أن تؤدى فى أساليب أدبية إذا سلك كاتبها مسالك المتأدبين .

وهذا الرأى يسمو بالألفاظ فى نظرته لها ، ويجعل المعنى دونها وإن كانت الصلة بين العنصرين وثيقة العرى .

من هؤلاء الجاحظ حيث يقول : « والمعانى مطروحة على الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى والمدنى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صياغة وضرب من النسج وجنس من التصوير » [٢] .

ومنهم قدامه بن جعفر ، إذ يرى أن المعانى مادة الشعر ، واللفظ صورته ، ولا ينبغى الحكم على الشعر بمادته - أى معناه - وإنما يُحكم عليه بصورته - أى عباراته - كما لا يُعاب النجار من حيث رداءة الخشب فى ذاته ، وإنما يُمدح أو يُذم من حيث صناعته هو .

ومنهم ابن خلدون إذ يعتبر الألفاظ أصلاً والمعانى تابعة لها . وهو فى هذا يردد ما ذهب إليه الجاحظ ولكنه غالى فى قيمته . وأفرط فى حكمه . وفى هذا

---

(١) الموازنة ص ٣٨٩ - ٣٩١ (٢) الحيوان : ٢ / ١٣١ - ١٣٢

يقول ابن خلدون : « ... وفى طوع كل فكر منها - أى المعانى - ما يشاء ويرضى ، فلا يحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج إلى الصناعة . وكذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه .. باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعانى واحدة فى نفسها . وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان - إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن - بمثابة المقعد الذى يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه » (١) .

وعند أصحاب هذا الرأى : أنَّ الأدب عبارة جميلة وكفى .. وقد سئل الأصمعى : مَن أشعر الناس ؟ ... قال : « مَن يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً ، أو إلى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً » (٢) .

ويقول المرزوقى : « فمن البلغاء مَن يقول : فقر الألفاظ وغررها . كجوهر العقود ودررها ، فإذا رسم أغفالها بتحسين نظومها . وحلّى أعطالها بتركيب شذورها فراق مسموعها وجاء ما حرر منها مصفّىً من كدر العيِّ والخطل ، مقوَّماً من أود اللحن والخطأ ، يموج فى حواشيه رونق الصفاء لفظاً وتركيباً . قبله الفهم والتذ به السمع ، وإذا ورد على ضد هذه الصفة صدئ الفهم منه . وتأذّى به تأذى الحواس بما يخالفها » (٣) .

وقد بحث ابن سنان الخفاجى معايير حسن اللفظ فذكر منه تباعد الحروف فى المخرج ، وذلك لأن الحروف أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر ، والألوان المتباعدة إذا جُمعت كانت فى النظر أحسن من المتقاربة . وجل كلام العرب مبنى على التأليف من الحروف المتباعدة ، ولحروف الحلق الستة ميزة خاصة فى القبح إذا تقاربت مثل « الهقخع » ، ومن معايير حسن اللفظ حسن وقعه على السمع فتسمية الغصن غصناً أو فنناً أحسن من تسمية عسلوجاً .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٨ - ط . القاهرة .

(٢) نقد الشعر لقدامة ص ١٠١ (٣) شرح ديوان الحماسة ص ٥ - ٦

ومن معايير جمال اللفظ عند ابن سنان ألا تكون الكلمة وحشية غير مألوفة الاستعمال ، وقد مثّل لذلك بقول أبى تمام :

. . . . بِلاَ طَائِرٍ سَعْدٍ ، وَلاَ طَائِرٍ كَهْلِ

إذ المراد بـ « الكهل » هنا : الضخم ، وليس هذا المعنى معروفاً لها [1] .

وألا تكون الكلمة مبتذلة أى أخلقها الاستعمال . ومثّل لها بقول ابن نباتة :

فَقَـدْ رَفَعَـتْ أبْصَارَهَا كُلُّ بَلْدَةٍ   من الشَّوْقِ حتَّى أوْجَعَتْهَا الأخَادِعُ

فكلمة « أوجعتها » عامية مبتذلة .

وأن تكون الكلمة جارية على قواعد اللغة ، وأن تكون قليلة الحروف ، لذلك عاب قول ابن نباتة أيضاً :

فَإيَّاكُمو أن تَكْشِفُوا عَنْ رِءُوسِكُمْ   ألاَ إن مغْنَاطِيسَهُـنَّ الذَّوَائِـبُ

لأن كلمة « مغناطيسهن » كثيرة الحروف .

ويورد معياراً آخر لجمال اللفظ : ألا تكون الكلمة عُبِّر بها عن معنى يُكره ذكره ، فإذا وردت غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت . مثل كلمة « جنابة » فى قول الشريف الرضى متغزلاً :

سَلاَمٌ على الأطْلاَلِ لاَ عَنْ جنابَةٍ   وَلَكِنَّ يأْسَاً حِينَ لم يَبْقَ مَطْمَعُ

وصفوة القول : إنَّ اللفظ المفرد لا يكون جميلاً عند ابن سنان إلا إذا خلا من ثمانية عيوب ذكرها ومثّل لها . فكان بلاغياً ناقداً فى آن واحد [2] .

ويسوق قدامة بن جعفر نصاً يبيِّن فيه مقوِّمات جمال الألفاظ فيقول : «وأحسن البلاغة الترصيع ، والسجع ، واتساق البناء . واعتدال الوزن واشتقاق لفظ من لفظ وعكس ما نظم من بناء وتلخيصه بألفاظ مستعارة وإيراد

---

(١) سر الفصاحة ص ٦٣

(٢) راجع سر الفصاحة - تحقيق عبد المتعال الصعيدى ص ٦٣ - ٨٣

الأقسام موفورة التمام وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة ، وصحة التقسيم باتفاق النظوم وتلخيص الأوصاف بنفى الخلاف ، والمبالغة فى الرصف بتكرير الوصف . وتكافؤ المقابلة بالتوازن وإرداف اللواحق وتمثيل المعانى »[1] .

وهكذا تصرف همم هذا الفريق إلى جمال الألفاظ ، وجودة السبك ، ظناً منهم أنّ الأقدمين ذهبوا بالمعانى كلها ولم يتركوا منها ضرعاً لمحتلب . فكان لا بد من التسابق فى ميدان اللفظ وروعة التعبير .

* *

● قيمة هذا المذهب :

ولهذا المذهب خطره فى الأدب ونقده . وإن تطرّف بعض دعاته كابن خلدون وقدامة ، ذلك لأن الأسلوب أو الأداء اللفظى هو دليل المعنى وآلة البيان ، ولولا الأسلوب ما وقفنا على ما يجول فى نفس الأديب من معان وأخيلة وعواطف وصور أدبية ، فليس الأديب تمثالاً صامتاً وإنما هو طائر يغرد ، وتغريده هو الذى يكشف لنا عن عالَمه الفسيح . والطعام الطيب إذا قُدِّم فى أوانٍ نفيسة كان أشهى للنفس وأمتع للذوق .

* *

● نظرة عادلة :

الرأيان اللذان قدّمناهما متقابلان فهما يصنعان مشكلة . ومن هنا تبدو قيمة رأى فريق ثالث

ويرى هذا الفريق ألا تفرقة فى العمل الأدبى ونقده بين معانيه وألفاظه ، فهم - إذن - يسوون بين اللفظ والمعنى ، ولكل منهما معايير حسن وجمال ، ولكل منهما وظيفة يؤديها لكن ليس منفرداً بل باعتبار ارتباطه بالآخر ، فإذا توفرت لهما أوصاف الجمال قدّما نموذجاً رائعاً من الأدب يمتع من أى جهة نظر إليه سواء من

---

(١) جواهر الألفاظ لقدامة ص ٣ - ٤

جهة لفظه ، أو من جهة معناه مثل سلكى الكهرباء السالب والموجب عندما يتماسان ينطلق منهما الشعاع الذى يبدد طبقات الظلام وإن كان كثيفاً . وإن أزيل اتصالهما فلا نحس لأى منهما أثرا . فالمعنى بدون اللفظ جنين فى ضمير الغيب . واللفظ بدون معنى لا يعتبر .

وهؤلاء على حق فيما ذهبوا إليه لأنهم يحلون تلك المشكلة التى رأيناها بين الفريقين السابقين . ولأنهم يمثلون الواقع .. فهى نظرة معتدلة حرية بالاعتبار .

ومن أقدم النصوص فى هذا المذهب صحيفة بشر بن المعتمر المعتزلى (المتوفى عام ٢١٠ هـ) وقد ذكرها الجاحظ فى « البيان والتبيين » (١) ... وفيها ينصح بترك التوعر والتكلف « فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك .. ومَن رام معنى كريماً فيلتمس له لفظاً كريماً . فإنَّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما » .

وفى موضع آخر يقول : « أن يكون لفظك رشيقاً عذباً وفخماً سهلاً ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً »

والباحث يرى أنه فى الموضعين يتحدث عن جمال اللفظ وجمال المعنى ، ويسوِّى بينهما ويمضى فى الصحيفة مشرِّعاً للأدب . وناصحاً للأديب .

فهى - بحق - تشريع فريد فى صناعة الأدب وبناء الأسلوب . لا فرق بين الشكل أو المضمون وكان لهذا التوجيه أثره فى تقعيد البلاغة العربية .

وممن يسوون بين اللفظ والمعنى ابن قتيبة . فخير الشعر - عنده - ما حسن لفظه ، وجاد معناه ، فإذا قصر اللفظ عن المعنى ، أو حلا اللفظ ولم يكن وراءه طائل كان الكلام معيباً .

---

(١) الجزء الأول ص ١٣٤ - ١٣٩

ويسوق نموذجاً على ذلك هو قول الشاعر :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ عَلَى هُدْبِ المَهَارَى رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِىِّ الأَبَاطِحُ

ثم يقول : « وهذه الألفاظ أحسن شئ مطالع ومخارج ومقاطع . فإذا نظرتَ إلى ما تحتها وجدته : ولما قضينا أيام منًى واستلمنا الأركان وعالينا الإبل الأنضاد ومضى الناس لا ينظر مَن غدا الرائح ابتدأنا فى الحديث وسارت المطىُّ فى الأباطح »[1] .

والشاعر البحترى يرى التسوية بين الألفاظ والمعانى فيقول :

حَجَجٌ تُخْرِسُ الأَلَدَّ بِأَلْفَا ... ظٍ فُرَادَى كَالجَوْهَرِ المَعْدُودِ
وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا القَوَافِى ... هَجَّنَتْ شِعْرَ جَرْوَلٍ وَلَبِيدِ
حُزْنَ مُسْتَعْمَلَ الكَلَامِ اخْتِيَاراً ... وَتَجَنَّبْنَ ظُلْمَةَ التَّعْقِيدِ
وَرَكِبْنَ اللَّفْظَ القَرِيبَ فَأَدْرَكْنَ ... بِهِ غَايَةَ المُرَادِ البَعِيدِ

وعبد القاهر الجرجانى ممن يسوون فى صناعة الأدب بين اللفظ والمعنى . وإن لم يصرح بذلك . لأنَّا نجده أحياناً يثنى على اللفظ دون المعنى ، وأحياناً أخرى يثنى على المعنى دون اللفظ ، ولعله كان يقصد الرد على المتطرفين فلام كلا الجانبين لنفى ذلك التطرف إلى جانب دون آخر وغرضه من ذلك إثبات التساوى بين العنصرين : الألفاظ والمعانى .

---

(١) الشعر والشعراء : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص ٣ - ٤

فتراه يقول دفاعاً عن اللفظ :

« واعلم أن الداء الدوى ، والذى أعيى أمره فى هذا الباب ، غلط مَن قدَّم الشعِر لمعناه . وأقَلَّ فى الاحتفال باللفظ ، وجعل لا يعطيه من المزية - إن هو أعطى - إلا ما فضل عن المعنى ، يقول ما فى اللفظ لولا المعنى ، وهل الكلام إلا بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدِّم شِعراً حتى يكون قد أودع حكمه وأدباً ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر »(١) .

ويقول : « .. لأنَّا لا نرى متقدماً فى علم البلاغة ، مبرزاً فى شأوها ، إلا وهو ينكر هذا الرأى ويعيبه ويزرى على القائل به »(٢) .

وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن عبد القاهر ليس ممن ينحازون إلى المعانى ، ويفضلونها على الألفاظ .

ثم يقول بعد جولات واسعة المدى بعيدة العمق يرجع فيها المزية إلى المعنى دون اللفظ : « قد فرغنا الآن من الكلام على جنس المزية وأنها من حيِّز المعانى دون الألفاظ ، وأنها ليست لك حيث تسمع بأذنك بل هى حيث تنظر بقلبك ، وتستعين بفكرك ، وتعمل رويتك وتراجع عقلك . وبلغ القول فى ذلك أقصاه ، وانتهى إلى مداه »(٣) .

* *

---

(١) دلائل الاعجاز - تحقيق د . عبد المنعم خفاجى ص ٥٣

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٤ (٣) نفس المصدر ص ١٠٤

● وقفة :

والناظر فى هذه النصوص يرى أن الرجل - عبد القاهر - يناقض نفسه ، أو أنه ما قال فى شأن اللفظ والدفاع عنه إلا بعد نسيان ما قرره فى جانب المعنى ونسبة الفضل إليه ، وإلا لما صح أن يقع منه هذا التضارب الذى لا يخفى شأنه على إنسان ، ولا مخرج من هذا الإشكال إلا أن نقرر ما قلناه فى مطلع الحديث عنه من أنه حين حمل على مَن يُفضِّل المعانى على الألفاظ إنما كان يضع نصب عينيه مغالاة القائلين بها الرأى . وعندما حمل على مَن يُفضِّل الألفاظ على المعانى كان كل همه أن يدفع مغالاتهم وتطرفهم فيها .

على أن فى كتابه هذا - دلال الإعجاز - نصوصاً يمكن أخذ رأى عبد القاهر من النظر إليها فى وضوح .

ورأيه الذى يصل إليه الباحث هو المساواة بين العنصرين دون حيف منه على أحدهما لحساب الآخر . فهو يقول : « ولا جهة لاستعمال هذه الخصال - يقصد حسن الدلالة - غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته .. ويختار له اللفظ الذى هو أخص به وأكشف عنه وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلاً ويظهر فيه مزية » (١) .

ويقول : « فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع مجالاً للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هى كلمة مفردة .. وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ » (٢) .

---

(١) الدلائل ص ٥٧

(٢) نفس المصدر ص ٩٠ .

ولا ينسى عبد القاهر فى كل ذلك فضيلة النظم التى من أجلها وضع أصول الكتاب ، فإنكاره لمزية اللفظ - مفرداً - إنكار - بدلالة اللزوم - لمزية المعنى المفرد - ولذلك فهو يقول : « علمتَ - بفتح التاء - أن الفصاحة والبلاغة ، وسائر ما يجرى فى طريقهما أوصاف راجعة إلى المعانى وإلى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها لأنه إذا لم يكن فى القسمة إلا المعانى والألفاظ . وكان لا يعقل تعارض فى الألفاظ المجردة إلا ما ذكرت لم يبق إلا أن تكون المعارضة معارضة من جهة ترجع إلى معانى الكلام المعقولة ... دون ألفاظه المسموعة » [١] .

ذلك هو رأى عبد القاهر فى قضية اللفظ والمعنى ، وهو رأى حرى بالقبول لخلوه من التصرف ولتمثيله للواقع .

وله فى أسرار البلاغة ما يؤيد هذه الفكره . يقول فيه : « الألفاظ خدم للمعانى والمصرِّفة فى حكمها . وكانت المعانى هى المالكة سياستها المستحقة طاعتها . فمَن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشئ عن جهته . وأحاله عن طبيعته وذلك مظنة من الاستكراه » [٢] .

وهو فى هذا النص يدفع الغلو من جهة اللفظ ، وإهمال المعنى .. وقبله يقول : « فقد تبيَّن لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ولما وُجِدَ فيه إلا معيب مستهجن ولذلك ذم الإكثار منه والولوع به » [٣] .

فلكل من المعنى واللفظ دوره فى روعة العمل الأدبى . ولكنَّا نراه فى « الأسرار » ينتصر للمعانى أكثر من إثباته مزايا الألفاظ ، وفى « الدلائل »

---

(١) الدلائل ص ٢٥٩

(٢) الأسرار - شرح رشيد رضا ص ٥

(٣) نفس المصدر ص ٤

كان حَكَماً عدلاً بينهما . ولعل السر أن التعصب للفظ وقت أن وضع « أسرار البلاغة » كان قد بلغ مداه .

* *

● قيمة مذهب عبد القاهر :

كانت فكرة النظم التى أشار إليها الجاحظ وتبنَّاها عبد القاهر الجرجانى ففتح أكمامها وبعثها فى كتابه « الدلائل » حديقة دانية القطوف . وارفة الظلال . كانت هذه الفكرة فتحاً جديداً فى مجالات البلاغة والبيان والأدب والنقد . وقد سبق عبد القاهر المفكرين المعاصرين بزمن طويل حين أرسى قواعد هذه النظرية التى يتعانق فيها الشكل والمضمون وتبدو فيها قيمة الألفاظ والمعانى مجتمعة دونما تفضيل .

« مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة فى أوروبا لأيامنا هذه ، هو مذهب العالِم السويسرى الثبت « فردنان دى سوسير » (المتوفى سنة ١٩١٣) . لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات » [١] .

وقد أخذ بنظرية عبد القاهر عالِم وناقد إيطالى هو « بندتو كروتشيه » ونظريته فى النقد ذات خطر عظيم .

وفى هذه النظرية إجابة شافية عن سؤال مهم فى مجال النقد الجمالى :

هل الجمال ينحصر فى المضمون وحده ؟ أم فى الشكل وحده ؟ أم هو فيهما معاً ؟

وعلى ما هو معروف بين فلاسفة الجمال من المراد من الشكل والمضمون ، فإن عبد القاهر كان عالمياً فى منهجه إذ أرجع التذوق الجمالى إلى الشكل والمضمون كليهما . لهذا يلتقى « بندتو كروتشيه » مع عبد القاهر فى هذا المنهج السليم .

---

(١) النقد المنهجى عند العرب : د . محمد مندور ص ٣٢٨

لأن كروتشيه « يحدد المضمون بالأحاسيس أو الناحية الانفعالية قبل صقلها صقلاً جمالياً ، وأما الشكل فهو صقلها وإبرازها فى تعبير عن طريق النشاط الفكرى ، وعلى هذا يأبى « كروتشيه » أن تكون الحقيقة الجمالية محصورة فى المضمون . وإنما هى ترجع إلى الشكل بما يحويه من أحاسيس وخيالات وعواطف وانفعالات ، لأن أهمية المضمون عنده تنحصر فى التعبير عنه تعبيراً جمالياً » (١) .

* *

● الموازنة بين معنى ومعنى :

وأما الموازنة بين معنى ومعنى فإنَّ الباحث يرى أن الوجوه البلاغية من أهم العناصر التى كانت تعتمد عليها هذه الموازنات . ونورد بعض الأمثلة فيما يأتى لنرى إلى أى مدى كانت الوجوه البلاغية تذكيها وتوجهها وتتخذ أساساً للحكم أو القبح فيها .

فالآمدى وهو أحد رجلين وضعا أصول النقد المنهجى عند العرب ، أكثر ما يقوم عليه مذهبه النقدى هو الملاحظات البلاغية فقد ذكر ابن المعتز قول أبى تمام :

فَضَرَبْتُ الشِّتَاء فى أَخْدَعَيْهِ ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عُوْداً رَكُوبَا (٢)

على أن فيه استعارة معيبة ، فجاء الآمدى يدافع عن أبى تمام فيقول : «فأما قوله - يعنى أبا تمام - « فضربتُ الشتاء فى أخدعيه » فإن ذكر الأخدعين على قبحهما أسوغ ، لأنه قال : « ضربة غادرته » .. وذلك أن العود المسن من الإبل يُضرب على صفحتى عنقه فيذل ، فقربت الاستعارة هنا من الصواب قليلاً » (٣) .

---

(١) النقد الأدبى الحديث ص ٢٩٤ (بتصرف) .
(٢) الموازنة ص ١١ . (٣) نفس المصدر ص ١١ .

وللآمدى باب خاص عقده « لما عيب من الاستعارة عند أبى تمام » ويورد الآمدى بعض استعارات القرآن شارحاً لها وموضحاً أوجه الجمال فيها .

وبهذا المقياس نفسه - قبح الاستعارة أو حسنها - يعيب قول أبى تمام :

يَا دَهرْ قَوِّمْ مِنْ أخْدَعَيْكَ فَقَدْ ... أضجَجْتَ هذا الأنامَ من خَرقِك

ويتساءل : أى ضرورة دعته للأخدعين ؟ وكان يمكن أن يقول : من اعوجاجك، أو : قَوِّم من عوج صنعتك ، أو : يا دهر أحسن بنا الصنيع ، لأن الأخرق هو الذى لا يحسن العمل .

وعاب - كذلك - قوله :

وَحُمِّلْتُ مَا لَوْ حُمِّلَ الدَّهْرُ شَطْرَهُ ... لَفكَّرَ دَهْراً أىَّ عِبْئَيْهِ أثْقَلُ

إذ جعل للدهر عقلاً ، وجعله مفكراً فى أى العبئين أثقل ، وما معنى أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، وكان الأليق بهذا المعنى لما قال : « وحملت ما لو حمل الدهر شطره » أن يقول : لتضعضع ، أو لانهد ، أو لأمن الناس صروفه ونوازله . ونحو هذا مما يعتمده أهل المعانى فى البلاغة .

والموازنة فى هذه الأمثلة بين معنى قيل وفيه خطأ ومعنى كان يجب أن يقال .

ويورد للبحترى بيتاً آخر وينقده . وهو قوله :

قِفْ العِيسَ قَدْ أدنَى خُطاهَا كَلاَلُها ... وَسَلْ دَارَ سُعْدَى إنْ شَفَاكَ سُؤَالُها

يقول الآمدى : وهذا لفظ حسن ومعنى ليس بالجيد ، لأنه قال : « أدنى خطاها كلالها » . أى قارب من خطوها الكلال ، وهذا كأنه لم يقف لسؤال الديار التى تعرض لأن الوقوف يشفيه وإنما وقف لإعياء المطى . والجيد قول عنترة :

فَوَقَفْتُ فِيهَا ناقَتِى وكَأنَّهَا ... فَدنٌ لأقْضِى حَاجَةَ المتَلَوِّمِ

فإنه لما أراد ذكر الوقوف احتاط بأن شبَّه ناقته بالفدن وهو القصر ، ليُعلم أنه لم يقفها ليريحها .

ويمضى بعد ذلك مناقشاً كل الدفوع التى يمكن أن تقال فى جانب البحترى حتى ليقيم عليه الحُجَّة من كل وجه . بأنه خالف عادات العرب فى مثل هذه المواقف . مؤيداً وجهة نظره بمأثورهم .

ويعيب قول أبى تمام متغزلاً :

بَيْضَاءُ تَسْرِى فى الظَّلاَم فَيَكْتَسِى نُوراً . وتُبْـدُو فِى الضياء فَيُظْلِمُ
مَلْطُـومَةٍ بِالَوْرِدِ أُطْلِـقَ طَـرْفُهَا فِـى الخَلْقِ فَهُوَ مَعَ المَنُونِ مُحْكَـمُ

فيقول الآمدى : « وقوله « ملطومة بالورد » يريد حُمرة خدها ، فلِمَ لم يقل : مصفوعة بالقار يريد سواد شعرها ؟ ومخبوطة بالشحم يريد امتلاء جسمها ؟ ومضروبة بالقطن يريد بياضها ؟ إن هذا لأحمق ما يكون من اللفظ وأسخفه وأوسخه . وقد جاء مثل هذا فى كلام العرب ولكن على وجه حسن .. قال النابغة : « مقذوفة بدخيس اللحم » يريد أنها قُذفت بالشحم . أى كأنه رُمِىَ على جسمها رمياً . وإنما ذهب أبو تمام إلى قول أَبى نواس : « وتلطم الورد بعنّاب » وهذه كانت تلطم فى الحقيقة فى مأتم على ميت بأنامل مخضوبة الأطراف فجعلها عناباً تلطم به ورداً . فأتى بالظُرف كله . والحُسن أجمعه . والتشبيه على حقيقته . وجاء أبو تمام بالجهل على وجهه . والحمق بأسره . والخطأ بعينه » [١] .

والحق أن الآمدى كان يصدر فى نقده عن ذوق وخبرة وعلم وحكمة . وكتابه « الموازنة » حافل بما يمتع الباحث ويفتح أمامه آفاقاً واسعة للموازنة والدرس .

---

(١) اعتمدنا فى نقل هذه الموازنة على كتاب « النقد المنهجى عند العرب » للدكتور محمد مندور ص ١١٨ ، وقد أشار إلى أنه نقلها عن مخطوط بدار الكتب (اللوحة ٧٤) .

وهو كما رأينا معتمد - فى كثير من الأحيان - على الأصول البلاغية فى نقده . بل مشرِّع فيها وصاحب رأى . والموازنة هنا بين نصين كل منهما قد قيل .

*　*　*

• القاضى الجرجانى :

وكان كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » . للقاضى أبى الحسن الجرجانى مصدراً للنقد العربى . وتوجيهه توجيهاً منهجياً ، وليس من السهل وصف هذا الكتاب وما حواه من نظريات وآراء . وإنما نذكر هنا أمثلة تدل على شيوع البلاغة . وتوجيهاتها فى منهج هذا العالِم الذائع الصيت . والناقد العميق النظر .

على أن عنوان كتابه يوحى بخطورة موضوعه . فإن الخصومة بين المتنبى وخصومه أمر له خطره فى تاريخ النقد العربى ، والفصل فيها لا يقدم عليه إلا الثقات من النقَّاد . المحيطون بفنون القول ووجوه الحسن والقبح فى الأساليب ، وقد اجتمعت هذه المؤهلات فى القاضى الجرجانى وكتابه المذكور أكبر شاهد له .

ومن الأمثلة التى تهمنا فى هذا المجال . أنَّ الجرجانى قد مدح أبياتاً لأبى تمام ، هى :

دَعْنِي وَشُرْبَ الهَوَى يَا شَارِبَ الْكَاسِ　　فإنَّنِــى لِلَّذِى حُسِيتُـهُ حَاســِى
لاَ يُـوحِشَنَّكَ مَا اسْتَسْمَجْت مِنْ سَقَمِى　　فَإنَّ مُنْزِلَهُ مِــنَ أحْسَنِ النَّاسِ
مِــنْ قَطْعِ أَوْصَالِهِ تَوْصِيلُ مَهْلَكَتِى　　وَوَصْلُ أَلْحَاظِهِ تَقْطِيعُ أَنْفَاسِى
مَتَــى أَعِيشُ بتأمِيــلِ الرَّجَــاءِ إذَا　　ما كان قَطْعُ رجَائى فى يدِ بَاسى

يقول الجرجانى معلقاً عليها : « فلم يخل بيت منها من معنى بديع ، وصفة لطيفة . طابق وجانس ، واستعار فأحسن . وهى معدودة من المختارة من غزله وحق لها ، فقد جمعت على قصرها فنوناً من الحسن وأصنافاً من البديع . ثم

فيها من الأحكام والمتانة ما تراه ، ولكن ما أظنك تجد لها من سورة الطرب وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب :

أَقُولُ لِصَاحِبِى وَالعيسُ تَهْوِى ... بنَا بَيْـــنَ المنيفَــةِ فالضِّمارِ
تَمتَّـــعْ مـن شَميم عرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْـــدَ العَشيَّةِ مـن عرَارِ
ألاَ يا حبَّـــذَا نَفَحَــات نجد ... وَرَيا رَوْضِـــه غـــبَّ القطَارِ
وَعَيْشُــك إِذْ يَحلُّ القومُ نجداً ... وأَنْتَ علَـــى زَمَانك غَيْرُ زارِ
شُهُــورٌ يَنْقضِيـنَ وَمَا شَعَرْنَا ... بأَنْصَافٍ لَهُـــنَّ ولاَ سِـــرَارِ
فَأمَّا لَيْلُهُـــنَّ فَخَيْـــرُ لَيْـلٍ ... وَأَقْصَـــرُ مَا يَكُـونُ من النهَّارِ

فهو - كما تراه - بعيد عن الصنعة . فارغ الألفاظ سهل المأخذ قريب التناول ، وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء فى الجودة والحُسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، وتُسلِّم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبَّه فقارب .. [١] . وهو فى هذين النموجين ينقد ويوازن .

ويأخذ الجرجانى فى إيراد أمثلة للاستعارة الحسنة والقبيحة ويتحدث - مثلاً - عن التجنيس المطلق والتجنيس المستوفى والناقص والمضاف .. إلخ .

وتراه أحياناً مصححاً لأخطاء وقع فيها بعض الناس . كأن يخلطوا بين الاستعارة والتشبيه ، فتراه يقول فى بيت أبى نواس :

وَالحُبَّ ظَهْـــرٌ أنتَ رَاكِبُهُ ... فَإذَا صَرفْتَ عنَانَهُ انْصَرَفَا

ولستُ أرى هذا وما أشبهه استعارة وإنما معنى البيت : أن الحب ظهر أو مثل ظهر .. أو الحب كظهر تديره كيف شئتَ إذا ملكت عنانه .. فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شئ بشئ [٢] .

---

(١) الوساطة : المقدمة - ص ٥٧ - ٥٩

(٢) نفس المصدر ص ٤١ - ط . الحلبى

ثم يضع حداً للاستعارة يلتقى فيه مع الآمدى ، إذ يطلب كل منهما فى الاستعارة أن تظهر فيها المناسبة بيِّنة بين المستعار له ، والمستعار منه .

ويمضى الجرجانى بروح العالِم الناقد بعد مقدمة كتابه يتحدث عن الشعراء المتقدمين والمتأخرين وخاصة أبا نواس وأبا تمام مصوِّراً ما فى أشعارهم من جمال أو قبح ، محتكماً إلى البلاغة والذوق واللغة والتاريخ ، ثم يعمد إلى شِعر المتنبى ويذكر طائفة من أشعاره التى أُخِذَت عليه إما لبعد الاستعارة أو لغرابة فى اللفظ أو تعقيد فى الكلام .

* *

● حصيلة هذه الجولات :

رأينا منذ بزوغ النقد العربى من العصر الجاهلى حتى القرن الرابع الهجرى أن النقد والبلاغة وُلِدا توأمين ، وأن البلاغة كانت ذات يد على النقد غذَّته ونمَّته ، وأمَّدته بكثير من عناصر التطور والنضوج . وأنها كانت - وما زالت - المقوِّم الأساسى للنقد الفنى والنقد النفسى .

ورأينا أنها تشريع للأدب . ومنارات هدى للشعراء والناثرين ، تُسهم فى رسم الصورة التى ينبغى أن يكون عليها الأداء اللفظى . والأسس العامة التى ينبغى أن تورد على هداها المعانى .

ورأينا أنها كانت وراء كل قضية أدبية أو نقدية لأنها كانت تشيع فى الأساليب شيوع الماء فى العود الأخضر . فما استُحْسِن معنى إلا من جهتها . ولا عِيْبَ آخر إلا لمخالفته مقاييسها . بل كانت هى وراء أخطر قضية فى النقد العربى لا من الناحية الأدبية فقط . بل ومن ناحية الدين أيضاً ، إنها وراء قضية الإعجاز القرآنى . وكتاب عبد القاهر « الدلائل » آية هذا وشاهده .

وإذا نظرنا إلى عنصرى الأدب - « الألفاظ » و « المعانى » - فإن البلاغة تشرِّع للاثنين معاً ، وتقدِّم لهما أثمن الإرشادات .

• الألفاظ :

فمن حيث الشكل اهتمت جهود العلماء بدراسة الألفاظ وصنّفوها تصنيفاً حكموا بجمال بعضها وحكموا بقبح بعضها . وأوصوا باستعمال الجميل وإطراح القبيح . فقد اشترطوا فى جمال اللفظ : الجزالة والاستقامة ، ومشاكلته للمعنى ، وشدة اقتضاء القافيه له إن كان الموضوع شِعراً .

وجزالة اللفظ تتوافر له إذا لم يكن سوقياً مبتذلاً ولم يكن غريباً نابياً . ومعياره عندهم أن يكون بحيث تعرفه العامة ولا تستعمله فى محاوراتها (١) .

وبهذه القاعدة عابوا كثيراً من أقوال الشعراء .

واستقامة اللفظ تكون من حيث الجرس أو الدلالة أو التجانس مع قرائنه من الألفاظ ، فمن حيث الجرس يكون اللفظ مستقيماً إذا لم يجاف المتكلم به أصل وضعه اللغوى ولهذا عابوا البحترى فى قوله :

تشُقُّ عَلَيْه الرِّيحُ كل عَشيَّةٍ ... جُيُوبَ الغَمَامِ بَيْنَ بِكْرٍ وَأَيِّمِ

لأن الأيِّم هى مَن لا زوج لها ، سواء سبق لها الزواج أو لم يسبق . فالمقابلة بينهما غير مستقيمة (٢) .

وكذلك يكون اللفظ مستقيماً إذا تجانس مع قرائنه من الألفاظ . ولذلك عابوا قول مسلم بن الوليد :

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِى مُزْنَةٍ ... يَثْنِى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالأوْعَارُ

لأن المناسب أن يقول : السهل والوعر ، أو السهول والأوعار ، ليكون البناء اللفظى واحداً (٣) ، ومشاكلة اللفظ للمعنى تكون إذا وقع اللفظ موقعه بغير زيادة ولا نقص . لذلك أخذوا على المتنبى قوله :

اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِالوَفَاءِ وَبِالعَدْلِ ... وَأُولَى الْمَلاَمَةَ الرَّجُلاَ

---

(١) صبح الأعشى للقلنشندى : ١/٢٠٦ - طبعة دار الكتب .

(٢) سر الفصاحة - لابن سنان الخفاجى ص ٧٢ (بتصرف) .

(٣) لا يرى ابن الاثير وجهاً لهذا النقد لورود نظيره فى القرآن الكريم مثل : ﴿ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ (النحل : ٤٨) انظر كتابه « المثل السار » ، وعقود الجمال للسيوطى ص ١٠٨ .

لأن الملامة تتجه إلى الإنسان رجلاً كان أو امرأة ، فذكره الرجل - هنا - فى مكان « الإنسان » معيب .

ويلحق بهذا القياس وقوع الكلمة موقعها من القافية فى الشِعر . ولذلك مدحوا قول الحطيئة :

هُمُ القَوْمُ الَّذِينَ إذَا أَلَمَّتْ مِنَ الأَيَّامِ مُظْلِمَةٌ أضَاءُوا

لأن الإضاءة يتطلبها ظلام الأيام . وما استجد منها من أحداث مدلهمة [١] .

وتوسعوا فى أوصاف اللفظ وجعلوا لكل نوع حكماً .. فهناك اللفظ العذب ، واللفظ القوى ، واللفظ الرقيق ... إلى آخر هذه الأوصاف الحسنة .

وهناك اللفظ النازل ، واللفظ النابى ، والمستكره ، والقلق ... إلى آخر هذه الأوصاف المعيبة .

* *

● المعانى :

أما المعنى فيطلبون فيه أن يكون شريفاً . وشرف المعنى أن يقصد الشاعر فيه إلى الإغراب واختيار الصفات المثلى ، إذا وصف أو مدح لا يبالى بالواقع . فإذا وصف فرساً وجب أن يكون الفرس كريماً . وإذا تغزّل ذكر من أحوال محبوبه ما يمتدحه ذو الوجه الذى برح به الحب [٢] .

وإذا مدح فعليه أن يذكر ما يدل على شرف المقام إبداعاً وإغراباً لا مراعاة لصدق الموقف ولصفات ممدوحه كما يراه [٣] .

ويطلبون فيه أن يكون صحيحاً . وصحة المعنى عندهم أن يسلم من الخطأ التاريخى أو العُرفى .. وبالاعتبار الأول عابوا قول زهير :

فتَنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أشْأَمِ كُلُّهُمْ كأحْمَرِ عَادٍ ، ثم تُنْتَجْ فتُتْئِمِ

لأن المشتوم هو قدار أحْمر ثمود [٤] .

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٩١ (٢) نقد الشعر لقدامة ص ٤٤

(٣) هذا يتعارض مع نظرية الالتزام فى الأدب بالصدق وهو المذهب الذى امتدحه عمر بن الخطاب .

(٤) النقد الأدبى الحديث : محمد غنيمى هلال ص ١٧٦

وبالاعتبار الثانى عابوا قول البحترى :

نَصرْتُ لَهَا الشَّوْقَ اللَّجُوجَ بأَدْمُعٍ تَلاَحَقْنَ فى أعْقَابِ وَصْلٍ تَصرَّمَا

وذلك لأن الآمدى يرى الشوق يشفيه البكاء ولا يزيد منه ، وعلى هذا النهج سار الشعراء قبل البحترى .

كما عابوا قول أبى تمام :

إذَا ما رحًى دَارَتْ أدرَّتْ سَمَاحَةً رَحَى كُلِّ إنجازٍ عَلَى كُلِّ مَوْعِدِ

لأنه جعل إنجاز الوعد بمثابة طحنه بالرحى . وهو قضاء عليه . وذلك فى عُرف اللغة لا يكون إلا للإخلاف [1] .

ويطلبون فيه الإصابة فى الوصف . فعليه أن يذكر المعانى العامة التى هى أولى بمثال الموصوف من حيث هو مثال . فينأى عن المعانى والصفات المجهولة . ولهذا حكموا بإصابة زهير فى الوصف حين مدح هرم بن سنان . لأنه وصفه بالصفات العامة التى يجب أن تكون فى الرجل الكريم .

كما يطلبون فيه المقاربة فى التشبيه . ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، على حسب العُرف اللغوى والمجاز . ولهذا عابوا قول أبى نواس :

بُـحَّ صَوْتُ المَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو ويَصِيحْ

وذلك لبُعد الشبه بين المال - المشبه - والإنسان - المشبَّه به .

كذلك يطلبون فيه الاعتدال ، ويذمون المبالغة المغرقة ... إلى آخر ما شرعوه لتصوير المعانى الكلية والجزئية .

* * *

---

(١) الموازنة : للآمدى ص ٢٠٤ - ٢٠٥

● منارات على الطريق :

والبلاغة العربية بحثت فى اللفظ المفرد وهيئته للاستعمال خالياً من العيوب فلا يكون اللفظ أو الكلمة فصيحة صالحة للاستعمال إلا إذا سلمت من أربعة عيوب :

الأول : سلامتها من تنافر الحروف لتكون الكلمة رقيقة عذبة .

الثانى : سلامتها من الغرابة لتكون الكلمة مألوفة الاستعمال غير قلقة .

الثالث : سلامتها من مخالفة القياس لئلا تكون شاذة .

الرابع : سلامتها من الابتذال فلا تكون الكلمة قد أبلاها الاستعمال .

فإذا سلمت من هذه العيوب فهى فصيحة . وإذا لم تسلم فهى غير فصيحة . واشتعمالها معيب ولهذه الاعتبارات ردوا كثيراً من النصوص .

أما الكلام - قَلَّ أو كثر - فالفصاحة - أيضاً - شرط جماله . وهو لا يكون فصيحاً إلا إذا سلم - أيضاً - من العيوب الأربعة الآتية :

الأول : تنافر الكلمات مجتمعة .

الثانى : ضعف التأليف ، فلا يخرج الكلام عن قواعد النحو المشهورة .

الثالث : التعقيد اللفظى بحيث لا يكون الكلام على نسق غير معروف .

الرابع : التعقيد المعنوى بحيث لا يظهر المعنى من الكلام إلا بعد جهد جهيد ... هذا نصيب الكلام من الفصاحة والمقصود من ورائه أن يكون النص عذب الكلمات رشيقها وأن يكون معناه واضحاً . والوضوح دعامة من دعائم جمال النص .

فإذا توافرت فى الكلام - بعد الكلمة - شروط الفصاحة - فلا تظنن البلاغة تنتهى بك عند هذا الحد . بل تأخذ بيدك إلى مقياس آخر . هو أن يكون الكلام

---

(١) الموازنة : للآمدى ص ٢٠٤ - ٢٠٥

بليغاً ... ولا يكون الكلام بليغاً إلا إذا كان مطابقاً لمقتضى الحال . مع فصاحة كل كلمة فيه ، ولكل مقام مقال ، وعلى المتكلم أن يكون خبيراً بأحوال مخاطبيه. فطناً بطرق التعبير حتى يكون كلامه مؤثراً .

وهنا تظهر صلة البلاغة بأحوال النفس . وهى صلة تشغل جانباً كبيراً فيها . فعلى المتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار السامعين . ويعرف أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً . ولكل حالة مقاماً . وقد فصلت البلاغة القول فيما يناسب كل مقام . وأمدت المتكلم بالنماذج والأسس التى يسير على هداها فى كل حال ، وكان علم المعانى - وهو أحد مباحثها الثلاثة - خير معين على ذلك .

ففيه التوكيد بأنواعه ، وفيه ترك التوكيد عند عدم دواعيه ، وفيه الحذف والذكر ، وفيه التقديم والتأخير ، وفيه التعريف والتنكير ، وفيه الفصل والوصل، وفيه الإيجاز والمساواة والإطناب ، وفيه القصر وعدم القصر ، وفيه الحقيقة العقلية والمجاز العقلى .. وهذه عناوين لأمهات مسائل تحتها كثير من الدقائق والأسرار .

وعلم البيان مجال فسيح لتصوير المعانى . وخلجات النفوس فى أدق أحوالها، ففيه التشبيه والتمثيل ، وفيه الاستعارة ، وفيه المجاز المرسل ، وفيه الكناية والتعريض ، وفيه الالتفات من حالة إلى حالة لداع ومقتض .. وفيه كثير من التوجيهات .

والتشبيه والمجاز وسائل إبراز الخيال والعواطف . ومكامن الإبداع والخلق فى كل عمل فنى . فليس هناك وسيلة يمكن أن يصور على هداها الخيال إلا التشبيه والمجاز .

والبديع ليس سمة ترف فى الأسلوب متى كان جارياً مع الطبع . وإنما هو مظهر من مظاهر التناسق الصوتى فى العمل الأدبى . ومظهر من مظاهر التأنق فى روعة المعنى وحسن تأديته .

إن منزلة البديع من الأسلوب منزلة المكملات فى الجملة بعد استيفاء ركنيها، ولم يقل أحد بتهوين شأن تلك المكملات فى الإفصاح عن المعنى واكتماله . فليس فى البديع مظهر ترف فى البيان وإنما هو إضافات تزدان بها العبارات وتكسبها بهاءً وخلابة .

تلك هى - فى إيجاز - بلاغتنا العربية ، دعامة الإعجاز البيانى ومصدر القوة والجمال فى البيان الرفيع . وصدق اللّه العظيم إذ يقول منوِّهاً بفضل بلاغة القول : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ (١) .

* * *

(١) النساء : ٦٣

الباب الثانى

خصائص التعبير فى القرآن الكريم

- الإعجاز العلمى والتشريعى .
- الإعجاز البيانى الأدبى .
- خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ .
- خصائص يغلب عليها جانب المعنى .

الفصل الأول

الإعجاز العلمى والتشريعى

يعتبر الإعجاز - بعامة - خصيصة القرآن الكبرى . وجدير بالذِكر أن نبيِّن الاتجاهات التى حاولت فهم الإعجاز . ونرجِّح منها ما رجُحه الدليل .

والباحث فى الإعجاز القرآنى يرى أربع نظريات :

١ - مذهب الصرفة . ٢ - الإعجاز العلمى .

٣ - الإعجاز التشريعى ٤ - الإعجاز البيانى الأدبى (١) .

١ - الصرفة

يُنسب القول بالصرفة إلى الشيخ إبراهيم بن سيار النظام ، على أنه أول مَن قال به . ومعناه على وجوه ثلاثة :

أحدها : أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها .

ثانيها : أن الله صرف عن العرب العلوم التى تمكن بها المعارضة مع بقاء الدواعى .

ثالثها : أن الله قسرهم وألجأهم إلى عدم المعارضة .

وقد راق هذا القول كثيراً من المعتزلة فاتخذوه مذهباً لهم فى فهم الإعجاز ، وتابعهم عليه غيرهم .

---

(١) قصرنا الحديث فى هذا الفصل على النظريات الثلاث الأولى ، أما الإعجاز البيانى الأدبى فقد تحدثنا عنه فى الفصل التالى .

ويرى بعض المحدَثين أن فى نسبة الصرفة إلى المعتزلة ضعفاً فى السند وحيفاً فى الحكم .

فقد تشكك الدكتور على العمارى [١] فى صحة النسبة . واستند فى تشككه إلى ما كتبه عبد الهادى أبو ريدة [٢] وفحواه : إنه لا يستطيع أحد أن يزعم أن القول بالصرفة جاء صراحة فى كتب المعتزلة وعلى رأسهم النظام . بل إن آراء المعتزلة جملة أخذت من كتب خصومهم .

يقول الدكتور العمارى : « ولولا إنى رأيت الجاحظ يعرض لهذا المذهب فى كتاب « الحيوان » لكان لى مندوحة فى الشك والتردد الكثير فى نسبة المذهب للنظام » [٣] .

وقد انتهى الدكتور العمارى إلى نتائج نوجزها فيما يلى :

١ - أن النظام قد شهد كثير من الفضلاء بنبوغه وورعه وولائه وبلائه فى الإسلام ، وخالف فريق فقالوا بكفره وزندقته .

٢ - أن المعتزلة - عموماً - نكبوا بضياع مؤلفاتهم فى القرن الثالث الهجرى وظلت آراؤهم تلوكها الألسنة ، وتناولها الخصوم بالتبديل فهى - لذلك - لا تمثل حقيقة آرائهم .

٣ - أنهم - أى المعتزلة - نُكِبوا - كذلك - برجل لا يثبت على مذهب، ولا يستقر على حال . وكان واسع الأفق فى الكذب والاختراع ، وهو أبو الحسن أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى . فهو منسوب إلى الاعتزال وقد أساء إلى المذهب بأقاويله الفاسدة [٤] .

---

(١) الدكتور على محمد العمارى من علماء الأزهر المعاصرين ، وهذه المعلومات من كتابه «حول إعجاز القرآن » ص ٦٣ - ٦٥ (سلسلة الثقافة : ٤٤) .

(٢) فى كتابه : « إبراهيم بن سيار النظام » .

(٣) حول إعجاز القرآن ص ٦٦ (٤) المصدر نفسه ص ٦٦ ، ٦٧

ويريد أستاذنا العمارى بذكره هذه الوقائع أن يدعم شكه الذى سبقت الإشارة إليه فى نسبة هذا الرأى إلى النظام . وقد عزاه إلى عيسى بن صبيح المزدار شيخ الاعتزال فى بغداد . والذى يلقب براهب المعتزلة . وإلى الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين . والجعد - هذا - كان معروفاً بالتطرف فى الرأى .

وعلى هذا فليس النظام هو أول مَن قال بهذا الرأى . وإنما نُسِبَ إليه المذهب وعُرِف به لأنه أكثر القول فيه .

* *

● رأى آخر للنظام :

وكما نُسِب القول بالصرفة إلى النظام .. فقد نُسِب إليه قول آخر هو أن القرآن معجز لما فيه من الإخبار بالأمور الماضية والآتية .

كما يذكر الدكتور العمارى حقيقة أخرى . هى : ان القائلين بالصرفة - سواء أكانوا معتزلة أم غير معتزلة - لم يحطوا من شان بلاغة القرآن . وجمال أسلوبه، لأن القول بالصرفة لا ينال من القول ببلاغة القرآن وعلو طبقته .

* *

● تعقيب :

لسنا فى موضع دفاع عن المعتزلة والنظام . ومهما استند إليه الباحثون من التشكيك فى نسبة هذا القول إليهم . فإن المعتزلة قد عُرِفوا بالجرأة فى مسائل العقيدة والسياسة فلا يُستساغ ولا يُقبل أن يبرأ النظام وأشياعه من ابتداع هذا القول فى فهم الإعجاز .

وإن لم يكونوا هم القائلين به فمَن يكون مبتدعه إذن ؟

ليكن عيسى بن صبيح المزدار ، أو الجعد بن درهم ، أو حتى الرواندى . أوَ ليسوا هم معتزلين ؟

وكيف يُستهان بشهادة الجاحظ ؟ والدكتور العمارى نفسه قد ذكرها فى كتابه . والجاحظ ممن يعتد برأيه فى هذا المجال ؟

إن المسألة أخذت من الدكتور العمارى - فيما أرى - أكثر مما تستحق ..

* * *

● أشياع المذهب من غير الاعتزال :

راق القول بالصرفة كثيراً من غير المعتزلة . فأخذوا به واعتنقوه مذهباً فى فهم الإعجاز .

من هؤلاء الجاحظ فى أحد آرائه ، والرمانى صاحب النكت فى إعجاز القرآن وهما من المعتزلة .

ومنهم الشريف الرضى ، وابن سنان الخفاجى ، وهما من الشيعة .

وأبو إسحق الاسفرائينى من الأشاعرة .

والإمام محمد بن حزم من أهل الظاهر .

يقول ابن سنان الخفاجى : « .. وإذا عدنا إلى التحقيق . وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأسلوبه بأن سلبوا العلوم التى كانوا يتمكنون بها من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك »(١) .

ساق ابن سنان هذا الكلام ، وهو بصدد الرد عى الرمانى وإنكاره ما ذهب إليه من تقسيم التأليف إلى ثلاثة أقسام :

---

(١) سر الفصاحة - شرح عبد المتعال الصعيدى ص ٨٩

١ - متنافر .

٢ - متلائم فى الطبقة الوسطى .

٣ - متلائم فى الطبقة العليا . وحيث جعل القرآن من النوع الثالث المتلائم من الطبقة العليا ، لمجيئه على وجه لم يكن مألوفاً عند العرب .

وقد خالف ابن سنان الخفاجى رأى الرمانى هذا . وأنكر أن يكون فى تأليف القرآن ما يخالف كلام العرب ، وسوَّى بين طريقة القرآن وطريقة العرب فى التأليف ، وبنى على ذلك مذهبه فى الرد على الرمانى . إذ كيف يفصل - أى الرمانى - بين كلامين خصائصهما الأسلوبية واحدة .

ويُفهم من كلام ابن سنان أمور :

١ - أن العرب - بطبعهم - قادرون على محاكاة القرآن ، ودواعى المحاكاة متوافرة لديهم .

٢ - أن الذى منع العرب من المعارضة هو أن اللّٰه تعالى صرف المعارضة عنهم بسلب العلوم المؤدية إليها مع رغبتهم فيها .

٣ - أن ذلك المنع هو وجه الإعجاز فى القرآن لا غير !

* *

● رأى متطرف :

وقد صرَّح ابن سنان بما هو أخطر من ذلك إذ يقول : « لا فرق بين القرآن ، وبين فصيح الكلام المختار فى هذه القضية . ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد فى كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه » [١] .

---

(١) سر الفصاحة : نفس الموضع .

والحق أن الذى ذهب إليه من المساواة بين القرآن وبين كلام العرب مرفوض من وجهين :

أولاً : أنه ادعى دعوى لم يقم عليها الدليل !؟

ثانياً : أن هذا الرأى شاذ وموضع إنكار شديد عند العلماء .

* * *

● ابن حزم والصرفة :

يرى ابن حزم الأندلسى إمام أهل الظاهر أن إعجاز القرآن حاصل بالصرفة . ويرفض ابن حزم الإعجاز البيانى . وقد لخص رأيه فى قوله : « ووجه إعجازه أن اللّه رفع القوة عن العرب . وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله ، ويرى أن التحدى وقع بالنظم وبما فى القرآن من الإخبار عن الغيوب وإن كان غير مطرد فى القرآن كله . وأن الإعجاز حاصل ببعض القرآن دون التوقف على القرآن كله كما يرى الأشاعرة .

وإعجازه باق إلى يوم القيامة . والقرآن ليس من جنس كلام البَشر ، ويسوق على ذلك ما رآه من أدلة مثل فواتح السور بالحروف المقطعة ، والأقسام التى لا عهد للبَشر بها . ومزجه بين المعانى المتباعدة .

وفى رفضه الإعجاز البيانى يقول : « وقد ظن قوم أن عجز العرب ومَن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن فى أعلى طبقات البلاغة ، وهذا خطأ شديد ، ولو كان كذلك ، وقد أبى اللّه عَزَّ وجَلَّ أن يكون كذلك ، وإن كان سبق فى وقت ما فلا يؤمن أن يأتى فى غد ما يقاربه أو يفوقه » !

ومعنى هذا الكلام : أن ابن حزم يستند فى رفضه المذهب البيانى إلى أن القول به قد يفضى إلى نقض الإعجاز فى المستقبل ، لجواز أن يظهر فى الناس نابغة يأتى بمثل القرآن أو بما يفوقه .

وظاهر أن هذا الاحتياط الذى لخصه مبنى على وهم ما كان يليق بابن حزم أن يقع فيه .

إن العصر الذى نزل فيه القرآن كان عصر ازدهار فى البيان ، وقد اقتضت حكمة الله أن تكون معجزات رسله فوق ما يستطيعه الناس . كل حسب طبيعة القوم المرسَل إليهم .

إن ثبوت عجز العرب الأصلاء الذين عاصروا نزول القرآن . دلَيل قاطع - من الواقع لا من الوهم - على عجز اللاحقين . فالقرآن كان يتحدى آنذاك قوماً لهم فى البيان قدم راسخة . كان يتحدى عصر « القمة » فى البيان والفصاحة . وهذا يدفع شُبهة ابن حزم [(١)] .

* * *

● الرمانى والقول بالصرفة :

قلنا فيما سبق أن الرمانى من القائلين بأن وجه الإعجاز فى القرآن كان الصرفة .

وترجع وجوه الإعجاز عنده - جملة - إلى سبعة أصول :

١ - ترك المعارضة مع توافر الدواعى وشدة الحاجة .

٢ - تحدى الكافة .

٣ - الصرفة .

٤ - البلاغة .

٥ - الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة .

٦ - نقض العادة

٧ - قياسه بكل معجزة .

والبلاغة التى هى أحد وجوه الإعجاز عند الرمانى - يقسمها إلى عشرة

---

(١) أشرنا إلى هذا عند الحديث عن ابن سنان الخفاجى . انظر ص . ١١ من هذا البحث .

أقسام : الإيجاز - التشبيه - الاستعارة - التلاؤم - الفواصل - التجانس - التصدير - التضمين - المبالغة - حسن البيان .. وسيأتى رأيه مفصلاً .

* * *

● ما هو مذهب الجاحظ فى الإعجاز ؟

هل قال الجاحظ بالصرفة ؟ حقيقة لا بد من عرضها هى أن الجاحظ لم يذكر رأيه صراحة فى الإعجاز . وإنما يُفهم رأيه فيه من ثنايا حديثه عن القرآن .

وقد جاء عنه : « وفى كتاب اللّه المنزّل الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد » [(١)] .

وإذا ضممنا إلى هذا القول ما كتبه الجاحظ عن القرآن - وتحليله لبعض نصوصه - قوى الرأى لدينا بأن الجاحظ يقول بإعجاز القرآن من حيث نظمه البديع .

* * *

● نقد مذهب الصرفة :

لم تثبت لهذا الرأى حُجَّة ، ولم يبق له دليل ، منذ تعرض العلماء لنقده ورده لضعف أدلته .

فهل استطاعوا جميعاً ، أو استطاع واحد منهم أن يأتينا بمثال أو مثالين أو أدنى من ذلك أو أكثر من شِعر العرب أو نثرهم . مما أثبتت الرواية أنهم قالوه قبل سلب تلك العلوم ، تتضح فيه الخصائص التى جاء بها الأسلوب القرآنى . فيكونا سواء فى القوة والروعة .

لم يفعل أحد منهم ذلك ، فظلت آراؤهم لا تتجاوز دائرة الظن والتخمين ، وهل كان القائلون بالصرفة أدرى من العرب أنفسهم الذين تحداهم القرآن أن يأتوا

---

(١) الحيوان : ٤/ ٩٠ .

بمثله فيثبتوا لهم ما يدّعوه لأنفسهم . لو كان عندهم ذلك لجاءوا به ولوضعوه في حلبة المباراة ولقالوا لمحمد عليه السلام : هذا قولنا ، قلناه قبل أن تعرف القرآن .. وهو يساويه في البلاغة وقوة البيان ، فما بالك تطلب جديداً وقد سبقناك ؟

إن القرآن يحكى عنهم أنهم لم يدّعوا هذه الدعوى بل علّقوا ذلك على أن تريده مشيئتهم فيقولوه ، لا أنهم قالوه فعلاً . القرآن ينقل عنهم قولهم : ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ (١) .

وفى هذا يقول الباقلانى : « ولو كان مقدوراً للعباد ، لكان قد اتفق إلى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به ، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه . وتعمل نظمه فى الحال . فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع ، ولا عارضوه ، فقالوا : هذا أفصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله . عُلِمَ أنه لم يكن إلى ذلك سبيل وأنه لم يوجد له نظير » (٢) .

وقد قارن العلماء بين قول العرب : « القتل أنفى للقتل » وقد كان قولهم هذا مضرب الأمثال فى البلاغة والفصاحة وحسن الدلالة ، لما فيه من الإيجاز وثراء المعنى ، وبين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُم فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٣) وجاءت نتيجة المقارنة تثبت التفوق للنص القرآنى من عدة وجوه لا من وجه واحد (٤) .

* *

---

(١) الأنفال : ٣١

(٢) إعجاز القرآن على هامش الايقان : ١/ ٣١

(٣) البقرة : ١٧٩

(٤) انظر - مثلاً - بديع القرآن لابن أبى الاصبع .

● مقارنة جديدة :

وأذكر هنا مثالاً يمكن جعله موضوعاً للمقارنه وهو قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (١) .

إذا قارنا هذه الآية بقول السموءل (٢) وهو يتفق معه فى الغرض العام :

وَنُنْكِرُ - إنْ شِئْنَا - عَلَى النَّاسِ قَوْلَهم ... وَلاَ يُنْكِرُونَ القَوْلَ حِينَ نَقُولُ

أقول : إذا وازنا بين الآية الكريمة .. وبين قول هذا الشاعر لبان الفضل فى جانب الآية الكريمة من عدة وجوه كذلك .

وها نحن أولاء نقوم بموازنة سريعة بينهما . لا على أن ما قلناه هو كل ما بينهما من فروق . ولكن لضرب المثل بما يكون فى جانب النص القرآنى من الخصائص والمزايا التى لا توجد فى سواه مهما كان عظيماً جيداً . ونجرى الموازنة على النحو الآتى :

أولاً - من حيث الأسلوب :

(أ) الآية الكريمة تتكوَّن من ست كلمات ، بينما يتكون البيت من إحدى عشرة كلمة ، وعدد حروف الآية اثنان وعشرون حرفاً ، بينما البيت بلغ عدد حروفه خمسة وأربعين حرفاً .

(ب) فى الآية إيجاز بالحذف فى أربعة مواضع هى :

١ - « يُسْئَلُ » حيث حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول وأضمر فيه نائب الفاعل .

٢ - « يَفْعَلُ » وهذا الفعل صلة الموصول « ما » حذف منه عائد الصلة . والأصل « عما يفعله » .

---

(١) الانبياء : ٢٣

(٢) هو السموءل بن غريض بن عادياء . والبيت فى ديوان الحماسة : ١/ ٣٠ .

٣ - « يُسْئَلُونَ » حيث فعل فيه مثل ما فعل فى سابقه ، فبنى الفعل للمفعول وحذف فاعله . وجئ بالضمير (واو الجماعة) وجُعِلَ نائب فاعل .

٤ - الموضع الرابع .. حيث حذف معمول « يُسْئَلُونَ » والتقدير : « عما يفعلونه » وهذا الحذف اعتماداً على ما ذُكِرَ مع نظيره « لا يُسْئَلُ عما يفعل » فحذف من الثانى لدلالة الأولى عليه .

أما البيت ففيه إطناب فى موضعين أحدهما لا بأس به ، والثانى جاء قيداً مضراً بالمعنى الذى يقتضيه المقام .

فالأول حيث قال : « إن شئنا » معترضاً به بين العامل : « ينكر » والمعمول « قولهم » ، والثانى قال : « حين نقول » وقد أضر هذا بالمعنى لما سيأتى :

(جـ) كل من الآية والبيت اشتمل على محسنين بديعيين . أحدهما الطباق ، والثانى رد العجز على الصدر .

والطباق فى الآية طباق سلب وإيجاب . وفى البيت طباق إيجاب وسلب ، ولتقديم السلب على الإيجاب فى هذا المقام فضيلة لا نراها لغيره - حيث نفت الآية أن يُسئل الله عن فعل يفعله فأثبتت له كمال الإرادة بما يصدر عنه أولاً . ثم أثبتت له صفة متعدية وهى أنه يُسئل عما يفعله سواه . أو أن سواه يُسئل عما يفعله سواء أكان السائل الله . أو بعضهم بعضاً .

أما طباق البيت فقد أثبت أولاً الصفة المتعدية ، وثانياً الصفة الذاتية . والمقام هنا مقام فخر ، فكان الأولى أن يبدأ بإثبات الصفة الذاتية . ثم يُثنِّى بالصفة المتعدية ، ولو فعل لكان أنسب بالمقام إذ يكون الانتقال - من إحدى الصفتين إلى الأخرى - انتقالاً طبيعياً قد مهد له ورشح . لكنه خالف . فجاء أسلوبه على غير المختار .

وكذلك رد العجز على الصدر ، فإن الآية التى هى موضع المقارنة ردت آخر كلمة فى العبارة على أول كلمة بعد أداة السلب فيها .

بينما البيت رد أول كلمة من الشطر الثانى بعد أداة النفى على أول كلمة فى البيت .

فأنت ترى أن الآية ردت العجز فعلاً على الصدر ، بينما البيت إنما يعتبر فيه العجز مع شئ من التسامح .

فإطلاق ضابط المحسّن البديعى - رد العجز على الصدر - فى « الآية » أكثر إتساقاً منه فى « البيت » وهذا ملحظ دقيق جداً .

(د) ليس فى الآية ما فى البيت من التكرار . فقد وقع التكرار فى البيت فى موضعين تكرر أحدهما مرتين وهو : « ننكر » ، « ينكرون » ، وتكرر ثانيها ثلاث مرات وهو : « قولهم » ، « القول » ، « نقول » .

بينما الآية لم يتكرر فيها سوى موضع واحد ، وهو تكرار لا فضول فيه إذ أن الكلمة المكررة « يُسْئَل » و « يُسْئَلُون » تؤدى معنى أساسياً فى الموضعين وهذا وإن جاز اعتباره فى البيت فى : « ننكر » ، « ينكرون » ، فلا يجوز بحال من الموضع الثانى : « قولهم » ، « القول » ، « نقول » .

(هـ) فى الآية موسيقى داخلية شجية تلحظها بين اللامين فى « يُسئل » ، و « يفعل » مع سهولة نطق ألفاظها وسلاستها .

وهذا الجانب غير واضح فى البيت . بل هو - على العكس من الآية - خشونة فى الألفاظ .

ثانياً - من حيث المعنى :

(أ) فى الآية التعبير بالفعل دون القول . وفى البيت التعبير بالقول دون الفعل . والفعل أعم من القول فهو يشمل ، والقول لا يشمل الفعل . وهذا يسلمنا إلى الموازنة بين الموضعين من حيث المعنى ، بعد أن وازنا بينهما من حيث أسلوب التعبير . فالآية أعم فى المعنى من البيت ، فليس هناك مأخذ يتوجه إليها إذ ثبت المراد منها فى دقة وإحكام .

فاللّه كامل الإرادة ، مطلق التصرف ، لا يسأله أحد عن فعل يفعله أو قول يقوله لأن سلطانه على العالَمين قائم .

أما الناس فليسوا مطلقى التصرف ، ولا كاملى الإرادة ، فاللّه يسألهم عما يقولون وعما يفعلون ولا محالة .

وقد يسأل بعضهم بعضاً بما لأحدهم على الآخر من قوامة . وهذا العموم فى تعيين السائل مأخوذ من بناء الفعل للمفعول ولو ذكر الفاعل لوجب الالتزام به . فانظر إلى الأسلوب القرآنى ودلالة ألفاظه كيف تكون .

(ب) ثلاثة مآخذ : أما البيت ففيه ثلاثة مآخذ فيما أرى - من حيث المعنى تتنافى ومقام الفخر .

أولاً : التعبير بالقول دون الفعل حصر منهم للناس فيه دون غيره . والمقام يقتضى أن تكون له سلطة تمنع الناس القول والفعل وإلا فإن مقوِّمات الفخر عند الشاعر لم تُستكمل .

ثانياً : هو يقول : « وننكر إن شئنا على الناس قولهم » ، فكان الأنسب لتكون المقابلة تامة بين النظائر أن يقول فى الشطر الثانى : « ولا ينكرون قولنا » ، لكنه أتى بالألف واللام عوضاً عن المضاف إليه فجاء المعنى غامضاً، لأنه يرد عليه سؤال مؤداه : قول مَن يا ترى الذى لا ينكرونه ؟

ثالثاً : لا يدفع هذا الاعتراض بقوله فى آخر البيت : « حين نقول » لأنها تبيّن أن المراد بالقول قولهم هم لا قول غيرهم لأن هذه العبارة المقام يقتضى حذفها إذ تخص عدم المنع فى حالة القول . والأولى أن يكون عدم المنع أو النكران مستمراً قبل وأثناء وبعد القول . هذا أولى ليكونوا أجلاَّء مهابين فى جميع الأوقات، فأنت ترى إذن أن هذه العبارة قلقة أضرت بالمعنى ولم تأت إلا للوزن الشعرى .

هذا مثال نقدمه لنسأل سؤالاً : هل كان فيما قاله العرب قبل عصر نزول القرآن وتحديه لهم ما يضاهى القرآن فى الحسن والجمال ، أو يقاربه فضلاً عن أن يفوقه ؟

والجواب : لم يكن شئ من ذلك ... ومَن يدعه فليأتنا بمثال ، وما هو بواجد...

وإذا انتفت عنهم هذه المأثورات التى تضاهى القرآن أو تقاربه أو تفوقه - والحال أن الوسائل كانت ممكنة قبل عصر التحدى - لزم القول بالإعجاز وبهذا يبطل شق مدعاهم . وهو أن الله سلبهم العلوم التى تمكن من المعارضة . ولو بقيت لعارضوا .

* *

● وهم زائل :

أما الشق الثانى : والذى يدّعون فيه أن الله صرف عنهم دواعى المعارضة مع قدرتهم عليها . فوهم زائل .

وذلك لأن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله . فى صور مختلفة ، وأزمنة ممتدة . يقول الجاحظ : « فلم يزل يقرعهم بعجزهم . وينقصهم على نقصهم ، حتى يتبيّن لضعفائهم وعوامهم كما تبيّن لأقويائهم وخواصهم . وكان ذلك من أعجب ما أتاه الله مع سائر ما جاء به من الآيات وضروب البرهانات » (١) .

التحدى لم يحدث مرة واحدة ، ولا فى زمان واحد ، ولا بصورة واحدة ، والآيات الآتية تكشف لنا عن هذه المعانى :

قال تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) حجج النبوة : ضمن رسائل للجاحظ جمعها السندوبى ص ٧٧

(٢) البقرة : ٢٣

وقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إن كَانُواْ صَادِقِينَ ﴾ (٤) .

هذه الآيات التى تحدى فيها القرآن العرب ، استثارت فيهم كل دوافع المعارضة وطلب الغلب ، وهيَّجت شعورهم بكل صورة ممكنة . مؤذنة لهم بأن يستعينوا بما يشاءون من دون الله : شركاؤهم - أو جماعة من الإنس أياً كانوا- أو جماعة من الجن أياً كانوا ، أو هم جميعاً وليناصر بعضهم بعضاً .

بدأ هذا التحدى فى مكة ، وأخذ يقرع آذانهم فى أزمان متفاوتة كما يُدْرَك من توزيع آيات التحدى على السور المختلفة : يونس . وهود ، والإسراء ، والطور . وهذه سور مكية .

ثم استؤنف ذلك فى أول سورة تنزل بالمدينة بعد الهجرة ، وهى سورة البقرة .

* * *

---

(١) يونس : ٣٨

(٢) هود : ١٣

(٣) الاسراء : ٨٨

(٤) الطور : ٣٤ .

● كيف تحدى القرآن العرب ؟

القرآن لم يهادنهم فى أمر التحدى وقد بدأ معهم بهذا المنهج :

أولاً : طلب منهم أن يأتوا بحديث مثله ، غير مقيَّد بالقليل أو الكثير . فلم يستطيعوا ولهم فسحة من الزمن .

ثانياً : طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مفتريات مثله - كما يقولون - وفى هذا تقييد وإطلاق .

تقييد فى العدد : عشر سور . وإطلاق فى الطول والقصر . فلم يستطيعوا كذلك .

ثالثاً : خفف عنهم فطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله ، سورة غير مقيَّدة، طويلة أو قصيرة أو متوسطة الطول والقصر . فلم يستطيعوا . فكرر لهم التحدى بها فعجزوا .

رابعاً : فلما عجزوا فلم يأتوا بحديث مثله ، ولا بعشر سور ، ولا بسورة واحدة ، وبلغوا اليأس ، سجَّل عليهم هذا العجز ، وتحداهم فى صورة ختمت مراحل التحدى . وسجِّلت نهاية نتائج المباراة أو المناظرة فقال : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) .

فهل مع هذا التحدى المستمر المثير ، يُصدِّق منصف أن القوم لم تكن لديهم رغبة فى المعارضة . وأن اللّه صرف عنهم دواعيها ؟

إنَّ العكس هو الصحيح ، إنَّ القرآن أثار فيهم تلك الدواعى . وهيَّج نفوسهم لها ليبذلوا أقصى ما عندهم فى الإتيان بمثله . فلم يستطيعوا .

---

(١) الإسراء : ٨٨

فلما عجزوا عن مجاراة القرآن فى مجال البيان استبدلوا الطعون فيه بالمحاكاة، فمرة شِعر . ومرة سِحر يؤثر ...

لما لم تفد هذه الطعون استبدلوا بها السيف شهروه فى وجه صاحب الدعوة وأتباعه ، فأنزلوا بهم الأذى . وقعدوا لهم فى كل طريق .

فلو كان القوم مسلوبى الدواعى فى مجال البيان . لكانوا مسلوبى الدواعى فى مصاولة الأقران .

وهذا كاف فى رد الشق الثانى من مدّعاهم – أى مدّعى أهل الصرفة – وإذا بطل مدّعاهم بشقيه . ثبت ما حاولوا نفيه به . وهو الإعجاز البيانى الذى لم يكن فى مقدور العرب محاكاته مع الرغبة فيها وبقاؤهم على طبيعتهم من المعارف والعلوم .

* *

● دليل آخر فى إبطال القول بالصرفة :

لم تترك الصرفة شيئاً ذا قيمة فيما سبق لنا من نقاش لها ، ومع هذا فإن العلماء قد ردوها بدليل آخر حاصله كما يقول الباقلانى : « لو كان المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع معجزاً . فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه »[1].

وهذا رأى صائب ورد قاطع ، لأننا ما دمنا متفقين على أن القرآن معجز فيجب أن يكون هذا الإعجاز فى القرآن ذاته ، لا مستجلباً له من خارجه . كما هو مقتضى القول بالصرفة . لأن المعجز فيها هو الله بسلب المعارف والعلوم عن العرب ، أو صرف دواعى تلك المعارضة .

* * *

(١) إعجاز القرآن للباقلانى : ٤٣/٢ على هامش الإتقان .

● هل عورض القرآن ؟

رأيتُ كثيراً من الباحثين فى إعجاز القرآن ينفون معارضة العرب له . ويعزون ما ورد منها إلى اختلاقات الرواة .

وأول مَن حاول ذلك هو الجاحظ حيث يقول : « ولم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر » .

وقد اقتدى بالجاحظ الكثير من العلماء كالخطابى وابن خلكان وغيرهم من القدماء .

وقد تأثر الدكتور على العمارى - حديثاً - بهذا الرأى فبالغ فى نفى المعارضات حقها وباطلها .. فلا مسيلمة عارض ، ولا سجاح ، ولا ابن المقفع، ولا المتنبى الشاعر ، ولا أبو العلاء المعرى ، ولا طليحة .

كل هؤلاء - عند الدكتور العمارى لم يعارضوا القرآن . بل لم تحدث المعارضة قَط . لا فى عصر النزول ولا بعده .

وقد بنى هؤلاء مذهبهم - فى نفى المعارضات - على اختلاف الرواية والصياغة ، وهذا مسلك قد يبدو وجيهاً ، وحُجَّة قد تبدو محكمة . ولكنه لا يفيد القطع . فليس اختلاف الرواية أو الصياغة - دائماً - دليل شك أو بطلان.

فلم يسلم من اختلافات الرواية والصياغة حديث الرسول ﷺ ، ومع ذلك لم يقل أحد برفض أو بطلان ما اختلفت روايته منه ، أو تباينت صياغته مع صحة سنده ومتنه .

فالحديث الواحد قد يأتى على عدة أسانيد مع اختلاف العبارات ، ومع ذلك فهو حُجَّة فقهية وأصل من أصول التشريع .

ولم يسلم من اختلاف الرواية والصياغة الشعر العربى القديم - جاهليه وإسلاميه - ولم يُرفض ذلك الشعر جملة لأن روايته وصياغته جاءتا على أساليب مختلفة ، بل للرد والرفض طرق أخرى مدوَّنة فى مصادرها .

وقد كان الباقلانى أسَدّ رأياً حين لم ينف وجودالمعارضات أصلاً . بل نفى أن يكون ما ورد منها تنطبق عليه خصائص المعارضات المقبولة ، ولو قال النافون على الإطلاق مثل قوله لما خالفهم أحد .

والذى نأخذه على الدكتور العمارى أنه يرى أن التسليم بورود المعارضات لا يخدم قضية الإعجاز القرآنى . ولذلك راح يستخدم كل حيلة وبراعة فى تأييد مذهب نفى المعارضات أساساً .

ونحن نميل إلى خلاف رأيه فى شئ من الحيطة وما نريد إثباته هنا . أن : المعارضات التى وردت لم تكن قضية العرب كلهم لأنها لا تفيدهم فى مقام التحدى لعدم ورودها على أسلوب القرآن . ولذلك لم تكن موضع اهتمام عند جميعهم حتى لا يخاطروا بما لا يحسنون فى مقام يؤخذ عليهم فيه ذلك .

لذلك جاءت المعارضات من الحمقى والمغامرين . فهى تمثل عندهم طابعاً فردياً لا جَماعياً .

* *

● التسليم بوجود المعارضة يخدم قضية الإعجاز :

وهذه المعارضات على ندرتها واختلاف الرواية فيها والصياغة ، وطابعها الفردى .. هى فى مجموعها تخدم الإعجاز - على نقيض ما يقوله الدكتور العمارى - ولا تنال منه ، لأننا إذا عمدنا إلى شئ من نصوصها وقارناه بما يقابله من القرآن الكريم . بان لنا الفرق بين الأصالة والتقليد ، والقوة والضعف . والجدة والذبول . كالفرق بين الزهرة اليانعة فى روض أريض ، وبين زهرة صناعية لا ماء فيها ولا شذا .

فقد عورض قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الكوثر كاملة .

بقول بعضهم : « إنَّا أعطيناك اللحاح . فصل لربك وارتاح . إن شانئك هو العجل النطاح » . وهذا قول ساقط لا يستحق الحروف التى كتب بها . ولا المساحة التى يشغلها من رقعة ورق بالية .

وهو مع سقوطه هذا يبدو عليه أثر السرقة والتقليد . لأن المعارِض عمد إلى النص القرآنى نفسه وجاء به رافعاً منه ثلاث كلمات ، واضعاً موضعها أربع كلمات تميل إلى السقوط والابتذال والغثاثة .

رفع « الكوثر » ووضع موضعها « اللحاح »، ورفع « وانحر » ووضع موضعها « وارتاح » وفيها خطأ ظاهر [١] . ورفع « الأبتر » ووضع موضعها « العجل النُطاَّح » .

فما الذى أتى به من عنده إذن . سوى السيئ والقبيح .

ليقارن الذوق وليحكم بما يرى !

* *

والخلاصة : أن التسليم بورود المعارضات يخدم قضية الإعجاز ولا ينال منها . ولو تابعنا الذين قالوا بنفيها ووضع ما ورد منها لكان فى ذلك حُجَّة للذين قالوا إن الله صرف دواعى العرب إلى المعارضة ، فلم يعارضوا فى كثير ولا قليل . بدليل أن : المعارضات لم تصح نسبتها إليهم .

* * *

(١) إذ الصواب : وارتح .

٢ - الإعجاز العلمى

وتحت هذا النوع ثلاثة فروع :

١ ، ٢ - الإعجاز التاريخى والغيبى .

٣ - الإعجاز فى مجال الكشوف الحديثة فى الكون والطب .

أولاً - الإعجاز التاريخى والغيبى :

يرى فريق من الباحثين أن القرآن معجز بما فيه من أخبار ماضية ، وتنبؤات مستقبلة أثبت الواقع صحتها .

وممن قال بهذا الرأى القاضى أبو بكر الباقلانى ، والرمانى ، ومحمد بن حزم الظاهرى وغيرهم .

وقد ذكر الباقلانى أمثلة من هذا النوع كالإخبار بانتصار الروم على أعدائهم فى مدة حددها القرآن فانتصروا خلال تلك المدة . قال سبحانه : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ ، لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

فقد حدد القرآن مدة النصر بـ « بِضع سنين » والبِضع مختلف فيه لغة ، جاء فى المختار : « وبِضع فى العدد - بكسر الباء - وبعض العرب يفتحها : وهو ما بين الثلاث إلى التسع ، تقول : بِضع سنين ، وبضع عشرة امرأة . فإذا جاوزت لفظ العشرة ذهب البِضع » (٢) .

وقال الراغب : « البِضع - بالكسر : المنقطع من العشرة . وينال ذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة . وقيل : بل هو فوق الخمسة ودون العشرة . قال : ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ والراجح أنه بين الثلاثة إلى العشرة بخروج الغاية ، وليس فوق الخمس إلى العشرة » (٣) .

---

(١) الروم : ٢ - ٥ (٢) مختار الصحاح ص ٥٥ - مادة « بضع » .

(٣) المفردات ص ٥٠ - مادة « بضع » .

ويؤيد الراغب القائل : أنه « من الثلاث إلى التسع » ما ذكره الزمخشرى من أن ذلك ورد عن الرسول عليه السلام حين سأله أبو بكر فى أمر المراهنة المشهورة [١] .

وقد صدق الواقع الآية فغُلبَت الروم على رأس السنة السابعة [٢] . وهذا الصدق هو الذى حمل بعض العلماء على اعتبار الإخبار الغيبى دليل الإعجاز .

ومما ذكره الباقلانى : الإخبار عن دخول المسلمين مكة فاتحين آمنين حيث قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إن شَاءَ اللَّهُ آمنِينَ مُحلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [٣] .

والإخبار بتحقيق الوعد لأهل بدر حيث قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إحْدَى الطَّائِفَتَينِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [٤] .

هذه شواهد نقلها القاضى أبو بكر لإثبات كون القرآن معجزاً من هذا الوجه [٥] .

وحقيقة ... إن القرآن أخبر عن أمور غيبية مستقبَلة فوقعت كما أخبر . ولم يختلف منها شئ . أو جاء على غير الوصف الذى ورد فيه . وهذا ليس فى طاقة البَشر .

ويتصل بهذا الفرع إخبار القرآن عن الأمم السابقة إخباراً صادقاً ، كقصة آدم عليه السلام ، وقصة ولديه قابيل وهابيل ، وقصص نوح وإبراهيم وموسى

---

(١) الكشاف : ٣/٣٦٨ (٢) نفس المصدر ص ٣٦٩ (٣) الفتح : ٢٧
(٤) الأنفال : ٧ (٥) إعجاز القرآن : ١/٧٢ ، ٧٣

وعيسى ، وقصص أصحاب الجنة والإسكندر ذى القرنين وأهل الكهف والرقيم ، وغير ذلك من الأمم الغابرة .

بعض هذه القصص ورد فى التوراة . لكن القرآن اختص بإيراد قصص لم ترد فى التوراة وليس لها مصدر تاريخى سوى القرآن . مثل قصة هود ، وقصة صالح ، وقصة لقمان ، وقصة أهل الكهف ، وقصة ذى القرنين [1] .

إذن فالقصص فى القرآن نوعان :

أولهما : نوع له مصدر تاريخى سوى القرآن كالتوراة ، مثل قصة آدم عليه السلام .

ثانيهما : نوع ليس له مصدر تاريخى سوى القرآن كقصص هود وصالح ، وقصتى لقمان وأهل الكهف وفى كلا النوعين ينفرد القرآن بخاصة فريدة هى الصدق ، ومطابقة القصة الواردة فيه للواقع .

* * *

• القيمة التاريخية لقصص القرآن :

وهنا تبرز القيمة التاريخية لقصص القرآن ، وهى تصحيح الوقائع التاريخية فيما كان له مصدر سواه . وإيرادها على وجه لا يتطرق إليه الشك . أو يحتمل الطعون .

ثم إمداد الفكر الإنسانى بمادة وأحداث تاريخية جديدة ، فيما ليس له مصدر سواه . كالقصص التى ذكرنا قبلاً .

وقد قارن مالك بن نبى بين قصة يوسف - كما جاءت فى القرآن - وبين نصوصها التى جاءت فى التوراة (الكتاب المقدس : العهد القديم : سِفر التكوين) .

---

(١) الظاهر القرآنية : مالك بن نبى ص ٢٥١

والمنهج الذى اتبعه فى المقارنة منهج دقيق حيث قابل النص القرآنى بما يقابله من نصوص القصة فى الكتاب المقدس . وبعد إجراء المقارنة الكاملة بين نصوص المصدرين وضع جدولاً تفصيلياً لورود عناصر القصة فى المصدرين . واضعاً ملاحظاته على ما بينها من اتفاق واختلاف (١) .

وعند رصد النتائج توصل إلى ورود خطأ بيِّن فى الكتاب المقدس ويحسن أن نثبت نص المؤلف عنها دون تغيير :

« والرواية الكتابية تكشف عن أخطاء تاريخية تثبت صفة الوضع التاريخى للفقرة التى نناقشها . فمثلاً فقرة : « لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين » يمكننا التأكيد أنها من النُسَّاخ الميّالين إلى أن يذكروا فترة المحن التى أصابت بنى إسرائيل فى مصر . وهى بعد زمن يوسف » .

« وفى رواية التوراة استخدم إخوة يوسف فى سفرهم حميراً بدلاً من العِير فى رواية القرآن . على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم فى وادى النيل بعد ما صاروا حَضريين . إذ الحمار حيوان حَضرى عاجز فى كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكى يجئ من فلسطين . وفضلاً عن ذلك فإن ذُرِّية إبراهيم ويوسف كانوا يعيشون فى حالة الرعاة الرُحَّل . رعاة المواشى والأغنام » (٢) .

قصة يوسف - إذن - لها مصدر تاريخى غير القرآن . وقد وضح لنا من اطلاعنا على النص المنقول من كتاب « الظاهرة القرآنية » لمالك بن نبى أن المصادر التاريخية لم تلتزم الدقة فى النص ، والأمانة فى النقل ، كما هو الحال فى القرآن الكريم .

---

(١) أحياناً لا يكون للنص القرآنى مقابل فى الكتاب المقدس .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٥

وهذا يدلنا بوضوح على أهمية القيمة التاريخية للنصوص الواردة فى القرآن الكريم لما يختص به من تصحيح الوقائع التاريخية التى تعرضت للخطأ والتحريف فى المصادر الأخرى .

ولقد أشار القرآن - نفسه - إلى هذه القيمة التى قوامها الصدق والأمانة فيما قصَّ وأخبر فقال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

كما أشار إلى وجه الإعجاز فى تلك الأخبار الغيبية حيث قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (٤) .

* * *

● حكمة أميَّة النبى وقومه :

ولكى يقطع القرآن كل شُبهة يمكن أن يتذرع بها المبطلون فى استقاء هذه الأنباء من مصادر سابقة . سجَّل أمية النبى عليه السلام فقال : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) يوسف : ١١١ — (٢) هود : ٤٩ — (٣) القصص : ٤٤

(٤) القصص : ٤٦ — (٥) العنكبوت : ٤٨

فليس النبى عليه السلام كاتباً ، ولا قارئاً ، وإذا ثبت له ذلك استحال فى حقه أن يكون قد استلهم تلك الأخبار والمعارف من سجلات الغابرين لو وُجِدَت، وثبت أنّ مرشده الوحيد هو القرآن الكريم .

ولم يكتف القرآن بإثبات أُميِّة النبى عليه السلام بل أتبع ذلك « تسجيل » أميِّة قومه – وهم الوسط المحيط به ، المخالِط له – حتى لا يقال : إنه استقى معلوماته منهم مشافهة ثم راح يصوغها بعبقريته الخاصة ، وأسلوبه الفريد .

قال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وعلى هذا الأساس يمكن فهم حكمة اللّه التى أرادت للنبى عليه السلام أن يكون أميّاً من قوم أميِّين .

* *

والخلاصة : إن القرآن تناول من الأحداث التاريخية نوعين : نوع له مصدر تاريخى سواه لكنه فيه على أصح الوجوه . وأدق الأحوال . وربما صحّح ما جاء فيه خطأ واقعاً فيما سواه وهذه خاصة أولى له .

ونوع ليس له مصدر تاريخى سواه ، وليس لدى البَشر من سبيل إلى الوصول إليه لبُعد وقوعه وانطماس آثاره . فهم عنه عاجزون . وهذه خاصة ثانية .

* * *

ثانياً – الإعجاز من حيث الكشوف العلمية :

يرى فريق من الباحثين المحدَثين أن إعجاز القرآن راجع إلى الإشارات العلمية التى فيه .

---

(١) الجمعة : ٢

فقد ورد في مواضع مختلفة حديث القرآن عن المعارف الكونية . والعلوم الطبيعية والإنسانية كالطب وعلم النفس . وقد جاء القرآن بهذه الإشارات منذ عهد طويل تلاحقت بعده الكشوف العلمية على نحو لم يختلف عما أشار إليه القرآن الكريم منذ قرون طويلة .

فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ [١] .

وقد رجع بعض المفسرين بالنظرية السديمية إلى هذه الآية : لأنها أبانت أنَّ السماء قبل تكوينها كانت دخاناً .

« والنظرية السديمية فكرة قال بها « سويدنبرج Swedenborg » ثم فصَّلها « لابلاس Laplace » ، وخلاصتها أن المنظومة الشمسية نشأت من السديم ، أى من مادة غازية ملتهبة ، وتجمَّدت وأفلتت من جُرمها الكبير أجزاء كثيرة تفرقت فدارت حول نفسها وحول الجُرم الكبير بفعل الجاذبية والحركة المركزية . وأنَّ نشأة النجوم فى السماء مماثلة لهذه النشأة وإن لم تكن من قبيل المنظمات التى تشبه منظومتنا الشمسية » [٢] .

والمتأمل فى النظرية لا ينكر أخذها من الآية على إجمالها فيها . وذلك لأن نهج القرآن الإشارة الموجزة الدالة إلى مثل هذه الحقائق العلمية دون الخوض فى التفاصيل .

على أنَّ تفسير النظرية السديمية لا تُفهم من الآية على سبيل الإلزام بحيث تحجر على الفهم المتجدد لكتاب الله .

---

(١) فصلت : ١١ - ١٢

(٢) التفكير فريضة إسلامية - عباس محمود العقاد ص ٩٤

وأياً كان الأمر فإن القرآن بما اشتمل عليه من إشارات علمية صالح لمثل هذا الفهم ، على ألا يؤخذ مأخذ اليقين لأن العلم دائماً فى تطور ، وفهم النص القرآنى على أنه دليل قاطع على مسألة علمية من طبيعتها التطور والتغير ، تحميل للقرآن بما ليس من طبيعته . فلا تؤخذ هذه البحوث وما شابهها مأخذ الجزم واليقين . وصلة هذه الإشارة العلمية بالإعجاز القرآنى ظاهرة . ولكنها ليست الإعجاز الذى تحدَّى اللّه به العرب .

ثالثاً - الإعجاز التشريعى :

ويرى فريق آخر أن القرآن مُعجز بما فيه من أحكام تشريعية خالدة . لم تحتج على تطاول الدهور إلى تعديل فى أصولها العامة ، وأنها تستهدف خير الإنسانية ، والحفاظ على الحقوق والواجبات ، والقاعدة التى يبنى عليها الحكم قائمة على أساس المصلحة فالنافع مباح، والضار ممنوع .. يقول عبد الرزاق نوفل:

« فقد أثبت التقدم الفكرى فى العلوم فى العصر الحديث أن القرآن كتاب علم قد جمع أصول كل العلوم والحكمة . وكل مستحدَث من العلوم ، نجد أن القرآن قد وجَّه إليه أو أشار إليه » (١) .

ويقول العقاد : « وقد استوعب الإسلام مذاهب الاقتصاد - كما استوعب مذاهب الاجتماع - فى عصر المصارف والشركات وقروضها وفوائدها ، دون أن يعوق مصلحة من مصالحها البريئة فى العُرف المشروع ، وتمضى هذه المذاهب كما مضى غيرها فلا يؤوده بعدها أن يستوعب مذاهب الثروة فى أيدى الآحاد ، لا يمنع منها إلا ما يمنعه أولاً وآخراً من ضرر وضِرار » (٢) .

يستشهد « نوفل » على الإعجاز العلمى التشريعى بآية الحيض . التى نصّها : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ فِى المَحِيضِ ، وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٣)

---

(١) القرآن والعلم الحديث ص ٢٢ ، ٢٣ (٢) التفكير فريضة إسلامية ص ٢٠ .

(٣) البقرة : ٢٢٢

وتحدّث « نوفل » عن علّة تحريم النساء زمن الحيض . ونلخص ملاحظاته منقولة من كتاب « القرآن والعلم الحديث » فيما يأتى :

(أ) أنّ إفرازات الدم وقت الحيض تتكوّن من مواد سمية قاتلة ، رحم الله الحائض بإخراجها منها . ولو بقيت فى رحمها لقتلتها عن طريق التسمم .

(ب) أنّ الأنثى فى وقت الحيض تكون أعضاؤها التناسلية فى حالة احتقان وأعصابها فى حالة اضطراب ، وتصاب فى نفس الوقت بأعراض أمراض كالصداع وآلام الظهر وهبوط فى الجسم . والاختلاط الجنسى فى هذه الحالة يضر بها ضرراً كبيراً ، فقد يمنع من نزول الحيض ، وفى ذلك خطر عليها ، وقد تُصاب باضطراب عصبى يصعب علاجه ، أو التهابات فى الأعضاء التناسلية لا يتيسر الشفاء منها .

(جـ) وقد يُصاب الرجل بالأمراض القاتلة ، إذا غشى المرأة وقت الحيض إذا كانت به أعراض مرض غير ملحوظ . كالتهاب الخدوش أو الجروح وهنا تحدث الكارثة .

(د) أنّ القرآن قد أوجب الاغتسال على الرجل والمرأة من الحيض والجنابة للتخلص من الإفرازات الضارة العالقة بالجسم وهى مواد سمية لأن بقاءها مضر .

ثم يقول نوفل : « وهكذا قرر الطب وأفصح عما تهدف إليه آية لا تزيد على أربعة ألفاظ قصار جمعت أصول الطب الوقائى والعلاجى » (١) .

ونقول : إنّ فى الآية إعجازاً من جهتين : علمية ، وتشريعية فى وقت واحد معاً وذلك ظاهر وقد استشهد الباقلانى ومالك بن نبى على الإعجاز التشريعى بآية المحرّمات : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) القرآن والعلم الحديث ص ١٢٨ (٢) النساء : ٢٣

● قيمة هذه النظريات :

هل ما تقدم من الإعجاز العلمى بمظاهره الثلاثة : الخبر الصادق عن الماضى ، والتنبؤ الصادق عن المستقبل ، والإشارات العلمية ، والأحكام التشريعية . هل هذا هو الإعجاز المقصود ؟

لا ريب أن فيما ذكروه من الفروع الثلاثة إعجازاً من حيث أن البَشرية لم تصل ولن تصل طاقاتها إلى شئ من ذلك . ولكنه فى الوقت نفسه ليس هو الإعجاز المقصود بالتحدى ؟

لأننا لو قلنا به للزم أن يكون بعض القرآن غير مُعجز ، فليس القرآن كله إخباراً عن الماضى ، أو تنبؤات عن المستقبل ، وليس القرآن كله إشارات علمية ، وليس القرآن كله أحكام تشريعية .

القرآن كتاب جامع لشتَّى الفنون والعلوم . فإعجازه إذن كائن فى غير ما ذكروه .

« إنما هو تحدٍّ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه ، لا بشئ خارج عن ذلك . فما هو بتحد بالإخبار عن الغيب المكنون ، ولا بالغيب الذى يأتى تصديقه بعد دهر تنزيله ، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطَبين ، ولا بشئ من المعانى مما لا يتصل بالنظم والبيان » (١) .

وهذا يسلمنا إلى الحديث عن المقصود الحقيقى بالإعجاز . وهو الإعجاز البيانى الأدبى .

* * *

(١) مقدمة الظاهرة القرآنية - محمود محمد شاكر ص ١٧ ، ١٨

الفصل الثانى

الإعجاز البيانى الأدبى

لم يرتض أهل النظر أن يكون واحد مما سبق وجهاً من وجوه الإعجاز المقصود بالتحدى . فقد رفضوا الصرفة مطلقاً حين لم يَرَوْا فيها معنى للإعجاز ، ورفضوا غيرها كذلك . حتى ولو كان فى نفسه مُعجِزاً . مثل الإشارات العلمية الصادقة ، التى طابقها العلم الحديث بعد قرون . ومثل الإخبار الغيبى عما سيكون وقد كان . ومثل الإخبار عن الماضى الذى ليس لمعرفته سبيل عند البَشر . ومثل التوجيه التشريعى الذى لم ينقض ولن ينقض لأنه تشريع حكيم عليم . رفضوا كل ذلك ، وكان الحق معهم . وقد طلبوا للإعجاز وجهاً آخر أو وجوهاً تشمل القرآن كله من الفاتحة حتى الخاتمة . ولم يكن بد عند هؤلاء المحققين إلا أن يكون الإعجاز القرآنى إعجازاً بيانياً أدبياً كامناً فى أسلوبه ونظمه ، وبلاغته وفصاحته ، وحول هذا المعنى وضع كثير من العلماء مصنَّفات متخصصة فى بيان الإعجاز، واكتفى بعضهم بالإشارة دون البسط ، فلم يضعوا فى ذلك مصنَّفات . ونُبيِّن فى هذا الفصل آراء العلماء فى ذلك مقدِّمين أصحاب المصنَّفات قديماً وحديثاً على غيرهم .

أولاً - أصحاب المصنَّفات

١ - الواسطى [١] :

وضع الواسطى كتاباً فى الإعجاز ذكره ابن النديم [٢] وابن العماد [٣] وحاجي خليفة [٤] ، وعنوانه : « إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه » .

وعنوان الكتاب موح بأن الواسطى كان يقول بالإعجاز البيانى الأدبى رافضاً ما عداه .

ويؤيد هذا المحمل أن عبد القاهر الجرجانى شرح كتاب الواسطى شرحين ، وعبد القاهر من أبرز القائلين بالإعجاز الأدبى البيانى ، وبحوثه فى نظرية النظم معروفة . وهذا يدل على أن عبد القاهر كان معجباً بآراء الواسطى ، وأنه ربما انتفع بها فى وضع كتابه « دلائل الإعجاز » فهما إذن متفقان مذهباً .

وقد مال إلى هذا الرأى بعض المحدثين [٥] . ومع هذا فإن الجزم بهذا الحكم غير مستساغ لضياع كتاب الواسطى نفسه ، ولضياع شرحى الجرجانى عليه .

* * *

٢ - الرمانى :

سبقت الإشارة إلى أن الرمانى يرجع وجوه الإعجاز إلى سبع جهات [٦] . إحداها الصرفة وهى أمر خارج عن حقيقة القرآن كما سبق ، لكنه لم يتحمس للصرفة كما تحمس لغيرها خاصة البلاغة التى جعلها وجهاً من وجوه الإعجاز ، ثم قسمها عشرة أقسام وتناول كل قسم منها بالشرح والتمثيل فكان بارعاً فى ذلك كله .

---

(١) هو محمد بن يزيد الواسطى ، عالِم متكلم توفى فى مطلع القرن الرابع الهجرى سنة ست أو سبع .

(٢) الفهرست : ٣٨/١

(٣) شذرات الذهب : ٢٩٩/٢

(٤) كشف الظنون : ٢٩٤/١

(٥) انظر : أثر القرآن فى تطور النقد - للدكتور زغلول سلام ص ٢٣٤

(٦) انظر ص ١١٣ من الفصل السابق .

● اضطراب الرمانى فى الرأى :

لكن ذكره الصرفة مع الوجوه الأخرى جعله كالمتناقض مع نفسه ؛ لأن الصرفة ترفع ما عداها فسواء أريد بها سلب العلوم الممكنة من المعارضة ، أو سلب الدواعى ، أو القسر والإلجاء . فإن القائل بها لا يسوغ منه القول بغيرها فى آن واحد . والرمانى يعترف بتوافر الدواعى لدى العرب لكنهم مع هذا تركوا المعارضة . إذن فإن معنى الصرفة عند الرمانى هو سلب العلوم أو القسر والإلجاء ولولاهما لكان من الممكن معارضة القرآن ؟! . هذا لازم مذهبه وإن لم يُصرِّح هو به . فكيف يصح عند الرمانى أن يكون للإعجاز منزع آخر مع الصرفة ؟

وعلى أية حال فإن الرمانى قد اضطرب فى رأيه وربما كان ذكره الصرفة تقليداً ومتابعة أو لم يتضح له خطل الرأى فيها .

وعند شرحه لبلاغة القرآن فإنه لخصَّ رأيه تلخيصاً وافياً وحسناً حيث يرى أن الكلام من حيث التلاؤم ثلاثة أقسام : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا .

وقد ذكر للأول مثالاً قول الشاعر :

وَقَبْــرُ حَــرْبٍ بِمَكَــانٍ قَفْرُ ... وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ [١]

أما الثانى فقد ساق له ثلاثة أبيات [٢] من الشعر هى :

وَمَتْنِى وَسِتْرُ اللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَهَا ... عَشِيَّــةَ آرَامِ الكُنَاسِ رَمِيــمُ

رَمِيمُ الَّتِى قَالَتْ لِجيرَانِ بَيْتِهَا ... ضَمِنْتُ لَكُـمْ ألاَّ يَـزَالُ يَهِيمُ

ألاَ رُبَّ يَوْمٍ لَوْ رَمَتْنِى رَمَيْتُهَا ... وَلَكِنَّ عَهْدِى بِالنِّضَالِ قَدِيمُ

---

(١) نسب هذا الشعر إلى « الجن » ، وهو شاهد معروف عند البلاغيين .

(٢) ديوان الحماسة : ٢/١١٠ ، والكامل للمبرد : ١/٢٩ - ٣٠ .

أما المتلائم فى الطبقة العليا فهو القرآن وحده . كله لا بعضه ونص عبارته : « والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بَيِّنٌ لمن تأمله »[١] .

* *

● نماذج من تحليلاته :

قال فى باب الإيجاز : « والإيجاز على وجهين : حذف وقصر . فالحذف إسقاط كلمة للاجتزاء عنها ، بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام . والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف . فمن الحذف : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[٢] ، و ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾[٣] .. ومنه حذف الأجوبة وهذا أبلغ من الذكر وما جاء منه فى القرآن كثير »[٤] .

« وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف وإن كان الحذف غامضاً .. فمن ذلك : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[٥] ، ومنه : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ ﴾[٦] .. وهذا الضرب من الإيجاز فى القرآن كثير . وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفى للقتل . وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والإيجاز[٧] .

وقال فى باب التشبيه : « .. ونحن نذكر بعض ما جاء فى القرآن من التشبيه ونُنبِّه على ما فيه من البيان بحسب الإمكان . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ... ﴾[٨] ، فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه . وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة ، وعظم الفاقة . ولو قيل : يحسبه الرائى ماء ، ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل) - ط . دار المعارف ص ٩٥ .

(٢) يوسف : ٨٢ (٣) البقرة : ١٨٩ (٤) النكت فى إعجاز القرآن ص ٧٦

(٥) البقرة : ١٧٩ (٦) المنافقون : ٤

(٧) النكت فى إعجاز القرآن ص ٧٧ (٨) النور : ٣٩

لكان بليغاً . وأبلغ منه لفظ القرآن ؛ لأن الظمآن أشد حرصاً عليه ، وتعلق قلبه به . ثم بعد هذه الخيبة ، حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد فى النار ... وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة » [١] .

وقال فى باب الاستعارة : « ونحن نذكر ما جاء فى القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة . قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ [٢] ؛ حقيقة « قدمنا » هنا : عمدنا . و « قدمنا » أبلغ منه ، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم . ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم . وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال، والمعنى الذى يجمعهما العدل ، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل . والقدوم أبلغ لما بيَّنا . وأما « هباءً منثوراً » فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه حاسة » [٣] .

وعلى هذا النمط الرائع يمضى الرمانى فى كثير من الأمثلة التى ذكرها شواهد على الفنون البلاغية فى الأبواب الثلاثة المذكورة ، وفى غيرها من الأبواب السبعة الأخرى . وفى كل موضع ينتصر لأسلوب القرآن ويكشف مظاهر الجمال فيه ، ويخلص إلى أحكام نقدية مهمة حتى أصبح ما كتبه مصدراً غنياً للاحقين سواء أكان ذلك فى فنون البلاغة نفسها ، أو هى من حيث صلتها بإعجاز القرآن .

ومن هنا فإن فكرة الإعجاز البيانى الأدبى كانت هى المسيطرة على منهج الرجل حتى وإن ذكرها ضمن ما يناقضها - الصرفة - ويكفيه أنه رائد فى هذا السبيل فيما كتبه ابتكار وغناء وإن قلّ .

* * *

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ص ٨١ - ٨٢
(٢) الفرقان : ٢٣
(٣) نفس المصدر السابق ص ٨٦ - ٨٧

٣ - الخطابى :

الخطابى [١] ناقد موضوعى ، وأديب مرهف الحس ، صادق الذوق ، وكتابه فى الإعجاز ذو قيمة خاصة فى موضوعه . وقد بدأ كتابه بمناقشة الآراء التى قيلت فى الإعجاز ولم تكن منه . ثم رفضها .

رفض أن يكون وجه الإعجاز الإخبارى عن الغيوب ، كما رفض بدعة الصرفة [٢] وهكذا ، ثم أخذ فى بيان وجوه الإعجاز فى نظم القرآن وتأليفه . وقد وصل إلى نتائج عظيمة الأثر فى فهم الإعجاز .

فقد بنى رأيه فيه على خصائص الأسلوب نفسه ، وحدَّدها فى ثلاث جهات هى :

١ - لفظ حامل . ٢ - معنى به قائم . ٣ - رباط لهما ناظم .

ثم حدَّد بعد ذلك أسباب عجز العرب عن محاكاة القرآن فى ثلاث جهات أيضاً هى :

١ - عجزهم عن الإحاطة بأسماء اللغة العربية وألفاظها التى هى ظروف المعانى وحواملها .

٢ - جهلهم بجميع المعانى التى تحملها تلك الألفاظ .أى جهلهم بالمعانى كلها على سبيل الاستقصاء لا جهلهم بها مطلقاً . وإن لم يصرِّح هو بهذا إلا أنَّ المقام يقتضيه .

٣ - عدم إدراكهم لجميع وجوه النظوم التى يكون بها ائتلافها وارتباط بعضها ببعض .

---

(١) هوأحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى المتوفى عام ٣٨٨ هـ .

(٢) كتابه فى الإعجاز (ضمن ثلاث رسائل) ط . دار المعارف ص ٢٢ - ٢٣

ويستشهد على هذا فيقول : « فقد روى أن عمر بن الخطاب - وهو من الفصاحة بمكان - كان يقرأ قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ [1] ، فلا يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأبُّ ؟

وكان ابن عباس رحمه الله يقول : لا أعرف « حناناً » ، ولا « غسلين » ، ولا « الرقيم » .

ثم يقول : « فأما المعانى التى تحملها الألفاظ ، فالأمر فى معاناتها أدق ، لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام . وبنات الأفكار » .

ثم يقول : « وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعانى ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان » .

ويخلص من هذا كله إلى رأيه فى الإعجاز على الوجه التالى :

١ - « أنَّ القرآن إنما صار مُعجِزاً ، لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعانى » [2] .

٢ - صنيعه فى القلوب ، وتأثيره فى النفوس . فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً أو منثوراً إذا قرع السمع خلص إلى القلب . من اللّذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى . ما يخلص من القرآن إليه » [3] .

وبهذا يتضح رأى الخطابى فى الإعجاز البيانى ، إعجاز القرآن عنده كامن فى روعة لفظه . وحسن معناه ، ودقة نظمه ، وفى تأثيره فى النفوس وسريانه إلى القلوب .

* * *

---

(١) عبس : ٣١

(٢) المصدر السابق ص ٣٦ . وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨

٤ - الباقلانى :

يعتبر كتاب الباقلانى - بحق - أهم ما كُتِبَ قديماً فى هذا الموضوع ، وقد حاز رضا المتأخرين ، فأكثروا من الثناء عليه والذى يهمنا - الآن - أن نستوضح رأيه فى الإعجاز ، ونبيِّن قيمته فى إيجاز لاستفاضة ما كُتِبَ فى هذا المجال .

لم يهجم الباقلانى على المشكلة هجوماً . بل مهَّد للوصول إليها . فذكر ما ذهب إليه غيره . وذكر من ذلك ثلاثة آراء :

١ - الإخبار عن الغيوب المستقبلة .

٢ - الإخبار عن الأمم والأحداث الغابرة .

٣ - القول بالصرفة .

ولكنه لم يرتض أن يكون واحد منها وجهاً من وجوه الإعجاز . وبعد أن فرغ من الرد عليها بدأ يذكر خصائص الأسلوب القرآنى على الوجه الآتى :

أولاً - خروج نظم القرآن عن سائر كلام العرب ونظومهم ، وفى ذلك يقول : « إن قدر ما يقتضيه التقدم والحذق فى الصناعة قدر معروف لا يخرق العادة مثله . ولا يعجز أهل الصناعة . ولا المتقدمين فيها عنه مع التحدى والتقريع بالعجز والقصور ، لأن العادة جارية بجمع الدواعى والهمم على بلوغ منزلة الحاذق المتقدم فى الصناعة ، وما أتى به النبى ﷺ قد خرج عن حد ما يُكسب بالحذق »(١) .

ويقول : « إنَّ عجز القوم عن معارضته دليل خروجه عن نمط كلامهم » .

ثانياً - انفراده بالحسن رغم طوله ، وفى ذلك يقول : « إنه ليس للعربى كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة ، والفوائد

---

(١) نفس المصدر ص ٣٩

الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة والتشابه فى البراعة ، على هذا الطول . وعلى هذا القدر . وإنما تُنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما يغنيه بعد من الاختلال » (١) .

ثالثاً - بديع تأليفه ، وفى ذلك يقول : « إنه عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ، ومواعظ ، واحتجاج . وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد. وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم ، وأخلاق كريمة ، وشيمة رفيعة ....

ونجد كلام الناس البلغاء الكاملين ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف حسب اختلاف هذه الأمور » (٢) .

رابعاً - حسن الربط ، وفى ذلك يقول : « إن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيِّنا فى الفصل والوصل ، والعلو والنزول ، والتقريب والتبعيد ، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظام ، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع . على أنَّ القرآن على اختلاف ما يتصرف إليه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر فى الأفراد إلى حد الآحاد . وهذا أمر عجيب ، تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة . ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العُرف » (٣) .

(ملاحظة : يمكن دمج هذه الخاصة مع السابقة عليها دون أن يمس ذلك جوهر الموضوع لأن الموضعين متشابهان إلى حد كبير كما ترى) .

خامساً - بلاغته ، وفى ذلك يقول : « إن نظم القرآن وقع موقعاً من البلاغة، خرج به عن حد العادة فى كلام الإنس والجن ، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا » (٤) .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٩
(٢) نفس المصدر ص ٥١
(٣) نفس المصدر ص ٥٦
(٤) نفس المصدر ص ٥٧

سادساً - اشتماله على طرق تعبيرهم مع تفوقه ، وفى ذلك يقول : « إن الذى ينقسم إليه الخطاب من البسط والاختصار ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التى توجد فى كلامهم موجود فى القرآن . وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد فى الفصاحة والبلاغة والإبداع » (١) .

سابعاً - خلابة عباراته دائماً ، وفى ذلك يقول : « إن المعانى التى تتضمن فى أصل وضع الشريعة ، والأحكام ، والاحتجاج فى أصل الدين ، والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها لبعض فى اللطف والبراعة مما يتعذر على البَشر » (٢) .

ثامناً - تألق التعبير القرآنى إذا قُرِنَ بتعبير آخر ، وفى ذلك يقول : « إن الكلام بين فضله ، ورجحان فصاحته ، بأن تذكر منه الكلمة ، فى تضاعيف الكلام ، أو تُقذف بين شعر فتأخذه الأسماع ، وتتشرف إليه النفوس ، ويرى وجه رونقه بادياً عامراً سائر ما يقرن به كالدُرَّة التى تُرى فى سلك الخرز وكالياقوتة فى واسطة العقد » (٣) .

تاسعاً - فواتح سوره ، وفى ذلك يقول : « إن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً ، وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة (٤) ، وجملة ما ذُكِر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة وهى أربعة عشر حرفاً ليدل بالمذكور على غيره . وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينتظم بها كلامهم » (٥) .

---

(١) نفس المرجع ص ٦١

(٢) نفس المرجع ص ٦٢

(٣) نفس المرجع ص ٦٢

(٤) المرجع السابق : ص ٦٥

(٥) هذا خطأ . لأن تعداد هذه السور بلغ تسعاً وعشرين سورة لا كما ذكر المؤلف .

عاشراً - سهولته وامتناعه ، وفى ذلك يقول : « إنه سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشى المستكره ، والغريب المستنكَر ، وعن الصفة المتكلفة ، وجعله قريباً إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب ويسابق المغزى منه العبارة إلى النفس ، وهو مع ذلك ممتنع الطلب عزيز المنال » [(١)] .

* *

● وقفة مع الباقلانى :

هذه نقول موجزة للوجوه التى بلغت عشراً عند الباقلانى اختص أسلوب القرآن بها عما سواه . وبها - عنده - وقع الإعجاز . وقد أطال المؤلف فى شرح هذه الوجوه واستطرد فى ذِكر الشواهد استطراداً أُخِذَ عليه . لكنه ناقد ثاقب الفكرة قد يشفع له حُسن تحليله للنصوص ، وغوصه وراء أسرار التعبير ، مما وقع فيه من إطالة واستطراد . وقد رأينا تداخل بعض الوجوه التى ذكرها بعضها مع بعض .

ويمتاز منهج الباقلانى فى أنه يتخذ من وحدة العمل النظمى أساساً لدراسته فهو لم يعتبر الآية المفردة - بله الجملة - موضعاً للإعجاز ، أو ظهور الروعة البيانية فيها ، فإعجاز القرآن عنده يبدأ بالسورة المتكاملة ، لأنها وحدة كملت لها عناصر وحدة الفكرة والشكل ، وينتهى بالقرآن كله من حيث نفى الإعجاز عن الآية الواحدة وما دونها ويبدو عنده الإعجاز أكثر وضوحاً وتألقاً . وليس بلازم - فيما نرى - أن هذه الطريقة تقلل من قيمة الإعجاز المفهوم من الكلمة الواحدة فى موضعها من الآية وفى موضعها من السورة .

ولا شك أن خصائص العمل الفنى تكون أظهر وضوحاً فى الوحدة الكاملة : القصيدة فى الشعر ، والقصة فى النثر ، والسورة فى القرآن .

ومن هنا اكتسب منهج الباقلانى عمقاً وأصالة إذ هو يقوم بدور الوسيط بين النص وقارئه .

---

(١) نفس المرجع ص ٦٩ .

ولهذا فإنه عمد إلى سورة كاملة هى سورة النمل ، وحللها تحليلاً جميلاً رائعاً ليكشف مواطن الجمال فيها .

* *

● البديع والإعجاز عند الباقلانى :

الباقلانى يرفض أن يكون « البديع » الذى ذكروه وسيلة من وسائل كشف النقاب عن أسرار الإعجاز ، وإن كان البديع فيه على أبهى صورة ، وفى أجمل موقع .

والأساس الذى بنى عليه المؤلف رأيه فى البديع من حيث دلالته على وجوه الإعجاز هو أن هذه الأمور تنقسم ، فمنها ما يمكن الوقوف عليه ، والتعمل له ، ويُدرك بالتعلم فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به ، وأما ما لا سبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغة . فذلك هو الذى يدل على إعجازه [(١)] .

وعلى هذا فإن بعض وجوه الإعجاز عنده يمكن أن تُفهم من جهة البلاغة . مثل الفواصل ، والتصرف فى الاستعارة البديعة ، والإيجاز ، والبسط ، وما إلى ذلك من مظاهر البلاغة .

● والخلاصة : أن ما كتبه الباقلانى - مهما أُخِذَ عليه - ثروة نقدية عظيمة ، ولفتات فنية رائعة . ولهذا فإن كتابه فى الإعجاز هو خير ما كُتِبَ فى عصره فى هذا الموضوع ، ولم يُرَ حتى الآن ما يقاربه أو يساويه .

* * *

٥ - عبد القاهر الجرجانى :

فى مقدمة « الدلائل » يحدد عبد القاهر المراد بالنظم وهو أنه : تعليق الكلم بعضها ببعض .

---

(١) نفس المصدر ص١٤٤ ، وقد ردد هذه الشبهة من قبل ابن حزم الظاهرى كما تقدم .

وهذا التعلق بين الكلم يعتمد على ثلاث حالات :

أولاً : تعلق اسم باسم (الجملة الإسمية) ليكون خبراً عنه أو حالاً . أو تابعاً له (متعلقات الإسناد) .

ثانياً : اسم بفعل ، ليكون فاعلاً له ، أو مفعولاً مطلقاً أو فيه أو له أو معه .

ثالثاً : حرف بواحد منهما - أى الاسم والفعل - ويقع ذلك على وجوه مختلفة [(١)] .

ويرى أنه من الضرورى فى معرفة الفصاحة أن نضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام . وأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة . وإنما تثبت لها المزية وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ [(٢)] .

فإدراك العلاقات بين الكلمة المفردة من حيث وضعها فى جملة ، وما ينشأ عنها من معان أصلية أو ثانوية ، ووضع المفردات فى نظام معين حسب ترتيب المعانى فى النفس مع اختيار تلك المفردات ليلائم بعضها بعضاً ، وتتناسب من حيث هى نظم مع ما من أجله صيغ النظم . كل ذلك جهات ضرورية يعلو بها الكلام ويتفاضل فى الدلالة وحسن البيان .

وهذه المعانى إنما تأتى من مراعاة قوانين النحو ، وتطبيقها عند وضع الكلمة فى أسلوب .. قال : « وليس النظم فى مجمل الأمر إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها » [(٣)] .

* *

(١) دلائل الإعجاز - شرح عبد المنعم خفاجى ص ٣٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ (٣) نفس المرجع .

● الإعجاز كائن فى النظم :

وعلى هذا الأساس مضى عبد القاهر فى « الدلائل » يعرض لوجوه تركيب الكلام ويحلل الأساليب والنصوص المختلفة . سائراً فى دراسته على النهج الذى وضع أصوله هو محتكماً إلى الذوق والعُرف اللغوى كثيراً . لافتاً إلى مواطن الحسن والقبح فى الأسلوب على أساس من التوجيه المعلل . فكان بهذا رائداً من رواد النقد الجمالى والذوق المصفى دون منازع .

وتراه يقترب من الحديث عن وجه الإعجاز فى القرآن . فيقول : « فإذا بطل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن فى شئ مما عددناه لم يبق إلا أن يكون الاستعارة ، ولا يمكن أن تكون الاستعارة الأصل فى الإعجاز ، وأن يقصد إليها . لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الإعجاز فى آى معدودة ، فى مواضع من السور الطوال مخصوصة . وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق إلا أن يكون فى النظم والتأليف » [١] .

* *

● استداراك منصف :

ويستدرك عبد القاهر سؤالاً عن وظيفة الاستعارة حين رفض أن تكون الأصل فى الإعجاز هل هى خارجة عنه ؟ ويجيب عن هذا السؤال فيقول : « فإن قيل : قولك : « إلا النظم » يقتضى إخراج ما فى القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز ؟ وذلك ما لا مساغ له ؟ قيل : ليس الأمر كما ظننت بل ذلك يقتضى دخول الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يُتصور أن يدخل شئ منها فى الكلام وهى أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو. فلا يُتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من

---

(١) نفس المرجع ص ٣٦٩

دون أن يكون قد ألف مع غيره . أفلا ترى أنه إن قدّر فى « اشتعل » من قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ (١) أن لا يكون « الرأس » فاعلاً له ، ويكون « شيباً » منصوباً عنه على التمييز لم يتصور أن يكون مستعاراً وهكذا السبيل فى نظائر الاستعارة فاعرف ذلك » (٢) .

* *

● والخلاصة : فالإعجاز إذن عند عبد القاهر فى النظم والتأليف على طريقة مخصوصة وليس شيئاً خارجاً عنه . وأن الوجوه البلاغية ليست أصلاً فى الإعجاز . وإنما تدخل فى مقدماته من حيث إنها دعامة فى بناء الأسلوب أو النظم الرفيع ، والقرآن إنما أعجز العرب بهذا الوصف دون ما سواه .

وقد حلّل عبد القاهر فى مواضع مختلفة بعض نصوص القرآن الكريم مبيِّناً ما فيها من سمات أسلوبه الدقيق . ونظمه الرائع . مثل قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ ...... ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً .... ﴾ (٤) .

وكان فى تحليله لهما بارعاً كل البراعة .فاهماً كل الفهم لجودة الأسلوب ومواطن الجمال فيه .

ولهذا كان منهج عبد القاهر ذا خطر عظيم فى فهم النصوص ونقدها منتهياً من كل ذلك إلى نتائج تكاد تشبه القوانين الرياضية لا يكاد يختلف معه فيها منصف . وكان كتابه « دلائل الإعجاز » فتحاً جديداً فى النقد الجمالى ، ومن أوضح وأعمق ما كُتِبَ فى دلائل الإعجاز .

* * *

---

(١) مريم : ٤
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦١
(٣) هود : ٤٤
(٤) مريم : ٤

٦ - جلال الدين السيوطى :

وضع السيوطى كتاباً فى إعجاز القرآن أسماه « معترك الأقران فى إعجاز القرآن » ويقع فى ثلاثة أجزاء كبار وقام بتحقيقه لأول مرة الأستاذ على محمد البجاوى ، وبلغت صفحات الجزء الأول منه « ستمائة وثلاثاً وأربعين صفحة » ، وهو الجزء الذى تمكن لى الاطلاع عليه .

وعنوان الكتاب يوحى بموضوعه . فقد جمع فيه السيوطى آراءً وأقوالاً مستفيضة حول إعجاز القرآن وعلومه المختلفة . والكتاب ملئ بالمعارف والتوجيهات العلمية فهو بحق سفر من أسفار الدراسات القرآنية الجادة .

وبلغت وجوه إعجاز القرآن فى هذا الجزء خمسة وثلاثين وجهاً قال السيوطى فى مقدمة ذكرها : « وقد أفرد علماؤنا - رضى الله عنهم - بتصنيف إعجاز القرآن ، وخاضوا فى وجوه إعجازه كثيراً ، منهم الخطابى والرمانى ، والزملكانى ، والإمام الرازى ، وابن سراقة ، والقاضى أبو بكر الباقلانى [(١)] . وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين .

والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه كما قال السكاكى فى المفتاح : « اعلم أن إعجاز القرآن يُدرك ولا يمكن وصفه . كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة . وكما يُدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفِطر السليمة ، إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرين فيها » [(٢)] .

ويؤخذ من هذا النص ما يأتى :

أولاً : أنَّ السيوطى مؤمن بأن ما ذكره من الوجوه الخمسة والثلاثين التى عزا إليها

---

(١) فات المؤلف ذكر عبد القاهر الجرجانى والجاحظ من قبله . وهو وإن كان له العذر فى إغفال الجاحظ لضياع كتابه « نظم القرآن » فليس له عذر فى إغفال عبد القاهر وكتابه « الدلائل » ذائع الصيت .

(٢) معترك الأقران : ٣/١ - ٤

الإعجاز القرآنى ، والتى أنهاها بعضهم إلى ثمانين كما ذكر هو ، مؤمن بأن هذه الوجوه كلها تصلح توجيهاً لبيان الإعجاز القرآنى .

ثانياً : ومما يراه السيوطى كذلك أن وجوه الإعجاز لا تقف عند هذا الحد . بل هى لا نهاية لها .

ثالثاً : أنه يتخذ من عبارة السكاكى التى نقلها دليلاً على رأيه . والحق أن عبارة السكاكى لا يُفهم منها صراحة أن السكاكى يرى تعدد وجوه الإعجاز على الوجه الذى نهج عليه السيوطى . فقد يكون الإعجاز عنده - السكاكى - وجهاً واحداً يُدرك ولا يمكن ضبطه وجعله تحت مقياس معيَّن . وقد يكون وجوهاً كثيرة لا تخضع لقواعد الحساب .

وعلى كل فإن استشهاد السيوطى بكلام السكاكى غير مسلَّم . فهل لاستقامة الوزن عامل واحد أدَّى أن يكون جميلاً آسراً . أم له عوامل متعددة . الذى أفهمه أن السكاكى يرى أن الجمال الفنى - وفى قمته الإعجاز - إحساس نفسى لا تتيسر العبارة عنه ، وذلك شأن الحقائق الكبرى .

فإذا رجعنا إلى ما ذكره السيوطى فإننا نجد بين ما ذكره وجوهاً هى قطعاً ليست من الإعجاز فى شئ . وإن كانت لازمة من لوازم القرآن .

من ذلك أنه ذكر أول وجه من وجوه إعجازه « العلوم المستنبطة منه » (١) ، ثم « كونه محفوظاً من الزيادة والنقصان » (٢) ، و « مشتبهات آياته » (٣) ، و « ورود مشكله » (٤) ، و « وقوع ناسخه ومنسوخه » (٥) ، ثم « ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات » (٦) ، ثم « إخباره بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة » (٧) ، ثم « تيسيره تعالى حفظه وتقريبه » (٨) هذه وجوه ثمانية ، ولها

(١) المعترك : ١/١٤ وما بعدها .
(٢) المعترك ص ٢٧ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٨٥ وما بعدها .
(٤) نفس المصدر ص ٩٤ وما بعدها .
(٥) نفس المصدر ص ١٠٨ وما بعدها .
(٦) نفس المصدر ص ٢٣٩ وما بعدها .
(٧) نفس المصدر ص ٢٤٠ وما بعدها .
(٨) نفس المصدر ص ٢٤٥ وما بعدها .

مماثل لم نذكره ، أوردها السيوطى ضمن وجوه إعجاز القرآن وهى ليست من الإعجاز المقصود بالتحدى . وقد راح بما له من سعة إطلاع يشرح كل وجه ذكره مدعوماً بالأمثلة .

وإذا صرفنا النظر عما وقع فى الكتاب من وجوه ليست للإعجاز . فإن جل الوجوه التى ذكرها هى فى الواقع شرح وتفصيل للإعجاز البيانى الأدبى .وقد أورد من ذلك الكثير مثل : حسن تأليفة والتئام كلمه (١/٢٧) . ومناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض (١/٥٤) . وافتتاح السور وخواتيمها (١/١٧١) . إفادة حصره واختصاصه (١/١٨١) .

كما ذكر من ذلك وجوه مخاطباته ، ووقوع الحقائق والمجاز . والتشبيهات والاستعارات فيه والتعريض ووقوع البدائع البليغة فيه واحتواءه على الخبر والإنشاء .... إلخ ، ولهذا فإن الباحث الذى يطلع على ما كتبه السيوطى يدرجه مع الجمهرة المحققة القائلة بأن إعجاز القرآن فى نظمه وأدبه وبيانه ، وإن جمع هو بين وجهات النظر المختلفة فى هذا المجال .

على أن السيوطى - على كثرة ما ذكر من وجوه - لم يذكر الصرفة واحداً من بينها ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أنه يرفض هذا الرأى رفضاً جعله ينأى عن مجرد ذكره .

* *

● نماذج من تحليلاته البيانية :

قال فى باب الاستعارة : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (١) استعير الحبل المحسوس للعهد وهو معقول . ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (٢) استعير الصدع وهو كسر الزجاجة وهو محسوس

(١) آل عمران : ١١٢ (٢) الحجر : ٩٤

للتبليغ وهو معقول . والجامع التأثير وهو أبلغ من « بَلِّغ » . وإن كان بمعناه ؛ لأن تأثير الصدع أبلغ من تأثير التبليغ ، والصدع يؤثر جزماً » [١] .

وقد فاته أن يحلل المجاز فى « ضُرِبَتْ » وهو تعبير له دور مهم فى رسم الصورة الأدبية التى أوحت بها الآية الكريمة .

أما تحليله للآية الثانية : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [٢] فقد كان رائعاً كما ترى .

وقال فى باب التشبيه : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ .. ﴾ [٣] فإنَّ فيه عشر جُمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شئ اختل التشبيه . إذ المقصود تشبيه حال الدنيا - فى سرعة تعفيها وانقراض نعيمها ، واغترار الناس بها - بحال ماء نزل من السماء ، وأنبت أنواع العُشب ، وزُيِّنَ بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنوا أنها مسلَّمة من الجوائح أتاها بأس الله فجأة ، فكأنها لم تكن بالأمس .

وقال بعضهم : وجه تشبيه الدنيا بالماء أمران :

أحدهما : أن الماء إذا أخذتَ منه أكثر من حاجتك تضررتَ ، وإن أخذت قدر الحاجة انتفعتَ به ، فكذلك الدنيا .

والثانى : أن الماء إذا أطبقتَ عليه كفك لتحفظه لم يحصل فيه شئ ، فكذلك الدنيا » [٤] . وفى هذا القول تسامح لأن المشبَّه به هو جملة التركيب لا الماء وحده .

* * *

---

(١) الحجر : ٩٤

(٢) المعترك : ٢٧٩/١

(٣) يونس : ٢٤

(٤) المعترك : ٢٧١/١ - ٢٧٢

٧ - الرافعى :

الرافعى رائد من رواد النهضة الحديثة ، وكتاباته تتسم بالعمق والأصالة ومنها ما كتبه حول إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

وقد خصَّهما بكتاب ، كتب فيه فصولاً عن الإعجاز القرآنى بعد أن سرد أقوال السابقين فيه . وقد أبان فى مقدمتها أنه سيتناول الإعجاز القرآنى من غير الجهة التى مضى عليها الأقدمون ، بعد أن أوضح أن الإعجاز القرآنى إنما يرجع إلى الأسلوب والنظم والتأليف . قال : « وهذا الأسلوب . إنما هو مادة الإعجاز العربى فى كلام العرب كله ، ليس من ذلك شئ إلا وهو مُعجِز .. وهو الذى قطع العرب دون المعارضة واعتقلهم عن الكلام فيها . وضربهم بالحُجَّة ، من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون »[١] .

ويقول : « ورد عليهم من طرق نظمه ، ووجوه تركيبه ، ونسق حروفه فى كلماتها ، وكلماته فى جملها ، ونسق هذه الجمل فى جملته ، وما أذهلهم عن أنفسهم ، من هيبة رائعة وروعة مخوفة »[٢] .

والإعجاز عند الرافعى - كما يبدو من نصيه المذكورين - إنما هو فى النظم والتألف ، وعندما عمد الرافعى إلى الحديث المفصَّل عن الإعجاز نراه قد جمع فى آرائه بين ما قاله الأوَّلون . وبين ما اتفق له ولم يسبق لغيره . فهو - إذن - لم يتحدث عنه من وجهة جديدة كما قال . ولذلك فسنوجز آراءه إيجازاً غير مخل فيما يأتى :

● وجوه الإعجاز البيانى عند الرافعى :

١ - الكمال اللغوى : وذلك بالنزول عن التحدى بمثل القرآن كله .. إلى عشر سور مثله مفتريات - كما زعموا - إلى سورة واحدة من مثله .. ولو هم أرادوا

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢١٣ (٢) نفس المصدر ص ٢٢٤

هذه السورة الواحدة ما استطاعوها . لأن إحساسهم منصرف إلى أصل الكمال اللغوى فى القرآن ، مستغرق فيه . فلا يرون المعارضة تكون إلا على هذا الأصل وهو شئ لا تناله القُدرة .

٢ - التكرار : الذى يجئ فى بعض آيات القرآن فتختلف فى طُرق الأداء وأصل المعنى واحد فى العبارات المختلفة . وهو مذهب للعرب معروف ولكنهم لا يذهبون إليه إلا فى ضروب من خطابهم للتوكيد والتهويل . بَيْدَ أن وروده فى القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفِطرة عن معارضته ، وأنهم يخلون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهماً ، ولضعف غريب فى أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة ، لأنهم عجزوا عن السورة الواحدة . فكان عجزهم عن السورتين ، وما عداهما أبين وأظهر .

٣ - وجه تركيبه : فإنه مباين بنفسه لكل ما عُرِف من أساليب البلغاء فى ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم ، على أنه يؤاتى بعضه بعضاً ، وتناسب كل آية منه كل آية أخرى فى النظم والبلاغة . على اختلاف المعانى وتباين الأغراض ... إذ يبدو كأنه قطعة واحدة ، والبلغاء تختلف أساليبهم فى أنفسها من القوة إلى الضعف لأسباب وعِلل لا يصعب الكشف عنها فى نفس القائل (١) .

٤ - لأنه ليس وضعاً إنسانياً ألبتة ، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب ، أو مَن جاء بعدهم إلى هذا العهد ، ولا من الاختلاف فيه بد فى طريقته ونسقه ومعانيه . وقد كان هذا سبباً من أسباب ضعف المعارضة فيهم . لأنهم لم يبلغوا شأواً يؤهلهم للإتيان بمثل القرآن (٢) .

٥ - سلامة أسلوبه من القلق والاضطراب ، فليس فيه من الغرابة التى يكسوها البلغاء كلامهم فى تجويد وصفه وحبكه . إنما فيه غرابة الانسجام ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩

(٢) نفس المرجع ص٢٣٤

والسهولة التى يسيل بها القرآن ، وهى سهولة الأوضاع الإلهية ، التى يعرفها كل الناس ويعجز عنها كل الناس [1] .

٦ - ليس فيما بين الدفتين إلا رهبة ظاهرة ، وإلا أثر من التمكن يصف لك منزلة المخلوق من أمر الخالق ، ولا تجد من أغراضه إلا ما كان فى وصفه مادة لتلك الرهبة . ولذلك الأثر والروح [2] .

٧- ما فى أسلوبه من اللين والمطاوعة على التقليب والمرونة فى التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة ، التى تخرج بها طبائع العصور المختلفة ، وكلام الناس لا يحتمل مثل هذه الوجوه . بل إنه كلما كان أدنى إلى البلاغة كان نصاً فى معناه ، ثابتاً فى حيزه [3] .

٨ - ما فيه من البلاغة والفصاحة يقتضيه اقتضاءً طبيعياً . بحيث يبنى هو عليها ولا تبنى هى عليه فكل ما فيه من مجاز وتمثيل وكفاية لا يصح فى الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره فى موضعه ، ولو أدرت اللغة على هذا الوضع [4] .

٩ - أن موسيقى ألفاظه نمط فريد ليس معروفاً لهم فى كلامهم ، حتى لم يكن لمن يسمعه بد من الاسترسال إليه ، فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من الموسيقى اللغوية ، كأنما يوقع إيقاعاً لا يتلى تلاوة [5] .

١٠ - أنه لا يخلق على كثرة الرد ، وطول الدهر ، ولا تجد لذلك سراً إلا دقة النظم وإعجازه وخصائصه الموسيقية ، وتساوق حروفه على أصول مضبوطة من بلاغة النغم بالجهر والهمس والمد والغن ، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطاً وإيجازاً وإفراداً وتركيباً [6] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٣٥

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٥

(٤) نفس المرجع ص ٢٤١

(٥) نفس المرجع ص ٢٤٧

(٦) نفس المرجع ص ٢٥١

١١ - أن القرآن انفرد بصوت الحس الذى خلت من صريحه لغتهم وهو الذى يتكوَّن من دقة التصوير المعنوى ، والإبداع فى تلوين الخطاب ، بمجاذبة النفس مرة ومداهنتها منها مرة أخرى ، والتنقل بها من شأن إلى شأن حتى تتصل بالمعنى وتصبح كأنها هى التى تطلبه فتقع فى أسره .

هذا الصوت خَلَتْ منه لغتهم وانفرد به القرآن . لأنه من الكمال اللغوى الذى تعاطوه ولم يعطوه (١) .

١٢ - أن بلاغة القرآن لا تعتمد على الخيال الشِعرى ، أو العادة الثابتة ، أو العاطفة المطمئنة ، وإنما يرجع الأسر فيها إلى جرس الحروف فى الكلمات ومواقع الحروف والكلمات وطريقة نظمها (٢) .

١٣ - أنه يتلطف فى تحريك المشاعر والرفق بها فلا تضيق به النفس ، ولا تتخونها منه ملالة .

١٤ - أن القرآن بمادته اللغوية أصبح فوق اللغة التى يحذقها اللسن من الناس لأنها فى القرآن فى تركيب ممتنع أن يأتى بمثله الناس . فخرجت من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم . وكوَّنت طبقة عقلية من اللغة ومن ثَمَّ تتنزل الأفكار منزلة التوهم الطبيعى الذى يؤثر بالصفة ما يؤثر بالشئ الموصوف . بل بما وفىَّ وزاد (٣) .

١٥ - أن الحركات النحوية والصرفية فى القرآن لها من حكم البلاغة والفصاحة ما للكلمات والتركيب ، لشدة ما بينها من تلازم واتساق . وهذا سر من أسرار الإعجاز فيه (٤) .

* * *

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥١
(٢) نفس المرجع ص ٢٥٢
(٣) نفس المرجع ص ٢٥٧
(٤) نفس المرجع ص ٢٥٨

• إيضاح لازم :

هذه خلاصة سريعة لما انتهى إليه الرافعى من خصائص أسلوب القرآن نقلناها من كتاب « إعجاز القرآن » ، متصرفين فى كثير من عباراته توخياً للإيجاز وشمول الأفكار حتى يمكننا أن نتصور رأيه فى الإعجاز تصوراً واضحاً . على أن الباحث - إذا رجع إلى كتابه يجد المؤلف لم يحدد لكل خاصة من الخصائص التى ذكرها مجالاً معيَّناً ، بل التعميم كان طابعه فيما يقول . وقد أخذ عليه هذا أحد المعاصرين (١) .

فمثلاً : الكمال اللغوى يمكن أن يندرج تحت بعض ما ذكره من الخصائص الأخرى مثل ما للحركات النحوية والصرفية من البلاغة ، والنغم الموسيقى ، واختصاص القرآن بطريقة فى استعمال الكلمات كالإفراد دائماً ، أو الجمع دائماً . وهكذا فهو شبيه بالباقلانى فى تعدد الأقسام مع إمكان دمج بعضها مع بعض بُسر وانسجام .

* *

• قيمة ما انتهى إليه الرافعى :

ليس من الإنصاف أن نُقلِّل من شأن ما كتبه الرافعى ، ففيه جدة وطرافة وعمق نظر . ومن الجديد الذى له ما يأتى :

(أ) ما أسماه : صوت الحس ، وقد سبق شرحه ،.

(ب) ما أسماه : التوهم الطبيعى .

(جـ) ما أسماه : الاقتصاد فى التأثير على النفس .

أما ما عدا هذه الثلاث فإن الرافعى يدور معها فى فلك السابقين . وإن زعم هو غير ذلك كما تقدَّم .

---

(١) هو عبد الكريم الخطيب فى كتابه « إعجاز القرآن » .

فإن ما بقى بعد هذا الوجوه الثلاثة قد تطرق إليها مَنْ قبله . وخاصة الباقلانى مع اختلاف فى الأسلوب عند كل منهما .

* *

● ما يؤخذ عليه :

أولاً : أنه ينهج فى كتابه منهج التعميم ولم يذكر أمثلة تدعم فكرته . وكان حرياً به أن يفعل .

ثانياً : نفيه اعتماد القرآن على الخيال الشعرى . فإن كان قصده من ذلك صور المجاز والتمثيل والتشبيه ، فهو قطعاً غير موفق فيما ذهب إليه . ولا إخاله قد قصد ذلك وإن كان قصده ما يجنح إليه بعض الشعراء من التصورات الوهمية كأطراف النار فى أعواد كبريت ، وما إلى ذلك مشبهاً بهما صوراً من الواقع . إن كان يريد ذلك فنحن معه فى شئ من الحيطة . وإلا فإنه قد أثبت نظيره لما سماه : اللغة العقلية التى تتنزل المعانى منها منزلة التوهم الطبيعى .

وعلى كل فإنه لم يفصح عن مراده ولم يضرب أمثلة كعادته فى منهج الكتاب .

ثالثاً : أنه لم يضع فواصل دقيقة بين الوجوه التى أوردها . ولهذا فإن الباحث لا يعرض للخطأ إذا دمج بعضها فى بعض .

* *

● دفاع عنه :

قال الرافعى : « فالقرآن معجز فى تاريخه ، دون سائر الكتب ، ومعجز فى أثره الإنسانى ، ومعجز كذلك فى حقائقه . وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية فى شئ فهى باقية ما بقيت » [1] .

---

(١) المصدر السابق .

لم يرض هذا القول عبد الكريم الخطيب ، ونقده على أساس أننا لو قلنا إن القرآن مُعجِز فى تاريخه لكان معنى ذلك أن القرآن نزل خالياً من صفة الإعجاز واكتسب هذا الإعجاز بمرور الزمن أياماً ودهوراً [1] .

وهذا نقد وجيه - كما ترى - إذ لا يمكن أن يكون الإعجاز المتحدَى به هو هذا الوجه . ولكن يمكن حمل كلام الرافعى على أن تلك الوجوه المعجِزة التى أفاض فى الحديث عنها لم ينتقض منها وجه على مر الأيام والدهور . فهى باقية كيوم تحدى بها . وعلى هذا فلا حُجَّة للخطيب فى نقده .

* * *

٨ - محمد عبد اللّه دراز :

وضع دراز كتاباً دعاه « النبأ العظيم » ، أو « نظرات جديدة فى القرآن » . وقدَّم فى هذا الكتاب دراسة غنية جداً عن القرآن الكريم ، وقد قسَّمها قسمين :

القسم الأول : خاص بتحديد معنى القرآن . وقد استغرق منه اثنتى عشرة صفحة من القطع الكبير .

والقسم الثانى : وقفه على بيان مصدر القرآن . أهو من صنع بَشر ؟ وهل فى المراهب البَشرية ما يمكن أن يصدر عنها بيان فى صفة هذا الكتاب العظيم ؟

ناقش هذه الفكرة متتبعاً جميع فروضها . وانتهى من المناقشة إلى أن القرآن ليس له مصدر بَشرى لا فى نفس محمد ﷺ ولا فى نفس غير محمد . بل ذلك تنزيل العزيز الحكيم .

وقد استبد هذا القسم ببقية صفحات الكتاب البالغ عددها مائتين وعشر صفحات . قدَّم خلالها بحوثاً عظيمة ونظريات رائعة فى محيط القرآن وإعجازه ، والذى يهمنا من هذا الكتاب ما أجمله المؤلف من خصائص الأسلوب القرآنى فى قطعة قطعة منه . وكانت عنده على الوجه الآتى :

---

(١) إعجاز القرآن - لعبد الكريم الخطيب .

• خصائص اسلوب القرآن عند دراز :

(أ) ، (ب) القصد فى اللفظ .. والوفاء بحق المعنى [١] :

هذه خاصة لم تُعرف لغير القرآن . فإنَّ أبلغ البلغاء من الناس لا يستطيع أن يأتى بكلام لفظه قليل ، ومعناه واف وهو إن اتفق له فى الموضع الواحد والموضعين ، فلا يتفق له فى جملة كلام . شعراً أو نثراً . وما هو بحاصل إلا على كلام نسبى غير مطرد ، بحسب ما أُوتِىَ من إلهام وتوفيق . فأبلغ البلغاء إذا حفل باللفظ أضرَّ بالمعنى ، وإذا حفل بالمعنى أضرَّ باللفظ . نهايتان مَن حاول أن يجمع بينهما وقف منهما موقف الزوج بين ضرَّتين ، لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل إلى إحداهما .

خذ من القرآن مقداراً من الكلام . وقارنه بما يساويه من كلام البلغاء تجد عجباً . ثم انظر أى الكلامين تستطيع أن تتناوله بالتعديل أو التبديل دون أن تخل بمعناه ؟

ولو نزعتَ منه - أى القرآن - لفظة . ثم أدرت لسان العرب لتضع موضعها لفظة أحسن منها لم تجد » .

(جـ) ، (د) خطاب العامة .. وخطاب الخاصة :

وهاتان غايتان تقصر عنهما همم الناس ، فمَن يخاطب منهم الأذكياء بالواضح المكشوف نزل بهم مستوى لا يرضونه . ومَن يخاطب العامة باللمحة والإشارة حملهم على ما لا يطيقون .

فلا بد من التفرقة فى الخطاب بين المقامين ، ولا يوجد فى الناس مَن يُحسن هذا كائناً مَن كان . لا تجد ذلك على أتمه إلا فى القرآن الكريم . هو متعة العامة ونزهة الخاصة ، ميسَّر لكل مَن أراد [٢] .

---

(١) النبأ العظيم ص ١٠٣

(٢) نفس المرجع ص ١٠٧

(هـ) ، (و) إقناع العقل .. وإمتاع العاطفة :

فى النفس قوتان ، قوة تفكير وقوة وجدان . وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى . ولا تجد بليغاً يفى لك بحاجة القوتين فى عبارة واحدة .ولكنك تجد ذلك فى القرآن الحكيم . فى أجمل صورة وأوضح بيان (١) .

(ز) ، (ح) البيان . والإجمال :

وهذه عجيبة أخرى لا تجدها فى غير القرآن ، لأن الناس إن عمدوا إلى تحديد أغراض لم تتسع لتأويل . وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس ، أو اللغو الذى لا يفيد ، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد .

أم القرآن فإنه يستثمر برفق أقل ما يمكن من الألفاظ فى أكثر ما يمكن من المعانى يستوى فى ذلك مواضع إجماله . التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله التى يسمونها الإطناب ... ولذلك نسميه إيجازاً كله لأننا نراه فى كِلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الإسراف (٢) .

* *

● تعقيب :

هذه خلاصة أمينة لخصائص القرآن كما ذكرها دراز ، حاولتُ قدر المستطاع أن أحافظ على عبارته إلا ما قَلَّ من التصرف توخياً للإيجاز .

ونحن مع المؤلف فى نتائجه ، لكننا لا نرى سنداً يمكن أن يُعتمد عليه فى عده أسلوب القرآن إيجازاً كله . وذلك للأسباب الآتية :

١- أنه خرق لما أجمع عليه العلماء من أن فى القرآن إيجازاً وإطناباً ومساواة وقد أقاموا الدليل القاطع على كل أولئك .

٢ - أن القرآن نفسه حين يقارن بين موضعين فيه اتحدا فى الفكرة نجد فروقاً بين ذينك الموضعين أحدهما : ملحوظ فيه الإطناب فى موضع ، والثانى : الإيجاز ، ومن أمثلة ذلك :

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٨

(٢) نفس المرجع ص ١١١

ما ورد في قصة آدم عليه السلام في سورة « أهل الكهف » حيث لم يتعد الآية الواحدة ، بينما جاء في مواضع أخرى كـ « الحجر » و « سورة ص » -مثلاً - مطنباً إذا ما قسناه بآية الكهف .

٣ - أن هذا الرأى - اعتبار القرآن إيجازاً كله - فيه خروج بالأسلوب عن طبيعته ، وقد علمنا انقسام الكلام إلى هذه الأنواع الثلاثة .. وأن كلا منها مقتضى حال له دواعيه .

ومجاراة المؤلف على رأيه عجلة لا مبرر لها . ولو أنه قال : « إن ما فى اللفظ أو التركيب القرآنى من ثراء المعنى وتعدد جهاته ما يكاد يعتبر القرآن على ما فيه من إطناب ومساواة إيجازاً كله » لكان له مندوحة من القول ، أما وقد أصرّ على رأيه إصراراً . فإن الحيطة تقتضى النظر إليه بحذر فلا ننساق .

ومهما كان فى هذا الجانب من مغالاة ، فإن درازاً عالم ضليع . وفيلسوف عميق النظر استطاع أن يخرج لنا كتاباً فى القرآن فيه جدة . ومتعة .وتوجيه .

* * *

٩ - محمد عبد العظيم الزرقانى :

وضع الزرقانى كتاباً فى جزءين أسماه « مناهل العرفان فى علوم القرآن » وهو كتاب غنى بالمعلومات الوفيرة ، والاجتهادات الصائبة التى تختص بعلوم القرآن المختلفة .

وقد تحدث فى الجزء الثانى منه (١) عن إعجاز القرآن وذكر لذلك أربعة عشر وجهاً هى على الترتيب :

لغته وأسلوبه (٢) - طريقة تأليفه (٣) - علومه ومعارفه (٤) - وفاؤه بحق

---

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن : ٢/٢٢٧ - ٣٠٨

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٨

(٣) نفس المصدر ص ٢٣٦

(٤) نفس المصدر ص ٢٣٨

البَشر [١] - موقف القرآن من العلوم الكونية [٢] - سياسته فى الإصلاح [٣] - أنباء الغيب فيه [٤] - آيات العتاب [٥] - ما نزل بعد طول انتظار [٦] - مظهر النبى عند هبوط الوحى عليه [٧] - آية المباهلة [٨] - عجز الرسول عن الإتيان بمثله ! [٩] - الآيات التى تجرد الرسول من نسبته إليه [١٠] - تأثير القرآن ونجاحه [١١] .

ذلك وجه الإعجاز عنده . وما رأيتُ بين من كتب فى إعجاز القرآن مَن يخلط مثل هذا الخلط . فيُدخل فى الإعجاز ما ليس منه . وهذه الأوجه التى ذكرها لا يدخل فى باب الإعجاز منها سوى الأولين وإن أمكن دمجهما تحت « الأسلوب » .

وإلا فما صلة ما نزل بعد طول انتظار بالإعجاز ؟ وما صلة مظهر النبى عند نزول الوحى بالقرآن به ؟ كذلك وما صلة آية المباهلة به ؟

ثم كيف ساغ للمؤلف أن يجعل « عجز النبى عن الإتيان بمثله » عنواناً لوجه من وجوه الإعجاز ؟ وهذا العنوان يوحى فى ظاهره أن النبى عليه السلام حاول أن يأتى بمثله فكبا !!

والآيتان اللتان استشهد بهما وهما قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [١٢] .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٧ (٢) نفس المصدر ص ٢٤٩ (٣) نفس المصدر ص ٢٥٧

(٤) نفس المصدر ص ٢٦٣ (٥) نفس المصدر ص ٢٨٥ (٦) نفس المصدر ص ٢٩١

(٧) نفس المصدر ص ٢٩٥ (٨) نفس المصدر ص ٢٩٦ (٩) نفس المصدر ص ٢٩٧

(١٠) نفس المصدر ص ٢٩٩ (١١) نفس المصدر ص ٣٠١ (١٢) يونس : ١٥ - ١٦

هاتان الآيتان صريحتان فى أن الله - سبحانه - علّم الرسول أن يرفض مثل هذه الاقتراحات ، والرسول إنما ردد ما أمره به ربه . ولم يحاول المحاكاة فعجز كما يوحى العنوان . فكان حرياً بالمؤلف أن يتوخى الدقة فيما كتب .

* *

● اجتهد فخالف نصاً !؟

وبعد هذا نجد المؤلف يورد عنواناً أسماه « وجوه معلولة » قال بعده مباشرة : « ذكر بعضهم وجوهاً أخرى للإعجاز ، ولكنها لا تسلم فى نظرنا من الطعن ، لأن منها ما يتداخل بعضه فى بعض . ومنها ما لا يجوز أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز بحال .

ونمثل لهذا الذى ذكروه بتلك الأوجه العشرة التى عدّها القرطبى وهى ... » [1] ثم ذكرها ثم أعقب ذلك بدمج بعضها فى بعض وخالف القرطبى فى وجهين منها هما : الحِكَم البالغة وعدم الاختلاف والتناقض بين معانية . وقال : « إن واحداً منهما لا يصلح وجهاً من وجوه الإعجاز لأنهما لا يخرجان عن حدود الطاقة . ولأن كثيراً من الناس لا يخلو كلامهم من حكم ، ولا يتعرض لتناقض أو اختلاف » ! [2] .

هذا فحوى كلامه . والمتأمل يرى أنه فى نفيه عدم الاختلاف من بين وجوه الإعجاز قد خالف نصاً قرآنياً ، لأن الله يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾ [3] فها هو القرآن يُصرِّح بأن سلامَةَ القرآن من الاختلاف دليل على كونه من عند الله . فهو إذن وجه أصيل من وجوه الإعجاز البيانى . خاصة وأن القرآن استغرق إنزاله ثلاثاً وعشرين سنة ، لكنك لا تلمح خلافاً بين أول ما نزل وآخر ما نزل من حيث استواؤه موضوعاً وشكلاً .

---

(١) مناهل العرفان : ٣٠٨/٢ وما بعدها ، والوجوه العشرة تجدها فى تفسير القرطبى : ٦١/١ - ٦٨

(٢) نفس المرجع . (٣) النساء : ٨٢

ونحن نحسب للمؤلف الوجهين الأوَّلين وهما إشارة واضحة إلى الإعجاز البيانى . كما لا نخالفه فى الوجه الأخير وهو تأثير القرآن باعتباره لازماً من لوازم أسلوبه . وبلاغته الآسرة .

أما ما عدا هذا فليس من الإعجاز فى شئ وإن تحمس لرأيه وحاول أن يقنع به الآخرين . على أن ما أورده هو يمكن دمج بعضه فى بعض مثل أسلوبه وطريقة تأليفه فكان حرياً به أن يجتنب ما على مثله عاب الآخرين .

* * *

١ - عبد الكريم الخطيب :

قد سبقت الإشارة إلى أن عبد الكريم الخطيب وضع كتاباً فى إعجاز القرآن وقد أخرج هذا الكتاب فى جزءين :

الجزء الأول : وقفه على دراسة الإعجاز فى أقوال السابقين ، وفيه تحدث عن كثير من الموضوعات التى قد لا تتصل بالإعجاز مباشرة ، كالمعجزة والنسخ وما أشبه هذه البحوث .

أما الجزء الثانى : فقد دل عنوانه « الإعجاز فى مفهوم جديد » على أن الخطيب سيدرس أو درس فيه وجوهاً جديدة للإعجاز لم يعرفها أحد قبله . والذى يهمنا بالطبع ما ذكره فى هذا الجز ، لأنه يمثل الجديد - كما يُشعر به العنوان - كذلك - يمثل رأى الخطيب نفسه فى الإعجاز .

إذن فما هو ذلك الجديد الذى اهتدى إليه ؟ ننظر ...

يرى الخطيب أن الجديد فى الإعجاز هو :

١ - الصدق المطلق الذى نزل به القرآن ، وهو صدق لا تعلق به ذَرَّة من شك وقد جعل هذا الصدق والأثر القوى على النفوس والسلطان المتمكن من القلوب ، جعل كثيراً من الناس يُقبلون على الإسلام عندما يسمعون القرآن فترق له قلوبهم . كقصة إسلام عمر رضى الله عنه .

٢ - علو الجهة التى نزل منها القرآن : وأن هذا العلو ليطلع عليه كل مَن يتصل بالقرآن قارئاً أو مستمعاً أو دارساً ، مؤمناً أو غير مؤمن . وهكذا .

٣ - حسن الأداء : ويعنى به المؤلف روعة النظم ، وحسن الصورة البيانية وقد اهتم الخطيب بهذا الوجه اهتماما فائقاً ، ومما ذكره فيه :

أن ألفاظ القرآن مختارة للدلالة على المعنى ، ومختار للفظ القرآنى موضعه فى الجملة أو التركيب الذى هو فيه . ولذلك فإن نظم القرآن يخالف نظوم البيان عند العرب لأنه نظم مفصَّل بآيات مفصَّلة بفواصل [١] .

ثم تحدَّث عن الفواصل القرآنية باعتبارها مظهراً من مظاهر حُسن الأداء وأطال فى هذا الفرع ، لكنه لم يأت فيه بأكثر مما ذكره السابقون اللّهم إلا اختلاف طريقة العرض التى لا يسلم منها كاتب .

٤ - روحانية القرآن : وهذا وجه رابع يرى الخطيب أنه جديد لم يقل به أحد ، وصلة هذا الوجه بالوجوه الثلاثة المتقدمة أن القرآن روح وتلك الوجوه (الصدق . علو الجهة ، وحسن الأداء) كل أولئك تجليات الروح القرآنية . ولعل المؤلف يقصد بهذه الروحانية أثر القرآن على النفوس وما تجده من نشوة فرح ، أو جزعة خوف عندما تسمع أو تقرأ القرآن .

* *

● ليس فى الجديد جديد !

هذه الأربعة هى ما ذكره الخطيب على أنها فتوح جديدة فى قضية الإعجاز . وبعد .. فهل أضاف الخطيب جديداً كما قال ؟

لا ... لم يأت الخطيب بجديد ، وإن اعترف هو بذلك قائلاً إن الجديد الذى جاء به هو حُسن العرض [٢] .. ليكن هذا صحيحاً . أوَ ليس هذا تناقضاً مع ما يدل عليه العنوان ؟

---

(١) كتابه فى الإعجاز : ٢/٢٠٢ - ٢٥٢

(٢) انظر كتابه : ٢/٤١٣

إنَّ القرآن كله صدق ، لكنه ليس للإعجاز . ولو كان كذلك لعارضوه بحديث كله صدق كوصف صحراء أو ليلة مقمرة .. ولما عجزوا .

والقرآن نازل من أعلى جهة .. ولكنه ليس للإعجاز . ولو كان كذلك لما عابهم أن عجزوا عن معارضته ، لأن المعارضة تكون حينئذ أن يعلوا هم ويأتوا بكلام مثله . لأن هذا مستحيل والإعجاز كان فى أمر ظاهره الإمكان .

وحُسن الأداء عبارة لروعة النظم والتأليف ، وهذا كاد يجمَع عليه السابقون الذين سبقوا الخطيب . فليس ما جاء به بجديد ، إلا التسمية !

وروحانية القرآن قال بها الرمانى منذ عهد طويل ، والخطيب يعلم هذا . فكان أجدر به أن يلتزم الدقة فى عنوان كتابه ما دام لم يأت بجديد !

* * *

١١ - أبو زهرة :

وضع محمد أبو زهرة كتاباً فى إعجاز القرآن آسماه « المعجزة الكبرى .. القرآن » . وقد تحدَّث فيه عن نزوله وكتابته ، جمعه وإعجازه ، جدله وعلومه ، تفسيره وحكم الغناء به . وهو من الكتب ذات النفع فى هذا المجال .

والذى يهمنا من هذا الكتاب رأى أبى زهرة نفسه فى الإعجاز ، وهو يلخصه فى العبارات الآتية ، قال :

« إنَّ كل شئ فى القرآن مُعجِز ، من حيث قوة الموسيقى فى حروفه ، وتآخيها فى كلماته وتلاقى الكلمات فى عباراته ، ونظمه ، المحكم فى رنينه . وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات . وكون كل كلمة لفقاً مع أختها ، وكأنما نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته ، وتُوَحِّد غايته . ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه . وكأن المعانى جاءت مؤاخية للألفاظ ، وكأن الألفاظ قُطِعت لها وسُوِيت على حجمها .. » [١] .

وهذا تفصيل للإعجاز البيانى الأدبى .

---

(١) المعجزة الكبرى .. القرآن ص ٩٩- نشر دار الفكر العربى سنة ١٩٧.

ثم قال : « .. وإنه لأجل هذا يصعب على الكاتب أن يأتى بكل وجوه الإعجاز البيانى ، ولكنه يقارب ولا يباعد . ولنذكر ستة وجوه نتكلم فيها عسانا نصل إلى تقريب معانى الإعجاز من غير حد ولا استقراء كامل وهى :

١ - الألفاظ والحروف . ٢- الأسلوب وما يكون من صور بيانية .

٣ - التصرف فى القول والمعانى . ٤ - النظم وفواصل الكلمة .

٥ - الإيجاز المعجز والحِكَم والإمثال والإخبار عن الغيب .

٦ - جدل القرآن » [١] .

ونراه فى هذا يخلط بين الإعجاز البيانى الأدبى ، وبين ما يراه فريق من وجوه إعجاز أخرى مرفوضة عند التحقيق ، كالإخبار عن الغيب .

هذا .. وقد أخذ المؤلف فى بيان الأوجه التى ذكرها مستفيداً من كتابات السابقين القدماء مثل الرمانى والخطابى والباقلانى وعبد القاهر ، ومحدَثين مثل الرافعى .

والباحث يرى أن أبا زهرة فى مذهبه الإعجازى بيانى أدبى ، وإن جمع إلى الأدب والبيان خصائص أخرى للقرآن خارجة عن نطاق الإعجاز أدباً وبياناً .

* * *

١٢- عائشة عبد الرحمن :

أحدث كتاب وُضِعَ فى إعجاز القرآن هو « الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق » إعداد عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) [٢] .

---

(١) نفس المصدر ص ١٠١

(٢) صدر سنة ١٩٧١ وطبعته دار المعارف ضمن سلسلة « مكتبة الدراسات القرآنية » ويحمل رقم (٦٣) . وهو فى جزء واحد بلغت صفحاته ٥٢١ صفحة من القطع الكبير .

واسم الكتاب مشعر برأى المؤلفة فى فهم الإعجاز ، وهو كامن فى بيان القرآن بقدر ما تتسع له هذه الكلمة « البيان » من معان وأفانين يسمو بها التعبير حتى يصل إلى مرحلة الإعجاز .

والكتاب من أثمن ما وقفتُ عليه حديثاً من الكتب الموضوعة فى هذا المجال إذ لم تنح فيه المؤلفة منحى الوصف غير المعلل ولم يكن وصفها للإعجاز أكثر من توجيهها وتعليلها لخصائصه ، كما هو الحال عند غيرها . بل إن قارئ هذا الكتاب يرى المؤلفة تذكر كثيراً من نصوص القرآن ثم تقارن وتدرس وتنتهى إلى نتائج مسلّمة فى كثير من الأحيان .

وموضوعات الكتاب : مدخل وثلاثة مباحث وخاتمة . المبحث الأول : يشتمل على المعجزة ، الجدل والتحدى . وجوه الإعجاز والبيان القرآنى ، البلاغيون والإعجاز (ص ٣٣ - ١٢١) .

والمبحث الثانى يشمل : فواتح السور وسر الحروف ، إضافة إلى جهد السَلَف ، حروف قرآنية ، دلالات الألفاظ وسر الكلمة ، الأسلوب وسر التعبير (ص ١٢٣- ٢٦٥) .

والمبحث الثالث .. وقفته على مسائل ابن الأزرق [1] (ص٢٦٧ - ٥.٧) .

والذى يهمنا هنا هو رأى المؤلفة فى الإعجاز وقد علمنا إشارة اسم الكتاب إلى رأيها ، وهو كذلك فى تضاعيفه . وقد قامت بدراسة كثير من النصوص القرآنية وعالجت كثيراً من خصائص التعبير القرآنى . ونذكر فيما يلى نماذج مختصرة لنتائجهامع الإشارة إلى موضعها من الكتاب .

---

(١) فى الإتقان للسيوطى وفى غيره أن ابن عباس كان يجلس لتفسير القرآن فى جمع من الناس فجاءه نافع بن الأزرق وصاحب له فأخذ نافع يسأل ابن عباس عن معنى الكلمات الغريبة فى القرآن ويجيبه ابن عباس مستدلاً بما يرويه عن العرب فى هذا الشأن وبلغت هذه المسائل (١٨٩) - (الإتقان : ١/١٢٦) .

١ - فهى ترى - مثلاً - أنَّ القرآن يُفرِّق بين كلمتى « حلف » و « أقسم » ونصها فى ذلك : « .. لا يهون أبداً أن نفسر القَسَم بالحلف وصنيع القرآن يلفت إلى فرق وثيق بينهما . فإن لم نقل إنَّ القَسَم اليمين الصادقة حقيقة أو وهماً - والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها . فلا أقل أن يكون بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص فيكون القَسَم لمطلق اليمين بعامة . ويختص الحلف بالحنث فى اليمين على ما اطرد استعماله فى البيان القرآنى »[١] .

وكان مبنى هذا الاستنتاج عندها استعراض الآيات القرآنية التى وردت فيها الكلمتان . ومن العرض ظهر أن القرآن لم يستخدم « حلف » إلا فى مواضع الحنث ، بينما استخدم « أقسم » فى مواضع الصدق الحقيقى أو ما كان مبعثه الاعتقاد المجرد .

فمن النوع الأول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾[٣] .

ومن الثانى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾[٥] .

٢ - وهى ترى - مثلاً - أن القرآن الكريم كثيراً ما يستغنى عن الفاعل فى سياق الحديث عن القيامة وأهوالها . إما ببناء الفعل للمجهول ، وإما بالإسناد المجازى . أو بالمطاوعة[٦] .

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٠٧ (٢) القلم : ١٠

(٣) التوبة : ٥٦ (٤) الواقعة : ٧٦ (٥) الفجر : ٥

(٦) انظر كتابها المذكور ص ١٢٢ - ١٢٥

ومثال الأول قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [1] .

ومثال الثانى قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ ﴾ [2] .

والآية صالحة للدلالة على الإسناد المجازى فى إسناد الاقتراب إلى الساعة والمطاوعة فى انشقاق القمر .

وقد حاولت المؤلفة توجيه ذلك بيانياً ونصها فيه : « فبناء الفعل للمجهول فيه تركيز الاهتمام على الحَدَث بصرف النظر عن محدثه والمطاوعة فيها بيان للطواعية التى يتم بها الحَدَث تلقائياً أو على وجه التسخير وكأنه ليس فى حاجة إلى فاعل . والإسناد المجازى يعطى المسند إليه فاعليه محققة يستغنى بها عن ذِكر الفاعل الأصلى » [3] .

وعلى هذا النهج الموضوعى تمضى الكاتبة فى دراستها فلا تعتسف القول اعتسافاً . بل تستخرج ملاحظاتها من النص . وهذه طريقة مجدية وعملية فى دراسة البيان القرآنى ، ومحاولة الاقتراب من خصائصه ووجوه إعجازه . كما نراها تنهج نفس الطريقة فى دراستها لمسائل ابن الأزرق وبها استطاعت أن تُخرجها على صورة ممتعة لم تُسبَق إليها .

وليس معنى هذا أن كل ما وصلت إليه الكاتبة بمنأى عن الأخذ والرد فتلك قضية أخرى . فقد يختلف معها غيرها بحق أو بغير حق . وإنما أردتُ أن أُبيِّن رأيها فى الإعجاز ، وطريقتها فى تناوله .

* *

---

(١) الحاقة : ١٣ - ١٤ (٢) القمر : ١ (٣) نفس المصدر ص ٢٢٥

● تنويه :

قد يبدو للقارئ أننى اقتديتُ بالكاتبة فى منهج هذا البحث فى كثير من موضوعاته لتشابه المنهجين إلى حد كبير .

والواقع غير ذلك ، إذ تقدمت ببحث الماچستير للكلية وموضوعه : سحر البيان فى مجازات القرآن ، نحوتُ فيه هذا المنحى فى فصلين كبيرين ، وذلك منذ ست سنوات . وكتاب المؤلفة ظهر منذ سنتين . بَيْدَ أننى مدين للجاحظ فى هذا السبيل حيث لمح فَرْقاً بين استعمال القرآن لكلمتى « المطر » و « الغيث » . الأولى فى مقام العذاب ، والثانية فى مقام الإنعام . كما لمح فَرْقاً بين كلمتى « الجوع » و « السغب » . كما أنى مدين للخطابى حيث لمح فَرْقاً بين « العلم » و « المعرفة » و « القعود » و « الجلوس » [٢] . ووجَّه كل هذه الكلمات توجيهاً فاقهاً .

ومن هنا كان توجيهى إلى هذا المورد العذب ، والخصائص الآسرة كما نحا فتحى رضوان هذا المنحى فى مقالات له نشرها الأهرام فى رمضان الماضى (١٣٩٢ هـ) .

والظاهر أن اتجاه الباحثين قد تزايد إلى دراسة القرآن دراسة موضوعية شاملة . ولهذا لزم التنويه .

* * *

● آراء منثورة فى الإعجاز القرآنى :

ذكرنا فى الصفحات السابقة آراء أصحاب المؤلفات فى الإعجاز القرآنى . وبدهى أن كثيراً من العلماء لم يصنعوا رسائل أو كتباً فى الإعجاز . ولكنهم أدلوا بآرائهم فيه ضمن بحوث أو مقالات منشورة .

---

(١) انظر ثلاث رسائل للإعجاز – طبع دار المعارف .

وهؤلاء لم يأتوا بجديد إنما وقفوا من الآراء السابقة موقف الأرجحية والترجيح . وها نحن نسجل هنا مواقفهم حسب موافقتهم على رأى منها ورفضهم ضمناً للآخر .

أولاً - النظم والتأليف :

أيَّد هذا الاتجاه القائل بأن الإعجاز كائن فى النظم والتأليف كثير من العلماء قديماً وحديثاً. منهم الأصبهانى والزملكانى والقاضى عِياض .

فقد تحدث الأصبهانى عن مراتب تأليف الكلام ثم قال : « فظهر من هذا أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص ، وبيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام ثم بيان أن نظم هذا الكلام مخالف لنظم ما عداه » (١) .

ويُفَرِّق الأصبهانى بين النظم المخصوص الذى هو صورة القرآن ، واللفظ والمعنى الذى هو أثره وعنصره . وباختلاف الصورة يختلف حكم الشئ لا بعنصره كالخاتم والقرط والسوار . فإنه باختلاف صورها اختلفت أسماؤها لا بعنصرها الذى هو الذهب أو الفضة (٢) .

والقرآن عنده جامع لمحاسن جميع فنون الكلام ، على نظم ليس مثل نظومهم كما نقل السيوطى عن الزملكانى قوله : « وجه الإعجاز راجع إلى التأليف ، بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة » (٣) .

أما القاضى عِياض فإنَّ نظم القرآن يمثل عنده الجانب الأهم فى الإعجاز ، من حيث حُسن التأليف ، والتئام الكلام وبلاغته الخارقة عادة العرب (٤) .

كما يرى أن للإخبار عن الغيوب حيث جاءت مطابقة لما أخبر به القرآن وما أشار إليه من أخبار الماضين مما يعثر طليه على البَشر ، ولتأثير القرآن على السامعين والقارئين يرى لكل هذه العوامل أثراً إضافياً فى الإعجاز .

---

(١) الإتقان للسيوطى : ٢/ ٢٢.
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر ص ١١٩
(٤) انظر الشفا : ١/ ١٧٦ وما بعدها .

فهو من القائلين بأن الإعجاز راجع إلى النظم والتأليف وإن رأى وجوهاً إضافية للإعجاز .

ويرى ابن عطيه أن الإعجاز واقع بالنظم وصحة المعانى . وقال : « إن هذا ما عليه الجمهور » .

فالنظم ، وصحة المعانى ، وتوالى فصاحة ألفاظه هى وجوه الإعجاز فى هذا الكتاب الحكيم . قال : « ووجه إعجازه أن الله قد أحاط بكل شئ علماً ، وأحاط بالكلام كله علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أى لفظه تصلح أن تلى الأولى ، ويتبيَّن المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبَشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم بالضرورة أن أحداً من البَشر لا يحيط بذلك ، ولهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ولهذا يبطل قول مَن قال : إنَّ العرب كان فى قُدرتها الإتيان بمثله . فلما جاءهم النبى ﷺ صُرِفوا عن ذلك وعجزوا [١] .

والذى يظهر من هذه النقول أن القول بأن الإعجاز راجع إلى النظم والتأليف يغلب على الاتجاهات الأخرى ، ويكاد يمثل الرأى الذى لا يصح فيه خلاف .

وحتى الذين ذهبوا إلى وجوه أخرى غير النظم والتأليف لم ينسوا فضل نظم القرآن وتأليفه الخاص .

هذا عند الأقدمين .. أما المحدَثون فلا نكاد نرى مَن يخالف هذا الرأى منهم وإن أضافوا إليه إعجازاً آخر فى مجال العلوم والتشريع فهو ما زال الرأى السائد فى القديم والحديث .

ثانياً - البلاغة والفصاحة :

يتشكك كثير من الباحثين قديماً وحديثاً أن تكون البلاغة والفصاحة من وجوه الإعجاز فى القرآن مع اعترافهم بأن كُلاً منها يؤدى دوراً هاماً فى سمو الأسلوب ووضوح المعنى .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن - للزركشى : ٩٧/١

من هؤلاء أبو بكر الباقلانى ، وعبد القاهر الجرجانى ، من الأقدمين ، وفريد وجدى من المحدَثين . وسبب هذا الحكم - كما سبق - أن هذه الفنون يمكن التعمل لها . والاحتيال عليها . وما كان ممكناً أن يُتعلم ويُحذق بالصنعة . فلا يكون وجهاً من وجوه الإعجاز .

وعلى العكس من هذا .. فإن فريقاً آخر قد اعتبر البلاغة والفصاحة ، وجهاً من وجوه الإعجاز . ومن هؤلاء القاضى عبد الجبار المعتزلى ، وفخر الدين الرازى، وحازم ، والمراكشى .

قال الرازى : « ووجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب ، والسلامة من العيوب » (١) .

ويقول حازم (٢) : « وجه الإعجاز فى القرآن حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه جميعه . استمراراً لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد » .

ويقول المراكشى : « إن الإعجاز حاصل ببلاغة القرآن ، وروعة نظمه ، ليس إعجازه بمفرداته ولا بمجرد تأليفه ، ولا بحركات إعرابه ، ولا بصرف العرب عنه » (٣) .

هذان رأيان متقابلان والصحيح الذى يمكن قبوله أن المسألة وَسَط بين الفريقين . فلا يمكن عزل البلاغة والفصاحة عن وجوه الإعجاز ولا يمكن كذلك جعل الإعجاز كله واجعاً إليهما .

بل هما - أى الفصاحة ، والبلاغة - عاملان من عوامل الإعجاز . وليستا أوحديتين فيه : لأن المختار أن الإعجاز راجع إلى النظم والتأليف ، والفصاحة والبلاغة من أهم سمات النظم البليغ والتأليف المحكم .

---

(١) الإتقان للسيوطى : ١١٩/٢ . والبرهان - للزركشى : ٩٨/٢

(٢) الإتقان : ١١٩/٢ ، وحازم : هو أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى .

(٣) نفس المصدر ص ٤

أما عبد الجبار فقد رفض أن يكون للقرآن نظم مخصوص هو مرجع الإعجاز : « لأن العادة لم تجر بأن يختص واحد بنظم دون غيره . فصارت الطُرق التى عليها يقع نظم الكلام الفصيح معتادة . كما أن قدر الفصاحة معتاد فلا بد من مزيد فيها » .

« ولذلك لا يصح عندنا (يعنى المعتزلة) أن يكون اختصاص القرآن بطريقة فى النظم دون الفصاحة التى هى جزالة اللفظ ، وحسن المعنى » (١) .

فعبد الجبار يُرجع الإعجاز إلى الفصاحة .. وقد فسَّرها بجزالة اللفظ وحسن المعنى . متأثراً فى ذلك بشيخ المعتزلة أبى هاشم الجبائى الذى نقل هو نصاً عنه متضمناً هذا المعنى (٢) .

ومع هذا .. فإن عبد الجبار لا يلغى أهمية النظم فى فهم الإعجاز ، بل ينظر إليه باعتباره مظهراً من مظاهر الفصاحة ، التى عليها المعول عنده فى هذا المجال، وقد انتهى إلى أسس جمالية قيمة : فقد قرر أن الفصاحة من صفات الأسلوب . ولا تظهر فى المفردات . « بل فى الكلام بالضم . ولا بد مع الضم من اعتبار صفة لكل كلمة . هذه الصفة قد تكون بالوضع ، أو بالإعراب أو بالموقع . وإذا روعى هذا فى بناء الأسلوب ظهرت فيه الفصاحة »(٢) .

والباحث يرى أن عبد الجبار قد شرع للأسلوب الرفيع ، وهذا يجعلنا نقول : إنه قائل بأن الإعجاز يرجع إلى النظم والتأليف وإن حاول هو أن يتهرب من هذا. لأن تفسيره للفصاحة تضمن هذا القول .. ولا خلاف عنده إلا فى العبارة أما المؤدى فواحد .

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل : ١٩٧/١٦ - ط . وزارة الإرشاد .

(٢) نفس المصدر .　　　(٣) نفس المصدر ص ١٩٩

وكذلك يرى الزمخشرى فى « الكشاف » والسكاكى فى « مقدمة المفتاح » حيث أوصيا بالبلاغة معانى وبياناً من أجل فهم القرآن ومعرفة خصائصة [١] . وكذلك كان رأى الإمام محمد عبده [٢] .

ثالثاً - روحانية القرآن :

قال بهذا الوجه كثيرون . منهم مَن جعله وجهاً ضمن وجوه أخرى للإعجاز كالرمانى وعبد الكريم الخطيب ، ومنهم مَن جعله الوجه الوحيد فى فهم الإعجاز، وقد قال بهذا المفكر فريد وجدى ، فقد تحمس وجدى لهذا الرأى ورفض كل ما عداه من آراء السابقين . وله فى إثبات رأيه محاولات كثيرة ، فنراه يقول :

« حصر المتكلمون فى إعجاز القرآن كل عنايتهم ، فى بيان الإعجاز من بلاغته فكتبوا فى ذلك فصولاً ضافية الذيول . وبعضهم خصَّها بالتأليف - وإننا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة ، إلا إننا نرى أنها ليست هى الجهة الوحيدة لإعجازه .

بل ولا هى أكثر جهات إعجازه سلطاناً على النفس ، فإن للبلاغة على النفس سلطاناً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام ، والإقبال عليه . ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس ، فلا يعود يُحدث فيها ما كان يُحدثه مبدأ توارده عليها .. وليس هذا شأن القرآن . فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً ، ولكنه تسلط على النفس والمدارك . فوجب على الناظر فى ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه فى مجال آخر يكفى لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذى كان للقرآن على قلوب الملحدين » [٣] .

---

(١) الكشاف : ١/ ٣٠ ، والمفتاح ص ٣٧ (٢) تفسير الذكر الحكيم .

(٣) دائرة معارف القرن العشرين مادة : « اقرأ » مجلد ٧ ص ٦٧٧

ثم يكشف هو عن تلك العِلّة فيقول :

« العِلّة نفى نظرنا واضحة لا تحتاج إلى كثير تأمل ، وهى أن القرآن روح من أمر اللّه : ﴿ وكَذلكَ أوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلَا الإيمَانُ ﴾ [١] ، فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح فى الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها . أما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها » [٢] .

ثم ينتهى إلى قوله : « نعم . إن جهة إعجاز الكتاب الإلهى المقدّس هى تلك الروحانية العالية التى قلبت شكل العالَم » [٣] .

ويرى وجدى أن هذا الرأى يحل كثيراً من المشكلات فيقول :

« هذا رأينا فى جهة إعجاز القرآن ، وهو - فيما نعلم - يحل كثيراً من المشاكل فى هذا البحث ويمكن الاستدلال عليه بالحس والواقع . أما ما ولع به الناس من أن القرآن معجز لبلاغته ، وتجاوزه حدود الإمكان ، حتى وقع الإعجاز ببلاغته ، دون وجوه إعجازه الأخرى فلم نقف له على أثر فى ذات القرآن . مع أنه ورد ذِكر القرآن فى آيات عدة لم نر فى واحدة فيها ما يوافق ما يذهب إليه الآن الكثيرون » [٤] .

والآن - وبعد أن ذكرنا رأيه ونصوصه - نسأل سؤالاً . مؤداه : ماذا يقصد وجدى بأنه لم يجد فى آيات القرآن ما يدل على هذا المذهب ؟

إن كان يقصد عدم ورود شئ من الصور البلاغية فى القرآن - وهذا بعيد جداً - فقد وَهِم .

---

(١) الشورى : ٥٢

(٢) المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

وإن كان يقصد أن القرآن لم يُشر إلى أن وجه إعجازه مأخوذ من السمات البلاغية التى فيه - وهذا بعيد كذلك - فإنه أشد وقوعاً فى الوهم ، لأن القرآن لم يقل أن وجه إعجازه كذا .

وإن كان يريد أن ليس فى آيات القرآن ما يشير إلى امتداح الكلام البليغ - وهذا ممكن إرادته - فإنه قصور من الكاتب . لأن فى القرآن الكريم آية هى أظهر ما تكون امتداحاً للقول من جهة بلاغته . ألم يقل سبحانه لرسوله عليه السلام : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ ؟ (١) .

والخلاصة .. إن وجدى قد بالغَ فى نفى أن يكون للبلاغة دور فى الإعجاز ، وبالغَ فى إثبات رأيه فى أن القرآن معجز لأنه روح من الله .. لأننا لو جاريناه على رأيه فمن أين تُدرَك هذه الروح ؟ أليست من خلال كلام وأسلوب ونظم .. أم تُدرَك من الفراغ ؟

رابعاً - الإعجاز لا يمكن وصفه :

هذا رأى اثنين من العلماء : أبو يعقوب السكاكى ، وأبو حيان التوحيدى .

فقد قال السكاكى : « إن إعجاز القرآن يُدرَك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تُدرَك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة . كما يُدرَك طيب النغم العارض لهذا الصوت . ولا يُدرَك تحصيله لغير ذوى الفطرة السليمة . إلا بإتقان علمى المعانى والبيان والتمرين فيهما » (٢) .

وقال أبو حيان التوحيدى : « سُئِل بندار الفارسى عن موضع الإعجاز من القرآن فقال : هذه مسألة فيها حيف وذلك أنه شبيه بقولك : ما موضع الإنسان من الإنسان ؟ فليس فى الإنسان موضع من الإنسان .. بل متى أشرتَ إلى جملته فقد حققته . ودللت على ذاته . كذلك القرآن لشرفه لا يُشار إلى شئ منه

---

(١) النساء : ٦٣

(٢) الإتقان للسيوطى : ١/١٧

إلا وكان ذلك آية فى نفسه . ومعجزة لمحاوله . وهدىً لقائله . وليس فى طاقة البَشر الإحاطة بأغراض اللّه فى كلامه وأسراره فى كتابه . فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده » [1] .

ولابن خلدون رأى شبيه بهذا . إلا أن الممتنع عنده هو فهم جميع أسرار الإعجاز . أما بعضها فجائز لمن توافرت له وسيلة الفهم .

قال ابن خلدون : « وهذا الإعجاز الذى تقصر الأفهام عن إدراكه ، وإنما يدرك بعض الشئ منه مَن كان له ذوق بمخالطة اللسان العربى وحصول مَلَكته . فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه » [2] .

والذى يظهر من النظر فى قولى السكاكى وأبى حيان يجد النزعة الفلسفية غالبة عليهما وإن ظهرت إلى حد الإسراف فيما نقله أبو حيان .. ورأيهما متطرف . أما رأى ابن خلدون فهو أقرب إلى الحقيقة كما ترى .

● الأسلوب المنطقى والعلمى : ويذهب بعض الباحثين [3] إلى أن من وجوه إعجاز القرآن الأسلوبين المنطقى والعلمى ، لأن العرب لم يكونوا يحسنون غير الأسلوب الخطابى من بين فنون النثر ، وقد حاول صاحب هذا الرأى أن يستدل على صحته جهد المستطاع . وعلى طرافة ما ذهب إليه فقد رده بعض معاصريه .

● الموضوعية والتجرد : وهو أحدث رأى فى الإعجاز حتى الآن . قال به الدكتور محمد البهى فى مقال طويل نشرته له الوعى الإسلامى [4] .

---

(١) الإتقان : ٢/ ١٢٠ ، والبرهان للزركش : ٢/ ٩٨ (٢) المقدمة .

(٣) هو المرحوم عبد اللّه عفيفى . وقد نقده المرحوم محمود مصطفى . انظر البيان القرآنى : ص ٢٥٨ وما بعدها . د . رجب البيومى .

(٤) عدد ربيع الثانى سنة ١٣٩٣ هـ .

ويراد من الموضوعية شمول مبادئ القرآن ، ومن التجرد نزاهة أحكامه من الهوى . وقد أقام الأدلة الواضحة والكثيرة مهتدياً بالنصوص القرآنية نفسها . وهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن البيانى ألا يعدم باحث دليلاً منه على رأى يرتئيه فيه . وجهة تتضح فيه .

* * *

● تعقيب ونقد :

قدَّمنا حصيلة سريعة لآراء العلماء فى الإعجاز القرآنى . وقد اقتصرنا فى هذا البحث على المسائل الرئيسية فى هذه المشكلة . وغضضنا الطرف عن كثير من المسائل الجزئية التى وُجِدَت فى كتب الأقدمين مثل : بِمَ يقع الإعجاز ؟ بالقرآن كله أم بأقل شئ فيه ؟ ، والإعجاز خاص بالعرب أو شامل لغيرهم من الأمم ؟ ، وهل الإعجاز خاص بالقرآن ؟ أو شامل لغيره من الكتب السماوية ؟ ... إلى آخر هذه المسائل .

والذى يبدو واضحاً أمام الباحث من الآراء السابقة أن الإعجاز القرآنى إنما هو قائم بنظمه وتأليفه بكل ما تحتمل هذه العبارة من مزايا النظم والتأليف . فيدخل فيه اختيار اللفظ للدلالة على معنى معيَّن ، ثم موضعه من الجملة . ثم أثره الصوتى الذى يمثل إيقاعاً ينتظم مع غيره فتتكون بذلك ظاهرة الإيقاع الصوتى الذى يمتاز القرآن بها عن سواه .

ويدخل فى هذا الاعتبار ما فى القرآن من اللمحات البلاغية من مجاز وتشبيه وتمثيل وكناية وتقديم وتأخير ، وفصل ووصل ، وإيجاز وإطناب ومساواة ، وذِكر وحذف وتوكيد وغير توكيد ... إلى آخر هذه الفنون .

ولستُ مع الذين ينقصون من قَدْر البلاغة العربية لا فى مجال الإعجاز ولا فى مجال غيره من الأساليب . فالبلاغة تشريع وتوجيه لصياغة الأسلوب الجميل . فليس الباقلانى ، وفريد وجدى بمنصفين حين أقصيا البلاغة والفصاحة عن ميدان فهم الإعجاز .

ولستُ مع عبد الجبار وأستاذه الجبائى حين يقرران أن روعة النظم شئ ، والفصاحة شئ آخر . ولستُ أفهم على أى أساس بنيا هذه الفكرة فالأسلوب ذات .. وكل من الفصاحة والبلاغة عَرَض . ولا بد للعَرَض من ذات حاملة .. فلو كنا نعثر على بلاغة أو فصاحة فى غير نظم وأسلوب : جاز لنا هذا التفريق . أما ونحن غير واجدين البلاغة والفصاحة إلا وصفاً لكلام ، فإن هذه الآراء تبدو شيئاً قريباً من المغالطات التى لن يقبلها منصف ..

* * *

● دور البلاغة فى الأسلوب الجميل :

ولقد اهتمت البلاغة العربية بتوجيه الأسلوب ابتداءً من الحرف ، فالكلمة ، فالجملة ، فالأسلوب كله . ولم تقصر فى هذا الشأن . وفصّلت الكلام على أقدار المخاطبين ، فكان اختلاف المقامات الذى يتبعه اختلاف فى الكلام نفسه من إيجاز وإطناب ومساواة ... إلى آخر هذه الاعتبارات .

ومن توكيد مختلف الدرجة ، إلى خلو من التوكيد ، من ذكر إلى حذف ، من تقديم إلى تأخير ، من إظهار إلى إضمار ، من وصل إلى فصل ، ولم تحجر على المتكلم بقوالب جامدة فأعطته الحرية فى حُسن تقديره للاعتبارات المناسبة . وجعلت من حقه أن يخالف الظاهر له من أحوال المخاطبين ويسلك بهم طريقاً غير الظاهر ما دام قد رأى اعتباراً آخر مناسباً يحسن أن يورد عليه الكلام ، فكان علم المعانى كفيلاً بهذه التوجيهات .

كما وُضِعَت الوسائل الكاشفة عن صور الخيال والمبالغة فى إيراد المعانى ميسّرة أمام المتحدث فيستعير ، ويتجوّز ويُكَنّى ويُمَثّل . ولا شك أن البليغ الذى يوفق لأن يضع أسلوبه على هدى من توجيهات البلاغة والفصاحة موضع إعجاب كبير عند العالمين بجودة الأسلوب وأثره القوى فى النفس . وكان علم البيان خير معين فى هذا المجال .

وأمام المتحدث وصايا عدة لتحسين اللفظ أو المعنى كفلها علم البديع الذى ليس هو مظهر ترف فى الأسلوب وإنما هو دعامة من دعائم إجادته وصقله .

إن عبد القاهر الجرجانى قد أقام نظرية كاملة فى كتابه « دلائل الإعجاز » لم ينحرف وهو يضع أسسها عن توجيهات البلاغة . وما زال كتابه فتحاً جديداً فى هذا المجال .

كما كان كتابه « أسرار البلاغة » ذا أهمية خاصة فى التوجيه البلاغى والنقد الجمالى الفنى .

إننا ما دمنا نقول ونرجِّح أن إعجاز القرآن إنما هو بنظمه وروعة تأليفه فإن البلاغ والفصاحة تمثلان لنا أكبر دعامتين فى بيان جودة النظم وروعة التأليف فى حقائقه ومجازاته وبدائعه . فى معانيه وبيانه .

وقد أبان السكاكى وظيفة البيان والمعانى فى بناء الأسلوب وسلامة الحكم عليه فقال : « إن الوقوف على تمام مراد الحكيم تعالى ، وما تقدَّس من كلامه، مفتقر إلى هذين العلمين - أى البيان والمعانى - كل الافتقار ، فالويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل » [(١)] .

وقد أشار الزمخشرى إلى هذا المعنى [(٢)] ، وبنى عليه منهجه فى التفسير . فكانت التوجيهات البلاغية طابعاً غالباً على تفسيره كما أخذ بها العلاَّمة أبو السعود فحفل تفسيره بالكشف عن مواطن الجمال فى القرآن الكريم على هدى من توجيهات البلاغة .

ويقول أبو هلال : « وحُسن الرصف أن توضع الألفاظ مواضعها . وتُمكَّن فى أماكنها ، ولا يُستعمل فيها التقديم والتأخير . والحذف والزيادة - إلا حذفاً لا يفسد

---

(١) المفتاح ص ٧ .

(٢) مقدمة الكشاف : ١/ ٣ .

الكلام - ولا يعمى المعنى ، ويضم كل لفظة منها إلى شكلها . وتضاف إلى لفقها » [١] .

هذه سمات الأسلوب الجيد كما يراها أبو هلال العسكرى .. وهل هذه التوجيهات خارجة عن مفهوم البلاغة ؟

ومن هنا يُعلم أن كل أسلوب جميل لا غِنى فيه عن توجيهات البلاغة ، ودقة التزام الإرشاد البلاغى هو الذى أبدى الأسلوب فى شكله الجميل الرائع .

على أننا نرى أن هناك مواضع فى القرآن الكريم لا بد من تخريجها بلاغياً وإلا وقعنا فيما يشبه المحظور .

وذلك فى المواضع التى أثبتت لله - سبحانه - جارحة كقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [٢] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ [٣] .

فإذا نحينا مذهب « السَلَف » القائل بالتسليم . فإن منهج « الخَلَف » الآخذ بالتأويل يقول بأنها القُدرة . ففى التعبير مجاز مرسل علاقته المحلية . لأن القُدرة محلها اليد .

وفسَّروا : « استوى » - بالاستيلاء بمعنى سلطان الله المسيطر على العرش ، وعلى كل شئ ، كما فسَّروا الظروف التى تدل على المكان مضافة إلى الله مثل « عند » فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [٤] . بالعلم - أى فى علمنا . وكثير من هذه المشاكل التى تمس العقيدة قد تخرَّجت تخريجاً بلاغياً ارتاحت معه النفس واطمأنت إليه العقول أيما اطمئنان .

* * *

---

(١) الصناعتين ص.١٢ - ط . الآستانة .

(٢) الفتح : ١٠ .

(٣) الأعراف : ٥٤

(٤) سورة ص : ٤٧

● رأى جامع :

بقى رأى آخر ذكره الزركشى [1] وقال : إن أهل التحقيق على هذا الرأى ، ومحصله أن الإعجاز وقع بكل ما سبق من الأقوال . لا بواحد على انفراده . فإنه جمع ذلك كله فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع . بل وغير ذلك مما لم يسبق .

فمنها الروعة التى فى قلوب السامعين وأسماعهم سواء المقرون والجاحدون ، ثم إنَّ سامعه إن كان مؤمناً به يداخله روعة فى أول سماعه وخشية . ثم لا يزال يجد فى قلبه هشاشه إليه ومحبة له ، وإن كان جاحداً وجد فيه مع تلك الروعة نفوراً لانقطاع مادته بحسن سمعه .

ومنها : أنه لا يزال غضاً طرياً فى أسماع السامعين وعلى ألسنة القارئين .

ومنها : جمعه بين صفتى الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالباً فى كلام البَشر ، لأن الجزالة من الألفاظ التى لا توجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة ، والعذوبة منها ما يضادها من السلاسة والسهولة . فمَن نحا نحو الصورة الأولى فإنما يقصد الفخامة والروعة فى الأسماع .. ومَن نحا نحو الثانية قصد كون الكلام فى الأسماع أعذب وأشهى وألذ .. وترى ألفاظ القرآن قد جمعت فى نظمه كلتا الصفتين .. وذلك أعظم وجوه البلاغة فى الإعجاز .

ومنها : جعله آخر الكتب غنياً عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه كما قال :

---

(١) البرهان : ٢/١٠٦ .

﴿ إنَّ هَذَا القُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِى إسْرَائِيلَ أكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [1] .

فأنت ترى - حتى مع هذا الرأى الموفق بين جميع الآراء - قد نوَّه بما للبلاغة من أثر فى الإعجاز . فقال : « وذلك أعظم وجوه البلاغة فى الإعجاز » . ونحن لا نرى حَرَجاً أن يُضاف إلى الإعجاز البيانى إعجاز آخر . ما دام النظم هو موضع الإعجاز الأول .

* * *

(١) النمل : ٧٦

الفصل الثالث

خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ

فى القرآن الكريم خصائص امتاز بها من غيره . وذلك أمر مسلَّم ، وقد كانت تلك الخصائص - وما زالت - مثار الإعجاب ، ومصدر الإعجاب من عصر النزول حتى الآن ، وحتى تقوم الساعة .

وقد لحظ العرب الخُلَّص فى عصر النزول ، هذه الخصائص التى بدت لهم فوق ما يحسنون فراحوا - رغم عدائهم للقرآن وصاحبه - يثنون عليه ، ويصفونه بما يستطيعون من أوصاف الجمال والروعة . وما حديث الوليد بن المغيرة فى وصف القرآن ببعيد عن الأذهان [1] .

وفى دراستنا لهذه الخصائص قسمناها - تسهيلاً للضبط - إلى قسمين كبيرين ..

أحدهما : خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ - وهو ما ندرسه فى هذا الفصل - وليس المراد بغلبة اللفظ طغيانه على المعنى ، بل المراد أنَّ الملحظ فيها إنما يرجع إلى اللفظ . مع وفاء العبارة بالمعنى على أكمل وجه .

---

(١) نريد بهذه الخصائص أمرين : ما لا وجود له خارج القرآن . كفواتح السور . وما له وجرد خارج القرآن ، لكنه فى القرآن على أكمل وجه ، وأدق تصوير . فحرى ألا يعتبر ما فى سواه ، وذلك كالتكرار المحكم . وفى كل فإن ما نذكره تمثيل وليس استقصاء ، فكتاب الله لا تنتهى عجائبه .

وذلك مثل فواتح السور [1] ، والتكرار المحكم . والفواصل بين الآى .

وثانيهما : خصائص يغلب عليها جانب المعانى ، لأنه الملحوظ فيها مع روعة اللفظ وتوافر مقومات الحسن فيه .

وذلك مثل ثراء معانى اللفظ فى القرآن . اختلاف الأغراض فى السورة الواحدة . دقة النظم بين تراكيبه .

وفى هذا الفصل ندرس الخصائص الآتية :

فواتح سور القرآن - فواصل آى القرآن - ألفاظ القرآن - النغم الصوتى لألفاظ القرآن - التكرار المحكم فى القرآن .

١ - فواتح السور :

ذكر السيوطى أنَّ ابن أبى الإصبع قد أفرد فواتح السور القرآنية فى كتاب سماه « الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح » . ثم قال : « وأنا ألخص هنا ما ذكره مع زوائد من غيره » [2] ثم عرض أن فواتح سور القرآن تنحصر فى عشرة أصول وهى :

الثناء : مثل : ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ و ﴿ تَبَارَكَ ﴾ و ﴿ سُبْحَانَ ﴾ وجاء الثناء فواتح لأربع عشرة سورة .

حروف التهجى : مثل : « ألم » و « حم » وقد جاءت هذه الحروف فواتح لتسع وعشرين سورة سنعرض لها فى شئ من التفصيل .

النداء : مثل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ و ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ وقد جاء النداء فواتح لعشر سور : خمس بنداء الرسول ﷺ وهى : الأحزاب ،

---

(١) تكلم عنها السيوطى فى المتشابه : (الإتقان : ٨/٢ - ١٢) ، والزركشى فى البرهان : ١٦٤/١

(٢) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى : ١٠٥/٢ وما بعدها .

والطلاق ، والتحريم ، والمزمل ، والمدثر .وخمس بنداء الأمة وهى : النساء ، والمائدة ، والحج ، والحجرات ، والممتحنة .

الخبر : مثل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ و ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ وقد جاء الخبر فواتح لثلاث وعشرين سورة من سور القرآن .

القَسَم : مثل : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ و ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ وقد جاء القَسَم فواتح فى عشر سور .

الشرط : مثل : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ و ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ وقد جاء الشرط فواتح لسبع سور . وسيأتى الحديث عنها فى شئ من التفصيل كذلك .

الأمر : مثل : ﴿ قُلْ أُوحِيَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وكان الأمر فواتح لست سور ثنتين من طوال المفصّل ، وأربع من قصاره .

الاستفهام : مثل : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ و ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وكان الاستفهام فواتح لست سور أيضاً .

الدعاء : مثل : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ و ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وجاء فواتح لثلاث سور .

التعليل : وقد جاء فاتحة لسورة واحدة هى قوله تعالى : ﴿ لإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾.

هذا .. وقد ذكر السيوطى فى نهاية الحديث عن هذه الأصول قوله :

« هكذا جمع أبو شامة قال : وما ذكرناه فى قسم الدعاء يجوز أن يُذكر مع الخبر ، وكذا الثناء كله خبر إلا « سَبِّحْ » فإنه يدخل فى قسم الأمر ، و « سُبْحَانَ » يحتمل الأمر والخبر » (١) .

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٦

ومعنى هذا أنَّ مرد هذه الأصول نوعان : نوع لا يحتمل توجيهاً غير المذكور فيه ، ونوع يمكن التصرف فيه حسب ما بيَّنه .

وليس هذا يعنينا . إنما الذى أريد ذكره هنا أن الحديث عن هذه الأصول ليس بمستطاع ؛ لأن موضوعها القرآن كله ، ولذلك فإننى أعمد هنا إلى نوعين لأفصِّل الحديث عنهما وهما : ما كانت فواتحه حروفاً هجائية مقطَّعة ، ثم ما كانت فواتحه شروطاً .

* *

● الحروف :

جاءت الحروف الهجائية غير المؤتلفة فى كلمات ذات معنى متفَق عليه وضعاً لتسع وعشرين سورة على الوجه الآتى :

(أ) ما بدئ بحرف واحد ، وهى ثلاث سور :

﴿ صٓ ، وَالقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ .

(سورة ص - مكية النزول)

﴿ قٓ ، والقُرْآنِ المَجِيد * بَلْ عَجِبُواْ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (سورة ق - مكية النزول) .

﴿ نٓ ، وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ .

(القلم - مكية النزول)

(ب) ما بدئ بحرفين ، وهو نوعان :

١ - ما اختلف فيه حقيقة الحرفين وهو ثلاث سور :

﴿ طٰهٰ * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ (طه - مكية النزول) .

﴿ طٰسٓ ، تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ وكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل - مكية النزول) .

﴿ يٰسٓ * وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ (يس - مكية النزول) .

٢ - ما اتحد فيه حقيقة الحرفين ، وهو ست سور هى :

﴿ حمٓ * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ (غافر - مكية النزول) .

﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (فصلت - مكية النزول) .

﴿ حمٓ * وَالكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

(الزخرف - مكية النزول)

﴿ حمٓ * وَالكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (الدخان - مكية النزول)

﴿ حمٓ * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ .

(الجاثية - مكية النزول)

﴿ حمٓ * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّا أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾ (الأحقاف - مكية النزول) .

(جـ) ما بدئ بثلاثة أحرف . وهو ثلاثة أقسام بالنسبة لحقيقة الحروف المفتتح بها :

١ - « آلم » وجاءت فاتحة لست سور :

﴿ آلم * ذَٰلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

(البقرة - مدنية النزول)

﴿ آلم * اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ ﴾ (آل عمران - مدنية النزول) .

﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ .

(العنكبوت - مكية النزول)

﴿ آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ (الروم - مكية النزول) .

﴿ آلم * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ (لقمان - مكية النزول) .

﴿ آلم * تَنزِيلُ الكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾ .

(السجدة - مكية النزول)

٢ - « آلر » وجاءت فاتحة لخمس سور هى :

﴿ آلر ، تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ (يونس - مكية النزول) .

﴿ آلر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ .

(هود - مكية النزول)

﴿ آلر ، تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ ﴾ (يوسف - مكية النزول) .

﴿ آلر ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .

(إبراهيم - مكية النزول)

﴿ آلر ، تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر - مكية النزول) .

٣ - « طسم » وجاءت فاتحة لسورتين :

﴿ طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ ﴾ (الشعراء - مكية النزول) .

﴿ طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ ﴾ (القصص - مكية النزول) .

(د) ما بدئ بأربعة أحرف وهو سورتان كذلك :

﴿ المٓصٓ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ .. ﴾ .

(الأعراف - مكية النزول)

﴿ المٓر * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ .. ﴾ .

(الرعد - مكية النزول)

(هـ) ما بدئ بخمسة أحرف وهو - كذلك - سورتان :

﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ (مريم - مكية النزول) .

﴿ حم * عسق * كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الشورى - مكية النزول)

* *

ويسير من النظر يُبيِّن أن الحروف التى بدأت بها هذه السور ، تبلغ - بعد حذف المكرر - أربعة عشر حرفا هى :

ا - ح - ر - س - ص - ط - ع - ق - ك - ل - م - ن - هـ - ى .

وقد أثار هذا النوع من الفواتح دهشة العرب النازل بلغتهم القرآن ، كما أثار جدلاً كبيراً بين العلماء والمفسرين ؛ لأنهم رأوا فيه غرابة وعزة غير معهودتين فى متعارف القول ومشهور الأساليب .

ونتج عن هذا الخلاف اتجاهان رئيسيان ..

الأول : يقضى بتفويض السر فى ذلك إلى الله ، ويرى عدم الخوض فيه ، ويعده من المتشابه الذى لا يعلم حقيقته إلا الله .

ومن القائلين به خليفة الرسول أبو بكر الصدِّيق ، وعلىّ بن أبى طالب ، وعمر ابن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود . فقد نقل السمرقندى أنهم قالوا : الحروف المقطَّعة من المكتوم الذى لا يُفسَّر . وقال أبو حاتم : لا ندرى ما أراد الله عزّ وجلّ بها [١] .

رقد تابع الشعبى هذا الرأى وقال : إنّ لكل كتاب سراً . وإنّ سر هذا القرآن فواتح السور [٢] .

---

(١) تفسير القرطبى : ١٣٤/٢ - ط . دار الشعب .

(٢) الإتقان للسيوطى : ٨/٢

هذه خلاصة هذا الاتجاه .

أما الاتجاه الثانى .. فيرى ضرورة تخريجها والبحث عن معانيها ومدلولاتها . وقد تشعبت آراء هذا الفريق حول فهم معناها . ويمكن تلخيص حصيلة ما قالوا به فيما يأتى :

١ - منهم مَن يرى أنها - أى الحروف المبدوءة بها السور - أسماء لله سبحانه أو هى الاسم الأعظم . ويُعزَى هذا القول لابن عباس رضى الله عنه وقد تابعه الكلبى وجعلها مقسماً بها . وفى كشاف الزمخشرى كلام طويل حول رأى الكلبى فى موضعها من الإعراب (١) .

٢ - ويرى آخرون إنها أسماء للسور التى صُدِّرت بها . ويُنسب هذا الرأى إلى زيد بن أسلم .

٣ - وقال آخرون إنها رموز دالة على كلمات هى بعض حروفها . و ﴿ آلم ﴾ مثلاً بعض حروف كلمة هى : أنا الله أعلم .... وهكذا .

وقد اختار الزجاج هذا الرأى حيث قال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدى عن معنى ، وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة . نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات التى الحروف منها (٢) .

وقد استدل على مذهبه بمأثور كلام العرب . من ذلك :

قُلْتُ لَهَا قِفِى قَالَتْ : قَـــافْ

يعنى : وقفتُ .

---

(١) الكشاف : جـ ١

(٢) معترك الأقران فى إعجاز القرآن : جـ ١ - ط . دار الفكر

وذكر السيوطى نصوصاً أخرى وردت عن العرب استعملت فيها الحروف المقطعة بدل الكلمات [١] . وكذلك ابن جنى فى الخصائص [٢] .

٤ - ويرى آخرون أن هذه الفواتح رموز يراد بها قيمتها العددية على طريقة « أبجد » ، وممن يرى هذا الرأى السهيلى حيث يقول : « لعل عدد الحروف التى فى أوائل السور - مع حذف المكرر - للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة [٣] .

وقد تعقَّب هذا الرأى ابن حجر ، وحكم عليه بالبطلان كما ثبت عن ابن عباس رضى الله عنه النهى عن عد « أبجد » .

٥ - وفريق آخر يرى أن هذه الحروف إشارة لورودها أكثر من غيرها فى السور التى بدئت بها [٤] .

٦ - ونقل زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى » أن هذه الحروف هى وحدات صوتية تكوِّن لحناً موسيقياً يراد به تحريك الشعور وإيقاظ الوجدان . كما يكون ذلك فى التراتيل الدينية لتهيئة النفوس لتلقى النصائح والإرشادات . ويعزى هذا الرأى إلى مستشرق فرنسى يدعى « بلانشو » [٥] .

٧ - ويرى فريق أنها أدوات للتنبيه ، عمد إليها القرآن ليكون فى غرابتها ما يثير الالتفات .. ولكى يكون أبلغ فى قرع الأسماع .

وقد اختلف القائلون بهذا الرأى فى مَن هو المنبَّه ؟ الرسول ﷺ أم المشركون ؟

---

(١) تفسير القرطبى : ١٣٥/٢ - ط . دار الشعب .

(٢) الخصائص : ٣٠/١ (٣) الإتقان : ١٤٨/٢

(٤) نشرت مجلة المصور بحثاً بالأرقام لعالِم مصرى أجراه على سور القرآن كله يؤكد هذا الرأى حيث زادت هذه الحروف الفواتح على غير نسبياً .

(٥) بحث جديد فى القرآن - محمد صبيح - ص ٢

فأبو حيان يرى أنها تنبيه للمشركين إلزاماً لهم بالحُجَّة ، ليستغرق بها المشركون فيفتحوا لها أسماعهم ، فتجب عليهم الحُجَّة بسماع القرآن [1] .

ويرى الفخر الرازى أن المنبِّه هو الرسول عليه السلام ؛ لأنه إنسان قد تشغله بعض الأمور [2] .

وقد ارتضى الإمام الجوينى - فيما حكاه عنه السيوطى - هذا الرأى . وأخذ يعرض ما يراه مبرراً له [3] .

وذهب الزركشى إلى أن مجئ هذه الحروف فى أوائل السور إشارة إلى غلبة مجيئها فى كلمات هذه السورة . كما حاول أن يثبت وجه اختصاص كل سورة بما بدئت به بحيث لا تصلح ﴿ آلم ﴾ بدءاً لسورة قد افتتحت بـ ﴿ آلر ﴾ .. ذكر ذلك فى تفصيل واف [4] .

من ذلك تكرار الخصومات فى « سورة ص » حيث بدئت به . ففيها خصومة النبى ﷺ مع الكفار ، والخصمان اللذان عند داود عليه السلام ، ثم تخاصم أهل النار ، ثم اختصام الملأ الأعلى ، ثم تخاصم إبليس فى شأن آدم [5] .

٨ - وذهب الشيخ طنطاوى جوهرى إلى ما خلاصته : أنَّ القرآن كتاب سماوى . والكتب السماوية تُصرِّح تارة وترمز أخرى . وساق على ذلك دليلين :

أحدهما : أن اليهود كان لهم رمز ، يتضح ذلك من حساب الجُمَّل حيث جعلوا الحروف رموزاً للأعداد .

---

(١) البحر المحيط : ٣٤/١

(٢) التفسير الكبير للرازى : ٤٥٦/٦

(٣) الإتقان : ١٣/٢

(٤) انظر البرهان : ١٧٠/١ - ط . الحلبى .

(٥) نفس المصدر السابق .

ثانيهما : كذلك فإنَّ النصارى قد اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن ، وكانت اللغة اليونانية هى الرسمية فى مصر ، وكانوا يرمزون بلفظ « إكسيس » عن : يسوع المسيح ابن اللّه المُخَلِّص .

فالألف من « إكسيس » هى الحرف الأول من « إبسوس » يسوع . والكاف هى الحرف الأول من « كرستوس » المسيح . والسين مبدلة من حرف الثاء فى « ثيو » اللّه . والياء تدل على « إيوث » ابن . والسين الثانية منها تشير إلى « توتير » المخلص . ومجموع هذه الكلمات عندهم هو : يسوع المسيح ابن اللّه المُخَلِّص » [١] !؟

وهذا الرأى يبدو فى ظاهره دفاعاً عن مبدأ الرمز بالحروف الوارد فى القرآن الكريم وليس محاولة لفهم هذه الظاهرة الفريدة .

٩ - ويروى مالك بن نبى ، نقلاً عن « النقد الحديث » ، أن هذه الفواتح ترجع إلى حالة اضطراب عضوى يحدث للنبى عليه السلام فى حالة الكشف والتلقى .

لكنه يدفع هذا الفرض بما هو معروف عن النبى عليه السلام ؛ لأنه كان يمثل أكمل المعادلات الشخصية فى نواحيها الثلاثة : الخلقية ، والعقلية ، والبدنية . ولم يدع التاريخ أدنى ريب فى هذه النقطة . فلا مجال إذن لأن نتخيل أى افتراض عن الذات المحمدية ، حتى نشرح هذا الإبهام أو ذلك المرض العضوى .

« ومن وجهة أخرى لسنا نجد فى أدب هذه الذات الشخصى الغنى -وهو « الحديث » - أى أثر لتلك المغلقات ، ولا توجد أية رواية مشافهة عن النبى مشتملة عن مثل هذا التصدير الرمزى » [٢] .

هذا رده . وهو دفع ناجح بلا شك . ولكننا نرى فى المسألة دفعاً آخر مستمداً من طبيعة الظاهرة نفسها لا من شئ خارج عنها ذاتاً ، أو أدب ذات . وحاصل هذا الرد :

---

(١) تفسير الجواهر - انظر تفسير آل عمران .

(٢) الظاهرة القرآنية - ترجمة عبد الصبور شاهين - طبعة ثالثة - ص ٣٣٢ - ٣٣٣

« فقد تنبه السَلَف إلى أن مجموع هذه الحروف - بغير المكرر منها - أربعة عشر حرفاً هي نصف الحروف العربية .

كما أطال بعضهم النظر فى هذه الحروف ، فلفتهم منها أنها نصف الحروف الهجائية على أى وجه من الوجوه التى اصطلح عليها علماء اللغة بعد نزول القرآن بزمن طويل .

ففيها خمسة حروف مهموسة ، وعدد المهموس من الحروف عشرة ، وفيها نصف الحروف المهجورة وفيها ثلاثة من حروف الحَلق . هى نصف الحروف الحلقية ، كما أن فيها نصف الحروف غير الحلقية .

وفيها نصف الحروف الشديدة ، كما أن فيها نصف الحروف الرخوة ، وفيها حرفان من الأحرف الأربعة المطبقة ، كما أن فيها نصف الحروف الأخرى المنفتحة غير المطبقة .

وفيها نصف الحروف المستعلية ، كما أن فيها نصف الحروف المنخفضة » (١) .

فهل هذه الدقة الرائعة ، والتوزيع السحرى بين جمل الحروف وأنصافها يمكن أن يعزى إلى ذات مريضة ،أو أعصاب مضطربة ؟ !

هذا ما يرفضه العقل والواقع معاً . ولا يمكن أن يُعزَى مثله إلا إلى الوحى .

١ - وذهب قطرب والفرّاء إلى أن هذه الحروف إشارة إلى حروف الهجاء لا تتعداها ، أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ، ليكون عجزهم عن محاكاته أبلغ فى الحُجَّة عليهم . إذ لم يخرج عن طريقة كلامهم فى أصل التأليف (٢) .

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن - د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ط . دار المعارف ، ص١٢٧ - ١٢٨

(٢) انظر تفسير القرطبى : ١/١٣٤ - ط . دار الشعب .

هذا عرض سريع لأهم الآراء فى توجيه هذه الظاهرة . وليست كلها مقبولة . وقد ناقشنا فيما مضى رأيين منها ورددناهما . وهما ما ورد عن طنطاوى جوهرى ، وما نقله صاحب الظاهرة القرآنية .

أما الآراء الأخرى فيمكن النظر فيها على الوجه الآتى :

● نقد وتحليل :

أولاً : إنَّ القول بأنها أسماء لله أو للسور التى هى فيها مردود لاعتبارات :

أما كونها أسماء لله .. فإن أسماء الله معلومة من السُنَّة كما فى الحديث الشريف: « إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً » ، وكانت السُنَّة مقررة لما جاء فى القرآن الكريم وليست هذه منها . لأن أسماء الله توقيفية . لا يجوز إطلاقها إلا بإذن من الشرع . وهذه اجتهادات مفسرين .

أما كونها أسماء للسور .. فإنَّ ذلك يؤدى إلى الخلط بين المسميات فـ ﴿ آلم ﴾ مثلاً وردت فواتح لست سور [1] . فأيها ألف لام ميم ؟ أم هى أسماء للست فى آن واحد ؟ !

وهذه السور قد أطلق عليها العلماء أسماءها لاعتبارات مناسبة كالبقرة .. ، وآل عمران .. إلخ . من هذا ترى أن كلا الاحتمالين - أسماء لله ، أو للسور - مردود .

أما القول باعتبار القيم العددية لهذه الحروف . فرأى يبدو عليه الجفاف . وقد صح النهى عنه كما أشرنا مثلاً إلى قول ابن عباس فيه . وقد صح مثله عن القاضى أبى بكر فى فوائد رحلته . حيث جاء فى الإتقان للسيوطى : ومن الباطل علم الحروف المقطعة فى أوائل السور [2] .

---

(١) وهى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة .

(٢) الجزء الثانى ص ١١

« والذى أقوله : إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول مَن أنكر ذلك على النبى ﷺ ، بل تلا عليهم ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿ صٓ ﴾ وغيرهما فلم ينكروا ذلك ، بل صرَّحوا بالتسليم له فى البلاغة والفصاحة مع تشوقهم إلى عثرة . وحرصهم على زَلّة . فدل على أنه كان أمراً معروفاً بينهم لا إنكار فيه .

ومما يضعف هذا الرأى أن منشأه جماعة من اليهود . ظنوا الأمر كذلك حين سمعوا القرآن . ثم لم يلبثوا أن تبينوا خطأ ظنهم [1] .

كذلك - فإنَّ القول بأنها رموز لكثرة ورودها فى السور التى هى فيها أكثر من غيرها من الحروف الأخرى . لا عمق فيه . وما يمكن أن يُثار حوله من نقد . ما هى القيمة البيانية لهذه الإشارات ؟ ! وهل هذا القول لائق بجلال القرآن وعلو منزلته ؟؟

* *

● أرجح الآراء فى هذا المجال :

وبعد هذه المناقشة السريعة يبدو واضحاً أن أرجح هذه الاتجاهات على الإطلاق ما ذهب إليه قطرب والفرَّاء من أن تلك الحروف علامات دالة ورموز منصوبة فحواها أنَّ هذا القرآن الذى أعجز العرب أمره . وبان لهم وجه التحدى فيه ليس بلغة غير لغتهم بل هو مؤتلف من مادة اللغة التى يحذقونها . ويجيدون التبارى فيها . ولهم تفنن فى أساليب وطرق تعبيرها . إذ لو كان بغير لغتهم لما صح به التحدى ولكان لهم عذر فى الإعجاز من أوسع طريق .وأغنى مورد .

ويرجِّح هذا الرأى أمور :

١ - أن ستاً وعشرين سورة مما فواتحه حروف مقطعة مكية النزول ، والعلّة أن مظاهر العناد والتحدى للدعوة الجديدة فى مكة قد بلغ نهايته فناسب ذلك أن

---

(١) جاءت هذه القصة كاملة فى الإتقان : ٢/ ١٠ .

يورد القرآن كثيراً من النماذج التى تؤيد صحة الدعوة ، وتؤكد نسبتها إلى اللّه تعالى .

٢ - أنَّ معظم هذه السور فيها حديث - بعد الفواتح مباشرة - عن سمو القرآن وعلو طبقته : ﴿ ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [١] ، و ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [٢] ... إلى آخر هذه الآيات والمطالع .

وقد تنبه العلماء قديماً إلى هذه الظاهرة ، فنص عليها الرازى [٣] ، والزركشى [٤] وغيرهما .

قال الزركشى : « واعلم أنَّ عادة القرآن العظيم فى ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن .. وقد جاء بخلاف ذلك فى العنكبوت والروم فيُسأل عن حكمة ذلك » [٥] .

والمشكلة تتصور فى العرض الآتى : فقد حرص القرآن الكريم فى كل سورة بدئت بالحروف المقطعة أن يذكر معها ما يتعلق بالقرآن . وتخلف هذا المنهج فى ثلاث سور هى : مريم - العنكبوت - الروم . فقد جاءت مطالعها هكذا :

﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ [٦] .

﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [٧] .

﴿ آلم * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ [٨] .

والحق أنَّ المتتبع لهذه السور الثلاث يجد فى غضونها ذكراً وحديثاً عن القرآن ، أو الانتصار للقرآن كما يقول الحافظ ابن كثير [٩] .

---

(١) البقرة : ٢ — (٢) هود : ١ — (٣) التفسير الكبير : ٦٤٤/٦

(٤) البرهان : ١٧٠/١ — (٥) نفس المرجع . — (٦) مريم : ١ - ٢

(٧) العنكبوت : ١ - ٢ — (٨) الروم : ١ - ٢ — (٩) تفسير ابن كثير : ٨٨/١

ففى مريم تكرر قوله تعالى خطاباً للنبى عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ ... ﴾ خمس مرات (١) .

ثم تأتى فى نهاية السورة هذه الآية : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّداً ﴾ (٢) .

وكذلك الحال فى سورة العنكبوت فقد وردت فيها الآيات الآتية :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ... ﴾ (٣) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ .. ﴾ (٤) .

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٥) .

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ ﴾ (٦) .

﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (٧) .

وجاء - كذلك - فى سورة الروم : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (٨) .

وبهذا يمكن أن نخرج بما يأتى :

أولاً : أنَّ كل سورة بدئت بالحروف المقطعة ، فيها حديث مباشر عن روعة القرآن الكريم وإعجازه .

---

(١) الآيات : ١٦ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ (٢) مريم : ٩٧

(٣) العنكبوت : ٤٥ (٤) العنكبوت : ٤٧ (٥) العنكبوت : ٤٨

(٦) العنكبوت : ٥٩ (٧) العنكبوت : ٥١ (٨) الروم : ٥٨

ثانياً : إذا لم يكن ذلك الحديث مباشراً . فإنه يأتى فى غضون السورة مبيناً فضل القرآن وأثره . ومنتصراً له على سواه ، ولذلك يطرد هذا الملحظ فى التسع والعشرين سورة التى جاءت فواتحها حروفاً مقطعة .

٣ - أنَّ هذا الرأى أبعد ما يكون عن النقد فضلاً عن لياقته بجلال القرآن . ووجوه الإعجاز البيانى فيه .

٤ - أنَّ الزمخشرى - وهو خبير بنقد الأساليب وجهات الجمال والقبح فيها - يُرجِّح هذا الرأى ويقويه ، ويورد فى ذلك كلاماً حسناً . إذ يرى أنَّ مجموع الحروف التى بدئت بها هذه السورة يبلغ أربعة عشر حرفاً . وهى نصف حروف المعجم . كما تحتوى هذه الحروف على لطيفة أخرى .. هى أنها تشتمل على أنصاف أنواع الحروف : المجهورة ... والمهموسة ، والشديدة ، والمستعلية ..

ويعلق على هذا فيقول : « فسبحان الذى دقت فى كل شئ حكمته وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته فكأن اللّه - عَزَّ اسمه - عدَّد على العرب الألفاظ التى منها تركيب الكلام . إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحُجَّة إياهم » [١] .

ويقول أيضاً : « وهذا القول من الخلاقة والقبول بمكان » [٢] .

٥ - ولعل مما يقوى هذا الرأى أنه يلتقى مع غيره من الآراء . إذ لا مانع أن تؤدى هذه الحروف - بالإضافة إلى معنى التحدى - معنى آخر مما ذكروه كالتنغيم الصوتى والدلالة على ورودها أكثر من غيرها .

* *

• تمثيل وإيضاح :

هذه خلاصة ما قيل فى هذا الأصل من الفواتح .. وخلاصة ما أراه فيها كذلك . ومثله عندى كمثل صانع ماهر . أعدَّ مواد مما يراه الصانعون ويألفونه

---

(١) الكشاف : ٢١/١ (٢) نفس المصدر ص ٢٢

ويعدون منه أشكالاً متفاوتة فى الجودة والحسن كل حسب ما أُوتِىَ من مهارة وحذق فى الصناعة . فجاء هذا الصانع الذى ليس له نظير فى الإبداع فطرح مواده التى أعدَّها أمام الصانعين وصنع منها شكلاً يحسونه فى هيئته ونظامه ودقته أروع أمثلة جمال الفن مما ليس لهم قُدرة على الإتيان بمثله مع علمهم بأن مواده المصنوع منها طوع يد الجميع . فالحذق والمهارة إنما هما فى الصنعة لا فى المواد المستعملة فيها . إنَّ هذا أدعى إلى إقرارهم بالتفوق لهذا الصانع وأنه ليس من طبقتهم وإن اتحد العمل عند الجميع .. « وللّه المثل الأعلىٰ » .

* * *

● المجموعة الشرطية :

جاء الشرط فاتحة لسبع سور ، هى : « المنافقون ، الواقعة ، التكوير ، الانفطار ، الانشقاق ، الزلزلة ، النصر » . هذه السور السبع يمكن أن نصطلح على تسميتها : المجموعة الشرطية – أو القسم الشرطى من سور القرآن الكريم – والباحث يرى أنها تشترك فى عدة خصائص :

● خصائص المجموعة الشرطية :

أولاً : أن الطابع الغالب عليها أنها مكية النزول ، ما عدا « الزلزلة » فهى مدنية باتفاق ، وما عدا « النصر » ففيها رأيان . مكية باعتبار المكان لنزولها بعد الهجرة . وما عدا « المنافقين » فمدنية باتفاق .

ثانياً : أن فى معظم هذه السور حديثاً عن القيامة ومقدماتها . مع ما اقترن به الحديث عنها من أغراض أخرى لها بالمقام نسب ورحم .

ثالثاً : أن الشرط فيها قد تردد كثيراً فى السورة الواحدة ، ولم يقتصر وروده على مطلع السورة فحسب وذلك أمر ظاهر من مجرد تلاوة هذه السور السبع وتتبع أساليب التعبير فيها .

رابعاً : أن هذه السور السبع - المجموعة الشرطية أو القسم الشرطى - موضوعاتها أمور مستقبَلة فى الغالب . استقبالاً حقيقياً كما سيحدث من مقدمات القيامة وأهوال الحشر ، أو استقبالاً باعتبار الحكاية كمجئ نصر الله فى مطلع سورة « النصر » . إلا ما دعا إليه المقام من الأغراض الأخرى كتقرير أمر واقع ، أو لمحة من أخبار تكمل بها الصورة ويتضح بها المقام .

خامساً : أن الحديث فيها إذا كان عن مشهد من مشاهد القيامة . أو عن أمر يتكرر من مظاهر الطبيعة وسُنَّة الله فى الكون ، أو عن مصير عام محتوم ، أو ما قارب هذه الأمور فالأداة المفضلة هى « إذاً » المؤذنة بتحقيق شرطها وجوابها . وإن لم يكن الحديث عن هذه الأمور بل غيرها ؛ فالأداة غيرها « إن » أو « لو » وما شابه ذلك .

والقيمة البيانية لهذا المطلع الشرطى التى من أجلها - والله أعلم - آثر القرآن افتتاح هذه السور بها . هى أن الأسلوب الشرطى يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطاً ملاحَظاً فيه ترتب المسبب على السبب .. فإذا ذُكِرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون .. فإذا ذُكِر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن . والذى يزيد من هذه القيمة البيانية لأسلوب الشرط فى القرآن الكريم أمران :

الأول : أن القرآن فى غالب الفواتح من هذا النوع لا يكتفى بفعل شرط واحد - كما هو الحال فى غيره - بل يقرن به أشباهاً ونظائر يطول تأمل السامع فيها وتضاعف من تشوقه إلى الجواب كلما انتقل من جزء إلى جزء . فيأتيه الجواب بعد تلهف وطول ترقب .

الثانى : أن أجزاء الأسلوب الشرطى فى القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمور عادية قد لا يهتم بها إنسان . أو ليس للوقوف عنده على مدلولاتها كبير معنى .

أو ربما تنبأ - سَلَفاً - بما سيكون عليه الحال فلا يفيد منها فائدة جديدة .

وليس الحال كذلك فى القرآن . بل فيه - فوق دقة النظم وجمال التركيب -غرابة وجزالة . ولنأخذ لذلك - مثلاً - سورة التكوير :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا المَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ * فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى العَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ .. ﴾ (١) .

لتتل هذه السورة حق التلاوة ، ولنتأمل الشرط الذى بدئت به . ولننظر إلى الأشباه والنظائر التى عطفت عليه . ولتستحضر معانى هذه الصور التى ترمز إليها كل وحدة من وحدات الشرط وأشباهه ونظائره . ولنحاول تأملها كأنها واقعة - الآن بالفعل - ولندرك كم من المراحل سبحنا فيها . وكم من المشاهد تجددت أمامنا كل مشهد غريب غريب فى هيئته وصورته رهيب رهيب فى حدوثه وظهوره . يعلو ويسفل .. مرة فى السماء وأخرى على الأرض . إنها رحلة طويلة شاقة تقطعها النفس حتى تقف على حقيقة الرحلة والغاية التى من أجلها شُدَّت الرحال : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ (٢) .

---

(١) التكوير : ١ - ٢٢

(٢) تأمل تنكير « نفس » وتذوّق ما توحى به العبارة من جلال الموقف وخطره - والآية من سورة التكوير : ١٤

هنا تستريح النفس من عناء رحلة بهرت الأنفاس . ولكنها استراحة « ليست بالطويلة » فهى على موعد مع رحلة طويلة أخرى تبتدئها من هنا . رحلة من رحلات الكون ليس المقطوع فيها مسافة أرض بل وحدات زمن وتجدد ظواهر :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ..... ﴾ (١) .

هاتان رحلتان ، أولاهما أطول من الثانية ، وبين الرحلتين نسب وثيق وعرى محكمة .

فالسورة كلها مسوقة لبيان وتقرير حقيقتين كبيرتين .وهما :

أولاً : وقوف الإنسان على حقيقة أمره يوم القيامة .

ثانياً : وصف القرآن بما هو حقيق به من أوصاف الكمال . وكل من هاتين الحقيقتين ذُكِرَ معها ما يمهد لها ويناسبها .

ففى جانب الحقيقة الأولى أُديت المعانى المقصودة منها بشرط ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، ثم تتابعت نظائره وأشباهه حتى بلغت إثنتى عشرة صورة من صور البعث . وبلغت الوحدات فى هذا الجزء من السورة أربع عشرة وحدة محسوباً فى ذلك جواب الشرط ، والوحدة اللاحقة بالحديث عن الموؤدة . وكل هذه الصور من مشاهد القيامة وأهوالها . وكلها آيات دالة على قُدرة الله الفائقة .

* *

● سر الحروف الساكنة :

وانتهت فواصل الآيات بالتاء الساكنة . وهى من الحروف المهموسة ، وتساوت الوحدات الصوتية فصارت كالأنغام الموسيقية سريعة الحركة لاهثة الإيقاع تشترك بتصويرها الصوتى فى تجسيم المشهد وتمثيله للخيال .

---

(١) التكوير : ١٥ - ٢٠ .

ولعل السر فى ختم هذه الفواصل بالتاء الساكنة الهامسة الإشارة إلى انقضاء حركة الحياة الأولى فى الكون . والإيذان بسيطرة الخوف والدهشة على النفوس والوجوم الذى يغشى الناس ... وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً .

وداعى هذا الخوف المسيطر على النفوس ، أوضاع الكون الغريبة التى صار إليها .. وليس فى النفوس البَشرية استعداد لتحملها فى وعى وإدراك .

والإنسان يومئذ سيرى حقيقة عمله ويقف على نوع مصيره : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ (١) ، والنفوس عندما تصل إلى هذا الموقف تتهيأ لامتثال الأوامر، وتتطلع إلى حسن التوجيه وتهفو إلى الإرشاد المنجى من هذه الويلات .

* *

● حقيقة كبرى :

لهذا - والله أعلم - يعقب القرآن هذا المشهد المثير المخيف بعرض حقيقة كبرى من حقائق الإيمان .

وهو لا يكتفى بتهيئ النفوس الذى شرحناه آنفاً . بل يمهد لهذه الحقيقة الثانية بذكر آيات لله فى الكون من كواكب خُنَّس كُنَّس . تسير فى فلكها بنظام دقيق . ومن ليل يقبل بظلامه فيسكن كل متحرك . ويختفى كل ظاهر ، وصبح ترسل أشعته هادية باصرة فيتحرك كل ساكن ويظهر كل مختف ... إنه بعث . إنه حياة .

بعد هذا كله يعرض القرآن حقيقة الإيمان الكبرى : القرآن كتاب الله ووحى أوحاه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (٢) .

* *

---

(١) التكوير : ١٤

(٢) المفسرون على أن المراد بالرسول الكريم هنا هو : جبريل عليه السلام . انظر الكشاف للزمخشرى : ٥٦٨/٤ . وإرشاد العقل السليم لأبى السعود : جـ ٤ . وأسرار التنزيل للنسفى : جـ ٤

● معان إضافية موحية :

هذا وصف حقيق به القرآن .. وقد تضمن هذا الجزء معانى إضافية بالنسبة إلى الهدف الرئيسى من الكلام عن القرآن . ولكن حين ننظر إلى هذه المعانى الإضافية نجد لها أروع الدلالة على تأكيد المعنى الرئيسى .. وهو وصف القرآن بأنه وحى الله إلى رسوله .

وتلك المعانى الإضافية هى :

أولاً : وصف جبريل عليه السلام - وهو سفير الوحى - بما ينبئ عن كرمه عنده ... ونباهة شأنه فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (١) وقد جاء ضمن هذه الأوصاف وصفه بالأمانة . وهذا الوصف هام حيث إن جبريل أحد مصادر القرآن . إذ يُشعِر ذلك بصيانة القرآن من التحريف . فجبريل مبلّغ له كما تلقاه من ربه لم يُغيِّر أو يبدل فيه لأنه أمين .

ثانياً : وصف محمد ﷺ وهو المتلقى للقرآن عن جبريل كما أمره ربه . ثم المبلّغ به الناس بصفة الرشد والسلامة من الآفات التى تنقص من قدر أصحاب الرسالات وعلى رأسها الجنون : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ (٢) ، وهذا الوصف هام أيضاً ينبئ أنَّ محمداً عليه السلام قد بلّغنا القرآن كما أنزله ربه . لم يخلط فيه . ولم يلتبس عليه منه شئ لأنه عاقل رشيد . والجنون المنفى عنه هو مظنة الخلط والإلباس . وقد عدل عن اسمه الصريح إلى ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ لأن فى هذا التعبير إشعاراً بإلزامهم بالحُجَّة إذ هو ملازم لهم وهم يعرفون تماماً رجاحة عقله وحدة ذكائه وكريم سيرته . ألم يسموه قبلاً : الصادق الأمين .

وبهذين الوصفين ، وصف جبريل بأنه أمين . ووصف محمد عليه السلام بالرشد ونفى الجنون عنه سلم مصدران من مصادر القرآن من أى عيب يكون مظنة

---

(١) التكوير : ١٩ - ٢١

(٢) التكوير : ٢٢

التحريف والتبديل ، وسلم القرآن نفسه من كل عيب يتقوله المتقولون عليه .

ثالثاً : إنَّ فعل القَسَم ﴿ لَا أُقْسِمُ ﴾ صدر بحرف النفى ، ثم ذكر المقسَم به وهو عدة مظاهر كونية : كواكب خُنَّس كُنَّس ، وليل عسعس . وصبح تنفس . ثم ذكر المقسَم عليه . وهو كون القرآن وحياً من عند اللّٰه نزل به أكرم مَلَك على أشرف رسول . فلماذا نفى القسم إذن والحقيقة المراد إثباتها جديرة بأن يُقسَم عليها لأن كثيراً من المعاندين حاولوا التشكيك فيها ؟ لقد حاول كثير من العلماء أن يُخَرِّجوا العبارة على إثبات القسم .

وليس من ضير أن نُبقى القَسَم منفياً على ظاهره وسره البيانى حينئذ أنَّ الحقيقة ظاهرة لا تحتاج إلى أن يُقسَم على إثباتها إجراء لإنكار المعاندين كلا إنكار . لأنه لم يصادف موضعاً يتوجه إليه على وجه مقبول . ويكون فائدة ذكر القَسَم منفياً للإشارة إلى هذه النكتة توصلاً لذكر المقسَم به فى الظاهر باعتبار أنها آيات ناطقات .

رابعاً : إنَّ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (١) ، وفى قوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (٢) وهذا نمط بيانى بالغ الدقة فكأن اللّٰه يريد أن يقول : القرآن فى هدايته للناس كالصبح فى إشراقه وبث الحياة فى الكائنات بعد سكون وظلام ..

خامساً : إنَّ فواصل الرحلة الثانية . تنتهى بحرف السين المتحرك . وهو من أحرف التصغير ، والتصغير حركة دائبة مستمرة . والكلمات فى أنفسها حركة عنيفة يحتاج عضو النطق إلى مجهود فى تأديتها بخلاف فواصل الرحلة الأولى المنتهية بحروف ساكنة . ولعل الفرق بين الحالتين واضح . فقد علمنا السر هناك ، أما فى هذه المجموعة القسمية فإنَّ المخاطبين فيها ليسوا على مشارف البعث

---

(١) التكوير : ١٩ (٢) التكوير : ١٨

وأهوال القيامة وإنما هم فى فسحة من الأمل فى الحياة بطولها وعرضها وحركتها وصخبها لذلك جاءت الكلمات متموجة مدوية والفواصل متحركة سافرة .

وهذا هو صنيع القرآن : لكل جملة بل لكل كلمة بل لكل حرف وحركة مكان ودلالة . ولكل مقام مقال .

وهاتان الحقيقتان اللتان دار عليهما رأس الأمر فى السورة كلها - مع توابعهما - أديتا فى عبارتين جزلتين : شرط . وقَسَم .

* *

● مطالع سور المجموعة الشرطية :

وهذا ما يمكن ملاحظته فى سورة التكوير ، وما يمكن ملاحظته فى بقية هذه المجموعة الشرطية . وقد ألمعنا إليها . أنَّ القرآن تحدث فيها عن مظاهر القيامة . فكان أسلوب الشرط هو وسيلته المفضلة والأداة هى « إذا » المؤذنة بتحقيق جوابها . لأن الساعة آتية لا ريب فيها ، ومظاهر القيامة موضع اهتمام فيها لأنها صُدِّرت بها وعليها أدار الحديث .

فمن ذلك مطلع سورة الواقعة : ﴿ إذَا وَقَعَت الوَاقعَةُ * لَيْسَ لوَقْعَتهَا كَاذبَةٌ * خَافضَةٌ رَّافعَةٌ * إذَا رُجَّت الأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّت الجبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثّاً * وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً ... ﴾ (١) .

ومطلع سورة الانفطار : ﴿ إذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإذَا الكَوَاكبُ انتَثَرَتْ * وَإذَا البحَارُ فُجِّرَتْ * وَإذَا القُبُورِ بُعْثرَتْ * علمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (٢) .

---

(١) الواقعة : ١ - ٧ (٢) الإنفطار : ١ - ٥

ومطلع الانشقاق : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ (١) .

وسورة الزلزلة : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا .. ﴾ (٢) .

* *

● سر « إذا » :

فى مطالع هذه السور يتحدث القرآن عن مشاهد القيامة . فلم يستخدم من أدوات الشرط غير « إذا » وقد تقدم وجهه فى حديثنا عن سورة التكوير . وفواصلها منتهية بالتاء الساكنة مثل فواصل سورة التكوير . وهذا يؤيد ملاحظتنا التى أشرنا إليها هناك . ولا تظن أنّ سورة « الزلزلة » خرجت عن هذا النظام . فإننا نلحظه فى غير الفواصل فى موضعين : « زلزلت » و « أخرجت » ، أما فواصلها فلا يخفى أنها منتهية بالألف الساكنة .

والحال كذلك - أعنى استخدام الأداة « إذا » - إذا كان الحديث عن منظر متكرر من مناظر الطبيعة ومثاله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ .. ﴾ (٣) ، ومثله : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ (٤) .

وكذلك الحال إذا كان الحديث عن مصير محتوم ، سواء أكانت حتميته لسنن خاص أو عام . ومثال الأول : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (٥) لأن مجئ النصر أمر محتوم لأنه وعد الله لرسوله ، والله لا يخلف الميعاد .

---

(١) الإنشقاق : ١ - ٥ (٢) الزلزلة : ١ - ٥ (٣) التكوير : ١٧ - ١٨
(٤) الإنشقاق : ١٨ (٥) النصر : ١

ومثال الثانى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [١] لأن مجئ الأجل أمر محتوم كذلك لأنه سُنَّة اللّه فى الخلق لا فرق بين كائن وكائن . فالأمر هنا يجرى على سنن عام .

* *

● إيثار غير « إذا » :

وإذا خرج الحديث عن هذه المواقف وأشباهها فإن المجال فسيح أمام أدوات الشرط غير « إذا » كل حسب ما يقتضيه المقام .

ومن ذلك قوله فى سورة الواقعة : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [٢] وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ [٣] .

ومثله من سورة المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٤] .

اختلفت الأداة فى هذه النصوص لاختلاف الأغراض إذ المراد من الأول التهديد بتبديل النِعَم وذلك أمر متوقف على المشيئة الإلهية إذا أرادته كان وإلا فلا .

والمراد من الثانى : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ حكاية حال للمنافقين وهم غير ضامنى رجوعهم إلى المدينة وذلك - فى تصورهم - لو حدث لترتب عليه ما دبروه من آثار .

---

(١) المنافقون : ١١
(٢) الواقعة : ٦٥
(٣) الواقعة : ٧٠
(٤) المنافقون : ٨

والتفرقة بين أدوات الشرط على هذا الأساس ليست خاصة بمجموعة السور الشرطية بل عامة فى جميع سور القرآن ، ولا يخالف إلا لداع بلاغى . وإنما آثرنا الحديث عما جاء منه فى هذه المجموعة لأن المجال خاص بها .

* *

● ظاهرتان عامتان :

والذى أريد إثباته - هنا - أن مجموعة كل نوع تحكمها ظاهرتان :

الأولى : أنَّ كل مجموعة من هذه السور انتظمت تحت أصل واحد من هذه الأصول العشرة بينها مناسبات وخصائص كانت سبباً فى أن تكوِّن هذه المجموعة جدولاً متميزاً يتقدمه مطلع واحد متحد السمات أو متقاربها . بحيث يتضح عند التأمل أن انتظامها تحت ذلك الأصل لم يكن محض صدفة . بل هو تدبير حكيم . وصنع خبير .

الثانية : أن تلك الأصول - فى جملتها - ضرب من البيان رفيع ، ونمط من التعبير معجز ، ولون من البلاغة فريد ، إذ هى آنق ، وأنسب الكلام مطالع ، وأجزلها وأعذبها ألفاظاً ، وأشرفها وأنبلها مقاصد ، وأحسنها وأجودها سبكاً، وأدقها وأروعها نظماً .

ومطالع الكلام هى أول ما يقرع السمع ويصل إلى النفس . فإذا توافرت لها خصائص التعبير الجميل خفت النفس لسماعه . وأقبلت على فهم معناه . وانتهاج نهجه وصارت معه حيث يكون .

وقد جاءت هذه الفواتح كلها وافية بهذا الغرض عامرة بتلك الخصائص وهو أمر شهد به أرباب القول وحُذَّاق الكلام حتى من أعداء القرآن أنفسهم . والحق ما شهدت به الأعداء .

والآن .. فقد بان لنا أن كلتا المجموعتين - ما بدئت بحروف الهجاء ، وما بدئت بأساليب شرط - لم يكن هذا السلوك فى أى منهما أمراً صنعته الصدفة . بل كان لخصائص تعم أفراد المجموعة . وتربط بينها فتجعلها قسماً ذا ملامح

خاصة . وقد حاولت جهد ما أستطيع أن أكشف عن شئ من تلك الخصائص التى تسرى بين وحدات كل مجموعة وكان مرجعى فى ذلك هو القرآن نفسه .

وهذه براعة استهلال . ذات دلالات بيانية تضاف إلى وجوه إعجازه وجمال أسلوبه وسحر بيانه .

* * *

٢ - فواصل القرآن :

فاصلة الآية هى آخر كلمة فيها . وللعلماء تعريفات متعددة فى تحديد معنى الفاصلة فمرة يُعرِّفونها بأنها كلمة آخر الآية كقافية الشِعر وقرينية السجع (١)، وقال الدانى : هى كلمة آخر الجملة . والفرق بين التعريفين واضح . الأول يخص الفاصلة بآخر الآية وهو ما عليه العمل ، والثانى يعتبر الفاصلة كلمة آخر الجملة سواء أكانت هذه الجملة فى أول الآية أو وسطها أو آخرها فهو غير مانع إذ تدخل فيه الفاصلة اللغوية مع الفاصلة الاصطلاحية وهذا عيب فى التعريف .

لذلك نقده الجعبرى فقال : « وهذا خلاف المصطلح ولا دليل له فى تمثيل سيبويه بـ ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ (٢) و ﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ (٣) . وليسا رأسى آية لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية » (٤) .

وقال القاضى أبو بكر الباقلانى : « الفواصل حروف متشاكلة فى المقاطع يقع بها إفهام المعنى . ولعل عِلّة التسمية « فاصلة » لأنها تفصل بين الآى ، وتميز بينها » .

* *

---

(١) الإتقان للسيوطى : ٩٦/٢

(٢) هود : ١٠٥

(٣) الكهف : ٦٤

(٤) الإتقان : ٩٣/٢

● آراء العلماء حول السجع فى القرآن :

وقد سموا التشاكل الواقع بين الحروف فى أواخر الآى فواصل . وسموا نظيره في الأساليب الأخرى سجعاً . لأن مجئ السجع فى القرآن لم يكن محل إتفاق بين العلماء ، فانقسموا إزاء هذه القضية قسمين :

الأول : يمنع أن يكون فى القرآن سجع . ولهم فى ذلك حجج وأسباب ذكروها وبنوا مذهبهم عليها .

الثانى : يرى جواز مجئ السجع فى القرآن ، بل هو وارد فيه فعلاً . ولهم ردود على حجج وأسباب المانعين . وأسباب أخرى مهَّدوا بها لمذهبهم .. وبنوا فكرتهم عليها .

ومن أدلة المانعين :

١ - أن القرآن وصف للّه . فلا يجوز وصفه بما يرد به إذن شرعاً .

٢ - أن السجع من قولهم : « سجع الطير » وشرف القرآن ألا يُستعار لشئ فيه لفظ أصله مهمل .

٣ - أن السجع يُقصد ثم يُحال المعنى عليه وفى هذا ضرب من التكلف ، أما الفاصلة فيُقصد بها المعنى أولاً . ثم يُحال عليه اللفظ . فالسجع عيب والفواصل بلاغة .

٤ - لو كان فى القرآن سجع لما كان خارجاً عن أساليب كلامهم . ولو كان كذلك لما كان فيه إعجاز ولو كان جاز أن يقال : إنه سجع معجز لجاز أن يقال : إنه شعر معجز ، وكيف والسجع مما كانت تألفه الكهان من العرب . ونفيه عن القرآن أجدر أن يكون حُجَّة من نفى الشعر . لأن الكهانة تنافى النبوَّات . وليس كذلك الشعر .

٥ - ولو سلَّمنا بأن فى القرآن سجعاً لكان مذموماً فى بعض المواضع لمجيئه على غير شرط السجع الحسن . وهو ما كان متقارب الحروف . ولعدم استواء

مقاطعه فى الطول - أحياناً - وهذا غير مرض . ولا محمود . لأن للسجع منهجاً محفوظاً وطريقاً مضبوطاً مَن أخل به وقع الخلل فى كلامه (١) .

وهذه خلاصة أدلة المانعين وكان أولهم الأشاعرة ، ثم تابعهم كثير من العلماء مثل ابن خلدون والرمانى والباقلانى .. وغيرهم .

يقول ابن خلدون : « .... أما القرآن - وإن كان من النثر - إلا أنه خارج عن الوصفين ليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مُسْجعاً . بل تفصيل آيات ينتهى إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها . ثم يُعاد الكلام فى الآية الآخرى بعدها . ويثنى من غير التزام حروف تكون سجعاً ولا قافية . ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ هى ليست أسجاعاً . ولا التزم فيها ما التزم فى السجع . ولا هى قوافى أيضاً (٢) .

ويبدو أن ابن خلدون أول مَن أطلق هذه التسمية وقد طرق فى نصه هذا أهم قضايا هذه الفكرة وكان موفقاً أيما توفيق حيث اشتق تسمية : « الفاصلة » من استعمال القرآن نفسه لهذه المادة فى حديثه عن القرآن اسماً وفعلاً .. ولذلك فإن هذه التسمية ليست بغريبة عن روح القرآن ولغته .

أما المجيزون لورود السجع فى القرآن . فكثيرون كذلك . منهم أبو هلال العسكرى وضياء الدين ابن الأثير . والعلوى صاحب الطراز وابن سنان الخفاجى . والفرّاء من النحاة والزركشى صاحب « البرهان » والسعد وابن النفيس .. وغيرهم .

وكان على هؤلاء أن يقوموا بعملين لإثبات مذهبهم ..

أولاً : الرد على شُبه المانعين . وأقوى أدلتهم - فيما نرى - أنَّ السجع من المحسنات اللفظية ، والفواصل من المحسنات المعنوية .. وبين النوعين بون شاسع.

(١) ردد هذه الشُبه القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » .

(٢) المقدمة ص ٦٦٢

ثانياً : أن يأتوا بجديد من الأدلة التى تؤيد وجهتهم فضلاً عن رد شُبه المانعين . وهذا هو الذى فعلوه فلننظر فى أقوالهم .

يقول ابن الأثير : « .. وإلا لو كان مذموماً - يعنى السجع - لما ورد فى القرآن الكريم . فإنه قد أتى منه بالكثير حتى إنه ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة . كسورتى الرحمن والقمر . وغيرهما .. وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور » (١) .

ويقول أبو هلال العسكرى : « جميع ما فى القرآن الكريم مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام الخلق » (٢) .

وكذلك يقول صاب « الطراز » ، وابن النفيس ، وهما إنما يدفعان ما ذكره المانعون من شُبه ولم يأتيا بجديد يؤيد هذه الوجهة . أى أنهما يدوران فى مجال العمل الأول فحسب .

وجاء ابن سنان الخفاجى فأتى بالعملين معاً . رد شُبه المانعين . وإثبات جديد من الأدلة ليس فى وسع منصف إنكارها ، فكان أكثر النقّاد حسماً للخلاف . وأشدهم حماساً لإثبات السجع فى القرآن الكريم . كان منهجه على النحو التالى :

١ - بدأ بذكر مذاهب المانعين . وذكر عبارة الرمانى : « الفواصل بلاغة ، والسجع عيب » . وفنّد أدلتهم واحداً واحداً .

٢ - فرّق بين الفواصل والأسجاع تفرقة فنية بأن الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفصول أما الفواصل فمنها ما يكون متماثل الحروف ومنها ما يكون متقارب الحروف . فالأول سجع والثانى فاصلة .

وكلا النوعين إما أن يأتى طبعاً سهلاً تابعاً لمعناه ، وإما أن يأتى على الضد . فالأول محمود والثانى مذموم .

---

(١) المثل السائر ص ٧٤

(٢) سر الصناعتين ص ٢٤٩

والقرآن الكريم . ورد فيه النوعان : المتماثل الحروف ، والمتقارب . وكلاهما فيه من المحمود ويمثل لذلك بمطالع السور : الطور - طه - العاديات - الفجر - القمر - ويعقب على ذلك بقوله : « وكل أولئك جائز أن يسمى سجعاً لأن فيه معنى السجع ولا مانع فى الشرع يمنع ذلك »[1] ، ويمثل للمتقارب بأم الكتاب. و « ق » ، ويقول : « مثل ذلك لا يسمى سجعاً لأن حروفه غير متماثلة ».

٣ - خطأ الرمانى فى قوله : « الفواصل بلاغة والسجع عيب » لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعاً للمعنى وكان غير مقصود . فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعانى تابعة له ، وهو مقصود متكلف . فذلك عيب والفواصل مثله .

٤ - ويرد على شُبهة تنزيه القرآن عما سواه فيقول : « وهذا غرض فى التسمية قريب ، فأما الحقيقة فما ذكرناه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره فى كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً عربياً ومؤلفاً . وهذا مما لا يخفى فلا يحتاج إلى زيادة فى البيان »[2] .

ومما يؤيد به المجيزون مذهبهم فوق ما ذكر . أن السجع من الفنون التى يبين بها فضل الكلام ويقع لها التفاضل فى البيان والفصاحة . كالجناس . والالتفات ونحوهما من الفنون البلاغية التى هى محل اتفاق من حيث ورودها فيه . فكما جاز ورود هذه الفنون فيه جاز ورود السجع .

* *

● دليل السجع من القرآن نفسه :

ثم لجأوا إلى القرآن نفسه يستخرجون منه أمثلة تدعم فكرتهم . منها أن القرآن ورد فيه تقديم موسى على هارون فى موضع ، وفى آخر قُدِّمَ هارون على

---

(١) سر الفصاحة ص ١٩٤ - ١٩٧

(٢) نفس المصدر .

موسى [١] . وموسى إذا قُدِّمَ على هارون فذلك جار على الأصل عندهم . لأن موسى أفضل من هارون . فإذا قُدِّمَ هارون على موسى . وهو مفضول بالنسبة له فذلك عندهم - أى تقديم هارون على موسى - ليس إلا لفضيلة السجع . لأن الفواصل فيه جارية على « الإلف » .

ومنها : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمىً ﴾ [٢] حيث فصل بين المعطوف والمعطوف عليه من أجل السجع . لأن تقدير الكلام : « ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاماً » .

* *

● رد هذا الدليل :

وقد رد الباقلانى على الشُبهة الأولى - وهو من نُفاة السجع كما علمنا - فقال : « إن تقديم موسى على هارون مرة وتأخيره عنه أخرى . ليس من أجل السجع . وإنما هو إيراد للقصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحداً . وهذا من الأمر الصعب الذى تظهر فيه البلاغة » [٣] .

وهناك اعتباران - لم يفطن لهما الباقلانى - يؤيدان مذهبه وهما أن أفضلية موسى على هارون ليست على الإطلاق . لأن هارون يفضل موسى بفصاحة اللسان وكمال هيئة النطق وتقدمه فى السن عليه . إذ يكبره بثلاث سنوات كما جاء ذلك فى العهد الجديد [٤] .

وكمال هيئة النطق وفصاحة البيان أمر له قيمته فى مقام التبليغ ، وقد شهد به موسى نفسه كما حكى عنه القرآن : ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً ﴾ [٥] ، فلا يبعد أن يكون تقديم هارون على موسى من أجل هذا الاعتبار .

---

(١) وورد ذلك فى سورتى : طه : ٧٠ ، والشعراء : ٤٨ (٢) طه : ١٢٩

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٩٣ - ٩٤ على هامش الإتقان .

(٤) الكتاب المقدس ٧ : ٧ (٥) القصص : ٣٤

هذا على اعتبار أن التقديم يجرى فى القرآن على حسب الأفضلية . ولكن الواقع أن ليس كل تقديم فى القرآن جارياً على أن المقدَّم أفضل من المؤخر بل للتقديم فيه أسرار أخرى غير هذا . فالأولى عدم التمسك بها والتماس وجه آخر ينطلق معه الفهم فى آفاق رحبة .

أما الشُبهة الأخرى فلم يتعرض لها الباقلانى . وقد عثرتُ فى كشاف الزمخشرى على توجيه للآية يحسن بنا الإشارة إليه .

وتوجيه الزمخشرى للآية ذو شقين :

الأول : أن يكون « أجل مسمى » معطوفاً على « كلمة » وعليه ففى الآية فصل بين المتعاطفين .

الثانى : أن يكون معطوفاً على الضمير فى « لكان » وعليه فلا فصل فى الآية . وتقدير المعنى حينئذ : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان الأخذ العاجل والآجل لازمين لهما كما كانا لازمين لعاد وثمود » .

والوجه الثانى هو الذى يهمنا من أجل قضيتنا هذه لأنه لا يلزم عليه تقديم ولا تأخير فيسقط الاستدلال به .

والمسألة بعد - فى رأى الإنصاف - بين نفاة السجع ومجوزيه لا تعدو أن تكون خلافاً لفظياً ما دام الإثنان متفقين على تنزيه القرآن عن التكلف والتوعر والتقليد . فلا ضَير أن يقال : إن فى القرآن سجعاً لكنه فصيح غير متكلف كما يقول أبو هلال : « مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام المخلوقين » ولا سبيل إلى إنكار السجع ففيه منه القدر الكثير والاتفاق فى التسمية لا يضير مادامت التفرقة بينه وبين غيره مقيسة بمعايير الجودة والحسن وخلوه من العيوب التى ألفوها فى غيره .

* *

• وظيفة الفواصل اللفظية :

للفاصلة فى القرآن الكريم وظيفتان ، إحداهما لفظية - وسنتحدث عنها الآن، وأخرى معنوية - وسيأتى الحديث عنها قريباً .

أما وظيفتها من حيث اللفظ فتعتمد على العوامل الآتية :

أولاً : أنها تحسين للكلام وراحة للنفس عند التلاوة . حيث يحسن السكوت عليها وقد كمل المعنى أو قارب الكمال ، بحيث يشهد الذوق بذلك ويدركه .

ثانياً : تؤذن بانتهاء الآية وتميز بينها وبين التى تليها كما تميز قافية الشعر بيتاً من بيت مع اختصاص الفاصلة بأحكام الربط ودقة النظم وجمال التلاؤم .

ثالثاً : تساعد الفاصلة على تلاوة القرآن مرتلاً مجوَّداً بأنغام آسرة ذات إيقاع جميل .. « وهذا الجمال التوقيعى فى القرآن لا يخفى على أحد » (١) .

ومن أجل هذه الوظيفة اختصت الفاصلة بأمور . وهى :

(أ) ختمها - فى الغالب - بحروف المد واللين - وإلحاق النون والميم بها . وحكمته التمكن من التطريب . قال سيبويه : « إنهم - أى العرب - إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون يريدون مد الصوت . ويتركون ذلك إذا لم يترنموا » (٢) .

وقد جاء فى القرآن على أسهل موقع ، وأعذب مقطع (٣) .

(ب) أن الحروف التى تقع بها الفواصل إما متماثلة أو متقاربة ، ولا تخرج عنهما كما قال فخرى الدين الرازى ، وبهذا استكملت أداة الغناء وتم لها حسن التناسق وجمال الإيقاع .

---

(١) النبأ العظيم - محمد عبد الله دراز

(٢) الكتاب : ٢٩٨/٢ (٣) بديع القرآن لابن المعتز ص٩٣

(جـ) أنها تتقدم عليها ألفاظ تُمهِّد لها ، وتُعظِّم من وقعها فى السمع . وتلك الألفاظ سماها المتقدمون رد الأعجاز على الصدور . وسماها المتأخرون التصدير .

(د) أن تتكرر فى بعض المواضع فاصلة بعينها كما فى سور : الرحمن والقمر والمرسلات ، لكن هذا التكرار ليس مختصاً بهذه الوظيفة الصوتيه . بل لها وللوظيفة المعنوية كما يبدو عند البحث والتأمل .

* *

• وظيفة الفواصل المعنوية :

لا بد للباحث عند الكشف عن وظيفة الفواصل من حيث المعنى أن يتتبع جميع فواصل الآى فيه حتى يتسنى له أن يحصل على نتائج وقوانين لهذه الوظيفة . وهذا ليس له من سبيل فى بحثنا هذا . ولذا نكتفى بذكر ما يتيسر منها فيما يأتى :

قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا من قَبْلِهِم مِّنَ القُرُون يَمْشُونَ فى مَسَاكِنِهِمْ ، إنَّ فى ذَلِكَ لآيَات ، أفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إلَى الأرْضِ الجُرُز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أنْعَامُهُمْ وَأنفُسُهُمْ ، أفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

والمعنى العام لهاتين الآيتين أن الناس غفلوا عن آيات الله . وهى ظاهرة أمامهم يمرون عليها دون تذكر أو تدبر .

وهذه الآيات التى غفلوا عنها نوعان : آيات تاريخية تُدرك عن طريق السمع والرواية . وأخرى حاضرة تُدرك عن طريق الرؤية والبصر .

---

(١) السجدة : ٢٦ - ٢٧

وقد ذكر القرآن مع كل نوع ما يلائمه . فجاءت الفاصلة مع الآيات التاريخية والأثرية « أفلا يسمعون » وجاءت مع الآيات الحاضرة « أفلا يبصرون » .

ففى الأولى نفى للسمع على سبيل التوبيخ . وفى الثانية نفى للبصر الذى هو سبيل المشاهدة والتبصر [١] .

وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذى أنشَأكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذى أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُواْ إلَى ثَمَرِهِ إذَا أثْمَرَ وَيَنْعِهِ ، إنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢] .

* *

● اختلاف الفواصل لاختلاف المعانى :

سيقت هذه الآيات الثلاث تذكيراً للناس بنِعَم الله عليهم كل آية تُصوِّر لوناً من ألوان النعيم . ومع ذلك جاءت فواصلها مختلفة . وكل منها واقع موقعه من البيان البليغ . فحساب النجوم والأفلاك فى الأولى مختص بالعلماء فناسب أن تكون فاصلته : « لقوم يعلمون » ،

وخلق الإنسان من نفس واحدة . وتكثيره ونهيئة الرزق له . وتدبير أمره فى الحياة ثم القضاء عليه بالموت . أمور لا تقوم على حدود رياضية . بل على التأمل والاستنتاج ، وإمعان النظر وتكرار التأمل والفكر ، فناسب أن تكون فاصلته : « لقوم يفقهون » لأن الفقه أدق من مجرد العلم .

---

(١) من خزانة الأدب للحموى ص ٩٧ (بتصرف) . (٢) الأنعام : ٩٧ - ٩٩

أما الثالثة : فقد اختصت بالنعَم التى عليها تقوم مطالب الحياة الدنيا من إنزال الماء من السماء وسلكه فى الأرض عيوناً وإنبات النبات به والزروع والأشجار . فيأكل الناس والأنعام مما تنبت الأرض . وهذه النعَم تقتضى شكر المنعِم بها من المنعم عليه . فكان - بحسب الظاهر - أن تكون فاصلته : « لقوم يشكرون » فعدل عنها إلى : « لقوم يؤمنون » لنكتة أوجبت ذلك .

لأنها كما تقتضى شكر المنعم بما تقتضى الإيمان بواهبها . والإيمان أصل فى الشكر فأوثر على الفرع . واكتفى به لتضمنه إياه . ومثل هذا التضمين يسمى « المضاعفة » فى علم البديع (١) .

قلنا : إن اختلاف الفواصل هنا كان لاعتبارات فيما هى فاصلة له من اختلاف فى جنس المنعَم به وقد تختلف الفاصلتان والمعنى واحد !

* *

● اختلاف الفواصل مع اتحاد المعنى :

ولكن فى القرآن ما هو مثير للدهشة . ذلك أن الفاصلتين قد تختلفان والمحدَّث عنه واحد فى الموضعين . ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

وقد أجاب ابن المنير على هذا الاختلاف فى الفاصلتين مع اتحاد الموضوع فقال : « كأنه - أى اللّه - يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة . فأنت آخذها . وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان كونك ظلوماً وكونك كفاراً . « وحصل لى عند إعطائها وصفان : أنى غفور وأني رحيم ، أقابل ظلمك بغفرانى وكفرك برحمتى » (٤) .

---

(١) انظر بديع القرآن لابن أبى الإصبع - تحقيق الدكتور حنفى شرف .

(٢) إبراهيم : ٣٤ (٣) النحل : ١٨ (٤) معترك الأقران .

وتخريج ابن المنير لاختلاف الفاصلتين مقبول ، لكنه لم يعالج الموضوع من جميع أطرافه لأن فيه سؤالاً ما زال قائماً حاصله : لماذا أوثر وصف الإنسان فى سورة إبراهيم على وصف اللّه ؟ ثم لماذا أوثر - كذلك - وصف اللّه فى سورة النحل على وصف الإنسان ؟

وعندى .. أن إيثار وصف الإنسان فى سورة إبراهيم لأن السورة عدَّدت كثيراً من مظاهر النعم ، فروعى جانب الإنسان فيها . وقليل من الناس الشكور . فقررت السورة موقف سواد الناس من النعم .

وإيثار وصف اللّه فى سورة النحل . لأن السورة تحدثت عن كثير من صفات اللّه فى موطن يدَّعى فيه المضللون وجود شريك للّه - سبحانه - فناسب أن يراعى فيها وصف اللّه دون الإنسان .

وعلى عكس هذه المسألة قد يختلف موضوعا الحديث وتأتى الفاصلتان متفقتين فى الموضعين ، ومثال ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

وسر اتفاق الفاصلتين أنَّ الغرض من الكلامين واحد . هو أدب الاستئذان ، والمناسبة فى الموضعين واضحة لأن المعنى : اللّه عليم بما فيه صلاحكم حكيم فيما شرعه لكم .

---

(١) النور : ٥٨ - ٥٩

وتكرير الفاصلتين بألفاظ واحدة فيه تأكيد للإنذار من المخالفة ومبالغة فى امتثال المكلّفين بما أرشدوا إليه .

* *

● فواصل تحتاج إلى تأمل :

وقد تبدو الفاصلة - بحسب الظاهر - غير ملائمة للمقام - فإذا ما تؤملت ظهرت دقة الحكمة فيها . وقد مثّلوا لها بقوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [١] .

وكان الظاهر يستلزم أن تكون الفاصلة هنا : « إنك أنت الغفور الرحيم » .

وسر العدول : أنه لا يغفر لمن يستحق العقاب إلا مَن ليس فوقه أحد يَرُدُّ عليه حكمه . عزيز لا يُغلب .

وإذا كان الأمر - كذلك - فـ « الحكيم » لا يضع الشئ إلا فى موضعه فلا يُتهم فى غفرانه لمن يُستحق العقاب . ففى « الحكيم » احتراس حسن لأن الحكمة فيما فعل .

ومن روائع الفواصل فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [٢] .

والمناسب بحسب الظاهر أن يُقرن الجوع بالظمأ لأنهما نظيران ، والعرى بالضحاء لأنهما نظيران كذلك ، لكن خولف هذا الظاهر ولهذه المخالفة أسباب :

(أ) فقد روعى مناسبة اللبس للشبع فى أنهما أمران ضروريان لا غنى لأحد عنهما ، وروعى مناسبة الاستظلال للرى فى كونهما تابعين لهما . فالرى تابع للشبع . والاستظلال تابع للباس [٣] .

---

(١) المائدة : ١١٨ (٢) طه : ١١٨ - ١١٩

(٣) خزانة الأدب للحموى : ٩٧/٢ (بتصرف) .

(ب) أجرى الخطاب بمقتضى العادة لأن العادة أن يقال : جوعان عريان . كما أن الضاحى الذى لا يستر جسمه ساتر ، متعرض لحرارة الشمس فيشعر كثيراً بالعطش .. فصار « الضحاء » كأنه سبب فيه فقُرِنَ به .

(جـ) فى هذه المخالفة لمحة من لمحات البيان الآسر ، سماها البديعيون : « قطع النظير عن النظير » والغرض من ذلك تحقيق تعداد النِعَم . ولو قرن كل بمماثله لتوهم متوهم أن المعدود نعمتان لا أربع .

* *

● دليل من الشِعر العربى :

وهذا السلوك البيانى معروف لدى فحول الشعراء جاهليين وإسلاميين . وقد أثار النقاد حوله جدلاً كثيراً . واحتكموا فيما بعد إلى القرآن فيما نحن بصدد ذكره . فاتخذوه معياراً للقياس فيما قاله الشعراء .

فقد قال امرؤ القيس الشاعر الجاهلى :

كَأَنِّىَ لَمْ أَركَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذاتَ خُلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبأ الزِّقَ الرَّوِىَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِىَ كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فقطع ركوب الخيل عن كره ، وقطع تبطن الكاعب عن اشتراء الخمر ، مع أنه المناسب وغرضه تكثير ملاذه .. والفخر بها .

وقد تبعه المتنبى وهو شاعر إسلامى فقال يمدح سيف الدولة :

وَقَفْتَ وَمَا فِى المَوتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ ... كَأَنَّكَ فِى جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُـرُّ بِـكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى جَرِيحَةً ... وَوَجْهُـكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِـمُ

ويذكر الثعالبى (١) أن سيف الدولة عاب قول الشاعرين امرئ القيس والمتنبى لأن الوجه – عنده – أن يقول امرؤ القيس :

---

(١) يتيمة الدهر : ١/١٥ ، ١٦

كَأَنِّى لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِى كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إجْفَالِ
وَلَمْ أَسْبأ الزِّقَ الرَّوِىَّ لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خُلْخَالِ

وأن يقول المتنبى :

وَقَفْتَ وَمَا فِى المَوتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ
تَمُرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمَى جَرِيحَةً كَأَنَّكَ فِى جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

وقد صوَّب بعض النقَّاد نقد سيف الدولة ، منهم ابن طَبَاطَبَا إذ يقول : « هما بيتان حسنان ، ولو وضع مصراع كل واحد منهما مكان الآخر لكان أشكل وأدخل فى استواء النسيج » [١] .

لكن المتنبى لم يُسَلِّم بهذا الحكم فى شعره ، وشعر امرئ القيس ولم يمنعه صدوره من السلطان أن يدفع التخطئة الموجهة إليهما . وابن رشيق فى « العمدة » ينتصر لقول المتنبى بعد أن ساق الرواية بأسلوب آخر فقال : « قول امرئ القيس أصوب ، ومعناه أعز وأغرب ، لأن اللذة التى ذكرها إنما هى للصيد ، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء ، فجمع فى البيت معنيين ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة وفضيلة شريفة تدل على السلطان ، وكذلك البيت الثانى لو نظمه على ما قال لكان ذِكر اللّذة حشواً لأن الزِّق لا يُسبأ إلا للّذة . فامرؤ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة . بعد وصفها بالتملك والرفاهة » [٢] .

وقد رجَّح بعض النُقَّاد قول الشاعرين على ما هما عليه لورود نظيرهما فى القرآن الكريم [٣] وكان دليله فى ذلك آيتى « طه » المتقدمتين .

---

(١) الموشح للمرزبانى ص ٣٤ (٢) العمدة : ١٧٣/١

(٣) فن الإسجاع – على الجندى .

ذلك عرض موجز لدور الفواصل القرآنية من حيث الشكل « الألفاظ » والموضوع « المعنى » ، على أن لنا ملاحظة جديدة لم أر أحداً أشار إليها . وسأرجئ الحديث عنها بعد إيجاز ما ذكره ابن أبى الإصبع من تقسيم الفواصل فى القرآن .

* *

● أقسام الفواصل :

قسَّم ابن أبى الإصبع فواصل القرآن أربعة أقسام وهى :

١ - التمكين : وحقيقته أن يمهد للقرينة تمهيداً تأتى به السجعة متمكنة فى مكانها غير نافرة ولا قلقة متعلقاً معناها بمعنى الكلام تعلقاً تاماً . بحيث لو طُرحت لاختل المعنى . ولو سُكتَ عنها لأدركها السامع بطبعه.. ومثال ذلك من القرآن : ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لأَنتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (١) .

فقد تقدَّم فى الآية ذكر العبادة . ثم تلاه ذكر التصرف فى الأموال . فجاءت الفاصلة على الترتيب : « الحليم » ، « الرشيد » . فالحليم باعتبار العبادة ، والرشيد باعتبار التصرف فى الأموال .

ومثله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (٢) . فاللطيف يناسب عدم إدراك الأبصار له . والخبير يناسب إدراكه لما سواه ومنه الأبصار .

٢ - التصدير : وهذه تسمية المتأخرين ، والمتقدمون - كابن المعتز - سموه رد الأعجاز على الصدور . وقد قسَّمه ابن المعتز ثلاثة أقسام :

(أ) توافق آخر الفاصلة مع آخر كلمة فى صدر ما قبلها مثل : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) هود : ٨٧ (٢) الأنعام : ١٠٣ (٣) البقرة : ١٦

(ب) توافق الفاصلة مع أول كلمة . فى صدور ما قبلها ومثاله : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ ﴾ (١) .

(جـ) توافق الفاصلة مع إحدى كلمات الوسط ، ويسمى تصدير الحشو ، ومثاله : ﴿ وَلَقَد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢) .

٣ - التوشيح : وهو أن يتقدم فى أول الكلام ما يدل على الفاصلة دلالة معنوية . ومثاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ (٣) لأن لفظ « اصطفى » يقتضى أن تكون الفاصلة « العالمين » لأن المصطفى منه يجب أن يكون جنس المصطفى ، ويفرق بين التصدير والتوشيح - بهذا المعنى - أن التوافق فى التصدير لفظى . وفى التوشيح معنوى .

٤ - الإيغال : وهو أن يختم الكلام بزيادة يتم المعنى بدونها . ولكنها لا تخلو من الفائدة والتوكيد . وقد خصَّه ابن رشيق بالشعر ، والصحيح خلافه . ومثاله من القرآن الكريم : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٤) ، فقوله تعالى : « وهم مهتدون » تأكيد لذلك المعنى ، وتقرير له على وجه أمكن وأمثل ، لأن اتباع المهتدى أمر مستحسن فى نفسه تميل إليه النفوس ولا يختلف فى فضله منصفان .

وقد تواترت الأخبار التى تدل على ما للفواصل من دور فى خدمة المعانى تأكيداً وتقريراً وتوضيحاً ورمزاً . ومؤدى تلك الأخبار واحد هو أن الفاصلة واقعة موقعها من الكلام بحيث لا يسد غيرها مسدها . ولشدة تمكنها فإن الكلام الذى يتقدمها يستدعيها فنجد السامع يتوقعها ويكاد يحدد نوعها متى أدرك معنى سابقها .

---

(١) آل عمران : ٨ — (٢) الأنعام : ١٠ .

(٣) آل عمران : ٣٣ — (٤) يس : ٢٠ - ٢١

ولا أرى ضرورة ذكر هذه الأخبار وأسانيدها هنا . فإن التأمل فى فواصل القرآن أكبر شاهد عليه . وقد ضربنا له بعض الأمثلة ، والآن أريد أن أتعرض لتلك الناحية التى أشرتُ إليها من قبل والتى لم أعثر على إشارة إليها من أحد وبالله التوفيق ..

* *

● بحث جديد فى الفوصل القرآنية :

ذلك أننى ألاحظ - وهذه فكرة أطرحها للدراسة والبحث الأوسع - أن الفاصلة القرآنية فى الآيات الطويلة - سواء أكانت فى السور الطوال أو القصار أو المتوسطة الطول والقصر - تأخذ سمة الاستقلال بمعنى أنها تأتى بعد تمام معنى أو معان رئيسية فى الآية . فتكون هى بمثابة تعليق عليها وتؤدى حينئذ وظيفة التعليل أو الإنكار ، أو التوكيد أو الترغيب ، أو زيادة الإيضاح . وهى غالباً ما تكون فى هذا النوع جملة مستوفية الأركان . ويغلب عليها أن تكون اسمية .

أما فى الآيات القصيرة ، سواء أكانت فى السور الطوال أو القصار ، أو المتوسطة الطول والقصر ، فتكون كلمة مكملة لمعنى الآية التى هى فيها معمولة من حيث الحكم النحوى لعامل فيها . وليس لها سمة الاستقلال لأنها ليست جملة .

وقد تكون جملة قصيرة خاطفة ، فعلية أُضمر فيها فاعلها . ويغلب مجئ هذه الفواصل فى السور القصار مما يسمونه « قصار المفصل » وما قارب ذلك .

ونذكر الآن بعض الأمثلة لهذين النوعين . ثم نحاول توجيه هذا الصنيع الأدبى توجيهاً بيانياً ، وبالله التوفيق ..

* *

• فواصل الآى الطوال :

قال الله تعالى من سورة البقرة : ﴿ قُلْ إن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّه خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ المَوْتَ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ ، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * قُلْ مَن كَانَ عَدُواً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُواً لِّلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [١] .

فهذه خمس فواصل فى خمس آيات وقعت الفاصلة فيها كلمة فى جملة مستقلة بعد استيفاء المعانى الرئيسية لكل آية . إلا فاصلة الآية الخامسة . فقد بنى المعنى الرئيسى عليها ودخلت فى أصل الدلالة .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [٢] .

وهاتان آيتان جاءت الفاصلة فيهما كذلك كلمة فى جملة أفادت معنى جديداً بعد استيفاء معنى ما تقدمها .

وقال فى سورة النساء : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ

(١) البقرة : ٩٤ - ٩٨ (٢) آل عمران : ٩٨ - ٩٩

بأمْوَالكُم مُّحْصنينَ غيْرَ مُسَافحينَ ، فَمَا اسْتَمْتَعْتُم به منْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَريضَةً ، وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيمَا تَرَاضَيْتُم به من بَعْد الفَريضَة ، إنَّ اللَّهَ كَانَ عَليماً حَكيماً * وَمَن لَّمْ يَسْتَطعْ منكُمْ طَوْلاً أن يَنكحَ المُحْصَنَات المُؤْمنَات فَمن مَّا مَلَكَتْ أيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتكُمُ المُؤْمنَات ، وَاللَّهُ أعْلَمُ بإيمَانكُم ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ، فَانكحُوهُنَّ بإذْن أهْلهنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بالمَعْرُوف مُحْصَنَات غَيْرَ مُسَافحَات وَلا مُتَّخذَات أَخْدَانٍ ، فَإذَا أُحْصنَّ فَإنْ أتَيْنَ بفَاحشَةٍ فَعَلَيْهنَّ نصْفُ مَا عَلَى المُحْصَنَات منَ العَذَاب ، ذَلكَ لمَنْ خَشيَ العَنَتَ منكُمْ ، وَأن تَصْبرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ * يُريدُ اللَّهُ ليُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْديَكُمْ سُنَنَ الَّذينَ من قَبْلكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴾ (١) .

فأنت ترى فى هذه الآيات الثلاث - وقد اختلفت فيما بينهما فى الطول - أن فاصلة كل آية منها مستقلة . فجملة الفاصلة فى الأولى : ﴿ إنَّ اللَّهَ كَانَ عَليماً حَكيماً ﴾ لأنها أعقبت تشريعاً خالصاً.

وفى الثانية : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحيمٌ ﴾ لأنها أعقبت تشريعاً فى حالات المخالفات التى توجب حداً يُقام على المخالف . وذلك يُشعر بوقوع الخطأ من بعض المكلّفين .

وفى الثالثة كانت الفاصلة : ﴿ وَاللَّهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴾ متفقة مع الأولى إلا فى حكم الإعراب لأنها أعقبت بياناً لما يريده الله من التشريع للناس ، والغاية العظمى للشارع من فرض الأحكام .

* *

(١) النساء : ٢٤ - ٢٦

● فواصل الآى القصار :

ذلك شأن الفاصلة الغالب عليها فى الآيات الطوال . وفى السور الطوال أو ما قاربها ، أما فى الآيات القصار أو ما قاربها - وكثيراً ما يقع هذا فى السور القصار أو ما قاربها - فإن الشأن مختلف .

فنجد الفاصلة فيها كلمة معمولة لعامل تقدم فى بناء الآية قبل استيفاء معناها الرئيسى فهى - إذن - داخلة فى تأديته . وإذا وردت الفاصلة فى هذه الحالات « جملة » فهى جملة قصيرة قد يكتفى فيها بذكر أحد ركنيها . وبضمر الثانى إن كانت فعلية وقد تتعلق بكلمة الفاصلة معمولات لها فتحذف تلك المعمولات . وتبقى الفاصلة ملحوظاً فيها ما أضمر أو ما حذف متعلقاً بها . وقد ينتظم هذا النهج سورة كاملة . وقد يقتصر على معظم آياتها .

هذا إجمال لا بد له من تفصيل ، ودعوى لا بد لها من دليل ، فلنأخذ فى سوق الأمثلة ، ولعل خير شاهد على ذلك سورة الواقعة ، فهى تكاد آياتها كلها تكون من هذا النوع و نكتفى منها بما يأتى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا * وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ (١) .

---

(١) الواقعة : ١ - ٢٦

هذه الآيات تمثل مطلع السورة ثم الحديث عن أحد الأزواج الثلاثة حديثاً تفصيلياً بعد الإشارة إليها إجمالاً فى صدر السورة .

والمتأمل يلحظ فى فواصل هذه الآيات - كما هو الشأن فى آيات السورة كلها تقريباً - أن دلالة الفاصلة جاءت جزءاً من المعنى الأصلى للآية . ومكملة له . وكلمة « الفاصلة » خاضعة فى الحكم النحوى لعامل فى الآية . إلا فى ثلاثة مواضع بدت فيها الفاصلة ذات دلالة مستقلة . وهذه المواضع الثلاثة : « .. ولا ينزفون » .. ثم « .. يتخيرون » ثم « يشتهون » وفيما عدا ذلك فإن الفاصلة تختلف ، فهى فاعل فى الآية الأولى . وهى صفة لمحذوف واقع اسماً لـ « ليس » فى الآية الثانية ، وهى صفة أو خبر بعد خبر فى الثالثة . ومفعول مطلق فى الرابعة والخامسة ، وصفة فى السادسة والسابعة . وهكذا تجد الفاصلة جزءاً أساسياً من الآية ودلالتها جزءاً من المعنى الأساسى الذى من أجله سيقت الآية .

وقبل سورة الواقعة . فإن « القمر » و « الرحمن » يغلب عليهما هذا الطابع لأن العِلّة - وهى قصر الآيات - مشتركة فى المواضع الثلاثة .

ومثل هذه السور سورة الغاشية : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ *

إلا مَن تَوَلَّى وكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (١) .

* *

● غرضان من سورة « الغاشية » :

هذه السورة تحقق لنا غرضين . أحدهما : أن فاصلتها - غالباً - كلمة معمولة نحوياً لعامل فى الآية ، فدلالتها - إذن - دلالة رئيسية بالنسبة للآية . إذ هى مضاف إليه فى الآية الأولى . والمضاف فاعل لحديث الذى هو المعنى الرئيسى فيها . لأنه المقصود بالتشويق بعد الاستفهام . وخبر أو صفة فى الثالثة ، وصفة لـ « نار » فى الرابعة ، ولـ « عين » فى الخامسة ، ومستثنى فى السادسة ، ومتعلق بـ « يغنى » فى السابعة .

وهكذا لو تتبعنا آى السورة كلها . وهذا هو الشأن الغالب فى فواصل الآيات القصار أن تكون كلمات مفردة لها دور أساسى فى تصوير المعنى الرئيسى فى الآية أو المعانى الرئيسية إذا تعددت معانيها .

وثانيهما : أن خمس آيات منها جاءت فاصلتها جملة وهى لم تخرج عن أداء الدور الأساسى فى بيان المعنى الرئيسى كذلك . والذى نلاحظه عليها أنها جملة قصيرة قد أضمر فيها فاعلها . وتلك الآيات هى :

﴿ أفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ * إلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ (١) ، فهذه الآيات الخمس جاءت فاصلتها جملة قصيرة ذكر أحد ركنيها « الفعل » ، وأضمر فيها الثانى : نائب الفعل فى أربع ، والفاعل فى واحدة .

---

(١) الغاشية : ١ - ٢٦ (٢) الغاشية : ١٧ - ٢٣

بقى النوع الثالث من هذه الفواصل . وهو ما تعلق فيه بكلمة الفاصلة معمولات غير الفاعل . وحذفت مقدراً ذِكرها ، أو ذُكِرت ومع ذكرها لم تطل جملة الفاصلة بل حافظت على سرعة إيقاعها وقصرها .

وظاهر من هذا العرض أن هذا النوع على ضربين . أولهما : ما ذُكرت فيه تلك المتعلقات وأمثلته كثيرة . منها قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ (٢) .

بنيت فواصل هذه السورة جميعها على الهاء الذى هو ضمير المؤنثة الغائبة وقد اختلف موقع هذا الضمير من الإعراب لكنه لا يخرج عن حالتين :

الأولى : أن يكون فى محل الجر بالإضافة .

الثانية : أن يكون فى محل النصب على المفعولية - وهذا هو الغالب عليه - وهو فى الحالتين معمول لعامل أساسى فى بناء الآية . ومثل هذه السورة فى اتحاد الفاصلة على حرف واحد سورة « الناس » .

وثانيهما : وهو ما حذف فيه المتعلق ومثاله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (٣) .

« وهذا النوع أقل وروداً من سابقه . وهو موجود متناثراً مع غيره من

(١) الحاقة : ٣٠ - ٣٢ (٢) سورة الشمس كاملة . (٣) الضحى : ٦ - ٨

الفواصل من النوع الأول ومثله : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (٣) .

● والسر فيما أرى :

ولعل السر البيانى فى نظام الفواصل السابقة على النحو الذى شرحناه ما يلى:

أولاً : أن السور القصيرة تشتمل على آيات قصيرة كذلك ، والآية القصيرة تهدف إلى بيان معنى واحد أو عدة معان سريعة التصور والإدراك . وهى بذلك ليست مجالاً لذكر الأفكار الطويلة التى تحتاج إلى إطالة بناء الجملة أو الآية التى تصورها . ومن هنا فإن الفكرة الأساسية تتطلب انتظام جميع الألفاظ لتأدية تلك الفكرة الخاطفة الموجزة ، أما فى الآيات الطوال - كما فى آية التداين من سورة البقرة - فإن الفكرة فيها ذات أصول وفروع . وهى أصل من أصول التشريع عالجت مشكلة كثيراً ما تحدث للناس فلم تترك فيها ثغرة أو تهمل جانباً ، ومثل هذه المعانى المتشابكة حرى بأن يعقب بجملة أو أكثر تؤكد تلك المعانى أو تحث عليها . أو توبخ المخالفين لها . ومن الخير أن نذكر الآية التى اتخذناها مقياساً هنا لتعدد المعانى وكثرتها .

● نص آية التداين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ،

---

(١) الأعلى : ٢ - ٣ (٢) النازعات : ٢٣ (٣) سورة الفلق كاملة .

فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذى عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِن كَانَ الَّذى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ ، فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ ، وَلَا تَسْأَمُواْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِه ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّه ، وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ، إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُواْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ، وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● تحليل آية « التداين » :

فانظر كم مسألة تشريعية عالجتها الآية . وكم معنى صوَّرته . ولم تنس أن تُبيِّن علل بعض الأحكام الواردة فيها كعلّة اشتراط اجتماع المرأتين فى الشهادة مع الرجل الواحد وهى أن تُذكِّر إحداهما الأخرى إذا ضلّت . وذلك حرص من الإسلام على صيانة المرأة حيث لم يبح للرجل - وهو شريك لها فى شهادة الواقعة - أن يذكرها . فاحتاط لذلك بشهادة اثنتين لهذا الغرض . وكاشتراط الرضا بشهود الواقعة من الطرفين المتعاقدين وكبيان العلّة فى التشريع نفسه فهو أقسط عند الله . وأقوم للشهادة وأدنى ألا نرتاب فى نفى الحق أو أجله المضروب . وقد مزجت الآية التشريع فى المعاملات بالتوجيه الأخلاقى فى مواضع كثيرة منها .

---

(١) البقرة : ٢٨٢

ولذلك احتاجت الآية إلى فاصلة مستقلة . وقد مهّد لها - أى لهذه الفاصلة - بما هو فى قوة الفاصلة : ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● دليل يؤيد هذه الفكرة :

ويؤيد هذه الفكرة أن الغالب فى الآيات القصار أن سورها مكية النزول . وللقرآن فى مكة مجال غير مجاله فى المدينة . فالقرآن المكى كان يهدف إلى محاربة الضلال فى العقيدة والسلوك فجاء بموضوعات تخدم هذا الغرض من التبشير والإنذار . والترغيب والترهيب . لذلك كانت آياته قصيرة العبارة حادة سريعة الإيقاع عنيفة الوقع . وفى المدينة كان مجاله التشريع وإرساء قواعد المجتمع الإنسانى من حيث العبادات والمعاملات والأخلاق الإنسانية فاتجهت سوره وآياته إلى الطول والاستقصاء إلا أن يخاطب اليهود أو المنافقين فيكر .

والدعوة إلى الإسلام فى بدء أمرها كانت لا تطلب من الناس وقوفاً طويلاً لتأملها فساقت لهم الإرشاد والتوجيه الإلهى فى سورة وآيات قصار لسهولة فهمها وسرعة استيعابها . لأنه كان بصدد تربية أمة خالية من أُسس التربية القويمة فخاطبتهم بأوضح العبارات وأوجز المعانى كما يُفعل الآن فى تربية النشء حيث يتدرج معهم المربى من تصور وإدراك الحرف الواحد . إلى الكلمة الواحدة السهلة التركيب إلى الجملة القصيرة وما يزال يرقى بهم من طور إلى طور حتى يصل بهم إلى فهم الفقرات ودراسة النصوص .

والمتأمل فى قصار السور المكية يتبين هذه الحقيقة دون ما شك أو ريب . وسبحان اللّه إذ يقول : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) البقرة : ٢٨٢ (٢) القمر : ١٧

٣ - ألفاظ القرآن :

لألفاظ القرآن جانب كبير فى سموه فوق أنماط التعبير الأخرى . وتقوم هذه الألفاظ القرآنية على اعتبارات لم تتحقق لغيرها . لذلك فإن النظر فيها لم يقتصر على جانب واحد ، بل يجد الباحث المجال فسيحاً أمامه حين يعمد إلى دراسة ألفاظ القرآن . ولذلك فإننا نحدد منذ الآن الجوانب التى سندرسها فى هذا البحث الذى خصصناه لدراسة اللفظ القرآنى وتلك الظواهر يمكن إجمالها فى الآتى :

(أ) روعة اللفظ القرآنى فى نفسه .

(ب) إصابته المقتل فى الدلالة على معناه .

(جـ) خاصته التعبيرية فى القرآن .

وجدير بالذكر أن هذه الجوانب سيأتى الحديث عنها ممزوجاً بعضه ببعض . على أن نشير إلى كل ظاهرة حين ورودها فى النماذج التى سنذكرها لبيان قيمة الألفاظ القرآنية الجمالية ودورها فى قضية الإعجاز ...

● روعة اللفظ القرآنى فى نفسه :

« القرآن يتأنق فى اختيار الألفاظ . ويستخدم كلا حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة دون سواها ولذلك لا تجد فى القرآن ترادفاً . بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً .

فالألفاظ فيه قوية عنيفة فى مقام التهديد والوعيد ، رقيقة عذبة فى مجال الترغيب والتهذيب . وهادئة حسنة فى مقام التشريع والتفريع [١] .

---

(١) بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوى - ط . نهضة مصر ص ٥٧ (بتصرف) .

ولهذا فإنك لا تجد فى القرآن كلمة معيبة من حيث الصورة أو الاستعمال . ولا تجد فيه لفظاً قلقاً مضطرباً أو نابياً فى موضعه . إلى آخر تلك العيوب التى يرددها نقاد الشعر وخبراء الأساليب.

وسلامة اللفظ القرآنى من العيوب نعنى بها أن الألفاظ فى القرآن مختارة منتقاة لم يأت لفظ فيه حيثما اتفق . بل تدبير حكيم عليم . وإلى جانب إنتقاء اللفظ القرآنى من حيث صورة اللفظ نفسه - حروفه وحركاته وسكناته - فإن القرآن يؤثر استخدام الألفاظ القصار الثلاثية الأصول أو الرباعية الأصول . والثلاثية الأصول فيه أوفر عدداً من الرباعية .

« أما أن اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد منه فى القرآن شئ . لأنه مما لا وجه للعذوبة فيه . إلا ما كان من اسم عُرِّب ولم يكن فى الأصول عربياً . كإبراهيم .... وإسماعيل .... وطالوت ... وجالوت .. ونحوها . ولا يجئ فيه كذلك إلا أن يتخلله المد كما ترى . فتخرج الكلمة وكأنها كلمتان » (١) .

وتحقيقاً لهذه الصفة - إنتقاء الألفاظ وعذوبتها فى القرآن - فإن القرآن يعمد إلى تهذيب ما قد يُعاب من اللفظ إذ دعا داع بلاغى لوروده فيه . ولهذا فإنك ترى فى القرآن كلمات يشهد الذوق بحسنها لأنها هُذِّبت ووُضعَت وضعاً مُحْكماً فيه . بينما تراها فى غيره معيبة شاذة .. وذلك بشهادة النقاد أنفسهم . وليس ذلك مجاملة منهم للقرآن لما له من قداسة ، بل لأسباب فنية أوضحوها ووجَّهوا إليها الأنظار .

* *

● ألفاظ حسنت فى القرآن وعيبت فى غيره :

من ذلك كلمة « مقاعد » . فقد عابها النُقَّاد فى شِعر الشريف الرضى حيث قال :

---

(١) إعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعى ص ٢٦٠ - ٢٦١

أعْزِزْ علَيَّ بِأنْ أرَاكَ وَقَدْ خَلَتْ   مِنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدُ العُوَّادِ

قال ابن سنان الخفاجى ينقده : « فإيراد - مقاعد - فى هذا البيت صحيح . إلا أنه موافق لما يُكره ذكره فى مثل هذا الشأن . لا سيما وقد أضافه إلى مَن يحتمل إضافته إليهم .وهم العُوَّاد . ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلاً . فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لا خفاء فيه » [١] .

ونقد ابن سنان لهذه الكلمة وجيه لا أظن أحداً يخالفه فيه لأن المقام يقتضى العدول عن مثل هذه الكلمة جرياً مع الذوق وصحة المعنى .

والأساس الذى بنى عليه الخفاجى نقده هو أن الكلمة يُشترط فى فصاحتها - عنده - ألا يسبق التعبير بها عن معنى يُكره ذكره . وقد حكم بسلب الفصاحة عن كثير من الكلمات نزولاً على هذا الاعتبار .

وقد وردت هذه الكلمة - مقاعد - فى القرآن الكريم عذبة رشيقة . وذلك فى مواضع منها : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ [٢] ،
وقوله : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [٣] .

فالمقاعد - هنا - فى الموضعين بمعنى المنازل ، ولا يمكن أن يُفهم منهما المعنى الذى من أجله كره النقاد استعمال هذه الكلمة . لأنها لم تضف إلى ما يمكن أن يُفهم من إضافتها إليه ذلك المعنى المستكره .. وذلك سر الجمال فى هذين الموضعين [٤] .

ومن ذلك - أيضاً - كلمة « تؤذى » . فقد عابوها فى قول المتنبى :

تَلَذُّ لَهُ المرُوءَةُ وَهِىَ تُؤْذِى   وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لَهُ الغَرَامُ

---

(١) سر الفصاحة ص ٧٥ - ٧٦
(٢) الجن : ٩
(٣) آل عمران : ١٢١
(٤) سر الفصاحة - نفس الموضع

والسبب أن الشاعر قطع الكلمة - وهى ثقيلة - عن الإضافة على العكس من كلمة « مقاعد » فإن عيبها جاء من إضافتها . ولو أضافها لخفف من ثقلها .

وقد جاءت فى القرآن فى مواضع هى فيها حسنة رائقة . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُم كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِ مِنكُمْ ﴾ (١) . « لذلك كانت هذه الكلمة . - هنا - أجمل منها فى بيت المتنبى . والحكم فى ذلك للأذن الموسيقية » (٢) .

فالقرآن - كما ترى - استعمل الكلمة واقعة على مفعول « النبى » فخفت ورشقت وهى فى قول المتنبى مقطوعة عن الإضافة .

ومن ذلك كلمة « ضِيزىٰ » ، وهى أغرب ما فى اللغة من كلمات . بله القرآن ، ولقبح هذه الكلمة لم يستعملها عربى فيما وصل إلينا من أقوالهم وأشعارهم . ومع ذلك فإنك تجد لها من الحسن فى القرآن أضعاف ما ترى لها من القبح والغرابة فى غيره .

قال تعالى فى سورة النجم موبخاً أهل الشرك : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ (٢) .. « ولحسن هذه الكلمات فى هذا الموضع عدة اعتبارات :

١ - أن السورة التى وردت فيها فاصلة لإحدى آيها الفية الفواصل ، فجاءت الكلمة ذات نغم صوتى ملتئم . مع فواصل الآى الأخرى . ولو وضع موضعها « جائرة » وهى قسيمتها فى الدلالة لجارت على الموضع وفاتت المناسبة وحسن الجوار . فجئ بها - أى ضيزى - لذلك الالتئام والتناسق الصوتى الذى لا يخفى أثره .

---

(١) الأحزاب : ٥٣ (٢) النقد الأدبى - أحمد أمين : ٥٦/١

(٣) النجم : ٢١ - ٢٢

٢ - أنها جاءت معلقة على سلوك معيب حيث جعلوا لله الإناث - سبحانه - ولهم الذكور ، مع الإصرار على قتلهم البنات .

٣ - أن الآية الأولى : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴾ [١] اشتملت على استفهام إنكارى . والآية الثانية : ﴿ تِلْكَ إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ اشتملت خاتمتها على التهكم . وهما معنيان متناسبان ، أولهما كالمقدمة لثانيهما . وهذه الكلمة الغريبة - ضِيزَىٰ - أليق ما تكون دلالة على التهكم . لأنها وضعت حالة المتهكم فى إنكاره من إمالة الرأس واليد بهذين المدين منها إلى الأسفل والأعلى . وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية .

٤ - وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة نفسها . وائتلافها مع ما قبلها إذ هى مقطعان أحدهما مد ثقيل ، والآخر مد خفيف . وقد جاءت عقب غنتين فى « إذن » و« قسمة » إحداهما خفيفة حادة ، والأخرى ثقيلة متفشية . فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع موسيقى . وهذا معنى رابع للمعانى الثلاثة الأول » [٢] .

٥ - وخامس هذه المعانى أن هذه الكلمة الدالة على المعانى الأربعة المذكورة إنما هى أربعة أحرف أيضاً [٣] .

* *

● سمات أخرى لحسن اللفظ فى القرآن :

ومن مظاهر تهذيب الألفاظ فى القرآن أن الحركات النحوية والصرفية . تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف والكلمات فيما يثبت لها من أمر الفصاحة . إذ يهيئ بعضها لبعض . ويمهد له ، حتى إن الحركة الثقيلة لسبب من أسباب الثقل المعروفة تعذب وتستساغ فى التركيب القرآنى .

---

(١) النجم : ٢١ (٢) إعجاز القرآن - للرافعى .

(٣) نقلنا هذه الدراسة فى شئ من التصرف من كتاب « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » للرافعى ، ص ٢٦٢

وذلك مثل كلمة « النُذُر » فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَاوَرُاْ بِالنُذُرِ ﴾ [١] ، فكلمة « النُذر » ثقيلة منفرة . بما فيها من تشديد النون ، وتوالى الضمات . فكان التمهيد فى صدر الآية لذلك بالقلقلة فى الدال من « لقد » والطاء من « بطشتنا » وبثلاث عشرة فتحة متناثرة على الحروف من واو « ولقد » إلى راء « فتماروا » ، وبالمد فى ألف « بطشتنا » كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات . وترويض للسان عليه ليكون ثقل الضمة مستخفاً بعد ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض فى الأطعمة .

وقد جاءت راء « تماروا » مساندة لراء « النُذُر » حتى إذا انتهى اللسان من هذه انتهى إلى مثلها . فتخف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه . ثم انظر لتلك الغنة التى سبقت الطاء فى نون « أنذرهم » وفى ميمها . وللغنة الأخرى التى سبقت الذال فى « النُذُر » [٢] .

وقد تمهد الحروف لإيثار كلمة على أخرى تشترك معها فى أصل الدلالة . ومن ذلك فيما يبدو قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ ﴾ [٣] .. حيث لم يقل « فى بطنه » .

كما فى قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً ﴾ [٤] ، وكان يمكن أن تقول : « فى جوفى » وذلك لأن حرف الجيم تكرر فى الآية الأولى مرتين - كما ترى - فناسب ذلك إيثار الكلمة التى تبدأ بالجيم « جوفه » على ما خلت منه « بطنه » ، وقد غفل أحد الباحثين عن هذا التوجيه عند حديثه عن الفروق بين الكلمتين فى الاستعمال القرآنى [٥] .

---

(١) القمر : ٣٦

(٢) إعجاز القرآن - للرافعى - نفس الموضع .

(٣) الأحزاب : ٤

(٤) آل عمران ٣٥

(٥) هو أحمد أمين : نظر النقد الأدبى جـ ١

ومن مظاهر التهذيب فى ألفاظ القرآن أن ما يختل فيه شرط الفصاحة بالطول من الكلمات يأتى عذباً جميلا فيه لبناء تلك الكلمات فى أسلوبه على نسق بديع يجنبها ثقل التطويل .

ففى القرآن كلمتان بلغت حروف إحداهما عشـــرة أحرف وهـى : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ (١) ومثلها ثقيل على اللسان ناب فى السمع ، أما هى فقد وقعت موقعاً عذباً لا ثقل فيه ولا نبو وذلك لأن مخارج حروفها فيما بينها متباعدة . ونظم حركاتها ساحر . إذ تتكون من أربعة مقاطع - ينتهى كل مقطع بسكون يسكن معه النفس فتخرج الكلمة متجزئة كأنها أربع كلمات لا كلمة واحدة .

والكلمة الأخرى بلغت حروفها تسعة أحرف . وهى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾(٢) ، وجاءت ذات ثلاثة مقاطع . وقد تكرر فيها الياء والكاف . وتوسط الكافين مد هو سر الفصاحة فى الكلمة كلها . لأنه خفف من اجتماع المثلين . كما فصل بين اليائين بالكاف الأولى والفاء . وانتهى كل مقطع من مقاطعها الثلاثة بالسكون كذلك . فنزلت منزلة ثلاث كلمات ، كما ترى . وعذبت رغم طولها .

* *

● سياسة لغوية :

وهذا - أعنى سكون المقاطع - سياسة لغوية مطلوبة فى تهذيب بعض الألفاظ التى يُلمح فيها نوع من الثقل بسبب الطول . أو توالى الحركات . ألا ترى أن النحاة يلجأون إلى مثل هذا حينما يُسكِّنون ما أصله التحريك فراراً من ذلك الثقل . وبذلك حكموا بتسكين آخر الماضى إذا اتصل به ضمير رفع متحرك مثل : « ذهبت » . وعِلَّتهم فى ذلك كراهة توالى أربعة متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة .

---

(١) النور : ٥٥　　　(٢) البقرة : ١٣٧

ولك أن تقيس على هاتين الكلمتين فى سياسة التقطيع والتسكين فى المقاطع كلمتين أخريين جاءتا فى القرآن إحداهما ذات عشرة أحرف - مثل الأولى - والثانية ذات سبعة أحرف .

أما الأولى فهى قوله تعالى : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (١) ، وأما الثانية فهى قوله تعالى حكاية عن إبليس يخاطب أولياءه يوم القيامة : ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ (٢) .

ولك أن تدير اللسان بهما جميعاً فهل تجد من ثقل أو نبو ، إن اللسان ليكرهما كراً وقد مُهِدَ السبيل له ليسهل عليه ذلك الكر .

* *

● توجيه القرآن لانتقاء الألفاظ :

وأعجب العجب أن القرآن لا يكتفى بانتقاء الألفاظ فى نماذجه . بل هو يشرع فى ذلك صراحة وينبه إلى خطأ وقع لاستعمال اللفظ فى غير موضعه ويرشد إلى بديله . وذلك فى موضعين فيه :

أحدهما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ ، وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

وثانيهما قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ، وَإِن تُطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

ولقد أبانت كتب التفسير سر هذا الخطأ فى الموضعين . ففى سورة البقرة نهى القرآن المسلمين أن يقولوا : « راعنا » . لأن هذه الكلمة كانت لليهود كلمة

---

(١) هود : ٢٨ — (٢) إبراهيم : ٢٢

(٣) البقرة : ١٠٤ — (٤) الحجرات : ١٤

مثلها يستعملونها فى السب . وأصلها كلمة عبرانية معناها « أحمق » ، فلما سمع اليهود المسلمين يقولون هذه الكلمة افترصوها ، ومن هنا ورد النهى عنها وجئ لهم بلفظ يعدله فى المعنى لا شُبهة فيه لأحد ، وهو « أنظرنا » لعدم التشبه باليهود فيما يقولون . ولكى يسد عليهم منافذ الطعن والسباب [1] .

فالخطأ – هنا – مُلاحَظ فيه تنزيه مخاطبات المسلمين عما يردده أعداؤهم من اليهود مما له معنى مشين .

أما الخطأ فى قول الأعراب : « آمَنَّا » فإنَّ اللغة والشرع يفرقان بين معنى اللفظين ، فالإيمان الذى اشتقوا منه الفعل « آمَنَّا » مطلوب فى تحقيقه أمران : نطق باللسان ، وتصديق بالقلب ليواطئ القول الاعتقاد . وهم لم يكونوا كذلك لأن نصيبهم من الشريعة حين ادعوا ذلك لا يجاوز القول باللسان والمتابعة الظاهرين بدليل : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [2] .

وحالهم هذه ينطبق عليها معنى الإسلام – الذى اشتق القرآن منه فى توجيههم « أسلمنا » – إذ هو حقيقة الامتثال الظاهرى للشريعة من قول أو عمل . لذلك وجههم القرآن إلى أن يقولوا قولاً مطابقاً لحالهم وهو « أسلمنا » [3] .

* *

● ملحظ بيانى دقيق :

والخطأ هنا لغوى اصطلاحى كما ترى .

وفى الآية ملحظ بيانى دقيق إذ أمر اللّه رسوله أن يقول لهم : « لم تؤمنوا » وعَطْف قوله تعالى : « ولكن قولوا أسلمنا » يقتضى أن يكون المعطوف عليه : «لا تقولوا أمنَّا » ليعطف القول على القول . وإنما عدل عنه كراهة أن يقع النهى

---

(١) كشاف الزمخشرى : ١/ ١٣٠.
(٢) الحجرات : ١٤
(٣) انظر المصدر نفسه : ٤/٢٩٩

بحال على ما هو محمود ومطلوب [١] . ولذلك لم يأت مما شأنه كذلك إلا مع القرينة القوية الصارفة عن كل وهم مثل قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبُواْ الصَّلَاةَ وأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [٢] ، وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [٣] .

* *

● ايثار أحد اللفظين للمناسبة :

ولعل من روائع اختيار القرآن لألفاظه ما ذكره ابن أبى الإصبع فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ ﴾ [٤] فإنه سبحانه وتعالى لما نفى عن رسوله وحبيبه ﷺ كونه بالمكان الذى قضى له فيه بكلمة الأمر ، عرَّف المكان بالجانب الغربى . ولم يصفه بـ « الأيمن » كما قال فى أمر موسى عليه السلام : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ من جَانبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ﴾ [٥] أدباً منه سبحانه وتعالى مع نبيه ﷺ أن ينفى عنه كونه بالجانب الأيمن .

فالمكان الذى نودى من منه موسى عليه السلام يمكن أن يدل عليه بوصفين : كونه الجانب الأيمن ، وكونه الجانب الغربى . فآثر القرآن فى الإخبار عن موسى « الجانب الأيمن » فى تعريف المكان لأنه كان قاراً عليه . وفيه قضى إليه ربه أمر الرسالة ، ففى ذلك تشريف له .

وكان فى خطاب محمد ﷺ التعريف بالجانب الغربى لأنه لم يكن قاراً عليه والكلام مسوق لنفى الكينونة . واستعمال الجانب الغربى دون الجانب الأيمن فى حال نفى للكينونة أليق بمقام الرسول الكريم لخلوه من نفى كونه بالأيمن . ففى العبارة أعجب احتراس كما يقول ابن أبى الإصبع » [٦]

* *

---

(١) استقينا هذا التوجيه من المصدر نفسه مع التصرف . (٢) النساء : ٤٣
(٣) الماعون : ٤ - ٥ (٤) القصص : ٤٤ (٥) مريم : ٥٢
(٦) بديع القرآن - تحقيق الدكتور محمد حنفى شرف ص ٩٤ (بتصرف) .

● كنايات القرآن عما يقبح التصريح به :

ومن شواهد اختيار اللفظ فى القرآن الكريم أنه يُكَنِّى عما يكون بين الرجل وزوجه بألفاظ غاية فى النزاهة والشرف . فمرة يُكَنِّى عنه بالإتيان . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ (١) .

ومرة يُكَنِّى عنه بالرفث . قال : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ (٢)

وأخرى بالتغشية . قال : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ (٣) .

وتارة بالقربان . قال : ﴿ .. وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ .... ﴾ (٤) .

وأخرى باللمس ، قال : ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (٥) .

كما كنى عنه بالمس وذلك فى الموضعين الآتيين : ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ (٧) .

وظاهر أن هذه الإطلاقات إنما هى فى جانب الحلال . ومثلها التكنية عنه بالنكاح فى مواضع كثيرة . كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (٨) .

ويطول بنا الحديث لو رحنا نذكر مواضع ورود هذه الكلمة فلنكتف بهذا المثال.

---

(١) البقرة : ٢٢٣ (٢) البقرة : ١٨٧ (٣) الأعراف : ١٨٩

(٤) البقرة : ٢٢٢ (٥) النساء : ٤٣ (٦) آل عمران : ٤٧

(٧) مريم : ٢٠ (٨) النساء : ٣

والنكاح فى عُرف الفقهاء فيه مذهبان : حقيقة فى الوطء . مجاز فى العقد أو العكس ، وجاء فى مفردات الراغب : « أصل النكاح للعقد ، ثم استُعِير للجِماع . ومحال أن يكون فى الأصل للجِماع ثم استُعِير للعقد . لأن أسماء الجِماع كلها كنايات لاستقباحهم ذِكره كاستقباح تعاطيه . ومحال أن يستعير مَن لا يقصد فحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه »[1] .

فالراغب يمنع أن يُراد بالنكاح غير العقد حقيقة . والاستعمال القرآنى لا يمنع من إرادة هذا المعنى . فالنكاح فيه صالح لحمله على كلا المعنيين : العقد والوطء . وقد يقوى حمله فيه على الوطء مثل قوله تعالى : ﴿ ... فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾[2] ، إذ يرى الفقهاء أن الزوج الثانى لا يحللها للأول بمجرد العقد عليها . بل لا بد من الخلوة بها . ويقوى من هذا المعنى قوله ﷺ لامرأه تسأل هل تحل لزوجها الأول بدخول الثانى دون الوطء : « لا .. حتى تذوقى عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتك » .

ومن أبدع تعبيرات القرآن عن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِراً ﴾[3] ، فإن السر مجاز عن الوطء . والوطء مجاز عن العقد ولذا فهم يسمونه مجاز المجاز[4] .

والعلاقة فى الأول الملازمة . لأن الوطء لا يحدث إلا سراً ، وفى الثانى المسببية لأن الوطء مسبب عن العقد . كما يُطلق عليه المباشرة قال : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾[5] .

ذلك فى جانب الحلال . أما فى جانب الحرام فقد شاع استعمال كلمة « الزنا » وهى كلمة لا ابتذال فيها وتقابل كلمة « النكاح » فى جانب الحلال . قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَا ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[6] . وقد تستعمل

(١) المفردات ص ٥٠٦ (٢) البقرة : ٢٣٠. (٣) البقرة : ٢٣٥

(٤) معترك الأقران فى إعجاز القرآن : ٢٦٨/١

(٥) البقرة : ١٨٧ (٦) الإسراء : ٣٢

كلمات أخرى فى الدلالة على هذا المعنى مثل الفاحشة والبهتان والبغاء والسوء والسفاح والإفك . قال : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ (٦) .

قارن بين كنايات النوعين - الحلال والحرام - تجد ما أطلقه القرآن على الحلال كلمات تبعث فى النفس الرغبة والارتياح . وما أطلقه على الحرام كلمات تثير فى النفس شعور النفرة والارتياع ، ومتى بلغ أسلوب ما هذه المنزلة من التأثير القوى كان نموذجاً ناجحاً وأدباً رفيعاً . فما بالك بالقرآن وهو فى أعلى درجات البلاغة والقوة .

* *

● شُبه مردودة :

ولعل قائلاً يقول : إذ حالفكم التوفيق فيما ذكرتموه من نزاهة ألفاظ القرآن وشرفها فيما سقتم من أمثلة . فماذا تقولون فى ذكر القرآن « الفَرْج » و « الفروج » مراداً بها مواضع يُكره ذكرها ؟ وماذا تقولون فى قوله تعالى : ﴿ ... أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُمْ مِّنَ الغَائِطِ ﴾ ؟ (٧) .

---

(١) النساء : ١٥ — (٢) النساء : ١٥٦ — (٣) النور : ٣٣

(٤) يوسف : ٢٥ — (٥) المائدة : ٥ — (٦) النور : ١١

(٧) النساء : ٤٣

وللإجابة على هذه الشُبه نقول :

وردت كلمة « الفرج » فى القرآن الكريم مراداً بها موضع العرض فى المواضع الآتية : ﴿ وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

ومثل هذه جاء قول تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (٢) .

وهاتان الآيتان فى شأن مريم لإثبات العفة لها . وصونها عن كل قبيح فهما إخبار عن أمر قد كان .

وقريب منه فى الإخبار عما هو واقع قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٣) .. وقد وردت هذه الآية مرتين فى القرآن الكريم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ (٤) .

ووردت هذه الكلمة فى سياق أمر تشريعى على طريقة الإنشاء لا الإخبار عما وقع ولا عن ما هو واقع . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (٥) .

كما وردت فيه مراداً بها غير هذا المعنى . قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (٦) .

---

(١) الأنبياء : ٩١ (٢) التحريم : ١٢ (٣) المؤمنون : ٥ ، والمعارج : ٢٩

(٤) الأحزاب : ٣٥ (٥) النور : ٣٠ - ٣١ (٦) سورة ق : ٦

وقال : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ (١) .

وظاهر من الآيتين الفرق بين المعنى الذى تعنيه الآيات الأولى .. والمعنى الذى تعنيه هاتان الآيتان . إذ المراد فيهما بـ « الفروج » : الشقوق والفتوق (٢) .

* *

● وجوه الرد :

وليس ورود هذه الكلمة فى القرآن بخارج عما ثبت لألفاظه من النزاهة والشرف وذلك لعدة أمور :

أولاً : أنَّ هذه الكلمة لم توضع وضعاً خاصاً للدلالة على موضع العِرض . بل هى كناية عنه شاعت فيه حتى قربت من الحقيقة العُرفية .

هذا لأن الكلمة فى اللغة تقع مشتركاً لفظياً بين عدة مسميات . وقد جاء فى المفردات : « الفرج ، والفرجة : الشق بين الشيئين كفرجة الحائط . والفرج ما بين الرجلين وكنى به عن السوأة حتى صار كالصريح فيها . قال تعالى : ﴿ وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ (٣) ، ﴿ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (٥) واستعير الفرج للثغر . وكل موضع مخافة .. وقوله : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (٦) أى شقوق وفتوق ، قال : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ (٧) : أى انشقت . والفَرَج : انكشاف الغم ، يقال : فرَّجَ اللّٰه عنك . ورجل فرج : لا يكتم سره ... » (٨) .

فأنت ترى من هذا العرض أن هذه المادة : « فرج » تُطلق على عدة معان . وموضع العِرض من الإنسان واحد منها ، وقد علمنا أن إطلاقها عليه من قبيل

---

(١) المرسلات : ٩ (٢) مفردات الراغب مادة « فرج » . (٣) الأنبياء : ٩١
(٤) المؤمنون : ٥ (٥) النور : ٣١ (٦) سورة ق : ٦
(٧) المرسلات : ٩ (٨) مفردات الراغب مادة « فرج » ص ٢٧٥

الكناية لا التصريح . وأن عِلّة الإطلاق ملحوظة فيه بحسب الوضع العام فى اللغة .

ثانياً : أنَّ هذه الكلمة لم تُستخدم فى القرآن إلا فى سياق الإحصان أو الحفظ بحسب ما كان كما فى الحديث عن مريم ابنة عمران . أو بحسب ما هو كائن كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (١) . أو بحسب ما ينبغى أن يكون كقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ﴾ (٣) .

ثالثاً : أنَّ ورود هذه الكلمة فى القرآن إما فى موضع مدح أو تشريع ، المدح فيما كان أو فيما هو كائن . والتشريع فيما ينبغى أن يكون ، فلذكرها - إذن - داع قوى لأنها فى مقام المدح - حيث قرنت بالإحصان أو الحفظ - هى دليل العفة التى من أجلها كان المدح .

ولأنها فى مقام التشريع : الموضع الذى يجب أن يُصان ويُحفظ فصرَّح بها اعتناءً بأمرها وحتى لا يحتمل المقام سواها .

أما قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ ﴾ (٤) : فإن « الغائط » هو المكان الذى تُقضى فيه الحاجات ، فالتعبير كنائى - كما ترى - والمقام مقام تشريع ، ومع هذا فقد عدل القرآن عن الاسم الصريح إلى ما هو وارد مورده حفظاً للفظه من الابتذال . ولو فعل لكانت الضرورة التشريعية خير مبرر .

ثم انظر إلى قوله تعالى فى شأن آدم وحواء حين أضلهما الشيطان فأكلا من الشجرة التى حرَّمها الله عليهما : ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا

---

(١) المؤمنون : ٥
(٢) النور : ٣٠.
(٣) النور : ٣١
(٤) النساء : ٤٣

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ ﴾ (١) ، فإنَّ الأكل كان سبباً فى التبرز فعدل عنه إلى ذكر السوءات .

ويبدو فى هذا التعبير لون من القسوة لأن المقام مقام معصية وعقاب فهل ترى أدباً فى الحديث أروع من هذا الأدب .

* * *

● إصابة اللفظ القرآنى :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ ﴾ (٢) فقد آثر الاستواء على غيره ولم يقل : رست أو استقرت ، لأن الاستواء يدل على معنى لا يدل عليه واحد من نظيريه المذكورين .

فالاستواء يدل على الاستقرار أو الرسو المطمئن مع اعتدال الوضع . أما الرسو والاستقرار فقد يكونان على غير وضع الاعتدال كأن ترسو السفينة أو تستقر وهى منكسة مثلاً على الشاطئ .

والاستقرار المعتدل الوضع هو المعنى المطلوب فى جانب نجاة المؤمنين من الهلاك وسلامتهم من الطوفان .

ونفى التنكس - مثلاً - مطلوب فى مكان عَمَّ الطوفان فيه وجه الأرض . وغمر الماء النازل من السماء ، والمتفجر من الأرض كل سهل ووعر . لئلا يقع فى الظن أو الاعتقاد أن تكون السفينة قد تعرضت لشئ من الصعوبات ، والله قد صوَّر لنا خطورة المجرى إذ يقول : ﴿ وَهِيَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ (٣) .

لذلك كان إيثار لفظ « الاستواء » على غيره أنسب لمقتضى الحال . حتى يعلم المخاطَبون كيف صنعت عناية القادر بعباده المؤمنين .

* * *

---

(١) طه : ١٢١ (٢) هود : ٤٤ (٣) هود : ٤٢

● طريق الدلالة فى اللفظ القرآنى :

إن القرآن حين يختار لفظاً تجده دالاً على معناه بالجرس ، أو بالظل - أو بالجرس والظل معاً - وفى هذا المنهج يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأوقع من الفصاحة اللفظية . اللذين يحسبهما بعض الباحثين فى القرآن أعظم مزايا القرآن [١] .

والفروق بين هذه المواضع جد دقيقة .قد يصعب العزل بينها . ولكنها سمة من سمات التعبير القرآنى .

ولنأخذ - الآن - فى ذكر بعض النماذج :

● الظل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [٢] .

الهدف من الآية : بيان أن المكذّبين بأيات الله والمستكبرين عن عبادته لن يحظوا بالقبول عند الله . ولن يدخلوا الجنة ، وقد رتب حصول هذه المنافع لهم على أمر مستحيل هو دخول الحبل الغليظ فى الثقب الدقيق لآلة الخياطة . والمرتب على المستحيل مستحيل كذلك .

لكنه لم يذكر لفظ « الحبل » بل وضع موضعه لفظ « الجمل » وهو مشترك لفظى بين الحبل والحيوان الضخم المعروف .

وإنما أوثر لفظ « الجمل » مراداً منه « الحبل » لأن فيه دلالة ليست فى الحبل ، فالحبل مهما كان غليظاً لا يبلغ ضخامة الجمل . وهو - أى الحبل - متفاوت فى الدقة والغلظ . ولو صرّح به لوقع فى الوهم أنه الحبل الدقيق . فتقرب المسألة حينئذ من الإمكان .

---

(١) النقد الأدبى : أصوله ومناهجه - سيد قطب ص ٣٩ (٢) الأعراف : ٤٠.

بَيْدَ أن هذا الإمكان غير متصوَّر مع « الجمل » ذلك الحيوان الضخم الذى نشاهده مثل الصخرة العظيمة .

ولتأكيد حرمانهم وشقائهم اختاره القرآن ليقطع عندهم كل أمل ما داموا فى شقاق مع ربهم . وإن السامع ليقع فى خلده حين يسمع هذه الآية أن المراد بـ « الجمل » هو الحيوان ذلك الضخم ، ولا يكاد يتصور منه « الحبل الغليظ » لاشتهاره فى الأول . ونُدرة إطلاقه على الثانى .

فهذا جدير بأن يسمى معنى ثانياً للفظ يدركه الخيال . واللفظ - هنا - دال على هذا المعنى الثانى بظله كما ترى .

* *

● الجرس :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ، كَذَلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ (١)

ونقصد فى هذا النص كلمة « يصطرخون » بالذات لأنها تُبيِّن جأرهم باللجوء إلى الله أن يخلصهم مما هم فيه . وهى بجرسها الغليظ الصاخب ورنينها الخشن الصاك ، الذى يكاد يخترق صماخ الأذن ، تمثل الموقف أدق تمثيل .

فإن الصراخ المنبعث من نفوس تئن تحت وطأة العذاب صراخ عال مدوٍ يختلط بعضه ببعض - بدءاً ونهاية - ويملأ المكان صخباً ورنيناً . وإنك لتلحظ أثر « الصاد » و « الطاء » فى إبراز الصوت بمثل هذه الصورة الغليظة ، فهل كنت تحس شيئاً من ذلك لو وُضِعَت كلمة « يدعون » الهادئة الوديعة مكان « يصطرخون » - الهادرة العنيفة . وهل كنت تقف على بلوغ قلقهم المدى لولا كلمة « يصطرخون » الملائمة لجوهم النفسى أدق ملاءمة وأبرعها .

* *

---

(١) فاطر : ٣٦ - ٣٧

● الظل والجرس :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾ (١) .

والهدف من الآية الإنكار على المتقاعدين عن الجهاد . واستثارة هممهم للغزو فى سبيل اللّه لأنهم كلما دُعوا إلى القتال تراخوا وفترت عزماتهم .

فجاءت كلمة « اثاقلتم » تصوِّر المعنى أبدع تصوير لأن المتثاقل يقاوم حركات الرافعين له . كلما رُفِعَ تساقط وهوى إلى الأرض . والذين قعدوا عن الجهاد مثلهم مع الداعى إليه مثل المتثاقل مع رافعيه

هذه صورة يدركها الخيال . ومنظر ماثل أمام الناظرين تصوِّره كلمة واحدة هى « أثاقلتم » بما تثيره من خيال « ظل » ، وبما توحى به نغماتها من رنين « جرس » فهى تتكون - بحسب نطقها - من أربعة مقاطع صوتية . وكل مقطع منها مكوَّن من فتح وسكون ، والفتح والضم حركة تشبه دعوة الداعى . والسكون على المقاطع تملص من تلك الحركات الرافعة ، وإخلاد إلى الأرض .

ولنا أن نقارن بين الكلمة المدعوين إليها « انفروا » والكلمة الجانحين هم إليها « اثاقلتم » فللأولى خفة . توحى بمعنى الإنطلاق . وللثانية ثقل يوحى باللصوق بالأرض ، فبينهما ما بين الحركة السريعة والبطء المتثاقل !

وخذ إليك قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (٢) وتأمل الصورة تأملاً تدرك منه سر اختيار هذه الكلمات : « حُمُر » و « مستنفرة » و « فرت » و « قسورة » وإذا وصلتَ إلى ذلك أدركتَ إلى أى مدى كان الكافرون يُعرضون عن الدعوة ويشردون منها شروداً بالغاً مداه كما تشرك الحُمُر المستنفرة إذا هاجها الصياد أو الأسد المفترس .

---

(١) التوبة : ٣٨

(٢) المدثر : ٥٠ - ٥١

وهم يشرودن خائفين منها لما فيها من نُذُر تطير منها قلوبهم التى غمرها الشيطان بغوايته ونفوسهم التى أسرها الهوى بضلاله . وكلمة « مستنفرة » تزيد المعنى دقة ووضوحاً لأن من الحُمُر حُمُراً أهلية تأنس إلى مَن تراه وليست هذه منها بل هى مستنفرة تفزعها مجرد الرؤية بله الطلب وتوقع الخطر . وكذلك كلمة « فرت » إذ تبين هذه الكلمة أنهم لشدة إعراضهم لم يشردوا من الداعى ماشين على أقدامهم فوق الأرض . بل طائرين فى الفضاء كما يصنع الطير المهيج .

وقد اشترك الظل مع الجرس فى دلالة هاتين الكلمتين « مستنفرة » ، « فرت » كما ترى .

* *

﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ الَّذى أتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ ﴾ (١) .

هذه الآية تصوِّر - كذلك - تملص رجل من الإذعان لهدى اللّه . وقد اختير للدلالة على هذا المعنى كلمة « انسلخ » وهذا اللفظ يرسم لنا الصورة عنيفة فظيعة ولهذه الصورة رمز ومعنى .

فالانسلاخ لغة : إزالة الستور . يقال : انسلخ الرجل من ثيابه إذا طرحها ، والشاة إذا أزيل عنها جلدها . فكان خروج هذا الرجل عن طاعة اللّه إلقاء لستوره وما يحفظ عليه أمره ، فهو - بعد - لا يلوى على شئ من أسباب الكرامة ودواعى التوقير .. قال الزمخشرى فى توجيه هذا المعنى : « فحططناه ووضعنا منزلته » (٢) .

ومعنى آخر يُفهم من هذا التعبير . ذلك أن الانسلاح للشاة لا يكون إلا بعد الذبح ومحال أن يُسلخ جلد شاة وهى على قيد الحياة . وفى هذا تضمين يوحى بأن هذا الرجل ومَن كان على شاكلته أموات غير أحياء . وليس هذان المعنيان

---

(١) الأعراف : ١٧٥

(٢) جاء فى مختار الصحاح : « والمسلوخ الشاة التى أزيل عنا الجلد ، وانسلخ الشهر من سنته ، والرجل من ثوبه » ص ٣.٩

بغريبين عن البيان القرآنى . فهو حافل بالصور التى يوصف الكفار فيها بالضعة وبالأموات .

* *

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً ﴾ (١) :

الحديث - هنا - عن أهل النار حين يُساقون إلي مأواهم فلا تساعدهم أقدامهم على السير رهبةً وفزعاً ... فتدفعهم الزبانية فى أعلى ظهورهم مما يوازى صدورهم . ومَن شأنه ذلك يُسمع لصدره صوت غير إرادى يتكوَّن من هذا المقطع « أ ع » ولهذا كانت هذه الكلمة مصوِّرة للمعنى بجرسها ورنينها .

* * *

● تناسب اللفظ القرآنى مع معناه :

ومما يتصل بهذا المعنى أن ألفاظ القرآن تأتى عنيفة قوية فى مقام التهديد والوعيد وما أشبه ذلك ، ورقيقة عذبة فى الترغيب والتبشير وما أشبههما . هادئة ثرية فى مقام التشريع والتوجيه وما قاربهما .

فمن أمثلة التهديد والوعيد :

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (٢) .

---

(١) الطور : ١٣ (٢) المدثر : ١١ - ٣٠.

فانظر إلى عنف الألفاظ إلى أى مدى يصل . وإن العنف ليبلغ مداه فى مواطن الحُكم من النص الذى أثبتناه من سورة المدثر . وذلك فى موضعين :

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ - ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ وقد بدأ هذا النص بكلمة أعنف ما تكون فى هذا الموضع : ﴿ ذَرْنِى ﴾ ويا ويل مَن كان هذا تهديداً له . إنهن كلمات قاتلات أوقع فى النفس من أمضى سلاح .

ومثله : ﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً * يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً * السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾(١) .

تأمل هذا النص ، ثم أنعم نظرك فى هذه التعبيرات : ﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ ﴾ - ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ - ﴿ أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴾ - ﴿ طَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ﴾ - ﴿ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ - ﴿ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ﴾ - ﴿ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ - ﴿ مُنفَطِرٌ بِهِ ، كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ .. ألم تجدها ذاهبة فى القوة والإرهاب إلى أبعد أثر .

ومثله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِّلطَّاغِينَ مَآباً * لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً * إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً * فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾(٢) .

إن موجة العنف تبدأ من أول كلمة فى النص . ولكنها لا تنتهى حتى بآخر

---

(١) المزمل : ١١ - ١٩ (٢) النبأ : ٢١ - ٣٠ .

كلمة تصوِّره ، فقد اشتملت الآية الأخيرة على الفعل المضارع الواقع فى حيز النفى ﴿ فَلَن نَّزِيدكُمْ ﴾ وهنا ربما وهم الواهمون أن جزاء هؤلاء مقصور على ما ذُكِرَ فيما مضى من النص . ولكن هذا الوهم مدفوع بالاستثناء ﴿ إِلَّا عَذَاباً ﴾ .

فالزيادة المنفية هى الزيادة التى من جنس الرحمة . أما الزيادة التى من جنس العذاب فلاحقة بهم ما دامت السموات والأرض . وفى هذا من تبكيتهم وحسرتهم ما لا يخفى .

ومثله : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ (١) .

هذه مثل . وغيرها كثير . لم نرد بذكرها الاستقراء التام . بل نماذج وشاهد صدق على ما نقول .

* *

● الذم :

ويقرب من مقام التهديد والوعيد ، مقام الهجاء والذم ، ومن أمثلة ذلك : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ * إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ (٢) .

ومثله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ

---

(١) سورة الهمزة كاملة .   (٢) القلم : ١٠ - ١٧

نَّاصبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَىٰ منْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ (١) .

ومثله : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٢) .

وهذا نهج القرآن حين يتحدى . ولنذكر لذلك بعض النماذج :

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (٣) .

ومثله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

ومثله : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ، قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ، قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴾ (٥) .

* *

(١) الغاشية : ١ - ٧ (٢) الواقعة : ٤١ - ٥٦ (٣) الحج : ١٥

(٤) البقرة : ٢٣ - ٢٤ (٥) الإسراء : ٥٠ - ٥١

● إجمال :

هذا تصريف القرآن فى القول بحسب المقام . ولكل مقام مقال ، فترى كل لفظة وقعت موقعها . بحسب السياق . وبحسب ما يناسب كل حالة من حالات المخاطَبين . فما من موضع مما ذكرنا نلمس فيه مداهنة أو ليونة . أو تقصيراً فى أى جانب من جوانب القول . قوة وفخامة فى الألفاظ . ورهبة وعنفاً فى المعانى . لذلك كان الكافرون يرهبون سماعه ويصدون عنه صدوداً . ويفرون منه كما تفر الحُمُر من رميات السهام . ألم يحك عنهم القرآن قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ ﴾ (١) .

أوَ لم يضع الوليد بن المغيرة يده على فم الرسول ﷺ ليكف عن القراءة رهبة منه حين سمعه يتلو قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٢) وهو يقول : بحسبك يابن أخى .

هذا لما كانوا يرونه فيه من آيات النذر المؤثر ، والوعيد المخيف . ولو تأملنا ما نزل من القرآن بمكة ، موطن الصدود والتحدى لوجدناه حافلاً بهذا اللون من التعبير . خاصة فى قصار سوره ومتوسطها .

* *

● الترغيب :

فإذا خرج القرآن عن مقامات التهديد والوعيد ، والتحدى والهجاء . إلى الترغيب والتوجيه أو العتاب والتنبيه . فإنَّ له مسلكاً غير هذا المسلك . وسبيلاً غير تلك السبيل .

فانظر إليه فى مقام الترغيب كيف يقول : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أُوْلِى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ،

---

(١) فصلت : ٢٦ (٢) فصلت : ١٣

وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ ، أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

فى الآية الكريمة ترغيب فى الإنفاق والبذل لمستحقيه . وقد جاءت الألفاظ سلسة عذبة . فيها إثارة لعمل الخير ، وترغيب بعد ترغيب ، ففى مطلع الآية يأتى التعبير : ﴿ أُوْلُواْ الفَضْلِ ﴾ . وهو أنسب مطلع بالنسبة لموضوع الحديث . ثم عطف عليه ﴿ السَّعَةِ ﴾ لأنه - مع ما عُطِفَ عليه - تذكير بنعمة الله على المخاطَبين . والفضل والسعة نعمتان تستوجبان شكر مَن أولاهما . ومن مظاهر شكرهما الإنفاق الذى يدور عليه محور الآية الكريمة .

وجاء التعبير بـ ﴿ أُوْلِى القُرْبَىٰ ﴾ - ﴿ وَالمَسَاكِينَ ﴾ - ﴿ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . وهى أوصاف تثير فى النفس شعور العطف والحنان . ثم يأتى قوله تعالىَ : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ .. ﴾ حاثاً النفوس حتى لا يعوقها عن الإنفاق عائق .

ويأتى قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ حاثاً المؤمنين على المغفرة .. وكانت ﴿ أَلَا ﴾ مهيئة الشعور لهذا الترغيب والعرض الجميل . ومَن الذى يغفر؟ الله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

إن السامع لهذه الكلمات يشعر بالأمن يملأ جوانب نفسه . وبالمغفرة تمحو كل خطاياه فينطلق منفقاً فى السر والعلانية .

ومثله : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ، وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) النور: ٢٢ (٢) آل عمران : ١٠٣ - ١٠٤

والآيتان دعوة إلى التمسك بالدين وآدابه .وقد خدمت الألفاظ الفكرة المرجوة من النص خدمة جليلة :

﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّه جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ - ﴿ نِعْمَتَ اللَّه ﴾- ﴿ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ - ﴿ أَصْبَحْتُم بِنعْمَته إِخْوَاناً ﴾ -﴿ أَنقذكُم مِّنْهَا ﴾ - ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ - ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ - ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ - ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

كلمات مفصلات لمواقف تتطلبها .. ومعان تشع منها .

ومثله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَرَسُوله وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِّنَ اللَّه وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[(١)] .

وهذا النص كسابقه يتسلل إلى خفايا النفوس بندائه الذين آمنوا فى المطلع . والعرض اللطيف فى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ ، وتمثيل الأعمال الصالحة بالتجارة التى تنجى من عذاب أليم ، ويذكر الإيمان بالله والجهاد فى سبيله بالمال والنفس . والحكم على هذه الأعمال بأنها خير للمخاطَبين يدركون خيرها لو حصلت لهم أسباب العلم النافع .

ثم انظر إلى الجزاء الذى أشارت إليه الآية الأولى : ﴿ تُنجيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وفصّلته الآيتان الأخيرتان : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

---

(١) الصف : ١٠ - ١٣

ثم انظر إلى قمة التشويق والإثارة فى قوله : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ، نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .. فالأخرى محبوبة . والنصر من الله لا من غيره . والفتح قريب . وقد أجمل « الأخرى » فى صدر الآية ثم فصّلها فيما بعدها . وذلك شرط الفخامة وعنصر التشويق .

ومن حسن المطلع ، وحسن الختام أنَّ النص بدأ بنداء المؤمنين . واختتم ببشارة المؤمنين . وبين النداء والبُشرى جنات ورياحين .

ويسلك القرآن هذا المسلك إذا وصف مادحاً . ونكتفى بمثال واحد فيه غناء أيما غناء : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) .

صورة بهيجة ، ومنظر ضاحك . ترسمه ألفاظ فتبدع فى الرسم . وتترك للخيال حرية التصور ذاهباً فيه إلى أبعد مداه .

* *

● العتاب :

والقرآن ينتهج فى العتاب نهجاً فريداً . جامعاً فيه بين العذوبة والرِّقة والقوة ، وهذان أمران أساسيان فى كل عتاب ناجح . لأنَّ العتاب مقام يقتضى نوعين من المعانى والألفاظ لأنه لا يكون إلا عن تقصير أو خطأ . هذا أحد

(١) الفتح : ٢٩

سببيه الأقوى . ولا يكون إلا حين يُرجى من المعاتَب عود إلى الجادة . وتوخى الصواب .

وعتاب القرآن الذى يهمنا هنا نوعان :

أولهما : عتاب الله رسوله .

ثانيهما : عتاب المؤمنين .

وفى كِلا النوعين جاء عتابه ناجحاً . لاشتماله على الخاصتين المذكورتين : تذكير قاس بما كان مما استوجب العتاب . وإغراء على الرجوع إلى الحق والحث عليه بما يُثيره النص من بوارق الأمل وأسباب العفو.

● عتاب النبى :

فمن عتاب الله رسوله قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ (١) .

وهذا أقصى عتاب وجَّهه الله لرسوله عليه السلام . وبَيَّنَ له فيه كثيراً من الحقائق ، وفى هذا العتاب - مع قسوته - اشتمل القرآن على كثير مما يخففه . ويُبيِّن حُسن نية الرسول عليه السلام فيما بدر منه حين أعرض عن عبد الله ابن أم مكتوم وأقبل على وفد قريش يحاورهم .

فقد خفف من قسوة هذا العتاب أنَّ الله لم يسند العبوس والتولى للرسول مواجهاً له به فجاء مُسنَداً إليه على طريقة الغيبة : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ، ولم يقل له : عبستَ وتوليتَ وهو مقتضى الحال . ترقيقاً له فى العتاب حتى لكأن العابس والمتولى شخص آخر غير محمد عليه السلام . والجمهور يسمون

---

(١) عبس : ١ - ١٦

هذا السلوك القولى : وضع الغيبة موضع الخطاب . ويسميه السكاكى : التفاتاً ، إذ لا يُشترط أن يسبقه التعبير بواحد من طرقة الثلاثة ، وأياً كان الخلاف بينهم فإن المؤدى واحد هو كراهة إسناد ما لا يليق بالرسول على سبيل الخطاب .

وخفف منه - أيضاً - أن القرآن أبان أن ما حدث من الرسول لم يكن لغرض شخصى بل لباعث من بواعث الرسالة التى جاء بها . وهو حرصه الشديد على هداية هؤلاء الناس فكأنه أراد أن يستميلهم بحديثه وإقباله عليهم . أما ابن أم مكتوم فمؤمن لا يتأثر بمثل هذه الأعمال التى بدرت من الرسول عليه السلام لمصلحة دينية توقعها هو .

ولطف العتاب مع الرسول أمر ملحوظ فى القرآن . انظر إليه يقول : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [١] . فمبالغَة فى لطف عتاب اللّه له . صدَّر العتاب بالعفو من أول الأَمر . وقُدِّم على ما استحق من أجله العتاب : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ ، وأن العتاب الرقيق يدل على عِظَم منزلة المعاتَب عند المعاتِب ، أن يبادره بالعفو . ثم يأخذ معه فى بيان ما خالفَ فيه مما ينبغى ألا يكون ..

وقد غلا الزمخشرى فى توجيه هذه الآية حيث قال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ ﴾ كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها . ومعناه : اخطأتَ وبئس ما فعلتَ [٢] .

وغلوه فى هذا التوجيه ظاهر . لأنه حمَّل الكلمة ما ليس من طبيعتها وصرَّح بما لم يصرِّح به اللّه فى كتابه ، ولو كان هذا الذى يقوله الزمخشرى مطلوباً للّه من هذه الآية لما منع مانع من ذكره . ولو أنه فسَّر قوله تعالى : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ بما قاله فى تفسير : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ ﴾ لكان لقوله شُبهة قبول لأن ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ هو موضوع المخالفة .

وقد تعقب ابن المنير قول الزمخشرى ، وخطَّأه فيه . ثم قال : « ولقد أحسن مَن قال فى هذه الآية : إنَّ من لطف اللّه تعالى بنبيه أن بدأ بالعفو قبل العتب .

---

(١) التوبة : ٤٣ (٢) الكشاف : ٢/١٢٥

ولو قال له ابتداءً : ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ لتفطّر قلبه عليه السلام . فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البَشر عليه الصلاة والسلام »[1] .

* *

● عتاب المؤمنين :

وجاء فى عتاب المؤمنين حين خاضوا فى حديث الإفك ولم يتثبتوا :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ، لَا تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ، وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2] .

وفى هذا النص الحكيم تتعانق مظاهر القسوة مع اللين . والخوف مع الرجاء . والصفح مع العقاب .. فقد وردت فى هذا النص هذه الكلمات : ﴿ الإِفْك ﴾ – ﴿ الإِثْم ﴾ – ﴿ تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ – ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ – ﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ – ﴿ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ – ﴿ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ ﴾ – ﴿ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾ – ﴿ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ – ﴿ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً ﴾ .

---

(١) نفس المصدر : « الهامش » .

(٢) النور : ١١ – ١٨

وهذه كلها كلمات عامرات بقذائفها . لأن الذنب الذى ارتكبوه عظيم الأثر . إذ المرمى به أمٌّ من أمهات المؤمنين . وزوج النبى الكريم .

فهذا اجتراء على اللّه وعلى رسوله . وعلى المحصنات المؤمنات الغافلات . لذلك كله جاءت مظاهر العنف فى هذا العتاب بالغة القوة . ووجهت إليهم الجناية من طرق عديدة .

ولأن الخطاب مع مؤمنين . ويُرجى منهم الخير والعودة إلى سواء السبيل . خففت حدة هذا العتاب . فسرت فيه روح الأمل وأخرجته من الوعيد إلى العتب المرجو منه التوجيه والإثابة .

انظر إلى هذه الإشراقات : ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم ﴾ - ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ - ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً ﴾ - ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ - والتعبير بالمس دون غيره تخفيف من اللّه فى العتاب - ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً ﴾ - ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

* *

● التشريع :

أما فى التشريع فإنّ اللفظ القرآنى يأتى وسطاً بين النوعين إلا أن يقتضى المقام عنفاً أو لطافة .

ولنذكر مثالاً للنص التشريعى فى القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ، وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ

الهُدَىٰ وَالفُرْقَان ، فَمَن شَهِدَ منكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

هذا نص تشريعى خالص أدى بكلمات هادئة - كما ترى - حتى فى مواضع الإثارة من النص فأنت ترى فيه هذه التعبيرات وهى فى مواطن الإثارة والحث على عمل الخير : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ - ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ﴾ - ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ - ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

وصفوة القول فى ذلك أنَّ ألفاظ القرآن فضلاً عن اختيارها وروعتها فى أنفسها تأتى ملائمة للمقام الذى وردت فيه . ولو أدرتَ الغة من ألفها إلى يائها لتضع موضع اللفظ آخر يسد مسده من كل الوجوه رجوتَ مستحيلاً . وعُدتَ كليلاً .

أما خواص اللفظ القرآنى من حيث التعبير ، بعد انتقائه فى نفسه ، وإصابته المقتل فى الدلالة على معناه .. فإننا منذ الآن يجدر أن نصطلح على نظرية نحن بصدد التدليل عليها . وهذه النظرية هى :

● منهج الالتزام :

ولهذه النظرية عدة جوانب : فمن التفرقة الدقيقة بين الألفاظ واستعمال كل لفظ فى معنى دون غيره مع استعمال نظيره فيه دون ما خلط بين استعمال اللفظين . وهذا المنهج غير مألوف فى أساليب الناس ، وقد تقع تلك التفرقة الدقيقة بين الألفاظ فى استعمالات المادة الواحدة كأن يختص استعمالها فعلاً فى معنى ويطرد ذلك الاستعمال فيه . ويختص استعمالها اسماً فى معنى آخر كذلك .

(١) البقرة : ١٨٣ - ١٨٥

إلى التزام جمع الكلمة دون أن يأتى منها مفرد أو مثنى . أو التزامها مفردة دون أن يستعملها مجموعة أو مثناة .

أو التزام استعمالها منفية . ولم ترد فيه مثبتة بحال من الأحوال .

إلى غير ذلك من الاعتبارات مما لا يقع تحت حصر إلا باستقراء الألفاظ القرآنية كلها فى بحث متخصص فى هذه الناحية .

وهذا إجمال لا بد له من تفصيل . وسنحاول عند التنبيه على هذه الخصائص فى نماذجها توجيه هذا السلوك بقدر ما يهدى إليه النظر . مفوِّضين علم ذلك إلى الله فهو وحده المستأثر بأسرار كتابه .

- التزام الجمع :

فقد التزم القرآن جمع كلمتى : « الأرجاء » و « الألباب » . ولم يأت منهما بمفرد ولا بمثنى . قال : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

- التزام الإفراد :

والتزم الإفراد فى كلمة « الأرض » فى كل موضع ذُكِرَت فيه . وما أكثر مواضع ذِكرها فيه مصاحبة للسماء . أو السموات . وهى سواء أُفردت السماء أو جُمِعت مذكورة معها فإنَّ الإفراد هو طابعها فى كل موضع .

قال : ﴿ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

---

(١) الحاقة : ١٧
(٢) الرعد : ١٩
(٣) طه : ٦
(٤) آل عمران : ١٩٠ .

وحين يريد القرآن صيغة الجمع من الأرض فإنه لا يخرج عن مبدأ هذا الالتزام فيأتى بالأرض مفردة . ويدل على الجمع منها بالوصف .

قال : ﴿ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (١) . أى مثل السموات سبع أرضين .

وقال : ﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ... ﴾ (٢) .

ومما التزم فيه صيغة الجمع كلمة « أكواب » وكلمة « الظلمات » . فلم تأت واحدة منهما فى موضع منه مثناة أو مفردة .

قال : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيراً ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٤) .

وكذلك التزم الجمع فى كلمة « الأرائك » قال : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ، لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ (٦) .

وفى مظاهر الكون التزم الإفراد فى « الشمس » و « القمر » . و « الضحى » و « النهار » . قال : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ (٨) .

ووجه الإفراد فى الشمس والقمر ظاهر ، إذ لا ثاني لهما فى الوجود . والتأمل إنما فى الضحى والنهار .

فإذا أُريد بالنهار الجمع عدل عن لفظه إلى لفظ « الأيام » قال : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾ (٩) .

---

(١) الطلاق : ١٢ (٢) الرعد : ٤ (٣) الإنسان : ١٥

(٤) الأنبياء : ٨٧ (٥) الانسان : ١٣ (٦) المطففين : ٣٥

(٧) الشمس : ١ - ٣ (٨) الضحى : ١ - ٢ (٩) الحاقة : ٧

كذلك التزم الإفراد فى لفظ « النور » ، عكس التزامه الجمع فى لفظ « الظلمات » . والتزم التعريف فى كلمتى « الناس » و « الصدور » مجموعاً أو مفرداً .

قال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (٧) .

- التزام التنكير :

والتزم التنكير فى كلمة « شئ » فى كل موضع وردت فيه . قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٨) .

وقال : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (٩) .

وقال : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٠) .

وقال : ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ (١١) .

وقال : ﴿ ... لا تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (١٢) .

---

(١) النور : ٣٥ — (٢) الحجرات : ١٣ — (٣) البقرة : ٢١

(٤) الناس : ٦ — (٥) آل عمران : ١١٩ — (٦) الأنعام : ١٢٥

(٧) الشرح : ١ — (٨) النور : ٤٥ — (٩) الذاريات : ٤٢

(١٠) الذاريات : ٤٩ — (١١) المائدة : ١٧ — (١٢) المائدة : ١٠١

وقد كثر ورود هذه الكلمة « شئ » فى القرآن الكريم ، ولا تخرج عن هذا المنهج الذى التزمه القرآن فيها ما دام قد صرّح بلفظها الدال عليها .

- التزام النفى :

وقد التزم القرآن كذلك النفى فى كلمة « يشعرون » فى كل موضع وردت فيه . فلم يأت إلا فى سياق النفى .

قال : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

وهذا النفى كثيراً ما يأتى فى مواضع الذم - مثل الآية الأولى - وقليلاً ما يأتى فى غيره مثل الآية الثانية .

- التزام الإثبات :

والتزم الإثبات فى بعض الكلمات مثل كلمة « طبع » مستخدماً لها فى موضع الذم فى كل موضع وردت فيه .

قال : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٣) .

وسيأتى تفصيل ذلك فى فصل المجاز . تلك ملاحظة دقيقة يجدها الباحث فى ألفاظ القرآن . أنها ذات خواص تعبيرية لم تشترك معها فيها أية أساليب أخرى .

* *

● وجه آخر لنظرية الالتزام :

وللفظ القرآنى خاصة أخرى غير الخواص التى ذكرناها غير التزام الجمع أو الإفراد وغير التزام التعريف أو التنكير ، وغير التزام النفى أو الإثبات .

---

(١) البقرة : ٩ (٢) النمل : ١٨ (٣) النساء : ١٥٥

وهذه الخاصة هى أن القرآن يُفرِّق بين الكلمتين المتفقتين فى المعنى فيستعمل إحداهما فى موضع لا يتعداه . ويستعمل الأخرى فى موضع آخر لا يتعداه إلى موضع الأولى . وهما عند الناس - خاصتهم وعامتهم - تستويان فى الدلالة فلا يجدون بينهما فرقاً .

وقد فطن إلى هذا الملحظ الدقيق فى ألفاظ القرآن الجاحظ حيث يقول : « وقد يستخف الناس ألفاظاً ، ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها . ألا ترى أنَّ اللّه تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن « الجوع » إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع . والعجز الظاهر . والناس لا يذكرون السغب . ويذكرون الجوع فى حالة القُدرة والسلامة .

وكذلك كلمة « المطر » ، لأنك لا تجد القرآن يأتى به إلا فى موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث » (١) .

ولبيان ذلك نقول :

● الأب ليس والداً ؟

خذ كلمتى « والد » و « أب » واستعرض استعمالات الناس لهما تجد أنهما سواء فى الدلالة فهما مترادفتان . فكلا اللفظين يصح إطلاقه على المولود له « الذكر » فهو أب وهو والد .

فإذا تتبعتَ استعمالات القرآن لهذين اللفظين تجده مخالفاً لما ألفه الناس وعلمتَ وجه الصواب فيه ، والخطأ فى غيره .

فالقرآن لم يطلق كلمة « الوالد » على الأب الذكر إذا ذكره منفرداً أو مجموعاً جمعاً مقصوداً به الذكور دون الإناث . بل يطلق عليه أو عليهم كلمتى « الأب » و « الآباء » ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ (٢) .

---

(١) البيان والتبيين : ٤٣/١ (٢) يوسف : ١١

وقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ﴾ (٢) .

وهذا فى حال الإفراد . وكذلك المواضع التى ورد فيها مجموعاً . ومنها :

﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ بَلْ قَالُواْ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ قُلْ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٧) .. وغير ذلك كثير .

إذن فكلمة « الأب » هى الأداة المفضّلة فى أسلوب القرآن للدلالة على الذكر أو الذكور . المولود لهم .

أما كلمة « الوالد » فلم تُطلق على الذكر المولود له إلا مندرجاً مع الأم « الوالدة » ، والقرآن يسلك هذا المسلك فى مقام الإحسان إليهما . وصنع المعروف معهما . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ ﴾ (٨) .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ . (٢) الأنعام : ٧٤ (٣) البقرة : ١٧٠ .

(٤) الزخرف : ٢٣ (٥) الزخرف : ٢٤ (٦) الصافات : ١٦ - ١٧

(٧) يس : ٦ (٨) لقمان : ١٤

وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) .

فالأب - هنا - والد على أسلوب التغليب . لأن الوالد الحقيقى هى الأم .

وحفاظاً على هذه الدقة فى اللفظ القرآنى . نرى القرآن عندما استدعى المقام معنى « الولادة » لكونه سبباً فى حكم شرعى نراه - أى القرآن - قد عدل عن اسم الفاعل : « والد » إلى اسم المفعول : « مولود له » فقال : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ، لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ، وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ، لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ (٣) .

* *

● ملحظان هامان :

وهذه الآية تفيدنا من ناحيتين :

أولاهما : أن القرآن أتى باسم المفعول مكنياً به عن الأب على وجه الحقيقة لأن الأب مولود له حقيقة . وليس بوالد . وذلك فى موضعين منها : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ . ثم : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾ .

ثانيتهما : أنه أتى باسم الفاعل المؤنث فى الدلالة على الأم على وجه الحقيقة لأنها والدة فعلاً . وذلك فى موضعين منها كذلك : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ ﴾ . ثم : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ .

فالأب فى جميع الأحوال ليس والداً ، وإنما هو مولود له . وهذه لغة التنزيل التى تكاد تخلو من ظاهرة الترادف فى هذه المواضع .

* *

---

(١) الإسراء : ٢٣ (٢) البقرة : ١٨٠. (٣) البقرة : ٢٣٣

● اعتراض مدفوع :

ولا يقدح فى هذه القاعدة قوله تعالى : ﴿ .. لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ (١) . لأن الوالد هنا ليس المراد به الأب وحده . أو الأم وحدها . فالسياق مقتض للعموم فهو قريب من أسلوب التغليب الذى أشرنا إليه . حيث غلب فيه جانب الوالدية على المولودية .. فأطلق « الوالدان » عليهما .

* *

● والوالدة .. أب ؟!

وإذ كان الأب « والداً » على أسلوب التغليب . فإن الوالدة - كذلك - أب على أسلوب التغليب .

قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ ﴾ (٢) .. أى أبوه وأمه .

وقال : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (٣) .. أى أبا يوسف وأمه عليهم السلام . فهنا غلب جانب الذكورة على جانب الأنوثة فأجرى على الأم وصف « الأبوة » وسر هذا التغليب فى الموضعين - فيما يبدو - أن تغليب جانب الأنوثة فى مقام الإحسان ملحوظ فيه ضعف الأنثى . فهى بالإحسان أولى ... وللمعروف أهل . وتغليب جانب الذكورة فى جانب الإرث فلأن الأب الذكر أقوى من الأم لأنه عصبة الميت . والذكر - غالباً - حظه من الإرث مثل حظ الأنثيين.

● سر التغليب :

فالتغليب فى كل من الموضعين جار على نسق حكيم - كما ترى - فصاحب الجانب الأقوى فى المقام المسوق من أجله الكلام هو صاحب الجهة المغلبة المطوى معها الجانب الأضعف .

* * *

---

(١) لقمان : ٣٣ (٢) النساء : ١١ (٣) يوسف : ١٠٠

● النعمة ليست نعيماً :

النعمة فى القرآن خاصة بما أنعم الله به على عباده فى الدنيا لا الآخرة .. سواء أكانت خيراً مادياً كالمال والجاه والصحة . أو هداية وإرشاداً إلى الصواب والتوفيق للعمل به ، وقد جاء بهذا المعني فى تسعة وأربعين موضعاً . مضافة إلى الله - سبحانه - أو إلى ضميره أو مقطوعة عن تلك الإضافة لكنها منسوبة إلى الله بطريق آخر من طرق التعبير غير الإضافة .

ولنذكر بعض مواضعها مشيرين إلى ما بقى منها :

قال : ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) ، وجاءت فيها فى موضعين آخرين وهما آيتا (٤٧ - ١٢٢).

وقال : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِنَ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) البقرة : ٤٠ . (٢) النمل : ١٩ ، الأحقاف : ١٥ (٣) الأنفال : ٥٣

(٤) الدخان : ٢٥ - ٢٧ (٥) المزمل : ١١ (٦) إبراهيم : ٦

(٧) إبراهيم : ٣٤ ، النحل : ١٨ (٨) النحل : ١١٤

هذه عشرة مواضع يستخدم فيها القرآن « النعمة » مراداً بها ما أنعم اللّٰه به فى الدنيا وهكذا فى جميع مواضع استعمالات هذه الكلمة سواء أكانت مفتوحة النون. أو مكسورتها .

والجمع فيها مثل المفرد . قال : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (١) .

وقال : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ ، اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

وكذلك جاءت « نعماء » خاصة بالدنيا فى آية هود : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ ﴾ (٤) .

أما كلمة « النعيم » فقد أطرد القرآن استعمالها فيما أنعم اللّٰه به على عباده المقرَّبين فى الآخرة دونما غير ونذكرها على وجه الاستقراء :

قال : ﴿ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ (٦) . وقال : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (٧) . وقال : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ (٨) . وقال : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ (٩) . وقال : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ (١٠) . وقال : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (١١) . وقال : ﴿ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ (١٢) . وقال : ﴿ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (١٣) . وقال :

---

(١) لقمان : ٢٠ — (٢) النحل : ١١٢ — (٣) النحل : ١٢١

(٤) هود : ١٠ — (٥) التوبة : ٢١ — (٦) الطور : ١٧

(٧) الواقعة : ٨٩ — (٨) المعارج : ٣٨ — (٩) الانفطار : ١٣

(١٠) المطففين : ٢٢ — (١١) المطففين : ٢٤ — (١٢) الإنسان : ٢٠

(١٣) المائدة : ٦٥

﴿ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [1] . وقال : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [2] . وقال : ﴿ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [3] . وقال : ﴿ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [4] . وقال : ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ [5] . وقال : ﴿ وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ [6] . وقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [7] . وقالَ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [8] .

لا خلاف بين المفسرين فى المراد بـ « النعيم » فى هذا المواضع . إلا الموضع الأخير . موضع التكاثر فقد ذهبوا يخصنونه بنعم الدنيا وتأولوا ذلك على عدة وجوه .

● معنى النعيم فى « التكاثر » :

فبعضهم يرى - كما يذكر الرازى فى تفسيره [9] - أن المراد بالنعيم هو الرسول ﷺ ، وبعضهم يقول : هو تخفيف الشرائع . أو هو صحة الأبدان . أو هو الطعام والشراب . وقد ذهب بعضهم أن المراد به النعلان اللذان يمشى بهما الإنسان . ولعل هذا الرأى مبعثه أن الله يُحاسِب على جلائل النعم وصغائرها . وأمام هذا الحشد الهائل من تعدد الآراء اختار الرازى أن يكون المراد به جميع ما أنعم الله به على الناس . قال : « والأولى عندى أنه يجب حمله على جميع النعم . وأن تكون الألف واللام فيه للاستغراق » [10] .

وخصه الزمخشرى بنعيم المترف الذى عكف نفسه على استيفاء اللذات . ولم يعش إلا ليأكل ويشرب ويقطع أوقاته باللهو والطرب .. فأما مَن تمتع بنعم الله وأرزاقه التى لم يخلقها إلا لعباده وتقوى بها على دراسة العلم . والقيام بالعمل. وكان ناهضاً بالشكر . فهو عن ذاك بمعزل [11] .

---

(١) يونس : ٩   (٢) الحج : ٥٦   (٣) الصافات : ٤٣
(٤) الواقعة : ١٢   (٥) لقمان : ٨   (٦) الشعراء : ٨٥
(٧) القلم : ٣٤   (٨) التكاثر : ٨   (٩) الجزء الثامن ص ٤٧٤
(١٠) نفس المصدر .   (١١) الكشاف : ٤/٢٣١

والطبرى يخصه كذلك بنعيم الدنيا قال : « ثم ليسألنكم اللّه عَزَّ وجَلَّ عن النعيم الذى كنتم فيه فى الدنيا ماذا عملتم فيه ؟ ومن أين وصلتم إليه ؟ وفيم أصبتموه » ؟ [١] .

وأنا مع مَن يحمل المراد بالنعيم فى آية التكاثر على نعيم الآخرة . جرياً مع العُرف القرآنى فى استعمال هذه الكلمة على المنهج الذى شرحناه [٢] .

ولكن ما معنى السؤال – حينئذ – عن نعيم الآخرة ؟

الذى يبدو وجيهاً فى هذا السؤال « أنه سؤال توبيخ وحسرة » . فقد كان مطلع السورة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ المَقَابِرَ ﴾ [٣] ناعياً على هؤلاء حظهم من الحياة الباقية . حيث شغلوا أنفسهم بالدنيا ورأوا فيها كل متع الحياة . ولم يفيقوا من ضلالهم حتى أنزلهم الموت قبورهم بعد أن ضيَّعوا على أنفسهم كل مسعى ناجح .

وحين يرى هؤلاء ما أعدَّه اللّه لعباده الطائعين من نعيم مقيم . يسألهم اللّه عن النعيم الحق . ما هو ؟

أهو ما يرونه أمامهم من جنات تجرى من تحتها الأنهار . وحور عين . وولدان مخلدين . فيها ما تشتهيه الأنفس وتقر به الأعين .

أم هو ما كانوا يحظون به فى الحياة الدنيا من نعمة زائلة . وعرض هالك .. أى النوعين أحرى أن يسمى نعيماً .

● مغزى السؤال :

وهذا السؤال يحقق غرضين :

أولهما : بيان خطأ مسعاهم وضلال ما كانوا به يتمسكون .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٨٤/٣٠.

(٢) التفسير البيانى – عائشة عبد الرحمن : ٢٠٥/١ (٣) التكاثر : ١ – ٢

وثانيهما : إدخال الحسرة عليهم حين يرون هذا النعيم الخالد وهم منه محرومون .

وليس هذا التوجيه بغريب عن منهج القرآن . أعنى : سؤال الكفار للتقرير والتوبيخ فقد ورد فى مواضع عدة مما سيكون يوم القيامة .

قال سبحانه : ﴿ احْشُرُواْ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ ، إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ ؟ (١) .

وقال موبخاً ومقرراً : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ (٢) .

* *

● والمرأة .. ليست زوجاً (٣) :

ومثل هذه الكلمات كلمة « امرأة » فإنَّ القرآن يستعملها فى المواضع التى تفقد فيها الحياة الزوجية بعض مقوِّماتها . سواء أكان ذلك من جانب الرجل . أو من جانب المرأة ، ويؤثر كلمة « الزوج » متى استقامت تلك الحياة .

وكذلك إذا انفصمت عرى الزوجية بموت وما أشبه الموت . ولنذكر النصوص الواردة فى ذلك :

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ ﴾ (٥) .

---

(١) الصافات : ٢٢ - ٢٤ (٢) الطور : ١٤ - ١٥

(٣) لم أثبت تاء التأنيث هنا تبعاً للغة القرآن الحكيم .

(٤) آل عمران : ٣٥ (٥) النساء : ١٢

وقال : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ من بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِه ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ (٨) .

وقال : ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ (٩) .

وقال : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (١٠) .

وقال : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (١١) .

وقال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾ (١٢) .

---

(١) النساء : ١٢٨ (٢) يوسف : ٣٠ (٣) يوسف : ٥١
(٤) النمل : ٢٣ (٥) القصص : ٩ (٦) الاحزاب : ٥٠
(٧) التحريم : ١٠ (٨) التحريم : ١١ (٩) هود : ٨١
(١٠) العنكبوت : ٣٣ (١١) الأعراف : ٨٣ (١٢) هود : ٧١

وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ [1] .

وقال : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [2] .

وقال : ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [3] .

وقال : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [4] .

وقال : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [5] .

وقال : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ [6] .

وقال : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَائِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ [7] .

وقال : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ [8] .

وقال : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ [9] .

وقال : ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [10] .

* *

● استعمال كلمة « المرأة » :

هذه مواضع استعمال هذه الكلمة فى القرآن الكريم . وقد سبق لنا القول بأن القرآن يؤثر استعمالها إذا فقدت الحياة الزوجية بعض مقوِّماتها . أو مقوِّماتها كلها . وهذه الآيات يمكن تصنيفها من حيث الأساس الذى بيَّناه إلى المجموعات الآتية :

الأولى : أن يُفرِّق الموت بين الزوجين كما فى آية « امرأة عمران » لأن قولها : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ كان بعد موت زوجها عمران[11] .

---

(1) يوسف : ٢١ — (2) الحجر : ٦٠ . — (3) العنكبوت : ٣٢

(4) الذاريات : ٢٩ — (5) المسد : ٥ - ٤ — (6) آل عمران : ٤٠ .

(7) مريم : ٥ — (8) مريم : ٨ — (9) البقرة : ٢٨٢

(10) القصص : ٢٣ — (11) انظر الكشاف للزمخشرى : ٢٧٢/١

الثانية : ألا يكون للمرأة زوج أصلاً . كما فى قصة بلقيس وبنتى شعيب وذلك واضح .

الثالثة : أن يكون العُقم هو الملاحَظ فى الحديث . كما فى امرأة العزيز وامرأة زكريا عليه السلام .

الرابعة : أن يكون الاختلاف فى الدين هو السبب الداعى إلى عدم اعتبار الحياة الزوجية قائمة من كل الوجوه كامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون .

الخامسة : أن تكون الخلافات الزوجية هى السبب وهى فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً ﴾ .

السادسة : أن يكون الحديث عنها ليس باعتبارها زوجة لأحد ، بل باعتبار حقيقتها المقابلة لحقيقة الرجل . مثل : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ .

السابعة : أن يكون الزوجان ممن يحادون اللّه ورسوله . فكأن القرآن - هنا - يعتبر الروابط الزوجية غير قائمة بينهما . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ﴾ .

* *

● شُبهة وردها :

هذه طريقة القرآن فى استعمال كلمة « امرأة » .. لكن الباحث قد يعثر فى آيات الكتاب على استعمال كلمة « زوج » مكان « امرأة » . مع وجود ما يهدد الروابط الزوجية أو يفيد عدم قيامها مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ (١) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً ﴾ (٢) .

---

(١) الأحزاب : ٣٧ (٢) البقرة : ٢٣٤

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ (١) .

فيقع فى الظن أنّ كلمة « امرأة » لا تُستعمل الا فى المواضع التى يعترى الزوجيه فيها خلاف أو سبب مما ذكرناه .

أما « زوج » فتستعمل فى الموضعين جميعاً .

والذى أراه أنّ هذا الاحتمال مدفوع لإمكان توجيه النصوص المخالفة على وجوه تطرد بها القاعدة .

ففى نصح الرسول عليه السلام لزيد حين دَبَّ الخلاف بينه وبين زينب كَرِهَ الرسول ذلك الخلاف واعتبره كأن لم يكن ونصحه بالتمسك بها . وما دمنا قد عرفنا طريقة القرآن فى استعمال كلمة « امرأة » فإنه لا يسوغ فيه أن يقال : « أمسك عليك امرأتك » لما بين هاتين الكلمتين : « أمسك » و « امرأة » . من جفاء .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَيَذَرُونَّ أَزْوَاجاً ﴾ فذلك فى مقام « الجمع » وحديثنا فى مقام الإفراد وإنما أوثر جمع « زوج » على جمع « امرأة » لأن الثانية « امرأة » لم يستعمل لها جمع لثقله . وبهذا تطرد القاعدة ، وتأكيداً لهذه الاعتبارات نسوق قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ ✱ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهباً ، وَكَانُواْ لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٢) .

والشاهد أن امرأة زكريا حين أصبحت صالحة للإنجاب آثر القرآن أن يطلق عليها « زوجه » دون « امرأته » وكانت « امرأة » إذ كانت « عاقراً » .

✱ ✱

---

(١) الأحزاب : ٢٨ (٢) الأنبياء : ٨٩ - ٩٠ .

● استعمال كلمة « زوج » :

ولعل السر البيانى فى كل أولئك أن ضَنَّ القرآن بكلمة « زوج » فى المقامات التى يسود فيها الحياة الزوجية ما يجعلها قليلة الإثمار لأن هذه الكلمة نفسها تدل على « الزوجية » لأنها ما سميت زوجاً إلا مضافاً إليها الرجل وما سمى الرجل زوجاً إلا مضافة إليه هى [١] . ودبيب الخلاف ينافى هذا الاعتبار.

أما « امرأة » فهى خالية من تلك الدلالة إذ هى إطلاق عليها باعتبار حقيقتها المقابلة لحقيقة الرجل .

* * *

٤ - النغم القرآنى :

تقدَّم الحديث عن هذه الخاصة متفرقاً فى ثنايا الموضوعات السابقة ولا سيما فى بحث الفواصل . وما نذكره الآن وصف عام لأسلوب القرآن الكريم . من حيث موسيقاه ونغمه الصوتى . وهى خاصة فريدة لم يُشركه فيها غيره على الإطلاق . وهذه الخاصة أتاحت قراءة القرآن مرتلاً مجوَّداً .

● دعائم النغم القرآنى :

وقد ساعد على روعة النغم القرآنى - أو الإيقاع الصوتى لألفاظه - عوامل أهمها :

أولاً : فواتح سوره مثل : ﴿ الٓمٓ ﴾ ومثل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ ومثل : ﴿ حمٓ ﴾ ومثل : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ .

ثانياً : فواصل الآيات . مثل : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ومثل : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ عَصِيّاً ﴾ ومثل : ﴿ نَجِيّاً ﴾ ومثل : ﴿ مُنْبَثاً ﴾ و ﴿ ثَلَاثَةٌ ﴾ .

---

(١) من محاضرة مرتجلة ألقاها ابن فتح الله بدران بجمعية الشبان المسلمين منذ عشر سنين .

ثالثاً : أدب تلاوته من مد وإدغام وغن وقلقلة ووصل ووقف وإظهار وإخفاء وتفخيم وترقيق ... إلخ .

رابعاً : بناء جمله بناءً موسيقياً شجياً من تقابل بين الكلمات ، وتساوٍ بينها فى الحروف . مثل : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [1] .

فبين كل كلمة وأخرى تقابل موسيقى فى عدد الكلمات والحروف والحركات.

خامساً : والعبارات تتألف من جُمل ليست مرسلة تماماً ، ولا مسجوعة تماماً .

إذ ليس فى آخرها قرائن ولا تخلو من التقسيم الذى يشبه جُمل السجع [2] .

وهذا البناء الفريد لكلمات وجُمل القرآن وفقره وسوره ، جعله يمتاز بخاصة سما بها فوق النثر الفنى . والكلام المنظوم . فليس هو بواحد منهما : ليس شعراً لأنه ليس على مناهج الشعر من بحور وتفاعيل وعلل وزحاف . وليس نثراً مما اعتاد الناس حذقه لأنه يباين طرقهم فى التعبير وأخذهم فى فنون القول . والنثر وإن اشترك معه فى بعض المظاهر كالسجع والإرسال فإنه دونه بمراحل .

* *

● أثر هذه الخصائص فى التسمية :

وهذه الخصائص جعلت الدكتور طه حسين يعد القرآن ، نمطاً ثالثاً فوق الشعر وفوق النثر . [3] فهو « قرآن » .

فإطلاق هذه اللفظة عليه : « قرآن » كاف فى تحديده عما سواه . وتمييزه من فنون القول الأخرى . وهذا نصه : « إنَّ القرآن ليس نثراً ، كما إنه ليس شعراً .

---

(١) النبأ : ١ - ٣

(٢) محاضرات فى الأدب الإسلامى والأموى - د . سليمان حسن ربيع ص ٢٤

(٣) من حديث الشعر والنثر - د . طه حسين ص ٢٥

إنما هو قرآن ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم . ليس شِعراً ، وهذا واضح فهو لم يتقيد بقيود الشِعر ، وليس نثراً لأنه مقيَّد بقيود خاصة به . لا توجد فى غيره . وهى القيود التى يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة . فهو ليس شِعراً ولا نثراً . ولكنه : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) ، (٢) .

وأجدنى ميالاً لهذا المذهب الذى يراه الدكتور طه حسين . ويمكن أن نسجل – هنا – فارقاً آخر بين النثر والقرآن .

● فرق جديد بين القرآن وغيره :

الأدب – عموماً – متأثر بظروف البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية التى قيل فيها . وعاش صاحبه أحداثها . ولذلك فأنت ترى لأدب كل عصر خصائصه ومميزاته .

وإذا عرف الباحث خصائص أدب كل عصر ، استطاع أن يرجع كل ما يقع تحت بصره من نصوص مجهولة القائل والعصر إلى عصرها .

أما القرآن الكريم فإنه – بمادته وفكره ، وألفاظه وأسلوبه – لا يمثل عصراً من عصور الأدب تأثر بها . واقتبس منها . ودار فى فلكها . بل هو سام فى كل عصر بما له من خصائص وسمات .

ويختص القرآن الكريم بأنَّ له إيقاعاً صوتياً فريداً سواء المرسل منه والمسجوع، وقد يدق الوزن – أحياناً – حتى يشبه الشِعر ، وما هو بشِعر ، فى بعض أعاريضه وأضربه وفى بحوره المعروفة .

* *

(١) نفس المصدر .

(٢) هود : ١

● مجيئه على تفاعيل الشعر فى الظاهر :

ومن ذلك : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [1] .. فقد جاءت هذه الآية على نظام بحر الرمل وتفاعيله :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن   فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فإذا جاز لنا أن نُقطِّع الآية تقطيعاً عروضياً . وجدنا تفاعيلها على النحو الآتى :

فعلاتن فاعلاتن   فعلاتن فاعلاتن

فهى - إذن - على غرار مجزوء الرمل ، لحذف إحدى تفاعيله من كل شطر .

كما نرى أنَّ التفعيلة الأولى حُذِفَ منها الحرف الثانى الساكن . ويسمى هذا « خبناً » ، ونلاحظ أنَّ التفعيلة الأولى فيما أشبه الشطرين تساوتا فى الحذف الذى سُمِيَ خبناً فى عُرف العروضيين أما التفعيلتان الباقيتان فقد سلمتا من جميع ما أطلقوا عليه زحافاً أو عِللاً .

وبهذا قابلت « جفان » : « قدور » من حيث الوحدات الصوتية فيهما . وقابلت « كالجواب » : « راسيات » فيها كذلك .

ومن ذلك أيضاً : ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ [2] .. فقد جاء على مجزوء الخفيف . وتفاعيله كاملاً :

فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن   فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن

أما مجزوؤه فيصبح :

فاعلاتن مستفع لن   فاعلاتن مستفع لن

---

(١) سبأ : ١٣   (٢) فاطر : ١٨

(*) مرجعى فى إثبات التفاعيل كتاب : أهدى سبيل - للمرحوم محمود مصطفى .

هذا باعتبار سلامته من الزحافات والعلل ، وتفاعيل الآية كالآتى :

فاعلاتن متفع لن   فعلاتن متفع لن

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

فقد وزنوه على بحر الوافر . وتفاعيله :

مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن   مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن

فقد تساوت فيه التفعليتان الثانية والثالثة فى الجزء الأول مع نظيرتيهما فى الجزء الثانى .

واختلفت الأولى فى الجزء الأول مع الأولى فى الجزء الثانى حيث جاءت الثانية سليمة من الحذف والإسكان واعترى الأولى بعض ذلك .

كما وزنوا قوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ (٢) . ونسبوه إلى بحر المتقارب .

وقوله تعالى : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٣) وقالوا : إنه على غرار بحر السريع (٤) .

ومما أشبه الشعر أيضاً قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (٥) .

وبدهى أنَّ موافقة هذه الآيات لبعض أوزان الشعر لا تُسوِّغ إطلاق كلمة الشعر عليه ولا المواضع التى جاء الشبه فيها . لأنَّ الشعر لا بد من قصد الوزن فيه والقافية والقرآن فوق ذلك .

* * *

(١) التوبة : ١٤   (٢) الطلاق : ٢ - ٣   (٣) المؤمنون : ٣٦

(٤) ورد هذا فى كثير من كتب المحدثين مثل : « التفكير فريضة اسلامية للعقاد ص ١١٤ ، ومن بلاغة القرآن : للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٢٤٥   (٥) آل عمران : ٩٢

● النغم القرآني عند المحدَثين :

وقد سطر المرحوم محمد عبد الله دراز في كتابه « النبأ العظيم » فقرات جد رائعة في هذا المجال من الخير أن نجتزئ ما تيسر منها :

قال (١) : « دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه . ثم انتبذ منه مكاناً قصياً (٢) لا تسمع فيه جرس حروفه ولكن تسمع حركاتها وسكناتها . ومداتها وغناتها . واتصالاتها وسكناتها . ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية . وقد جُرِّدت تجريداً . وأرسلت ساذجة في الهواء . فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لوجود هذا التجويد » .

وقال : « لا عجب إذن أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شِعر لأنها وجدت في توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا في الشِعر . ولا عجب أن ترجع إلى نفسها فتقول : ما هو بشِعر ، لأنه - كما قال الوليد - ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده .. ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حد وسط . فكان لها من النثر جلالته وروعته . ومن الشِعر جماله ورونقه » (٣) .

هذا كلام حق ، ووصف دقيق يمسه كل عاقل متأمل في كتاب الله . وقد أثار الكاتب في الجزء الأخير الذي نقلناه عنه قضية لها خطورتها في مجال بحثنا هذا .

● مطاعنهم في القرآن .. مبعثها الإعجاب :

وهي أن العرب الذين لم يستجيبوا لدعوة الإسلام . وعارضوا الدعوة وصاحبها عليه السلام حين تلمسوا وجوه الطعن في القرآن الكريم لم يخرجوا

---

(١) النبأ العظيم ص ٩٥

(٢) هي في الأصل : « قسياً » ، والصحيح ما ذكرناه .

(٣) نفس المصدر ص ٩٧

عن كونه أساطير الأوَّلين ... أو سحراً يؤثر . أو رِئياً من الجن ، أو هو شِعر . وقالوا مرة : إنما يُعلِّمه بَشر .

وهذه النسب - كما زعموا - إنما صاروا إليها لأنهم وجدوا فى القرآن عِزَّة وغرابة فقالوا : إنه سحر أو أساطير الأوَّلين . والسحر - كما هو معروف - يُنسب إليه ما لا تجرى به العادة فدلت هذه النسبة على أنهم كانوا يرون أنفسهم دونه . أما الغرابة التى أحسوها فيه فهى تتمثل فى نسبته إلى أساطير الأوَّلين . والأسطورة ذات دلالة غنية من أجلها تتناقلها الأجيال . وما زال العُرف يطلق كلمة أسطورة على كل غريب خارق ، أما نسبته إلى الجن فهم كانوا يعتقدون أن للإجادة فى فن القول شيطاناً ملهماً . وهذا يفسر لنا - أيضاً - إحساسهم القوى بسمو القرآن وبلوغه حداً فى الإعجاز جفَّت دونه الأقلام .

وحتى عندما سوَّلت لهم أنفسهم أن ينسبوا تعليمه - عليه السلام - إلى بَشر .. نسبوه إلى مَن هو خارج عن بيئتهم ، بدليل رد القرآن عليهم :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

* *

● لماذا سموه شِعراً :

إنهم حين نسبوه إلى فن من فنونهم لم يتجاوزوا به حد الشعر . فلم يقولوا إنه خطب ولا نثر مسجوع كسجع الكهان . لم يقرلوا شيئاً من ذلك . وإنما قالوا هو شِعر .

والعِلَّة واضحة هى ما لمسوه فيه من إيقاع موسيقى شجى . ونغم صوتى ساحر يحسونه ويتذوقونه ويسجدون إعجاباً به بينهم وبين أنفسهم وإن عاندوا وكابروا ظاهراً .

---

(١) النحل : ١٠٣ .

وللشعر فى دولتهم دولة . وفى حياتهم حياة . وهذه النسبة - كذلك - ترينا - أحبوا أم كرهوا - ما للقرآن عندهم وفى قرارة أنفسهم من منزلة صغروا أمامها . ونبأت طعونهم عنها من حيث لا يشعرون .

والخلاصة ... أن قريشاً حين أرادت أن تنفى عن القرآن كونه وحياً من عند الله لم تنسبه إلا إلى ما تدين له أنفسهم بالولاء لأنه فوق الطاقة بعزِّته وغرابته وما من شأنه أن يستولى على شعور الناس ويأسر ألبابهم .

* *

● خاصتان بارزتان :

فى القرآن خاصتان صوتيتان بارزتان . هما : الإطلاق والتقييد ، أو الإرسال من القيود والتسجيع . فى القرآن إرسال . وفيه سجع . ولا يتنافى هذا مع جلال القرآن وإعجازه .

لأن إطلاقه فريد لم يأت إلا فيه . وسجعه - كذلك - فريد لم يحظ بشرفه غيره . هما مخالفان لما يتناوله الناس من قول .

القرآن يلتزم حرف السجع فى أكثر من موضعين متجاورين . وهو أدنى حد للسجع وقد يأتى بالسورة كلها مسجوعة على حرف واحد

خذ - مثلاً - سورة القمر ، تجد أنها مسجوعة على حرف الراء من أول آية فيها حتى آخر آية :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ (١) .. إلخ .

---

(١) القمر : ١ - ٥

وقد جاءت فى سورة « عبس » عشر آيات مسجوعة على حرف واحد هو « الألف » كما لازم حرف السجع فيها قصر الآيات وجزالة الألفاظ . لأن المقام مقام عتاب وتوجيه .

* * *

● النغم فى الآيات القصار :

وتزداد ظاهرة الإيقاع الصوتى فى القرآن وضوحاً إذا قصرت الآيات وكان السجع ملحوظاً فى فواصلها . وقد تفصل جمل السجع بجملة غير مسجوعة . أو جمل .

ويلحظ الباحث - أحياناً - فى الجملة غير المسجوعة التى توسطت جملاً مسجوعة معنى خاصاً أبرزها فى ذلك المظهر الفريد بين أخوات لها وأشباه .

ولننظر فى النص الآتى من سورة عبس :

﴿ قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * منْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * من نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إذَا شَاءَ أنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أمَرَهُ * فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إلَىٰ طَعَامه * أنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأرْضَ شَقّاً * فَأنبَتْنَا فيهَا حَبّاً * وَعنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأنْعَامكُمْ * فَإذَا جَاءَت الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفرُّ المَرْءُ منْ أخيه * وَأُمِّهِ وَأَبيه * وَصَاحبَته وَبَنيه * لكُلِّ امْرئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئذ شَأنٌ يُغْنيه * وُجُوهٌ يَوْمَئذ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحكَةٌ مُّسْتَبْشرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئذٍ عَلَيْهَا غَبرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ ﴾ (١) .

فى هذا النص الحكيم جاءت كلمة « طعامه » فاصلة بين مجموعتين من الآيات . الأولى مسجوعة على حرف واحد هو الهاء . والأخرى مسجوعة على

---

(١) عبس : ١٧ - ٤٢

الألف . وحرف السجع فى النوعين قد يلتزم معه حرف آخر يزيد به الإيقاع وضوحاً . والنظر فى النص كاف لإدراك هذا الملحظ .

كذلك فإن كلمات السجع قد تتساوى فى الوزن من حيث عدد الحروف والحركات والسكنات ، ولعل السر فى الفصل بين هاتين المجموعتين المسجوعتين بالفاصلة « طعامه » مع آيتها لأن هذه الآية رأس موضوع جديد وإجمال مشوق أعقبه تفصيل حكيم : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ ؟

هذه إثارة وتهيئة للشعور حتى يخلو من كل شاغل يلهيه عن تقرير واستيعاب شرح هذه الفكرة .

*

● مراحل إعداد الطعام :

وقد صدرت هذه الإثارة بلام الأمر ولفت الأنظار لفتاً قوياً إلى الطعام الذى هو عند الإنسان قوام حياته وضمان أمنه وعدة مستقبله .

فهذا التباين فى المعنى حمل - والله أعلم - على التباين فى اللفظ . ثم جاءت الآيات تترى واحدة إثر أخرى تبين مراحل إعداد الطعام .

بادئة بالمرحلة الأم : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً ﴾ والتعبير بـ « الصب » موح بكثرة الماء النازل من السماء لتحيا به الأرض وتنبت من كل زوج بهيج .

ثم ثنّت بالمرحلة الثانية : ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً ﴾ والتعبير بحرف العطف « ثم » دون غيره من حروف العطف صنع حكيم . لأن انشقاق الأرض بالنبات لا يكون عقب صب الماء مباشرة بل هناك زمن فاصل بين المرحلتين فجاءت « ثم » لإفادة الترتيب مع التراخى اللازم .

ثم كانت المرحل الثالثة : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ﴾ وبين هذه المراحل الثلاث ترتيب فى الوجود كما رتبت فى الأسلوب .

ولما كان إنبات الحَب وما أشبه يُرى إثر انشقاق الأرض لأنها لا تنشق إلا به ، وكان الفاصل بينهما دقيقاً إلى درجة التلازم فى الوجود جاء حرف العطف « الفاء » المفيد للتعقيب مع الترتيب . وبهذا تنتهى مراحل إعداد الطعام الثلاث .

ولما كان العطف فيما بقى ليس عطف مرحلة على مرحلة . وإنما عطف جزء من المرحلة - الأخيرة - على جزء آخر منها . وهذه الأجزاء لا يتصور فيها سابق ولا لاحق بل قد تنبت متصاحبة أو متفرقة دون أن يكون لتفرقها فى الإنبات دور وعظى تؤديه . لهذه الاعتبارات كلها كان حرف العطف « الواو » إذ هى أليق بالمقام لأنها لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ولا تراخياً . بل هى - كما هو معلوم - لمجرد العطف .

وفى تقديم الحَب على النعَم المذكورة معه . وجعله أصلاً صالحاً للعطف عليه سر دقيق . ذلك لأن الحَب يُصنع منه الخبز وهو أهم ما يعتمد عليه الإنسان فى حياته وحفظها . أما الأخرى فهى نعم - وإن كان لها دور كبير فى حياة الإنسان - فإنها دونه .

وكما خولف فى فاصلة رأس الموضوع : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ خولف - كذلك - فى نهايته : ﴿ مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

*

● مشاهد مطوية :

وانتهت مراحل إعداد الطعام عند هذا الحد . ولم يدخل فيها جمع الزرع وحصده ... ودرسه وتذريته ثم طحنه وخبزه .

وهذه خطوات سابقة ضرورة لانتفاع الإنسان بما يطعم . لكن القرآن طوى ذكرها ولم يتعرض لها .

والسر : أن هذه الخطوات إنما يقوم بها الإنسان نفسه . وليست من مراحل التكوين بل هى مراحل ثانوية مختصة بتهيئة « الذوات » بعد تكوينها

وإيجادها وغرضها إدخال صفات عليها تجعلها قابلة للانتفاع بها فى مراحلها النهائية .

وبعد هذا البيان الراشد . نجد أنفسنا أمام رأس موضوع آخر . وإجمال أعقبه تفصيل كذلك .

* *

● مشهد أخروى مثير :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ وقد صنع بفاصلته كما صنع بفاصلة رأس الموضوع السابق . فجاءت مخالفة لما سبق وما لحق .

ثم سلك القرآن فى تفصيله وبيانه . مثل ما سلك فى تفصيل وبيان رأس الموضوع السابق .

آيات كاشفة ذات وزن متحد - تقريباً - وفواصل متحدة موزونة زنة واحدة كذلك . وقد جاء هذا التفصيل فى مجموعتين من الآيات . كل منهما تُصورِّ جانباً خاصاً .

المجموعة الأولى : تتحدث عما ينتاب الناس - جميعاً - من أهوال تزول تحت وطأتها الروابط الوثيقة التى كانت بينهم فى الحياة الدنيا .

والمجموعة الثانية : تتحدث عن صفات الفريقين التى سيصير إليها الناس . حسب ما قدَّموه من أعمال : صالحين ، وطالحين .

وقد اختصت كل من المجموعتين بفاصلة خاصة . الأولى كانت فاصلتها « هاء المفرد الغائب » تالية لحرف مد « الياء » وهى : « أخيه - أبيه - بنيه - يغنيه » .

والثانية جاءت فاصلتها « التاء المربوطة » تاليه للراء المفتوحة . وهى : « مسفرة - مستبشرة - غبرة - قترة - الكفرة » .

فانظر لهذه السياسة الحكيمة فى بناء الأسلوب . والملاءمة التامة بين ألفاظه ومعانيه وتوزيع الحركات والسكنات على نهج فريد ، « يُدرك بالذوق والحس . ولا تحده الرسوم ولا الضوابط » .

* * *

● هندسة الجمل :

وقد تكون الجملتان المسجوعتان متوازنتين فى القصر ، كما فى مطلع سورة « التكوير » : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا العِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ (١) .

وكما فى مطلع سورة « الواقعة » : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثّاً * وَكُنتُم أَزْوَاجاً ثَلاثَةً ﴾ (٢) .

وقد يكون التوازن بينهما فى الطول ، ومرسلتان فى ما عدا الفواصل . وهما فى إرسالهما مخالفتان لمرسل الناس لوجود الفاصلة المتحدة أو المتماثلة فى آخرها . ومن هذا النوع أغلب آى القرآن الكريم .

*

● ثلاث فواصل متحدة :

ومنه مثلاً قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ * هُوَ الحَىُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الحَمْدُ لِلَّه رَبِّ العَالَمِينَ * قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِى البَيِّنَاتُ مِن رَّبِّى * وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) التكوير : ١ - ٤ (٢) الواقعة : ١ - ٧ (٣) غافر : ٦٤ - ٦٦

هذه ثلاث آيات اتحدت فواصلها فجاءت كلمة واحدة : ﴿ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ ومع هذا التكرار فى الفاصلة لم تحس فى التعبير إلا جمالاً وجدة خرج معها التكرار مخرج الجودة والحسن .

نعم .. الفاصلة متحدة لفظاً ومعنى فى المواضع الثلاثة . ولكن ما قبل الفاصلة مختلف من موضع إلى آخر .

ففى الآية الأولى جاءت : ﴿ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ بدلاً ، أو صفة لاسم الجلالة . وهى على كلا الاحتمالين مرفوعة الصدر .

وفى الموضع الثانى جاءت مجرورة عليهما أيضاً ، وكذلك فى الموضع الثالث. هذا من حيث ضبطها فى اللفظ .

وأما من حيث تعلقها مع ما جاءت بدلاً منه أو صفة له . ففيه سر آسر .

فى الأولى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ .

وفى الثانية : ﴿ الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ .

وفى الثالثة : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ .

والمتأمل يجد بين المواضع الثلاثة تسلسلاً مرتباً ترتيب المسبب على السبب فالتبارك مستوجب للحمد ومَن تحقق له هذان الغرضان وشعر بعظمة اللّه وفضائله وحمده عليها وجب أن يسلم له ويخضع لإرادته . وهذا التغاير فى المعنى هو موطن السر فى خفة روح التكرار فيه وخلابة أثره لفظاً ومعنى .

وهذه الجدة فى المواضع الثلاثة وقفت أمام كثير من الأهواء الزائفة التى تتخذ من صور التكرار فى القرآن وجوهاً للطعن فيه . ونحن نعلم أن التكرار غير المفصول بين مواضعه بفاصل طويل . يعد عيباً من عيوب القافية . وقد سماه العروضيون « الإيطاء » ، لكن هذا العيب لا مفهوم له هنا على رغم ما هو وجيه هناك . لأن التصرف فى الشكل إذا تطلبه المعنى كان بعيداً عن كل نقد .

وقد جاء هذا التكرار فى الفاصلة فى سورة البقرة فى ثلاث آيات متتابعة هى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ، لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وإن كان لا بد من كلمة - هنا - فإننا نلاحظ :

أولاً : أن ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ فى الآية الأولى واقعة فى حيِّز النفى من حيث الظاهر وإلا فالمقام مقام إثبات إذ هم يعلمون . وإنما شبَّه حالهم لكونهم قد صدر منهم فعل لا يصدر إلا ممن لا يعلم ـ وهو نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم - بحال مَن لا يعلم وفى الواقع هم عالمون . فنزل علمهم حيث لم ينتفعوا به منزلة الجهل .

ثانياً : أن الآية الثانية قد طالت بحيث لا يظهر مع طولها تكرار الفاصلة مع ما قبلها ـ هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن لفظ « العلم » قد تكرر فيها مرات . لكنه يتردد بين الممدوح والمذموم كتعلم السحر . ثم ذكر لفظ ، «العلم»

---

(١) البقرة : ١٠١ - ١٠٣

قبل الفاصلة ليمهد للحكم عليهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وكون الفاصلة هنا - كذلك - مسلك اقتضته البلاغة ، ودعا إليه المعنى توبيخاً لهم وإظهاراً لحقارة ما تعلّموه من فن السحر والأباطيل .

وجاءت الفاصلة فى الآية الثالثة مماثلة للثانية تماماً : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ لأن الآية الثالثة تأكيد لما جاء فى عجز الثانية . لذلك اتحدتا فى الفاصلة .

وهذا - كما سبق - أمر اقتضاه المعنى فى المواضع الثلاثة . وهذا شرط حسنها والحرص على الإتيان بها متماثلة .

* *

● مغزى الفاصلة معنوى أولاً :

قال الزمخشرى فى كشافه القديم : « إنه لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعانى على سدادها على المنهج الذى يقتضيه حسن النظم والتئامه - كما لا يحسن تخير اللفظ المونق فى السمع ، السلس على اللسان إلا مع مجيئه منقاداً للمعانى الصحيحة المنتظمة . فأما أن تهمل المعانى ويهتم بتحسين اللفظ وحده . غير منظور فيه إلى مؤداه على بال . فليس من البلاغة فى فتيل أو نقير . ومع ذلك يكون قوله : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) لا يتأتى فيه ترك التناسب فى العطف بين الجمل الفعلية إيثاراً للفاصلة لأن ذلك أمر لفظى لا طائل تحته . إنما هذا إلى قصد الاختصاص » (٣) .

* * *

(١) البقرة : ٤ (٢) البقرة : ٣

(٣) البرهان للزركشى : ٧٢/١ (بتصرف يسير) .

● شمس الدين ابن الحنفى ، والفواصل القرآنية :

ولما كانت الفواصل تؤدى دوراً مهماً فى الإيقاع الصوتى فى القرآن الكريم . إلى جانب دورها المهم فى تأكيد المعانى وإيضاحه فقد سلك بها مسلك خاص . وقد جمع شمس الدين ابن الحنفى أربعين ملحظاً لغوياً روعيت من أجل المعنى . وكانت أنسب من حيث النغم الصوتى فى رءوس الآى .، ونحن نوجز ما ذكره مع تعليق لنا عليه :

١ - تقديم المعمول . إما على العامل نحو : ﴿ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (١) ، أو على معمول آخر أصله التقديم نحو : ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ (٢) .. والأصل عنده : « لنريك الكبرى من آياتنا » هذا ما يُفهم من كلامه (٣) . وإما على الفاعل نحو : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾(٤)، وكذلك تقديم خبر كان على اسمها نحو : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٥) .

٢ - تقديم ما هو متأخر فى الزمان نحو : ﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى ﴾ (٦) .

٣ - تقديم الفاضل على الأفضل نحو : ﴿ بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (٧) .

٤ - تقديم الضمير على ما يفسره نحو : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ (٨) .

٥ - تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة نحو : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً ﴾ (٩) .

---

(١) سبأ : ٤٠ . (٢) طه : ٢٣ (٣) انظر الإتقان للسيوطى : ٩٨/٢

(٤) القمر : ٤١ (٥) الإخلاص : ٤ (٦) النجم : ٢٥

(٧) طه : ٧٠ . (٨) طه : ٦٧ (٩) الإسراء : ١٣

٦ - حذف ياء المنقوص : ﴿ الكَبِيرُ المُتَعَالِ ﴾ [١] و ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ [٢] .

٧ - حذف ياء الفعل غير المجزوم نحو : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [٣] .

٨ - حذف ياء الإضافة نحو : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ [٤] .

٩ - زيادة حرف المد ، مثل : ﴿ الظُّنُونَا ﴾ [٥] و ﴿ السَّبِيلَا ﴾ [٦] و ﴿ الرَّسُولَا ﴾ [٧] قال : ومنه إبقاؤه مع الجازم نحو : ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [٨] و ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴾ [٩] على القول بأنه نهى [١٠] .

١٠ - صرف مالا ينصرف نحو : ﴿ قَوَارِيرَاْ * قَوَارِيرَاْ ﴾ [١١] .

١١ - إيثار تذكير اسم الجنس كقوله : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [١٢] .

١٢ - إيثار تأنيثه نحو : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [١٣] .

١٣ - الاقتصار على أحد الوجهين الجائزين اللذين قرئ بهما فى السبع فى غير ذلك نحو : ﴿ فَأُوْلَٰئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَداً ﴾ [١٤] قال : « ولم يجئ رشداً فى السبع » ، وكذا : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ لأن الفواصل فى السورتين محركة الوسط » [١٥] .

يقصد أن فتح « الشين والراء » فى هذين الموضعين لم يجمع عليهما القرّاء السبعة وقد جاء خلاف ذلك فى غير هذين الموضعين نحو : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ ﴾ [١٦] بضم الراء وسكون الشين .

---

(١) الرعد : ٩
(٢) غافر : ٣٢
(٣) الفجر : ٤
(٤) القمر : ١٦
(٥) الأحزاب : ١٠
(٦) الأحزاب : ٦٧
(٧) الأحزاب : ٦٦
(٨) طه : ٧٧
(٩) الأعلى : ٦
(١٠) المصدر السابق ص ٩٩
(١١) الإنسان : ١٥ - ١٦
(١٢) القمر : ٢٠
(١٣) الحاقة : ٧
(١٤) الجن : ١٤
(١٥) المصدر السابق ص ٩٩ - والآية من سورة الكهف : ١٠
(١٦) الأعراف : ١٤٦

قال : ونظير ذلك قراءه : ﴿ تبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [1] بفتح الهاء وسكونها ، ولم يقرأ : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [2] إلا بالفتح لمراعاة الفاصلة [3] .

١٤ - إيراد الجملة التى رد بها ما قبلها على غير وجه المطابقة فى الإسمية والفعلية نحو : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [4] لم يطابق فيقول : « لم يؤمنوا » لذلك .

١٥ - إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك . نحو : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ ﴾ [5] لم يقل : « كذبوا » .

١٦ - إيراد أحد جزئ الجملتين على غير الوجه الذى أورد عليه نظيرها من الجملة الأخرى نحو : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [6] .

١٧ - إيثار أغرب اللفظين نحو : ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [7] ، ونحو : ﴿ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ﴾ [8] بدل : « جنهم » . وقال فى المدثر : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [9] ، وفى سأل : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ [10] ، وفى القارعة : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [11] لمراعاة الفواصل فى كل سورة .

١٨ - اختصاص كل من المشتركين بموضع نحو : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [12] ، وفى طه : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَىٰ ﴾ [13] .

١٩ - حذف المعقول نحو : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ [14] ، ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [15] .

---

(١) المسد : ١ — (٢) المسد : ٣ — (٣) نفس المصدر ص ٩٩

(٤) البقرة : ٨ — (٥) العنكبوت : ٣ — (٦) البقرة : ١٧٧

(٧) النجم : ٢٢ — (٨) الهمزة : ٤ — (٩) المدثر : ٢٦

(١٠) المعارج : ١٥ — (١١) القارعة : ٩ — (١٢) إبراهيم : ٥٢

(١٣) طه : ٥٤ — (١٤) الليل : ٥ — (١٥) الضحى : ٣

ومنه حذف متعلق أفعل التفضيل : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (١) و ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٢) .

٢٠ - الاستغناء بالإفراد عن التثنية نحو : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ (٣) .

٢١ - الاستغناء به عن الجمع . نحو : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ (٤) ، ونحو : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ (٥) لم يقل : « أئمة » ، ولا « أنهار » كما ورد فى غير هذين الموضعين .

٢٢ - الاستغناء بالتثنية عن الإفراد نحو : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (٦) فثنى لأجل الفاصلة ، ومثله : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ (٧) فإنهما رجلان . ولم يقل : « أشقياها » للفاصلة .

٢٣ - الاستغناء بالتثنية عن الجمع نحو قوله : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ (٨) .

٢٤ - الاستغناء بالجمع عن الإفراد نحو : ﴿ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ (٩) أى : ولا خلة ، فجمع للفاصلة .

٢٥ - إجراء غير العاقل مجرى العاقل : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١٠) و ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (١١) .

٢٦ - إمالة ما لا يمال كآى طه والنجم .

٢٧ - الإتيان بصيغة المبالغة نحو : « قدير » و « عليم » مع ترك ذلك فى بعض المواضع . ومنه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (١٢) .

---

(١) طه : ٧ — (٢) طه : ٧٣ — (٣) طه : ١١٧

(٤) الفرقان : ٧٤ — (٥) القمر : ٥٤ — (٦) الرحمن : ٤٦

(٧) الشمس : ١٢ — (٨) الرحمن : ٤٨ — (٩) إبراهيم : ٣١

(١٠) الأنبياء : ٣٣ — (١١) يوسف : ٤ — (١٢) مريم : ٦٤

٢٨ - إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض . نحو : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (١) .

٢٩ - الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه . نحو : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (٢) .

٣٠ - إيقاع الظاهر موقع الضمير . نحو : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (٣) .

٣١ - وقوع مفعول موقع فاعل . نحو : ﴿ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ (٤) أى ساتر.

٣٢ - وقوع فاعل موقع مفعول . نحو : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ (٦) .

٣٣ - الفصل بين الصفة والموصوف . نحو : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ (٧) إن أعرب « أحوى » صفة للمرعى أى حالاً .

٣٤ - إيقاع حرف مكان غيره.نحو : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ (٨) أى إليها .

٣٥ - تأخير الوصف الأبلغ . ومنه : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٩) .

وفى هذا الموضع قصور فى التعبير . لأن الأولى أن يقول : تأخير الوصف الأبلغ عما هو دونه .

٣٦ - حذف الفاعل ونيابة المفعول . نحو : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴾ (١٠) .

---

(١) سورة ص : ٥ — (٢) طه : ١٢٩ — (٣) الأعراف : ١٧٠.
(٤) الإسراء : ٤٥ — (٥) الحاقة : ٢١ — (٦) الطارق : ٦
(٧) الأعلى : ٥ — (٨) الزلزلة : ٥ — (٩) الفاتحة : ٣
(١٠) الليل : ١٩

٣٧ - إثبات هاء السكت . نحو : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ (١) .

٣٨ - الجمع بين المجرورات.نحو: ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ (٢) قال : « فإنَّ الأحسن الفصل بينها إلا أن الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير: تبيعاً ».

٣٩ - العدول عن صيغة المضى إلى الاستقبال : ﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ (٣) .

٤٠ - تغيير صيغة الكلمة . نحو : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (٤) والأصل : سيناء (٥) .

* *

● وقفة ناقدة :

الحقيقة التى يجب التسليم بها - ولا بديل لذلك أبداً - أن تحقيق الانسجام الصوتى فى القرآن الكريم قد اختص بمثل هذه العوامل .

على أن هذه الحقيقة يجب أن تُشفع بحقيقة أخرى . مؤداها : أن هذه التسهيلات لم تكن لرعاية اللفظ على جانب المعنى وإلا ما كنا نرى فى آى القرآن مواضع كثيرة - وكثيرة جداً - تركت تلك الرعاية اللفظية وخولف بين الفواصل فيها مع إمكان مجيئها على نسق واحد .

فهذه التسهيلات إنما أوفت بحق المعنى كما أوفت بحق اللفظ ولا شك فى أن ما كان شأنه كذلك كان بالجودة والحسن أولى .

ولنذكر لذلك مثلاً :

قال تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً ﴾ (٦) جاءت هذه الآية فى سياق فاصلتها الراء المسبوقة بحرف مد . والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً ، فكان أن يقال : « ساتراً » .

---

(١) الحاقة : ٢٩ (٢) الإسراء : ٦٩ (٣) البقرة : ٨٧

(٤) التين : ٢ (٥) الإتقان للسيوطى : ٩٩/١ ، ١٠٠ (٦) الإسراء : ٤٥

وهذا أغرى صاحب الملاحظات أن يقول : إن وقوع مفعول مكان فاعل إنما جاء من أجل الرعاية اللفظية . وهذا وهم .

وإنما الداعى إلى ذلك هو المبالغة فى قوة المعنى . وأن الحجاب الذى جُعِلَ بين الكافرين وبين الرسول وما يتلوه من آيات بيِّنات . لعدم انتفاعهم بها وشدة نفورهم عنها . كاد يكون لقوة ستره مستوراً . أى أن أثره تعدى موضعه حتى شمل الحجاب نفسه ففى التعبير تخييل على حد قول الشاعر :

وَمَا أَنَا وَحْدِى قُلْتُ ذَا الشِعْرَ كُلَّهُ ... وَلَكِنْ لِشِعْرِى فِيْكَ مِن نَفْسِه آياتُ شِعْرِ

ففى العبارة مجاز عقلى . وكذلك يقال فى قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (١) مما أطلق عليه : إيقاع فاعل موقع مفعول .

وقد ذهب - كذلك إلى أن إجراء غير العاقل مجرى العاقل من أجل رعاية الفاصلة . والواقع يخالفه .

لأن العلّة فى إجرائه هذا المجرى أن أسند إليه من الأعمال ما لا يصدر إلا عن العاقل ، وواضح أن السجود والسبح من أعمال العاقلين . ذلك هو السبب . وليس رعاية الفاصلة وحدها كما زعم .

والتعبير بهذا الأسلوب فيه تحقيق للمعنى وتقوية . فالسجود الصادر من الشمس والقمر والكواكب مماثل لما يصدر ممن هو أهل له فى الفهم والإدراك .

والسبح الصادر منهما مماثل لسباحة السبَّاحين الماهرين فى السهولة والانبساط (٢) والانتظام حيث لا اضطراب فيه . ولا اختلال فى سيره .

وهذه ظاهرة أسلوبية فى القرآن لم تقف عند ما ذكره . فقد جاء فيه عن الأرض والسماء : ﴿ قَالَتَا آتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٣) وغير ذلك كثير .

---

(١) الحاقة : ٢١ (٢) تفسير أبو السعود : ٣٨١/٤ (٣) فصلت : ١١

على أن بعض المواضع التى ذكرها تبدو عليها سمة الضعف . إذ لا دليل له فيما ذكره من حذف الياء لأجل الفاصلة مستشهداً بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (١) .

إذن فماذا يصنع بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ (٣) وليسا برأسيى آية ؟

ومثلها فى الضعف ما ذكره من تقديم هارون على موسى . وقد ناقشنا هذا فى البحث السابق . بما لا حاجة إلى ذكره هنا .

وكذلك ما ذكره دليلاً على الفصل بين الصفة والموصوف : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ (٤) حيث جوَّز أن يكون « أحوى » صفة للمرعى ليسلم له الدليل وما الداعى لذلك ؟ ولماذا لا يكون « أحوى » صفة « غثاء » ؟

* * *

● توجيه ابن أبى الإصبع لموضع مماثل :

والذى يجب التنبيه عليه هنا - أيضاً - أن القرآن الكريم يُرى - أحياناً - قد سلك مسلكاً يبدو مخالفاً للعرف اللغوى والنحوى حسبما هو مشهور عند العلماء . لكن كل موضع حدث فيه ذلك يتضح من البحث العميق فيه ألا مجافاة ولا مخالفة لغوية ولا نحوية وإنما هو أسلوب محكم قد بدت فيه اللغة فى أسمى ما تكون .

ونسوق مثالاً على ذلك :

قال الله تعالى : ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ، وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (٥)

---

(١) الفجر : ٤ (٢) الكهف : ٦٤ (٣) الأعراف : ١٧٨
(٤) الأعلى : ٤ - ٥ (٥) آل عمران : ١١١

قال ابن أبى الإصبع فى توجيه هذه الآية : « فإن على ظاهر هذه الآية إشكالين : أحدهما من جهة الإعراب . والآخر من جهة المعنى . فأما الذى من جهة الإعراب فعطف ما ليس بمجزوم على المجزوم ، والذى من جهة المعنى أنَّ صدر الآية يغنى عن فاصلتها لأن توليهم عند المقاتلة دليل على الخذلان ... والخذلان والنصر لا يجتمعان ».

« والجواب أن الله سبحانه وتعالى أخبر المؤمنين بأن عدوهم هذا إن قاتلهم إنهزم . ثم أراد – وهو أعلم – تكميل القوة بإخبارهم أنه مع توليه الآن لا يُنصر أبداً فى الاستقبال . فهو مخذول أبداً ما قاتلهم . فيثق المؤمنون بنصر الله تعالى لهم على هذا العدو . ويتيقنوا أنه متى قاتلهم كان مخذولاً . فيقدموا على لقائه كلما أرادوا ذلك بثبات قلوب ، وقوة نفوس . لا يتوقفون فى لقائه ولا يخشون مغبة قتاله . ولو وقع الاقتصار على دون الفاصلة لم يوف الكلام بهذا المعنى . لأنه لا يعطى قوله : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ﴾ أنهم متى قاتلوهم كان الأمر ذلك ... ولما علم سبحانه – وهو أعلم – أن الاقتصار على ما دون الفاصلة لا يُفهم منه دوام هذه البشارة إلى آخر الأبد . والمقصود دوامها قال : ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ . ومنع الفعل الجزم . وإن عطف على مجزوم ليبقى المعنى الذى وضعت له صيغة المضارع من الدلالة على الحال والاستقبال . فيُعلم أنه أراد – وهو أعلم – أنهم لا يُنصرون فى الحال . ولا فى الاستقبال . ونوى من الفعل الاستئناف لا العطف على ما تقدم فيُقدَّر أنه قال : « ثم هم لا يُنصرون » ..

وأحسن ما وقع فى هذا النظم اختيار لفظة « ثم » دون سائر حروف العطف لما تدل عليه من التراخى والمهلة الملائمة لما قصد من الاستقبال فاتضح المعنى وارتفع الإشكال . وتضمنت هذه اللفظات السبع : ستة عشر ضرباً من البديع : « التعليق ، والمطابقة المعنوية ، والاحتراس ، والتكميل ، والتنكيت ، والمقارنة ، والإيضاح ، والإدماج ، والترشيح ، والإيغال ، والإيجاز ، والافتنان ، وحسن

النسق ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والمثل السائر » . وأعجب ما وقع فيها أن حرفاً واحداً منها وقع فيه - على انفراده - ثمانية أضرب . والحرف لفظة « ثم » وقع فيها الاحتراس والتنكيت والمقارنة والإيضاح . والإدماج والتكميل . وحسن النسق والترشيح . توجد هذه الضروب بوجودها وتعدم بعدمها . وبيان هذا أنّا لو قدّرنا موضعها « الواو » لسقط ذلك كله (١) .

وقد فات هذا الموضع ابن الصائغ ولو وقف عليه لسماه : « عطف المرفوع على المجزوم » ، كما فات صاحب « البرهان » الذى راح يردد ما قاله متفقاً ومخالفاً (٢) .

* * *

● التكرار :

يقع التكرار فى القرآن الكريم على وجوه :

١ - مرة يكون المكرر أداة تؤدى وظيفة فى الجملة بعد أن تستوفى ركنيها الأساسيين .

٢ - وأخرى تتكرر كلمة مع أختها لداع ، بحيث تفيد معنى لا يمكن الحصول عليه بدونها .

٣ - فاصلة تكرر فى سورة واحدة على نمط واحد .

٤ - قصة تتكرر فى مواضع متعددة مع اختلاف فى طرق الصياغة وعرض الفكرة .

٥ - بعض الأوامر والنواهى والإرشادات والنصح مما يقرر حكماً شرعياً أو يحث على فضيلة أو ينهى عن رذيلة أو يرغب فى خير أو ينفر من شر .

---

(١) بديع القرآن ص ٢٦١ - ٢٦٣ مع تصرف يسير للحذف (تحقيق محمد حفنى شرف) .

(٢) انظر البرهان للزركشى : ١/ ٦٠ - ٦٧

وتكرار القرآن فى جميع هذه المواضع التى ذكرناها ، والتى لم نذكرها ، مما يُلحظ عليها سمة التكرار . فى هذا كله يباين التكرار القرآنى ما يقع فى غيره من الأساليب لأن التكرار وهو فن قولى معروف . قد لا يسلم الأسلوب معه من القلق والاضطراب فيكون هدفاً للنقد والطعن . لأن التكرار رخصة فى الأسلوب - إذا صح هذا التعبير - والرخص يجب أن تؤتى فى حذر ويقظة .

* *

● وظيفة التكرار فى القرآن :

مع هذه المزالق كلها جاء التكرار فى القرآن الكريم محكماً . وقد ورد فيه كثيراً - فليس فيه موضع قد أخذ عليه - بله دعاوى المغالين فإن بينهم وبين القرآن تارات فهم له أعداء - وإذا أحسنا الفهم لكتاب الله فإن التكرار فيه - مع سلامته من المآخذ والعيوب - يؤدى وظيفتين :

أولاهما : من الناحية الدينية .

ثانيتهما : من الناحية الأدبية .

فالناحية الدينية - باعتبار أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع - لا يخلو منها فن من فنونه ، وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية هو تقرير المكرر وتوكيده وإظهار العناية به ليكون فى السلوك أمثل وللاعتقاد أبين .

أما الناحية الأدبية فإن دور التكرار فيها متعدد وإن كان الهدف منه فى جميع مواضعه يؤدى إلى تأكيد المعانى وإبرازها فى معرض الوضوح والبيان .

وليكن حديثنا عنه على حسب المنهج الذى أثبتناه فى صدر هذا البحث .

* *

● تكرار الأداة :

ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) النحل : ١١٠ .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

والظاهر من النظر فى الآيتين تكرار « إنَّ » فيهما . وهذا الظاهر يقتضى الاكتفاء بـ « إنَّ » الأولى . ولم يطلب إلا خبرها . وهو فى الموضعين - أعنى الخبر - « لغفور رحيم » لكن هذا الظاهر خولف وأعيدت « إنَّ » مرة أخرى . ولهذه المخالفة سبب .

وهذا السبب هو طول الفصل بين « إنَّ » الأولى وخبرها . وهذا أمر يُشعِر بتنافيه مع الغرض المسوقة من أجله « إنَّ » وهو التوكيد . لهذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ النسبة بين الركنين على ما حقها أن تكون عليه من التوكيد .

على أن هناك وظيفة أخرى هى : لو أن قارئاً تلا هاتين الآيتين دون أن يكرر فيهما « إنَّ » ثم تلاهما بتكرارها مرة أخرى لظهر له الفرق بين الحالتين : قلب وضعف فى الأولى ، وتناسق وقوة فى الثانية .

ومن أجل هذا الطول كررت فى قول الشاعر (٢) :

وَإِنِ امرأً طَالَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ   عَلَى مِثْلِ هَذَا . إِنَّهُ لَكَرِيمُ

يقول ابن الأثير رائياً هذا الرأى : « ... فإذا وردت « إنْ » وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام . فإعادة « إنَّ » أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة كالذى تقدَّم من الآيات » (٣) .

* *

(١) النحل : ١١٩

(٢) ديوان الحماسة : ١٠٥/٢ - ولم ينسب لقائل معين .

(٣) المثل السائر : ٧/٣ تحقيق الأستاذين بدوى طبانة وأحمد الحوفى .

● تكرار الكلمة مع أُختها :

ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ [1] .

فقد تكررت « هم » مرتين ، الأولى مبتدأ خبرها : « الأخسرون » . والثانية ضمير فصل جئ به لتأكيد النسبة بين الطرفين وهى : هم الأولى بالأخسرية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [2] .

تكررت - هنا - « أولئك » ثلاث مرات . ولم تجد لهذه الكلمة المكررة مع ما جاورها إلا حسناً وروعة . فالأولى والثانية : تسجلان حكماً عاماً على منكرى البعث : كفرهم بربهم وكون الأغلال فى أعناقهم .

والثالثة : بيان لمصيرهم المهين . ودخولهم النار . ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذى لا يعقبه خروج منها .

ولو أسقطت ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ من الموضعين الثانى والثالث لرك المعنى واضطرب . فتصبح الواو الداخلة على : ﴿ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ واو حال . وتصبح الواو الداخلة على : ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ عاطفة عطفاً يرك معه المعنى .

لذلك حسن موضع التكرار فى الآية لما فيه من صحة المعنى وتقويته . وتأكيد النسبة فى المواضع الثلاثة للتسجيل عليهم .

* *

● تكرار الفاصلة :

سبق أن ذكرنا فى مبحث الفواصل صوراً من تكرار الفاصلة مرتين بدءاً وثلاث مرات نهاية . وقد وجهنا أسلوب التكرار فى تلك الصور . ولكنّا - هنا

---

(١) النمل : ٥ (٢) الرعد : ٥

– أمام فاصلة لم تقف فى تكرارها عند حد المرات الثلاث . بل تعدت ذلك بكثير . لذلك آثرنا أن نبحثها هنا إذ هى بهذا الموضع أنسب .

ونعتمد فى دراستنا لتكرار الفاصلة على ثلاث سور هى : « الرحمن – القمر – المرسلات » ، وهى السور التى برزت فيها هذه الظاهرة الأسلوبية . بشكل لم يبد فى غيرها ، كما ورد فيها .

فقد تكررت : ﴿ فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١) فى « الرحمن » . وتكررت ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ (٢) فى « القمر » . وتكررت : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٣) فى « المرسلات » .

● تكرار الفاصلة فى « القمر » :

ولهذا التكرار فى المواضع الثلاثة أسباب ومقتضيات . ففى سورة « القمر » نجد العبارة المكررة وهى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ قد صاحبت فى موضع من مواضع تكرارها قصة عجيبة الشأن ، وكان أول موضع ذُكِرت فيه عقب قصة قوم نوح . وبعد أن صوَّر القرآن مظاهر الصراع بينهم وبين نوح عليه السلام ثم انتصار الله لنوح عليهم . حيث سلَّط عليهم الطوفان . فأغرقهم إلا مَن آمن وعصمه الله .

ونجد أن الله نجَّى نوحاً وتابعيه . ولكن تبقى هذه القصة موضع عظة وادكار . ولتلفت إليها الأنظار وللتهويل من شأنها جاء قوله تعالى عقبها : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ مُصدَّراً باسم الاستفهام « كيف » للتعجيب مما كان ، ولقد مهَّد لهذا التعجيب بالآية السابقة عليه . وهى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟ (٤) .

---

(١) وردت ٣١ مرة .

(٢) وردت ٤ مرات .

(٣) وردت ١٠ مرات .

(٤) القمر : ١٥

والموضع الثانى لذكرها حين قصَّ علينا القرآن قصة عاد وعتوها عن أمر ربها . وفى « عاد » هذه نجد العبارة اكتنفت القصة بدءاً ونهاية . قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ؟ [1] .

وتكرار العبارة - هكذا - فى البداية والنهاية مخرج لها مخرج الاهتمام . مع ملاحظة أن أحداث القصة - هنا - صُوِّرت فى عبارات قصيرة ولكنها محكمة وافية .. ولم يسلك هذا المسلك فى قصة نوح - أعنى قصر العبارات - والسبب - فيما يبدو لى - أن إهلاك قوم نوح كان بالإغراق فى الماء . وهى وسيلة كثيراً ما تكون سبب هلاك . فقد كانت سبب هلاك فرعون وملئه .. أما أن يكون الإهلاك بالريح فذلك أمر يدعو إلى التأمل والفكر .

ولعل مما يقوى رأينا هذا . أن هذه القصة - قصة عاد - وردت فى موضع آخر من القرآن يتفق مع هذا الموضع من حيث الفكرة ، ويختلف معه - قليلاً - من حيث طريقة العرض وزيادة التفصيل .

جاء فى الحاقة : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ [2] .

فإرسال الريح - هكذا - سبع ليال وثمانية أيام حسوماً مدعاة للعظة والاعتبار .

ومثله : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [3] .

---

(١) القمر : ١٨ - ٢١ (٢) الحاقة : ٦ - ٨ (٣) الذاريات : ٤١ - ٤٢

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَ لَمْ يَرَواْ أَنَّ اللَّهَ الَّذى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فى أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْىِ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ ، وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (١) .

فقد بطرت « عاد » نعَم ربها عليها . وغرَّها ما هى فيه من أسباب التمكين فى الأرض وقوة البطش أن تبارز ربها ومولى نعمها بالمعاصى ، فأهلكها الله بما لا قِبَل لها به . وفى كل موضع يذكر القرآن فيه قصة هؤلاء تأتى عباراته قوية هادرة واعظة زاجرة ..

جاء فى موضع آخر : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البِلَادِ ﴾ (٢) .

وكانت عاقبتها خسراً وهلاكاً مع مَن طغى فى الأرض بغير الحق : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٣) .

أما الموضع الأخير الذى ذُكِرت فيه هذه العبارة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ فحين قصَّ الله علينا قصة « ثمود » ، وقد جاءت فيها كذلك مهيئة لتلقى صورة العقاب بعد التشويق إليها عند السامع . ولفت نظره إليها : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ ﴾ (٤) .

ومن هنا ندرك شدة اقتضاء المقام لهذا التكرار . فليست إحدى العبارات فى موضع بمغنية عن أختها فى الموضع الآخر . إنما هو اتساق عجيب تطلبه المقام من الناحيتين : الدينية والأدبية .

---

(١) فصلت : ١٥ - ١٦
(٢) الفجر : ٦ - ٨
(٣) الفجر : ١٢ - ١٣
(٤) القمر : ٣٠ - ٣١

من الناحية الدينية حيث تحمل المؤمنين على التذكر والاعتبار عقب كل قصة من هذه القصص ، ومن الناحية الأدبية لأن العبارة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ تأتى عقب كل قصة - أيضاً - لافتة أنظار المشاهدين إلى « كنه » النهاية وختام أحداث القصة .

وقد مهَّد القرآن لهذا التكرار حيث لم يأت إلا بعد خمس عشرة آية تنتهى كلها بفاصلة واحدة تتحد نهاياتها بحرف « الراء » مع التزام تحريك ما قبلها . وذلك هو نهج فواصل السورة كلها . وقد أشاع هذا النسق الشاجى نوعاً من الموسيقى الصاخبة العنيفة التى تتلاءم مع جو الإنذار أيما تناسب . والسورة فوق كل هذا مكية النزول والموضوع .

كما أن الطابع القصصى هو السائد فى هذه السورة . فبعد أن صوَّر القرآن الكريم موقف أهل مكة من الدعوة الجديدة . وبيَّن ضلال مسلكهم . وقد كان الرسول عليه السلام حريصاً على هدايتهم فى وقت هم فيه أشد ما يكونون إعراضاً عنه . لهذا اقتضى الموقف العام سوق عِبَر الماضين - ليكون فى ذلك تسلية للرسول عليه السلام ومن اتبعه وزجر لمن عارضه وصَدَّ عنه .

وما دام هذا هو طابع السورة فإن أسس التربية - خاصة تربية الأمم - تستدعى تأكيد الحقائق بكل وسيلة ومنها التكرار الذى لمسناه فى سورتنا هذه . حتى لكأنه أصيل فيها وليس بمكرر .

*

● تكرار آخر فى « القمر » :

وفى هذه السورة « القمر » مظهر آخر من مظاهر التكرار ، هو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟ (١) حيث ورد فى السورة أربع مرات ، وهذه دعوة صالحة للتأمل فيما يسوقه الله من قصص .

---

(١) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

وقد اشتملت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ على خبر واستفهام ، والخبر تمهيد للاستفهام الذى فيها وإغراء عليه .

* *

• التكرار فى « الرحمٰن » :

أما التكرار الوارد فى « الرحمٰن » فى قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ حيث ذكر فيها إحدى وثلاثين مرة فله أسبابه كذلك . ويمكن أن نسجل هذه الملاحظات ..

أولاً : أن هذا التكرار الوارد فى سورة « الرحمن » هو أكثر صور التكرار الوارد فى القرآن على الإطلاق .

ثانياً : أنه - أى التكرار فى هذا الموضع - قد مُهِّدَ له تمهيداً رائعاً . حيث جاء بعد اثنتى عشرة آية متحدة الفواصل . وقد تكررت فى هذا التمهيد كلمة « الميزان » ثلاث مرات متتابعة دونما نبو أو ملل :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (١) .

وهذا التمهيد قد أشاع - كذلك - لحناً موسيقياً عذباً كان بمثابة مقدمة طبيعية لتلاؤم صور التكرار ولتألفها النفس وتأنس بها فلا تهجم عليها هجوماً لأن القرآن قد راعى فى فواصل المقدمة التمهيدية ما انبنت عليه فواصل الآية المكررة .

ثالثاً : أن الطابع الغالب على هذه السورة هو طابع تعداد النِعَم على الثَقَلين : الإنس والجن ، وبعد كل نعمة أو نِعَم يعددها الله تأتى هذه العبارة : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

---

(١) الرحمن : ٧ - ٩

وعلى هذا الأساس يمكن بيسر فهم عِلّة التكرار الذى حفلت به سورة الرحمن أنه تذكير وتقرير لنعمه . وأنها من الظهور بمكان فلا يمكن إنكارها أو التكذيب بها

« فتكرار الفاصلة فى الرحمن .. يفيد تعداد النِعَم والفصل بين كل نعمة وأخرى لأن اللّه سبحانه عدَّد فى السورة نعماءه وذكَّر عباده بآلائه . ونبههم على قدرها وقدرته عليها ولطفه فيها . وجعلها فاصلة بين كل نعمة لتعرف موضع ما أسداه إليهم منها . ثم فيها إلى ذلك معنى - التبكيت والتقريع والتوبيخ - لأن تعداد النِعَم والآلاء من الرحمن تبكيت لمن أنكرها كما يبكت منكر أيادى المنعَم عليه من الناس بتعديدها [1] .

ولقائل أن يسأل : إن هذه الفاصلة قد تكررت بعد ما هو ليس بنعمة من وعيد وتهديد . فكيف يستقيم التوجيه إذن بعد هذه الآيات :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [2] .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [3] .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [4] .

وظاهر هذه الآيات بلاء وانتقام وليس بنِعَم .

والجواب : ولكن المتأمل يدرك أن فى الإنذار والوعيد وبيان مآل الضالين عصمة للإنسان من الوقوع فيما وقعوا فيه فيكون مصيره مصيرهم .

---

(١) خزانة الأدب للحموى : ص ١٤٤ - ١٤٥

(٢) الرحمن : ٣٥ - ٣٦

(٣) الرحمن : ٤١ - ٤٢

(٤) الرحمن : ٤٣ - ٤٥

ومن هذا الاعتبار يتبين أن هذه المواضع مندرجة تحت النِعَم ، لأن النعمة نوعان : إيصال الخير . ثم دفع الشر . والسورة اشتملت على كلا النوعين . فلذلك كررت الفاصلة .

* *

● التكرار فى « المرسلات » :

بقى التكرار الوارد فى سورة المرسلات . وقد صُنِعَ فيه ما صُنع فى نظيريه فى « القمر » و « الرحمٰن » من التقديم له بتمهيد . . وله -مثلهما - هدف عام اقتضاه .

بَيْدَ أن التمهيد يختلف عما سبق فى « القمر » و « الرحمن » . فقد رأينا فيهما اتحاد الفاصلة فى الحروف الأخيرة مع التزام نهج معيَّن فيما قبله . أما هنا فإن الأمر يختلف .

فقد اشتمل التمهيد على مجموعتين من الآيات أُولاهما لها فاصلة تختلف عن ثانيتهما وهى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً * فَالعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً * فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً ﴾ (١) .

وختمت هذه المجموعة بقفلة هى سر الجمال كله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٢) .

ما قبلها مُقْسَم به . وهى جواب القَسَم . والمُقْسَم به متعدد كأجزاء الشرط إذا بدئت بها السور . وهى - كما تقدم - خصائص تعبيرية آسرة .

وبجواب القَسَم تنتهى هذه المجموعة - ثم تبدأ المجموعة الثانية وهى :

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) المرسلات : ١ - ٦ (٢) المرسلات : ٧ (٣) المرسلات : ٨ - ١٥

وهذه المجموعة تتكون من :

أولاً : شرط يتكرر أربع مرات محذوف الجواب . وكله حديث عن أهوال القيامة ومقدمات البعث .

ثانياً : استفهام يعتبر مدخلاً لحقيقة هامة تقودنا إلى الهدف المنشود . وهو التوصل إلى مصير المكذِّبين يوم الدين .

ثالثاً : جواب هذا الاستفهام الذى اشتمل على كلمة : « يوم الفصل » وكانت هذه الكلمة الشعاع الذى قادنا إلى الساحة الكبرى : ساحة القضاء العادل والقصاص الحكيم :

﴿ لأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

فانظر إلى هذا التمهيد الحكيم الذى مهَّد القرآن به لهذه العبارة . حتى لكأنها هى المقصودة .

ثم تكررت هذه الآية : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عشر مرات بعد هذه المرة وهى فى كل مواضعها تتلو مشهداً من مشاهد القيامة . وصورة من صور الحشر . أو مشاهد القُدرة الإلهية .

*

● سبب عام :

أما السبب العام الذى اقتضى هذا التكرار فإن الآية أعقبت ما من شأنه أن يكون أكبر داعٍ من دواعى الإيمان والتصديق . بحيث يكون الخارج عن هذا السلوك والمكذِّب به صائراً - لا محالة - إلى الويل ، والعذاب الأليم .

فويل للمكذبين بيوم الفصل . وويل للمكذبين بهلاك المجرمين .. وويل للمكذبين بقُدرة الله وتقديره أرزاق الخلق . وعلى هذا المنهج يمضى التكرار فى السورة كلها .

* * *

● التكرار فى القصة :

أما تكرار القصة فى القرآن فذلك سمته الغالبة على معظم قصصه . إذ لم يأت فيه غير مكرر إلا القليل مثل قصة يوسف عليه السلام . وللعلماء توجيه فى سردها مرة واحدة دون تكرار ، أهم ما فى هذا التوجيه أن حرص الإسلام على صيانة الأعراض كان سبباً فى ذلك لأن فى قصة يوسف محاولة إغراء على جريمة خُلُقية . لذلك فرغ القرآن من سوقها للعظة والاعتبار مرة واحدة .

والقصص القرآنى فى جملته مسوق لغرضين أساسيين :

أولاً : تسلية الرسول عليه السلام وتثبيت فؤاده . وأنه لم يكن بدعاً من الرسل خولفوا مثل مخالفته . وحق على المخالفين العذاب . ونصر اللّٰه رسله وجنده .

ثانياً : تهديد وزجر المخالفين . وبيان لمصير أمثالهم . علّهم يرتدعون ويقلعون عن غيهم .

ودواعى هذين الغرضين متكررة مرات ومرات . فالرسول - عليه السلام - لم يكف عن الدعوة إلى الإسلام . والكفار لم يكفوا عن الإعراض والمخالفة .فإذا اعتبرنا أن مجموع هذين الأمرين هما الحال المقتضية لإيراد القصة فى القرآن . فإن تكرارهما يستدعى تكرار مقتضى الحال . وهو تكرار القصص مقدراً فى كل قصة على عدة مناسبات دقيقة لمقام الحديث .

فتكرار القصة القرآنية فى أكثر من موضع ظاهرة فنية ودعامة تربوية . كان لا بد أن تكون ..

ومع هذا المقتضى فإن تكرار القصة فى القرآن لم يكن على نمط واحد . أعنى أن هناك فروقاً بين مواضع تكرارها . ولم تكرر فيه قصة واحدة على وجه واحد فى الصياغة أو الفكرة - أو فيهما معاً .

فهناك اختلاف فى الصياغة ، وهناك اختلاف فى الطول والقصر . واختلاف فى الأحداث التى تتناولها . وطريقة عرض تلك الأحداث .

وهى بهذا - جديدة متجددة دائماً - لا مدعاة للسأمة والملل - كما يزعم المغرضون - بل فيها روح وطرافة .

كذلك فإن المعانى التى تتحدث عنها القصة القرآنية لم تكن لمجرد التهديد أو التسلية .

ولكنها حقائق يُراد إثباتها لتؤدى دورها فى كل عصر ، متى توافرت دواعيها .

والتكرار كما يقول چوستاف لوبون : « يُحوِّل المكرر إلى معتقد » [1] .

ولذلك كان التكرار وسيلة من أهم وسائل التربية والتثقيف .

* *

• دواعى التكرار فى القصة :

يقول صاحب « البرهان » موجهاً لتكرار القصة فى القرآن : « إن عادة العرب فى خطابتها إذا اهتمت بشئ - أرادت تحقيقه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء إليه . كررته توكيداً وكأنها تقيم تكراره مقام المُقسَم عليه أو الاجتهاد فى الدعاء بحيث تقصد الدعاء . والقرآن نزل بلسانهم فكانت مخاطباته فيما بين بعضهم وبعض . وبهذا المسلك تستحكم الحُجَّة عليهم فى عجزهم عن المعارضة » [2] .

ويمضى الزركشى بعد هذا موضحاً لظاهرة التكرار فى القرآن . ويسوق أدلة من القرآن نفسه لبيان صحة ما يقول هو عنه . بَيْدَ أنه لم يأت بمثال واحد يحلل فيه التكرار فى الأسلوب القرآنى وإن لم يفته أهم غرض فيه وهو إفادته التقرير

(١) روح الاجتماع ص ١٥٧

(٢) البرهان فى علوم القرآن : ٩/٣ ، للزركشى .

والتوكيد قال : « وفائدته العظمى التقرير وقد قيل : إن الكلام إذا تكرر تقرر »[(١)] .

وهناك شئ هام غفل عنه الزركشى . إذ لا يكفى أن يكون مجرد التوافق فى أسلوب القرآن وأسلوب العرب من حيث إن فى كل منهما تكراراً ، لا يكفى أن يكون هذا سبباً فى الحكم على التكرار بالجودة ، فنحن لسنا فى موضع يُراد فيه إثبات مشروعية التكرار ، وإنما فى موضع يبحث عن مزايا وخصائص التعبير القرآنى ، ومنها التكرار .

ويرى الزمخشرى رأياً يقرب من رأى الزركشى لكنه أعمق فهماً منه . قال : « إن فى التكرير تقريراً للمعانى فى الأنفس . وتثبيتاً لها فى الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يرام تحفظه منها . وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلوب ، وأرسخ له فى الفهم ، وأثبت للذِكر ، وأبعد من النسيان »[(٢)] .

وهنا لا بد أن نقرر حقيقة هامة . هى : أن الإشادة بجمال التكرار فى القرآن لم يقتصر على العلماء العرب . بل إن كثيراً من المستشرقين قد شهدوا بذلك منهم « جرونيبادم » - كما نقل عنه عبد الكريم الخطيب فى كتاب « الإعجاز القرآنى » (جـ ١ ص ٣٨٥) - ومع هذا الحق الذى يشهد به الأصدقاء والأعداء فإننا نستنطق القرآن نفسه . وهو خير وأعدل ، ولنأخذ لهذا كله - مثلاً - قصة آدم عليه السلام . وقد كُررت فى سبع سور سبع مرات .

دراسة تحليلية لقصة آدم

● نصوص القصة فى القرآن الكريم :

١ - البقرة من الآية ٣٠ إلى الآية ٣٨ :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

---

(١) المصدر السابق . (٢) الكشاف : ٣٨٥/٣ (بتصرف) .

وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

*

٢ – الأعراف من الآية ١١ إلى الآية ٢٥ :

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ، لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ

شئْتُمَا ، ولَا تَقْرَبَا هَذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا منَ الظَّالمينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ليُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا من سَوْءَاتهمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذه الشَّجَرَة إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا منَ الخَالدينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمنَ النَّاصحينَ * فَدَلَّاهُمَا بغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهمَا وَطَفقَا يَخْصفَان عَلَيْهمَا من وَرَق الجَنَّة ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تلْكُمَا الشَّجَرَة وَأَقُل لَّكُمَا إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ منَ الخَاسرينَ * قَالَ اهْبطُواْ بَعْضُكُمْ لبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حينٍ * قَالَ فيهَا تَحْيَوْنَ وَفيهَا تَمُوتُونَ وَمنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ .

*

٣ - الحجْر من الآية ٢٦ إلى الآية ٤٤ :

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من صَلْصَال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ من نَّار السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للْمَلَائكَة إِنِّى خَالقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحى فَقَعُواْ لَهُ سَاجدينَ * فَسَجَدَ المَلَائكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجدينَ * قَالَ يَا إِبْليسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجدينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لبَشَرٍ خَلَقْتَهُ من صَلْصَال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ منْهَا فَإِنَّكَ رَجيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظرْنى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ منَ المُنظَرينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الوَقْت المَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بمَا أَغْوَيْتَنى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فى الأَرْض وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعينَ * إِلَّا عبَادَكَ منْهُمُ المُخْلَصينَ * قَالَ هَذَا صرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقيمٌ * إِنَّ عبَادى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ منَ

الغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ .

*

٤ - الإسراء من الآية ٦١ إلى الآية ٦٥ :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ .

*

٥ - الكهف الآية الخمسون :

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ .

*

٦ - طه من الآية ١١٥ إلى الآية ١٢٧ :

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ

لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ .

*

٧ – سورة « ص » من الآية ٧١ إلى الآية ٨٥ :

قال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

ونسجل أولاً حقيقة هامة ، وهى ترتيب السور التى وردت فيها نصوص القصة حسب نزولها وهى :

أولاً – فى مكة : سورة ص – الأعراف – طه – الإسراء – الحِجْر – الكهف .

ثانياً - فى المدينة : البقرة [1] .

ومن هذا نعلم : أن أول سورة تتحدث عن قصة آدم عليه السلام . هى سورة « ص » ، وأنها مكية النزول ، وأن نصيب العهد المكى من قصة آدم عليه السلام كان وفيراً . حيث وردت فى ست سور . بدأت بسورة « ص » ، واختتمت بـ « الكهف » ، وأن الكهف كانت خاتمة المطاف بالنسبة للعهد المكى .

أما العهد المدنى فلم ترد فيه القصة إلا فى سورة واحدة . هى سورة البقرة . وأن سورة البقرة هذه أول ما نزل بالمدينة بعد الهجرة الشريفة .

ولهذا فإننا سنحلل عناصر هذه القصة فى كل موضع وردت فيه . حسب هذا الترتيب النزولى .

● عناصر القصة فى سورة « ص » :

١ - إخبار اللّه الملائكة بخلقه بَشراً من طين .

٢ - أمر اللّه الملائكة بالسجود لهذا البَشر . إذا سواه ونفخ فيه من روحه ، ثم امتثال الملائكة هذا الأمر .

٣ - إخبار اللّه تعالى بمخالفة إبليس وإبائه السجود وصيرورته من الكافرين .

٤ - سؤال اللّه - وهو أعلم - إبليس عن سبب مخالفته وامتناعه عن السجود .

٥ - اعتذار إبليس عن مخالفته أمر ربه بالسجود لآدم . وحَجُّته التى استند عليها .

٦ - طرد اللّه إبليس من الجنة وإحقاق لعنته عليه إلى يوم الدين .

٧ - طلب إبليس من ربه أن ينظره إلى يوم البعث .

٨ - استجابة اللّه له ، وجعله من المنظَرين .

---

(١) اعتمدنا فى هذا الترتيب حسب ما ذكره الزركشى فى البرهان : ١/١٩٣ - ١٩٤

٩ - عناد إبليس وإعلانه - مقسماً - أن يغوى الناس أجمعين . إلا عباد الله المخلصين .

١٠ - توعد الله إبليس ليملأن جهنم منه ومن أتباعه .

*

● عناصر القصة فى « الأعراف » :

١ - الإخبار بأمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم . وامتثالهم هذا الأمر .

٢ - مخالفة إبليس .

٣ - سؤال الله - وهو أعلم - إبليس عن مخالفته .

٤ - إعتذار إبليس من مخالفته أمر ربه . وحُجّته التى استند عليها .

٥ - أمر الله إبليس بالهبوط من الجنة منكراً عليه أن يتكبر فيها . وتكرار الأمر بالخروج وذمه .

٦ - طلب إبليس من الله أن ينظره إلى يوم البعث .

٧ - استجابة الله له .

٨ - عناد إبليس وإعلانه الترصد للناس لإغوائهم وإيتاؤه إياهم من كل مدخل ينزلون فيه .

٩ - تكرار الأمر له بالخروج مع ذمه وتوعده بأن يملأ الله جهنم منه ومن كل مَن يتبعه .

١٠ - أمر الله آدم أن يسكن الجنة هو وزوجه ويتمتعا بكل نعيم فيها إلا شجرة واحدة عينّها لهما . وحرّمها عليهما . فإن أكلا منها صارا ظالمين .

١١ - وسوسة الشيطان لهما . وغرضه منها . وأسلوب خداعه لهما .

١٢ - ذوقهما الشجرة المحرَّمة . وظهور سوءاتهما . ومحاولتهما سترها بورق الجنة .

١٣ - نداء الله وتذكيره لهما بنصائحه .

١٤ - ندمهما على ما فعلا . واستغفارهما الله .

١٥ - أمر الله لهم بالهبوط إلى الأرض مع تحقق العداوة بينهم . واستقرارهم فى الأرض .. والاستمتاع بها إلى حين معلوم .

١٦ - إخبار الله لهم بما سيكون عليه حالهم فى الأرض : حياة ، فموت ، فبعث .

*

● عناصر القصة فى « طه » :

١ - مدخل القصة .

٢ - إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم . وامتثالهم الأمر .

٣ - مخالفة إبليس أمر ربه .

٤ - نصح الله لآدم وتحذيره له من الشيطان .

٥ - بيان النِعَم التى سيُنعَّم بها آدم وزوجه فى الجنة .

٦ - وسوسة الشيطان له . وأسلوب خداعه .

٧ - أكلهما من الشجرة المحرَّمة . وظهور سوءاتهما . ومحاولتهما سترها بورق الجنة .

٨ - حكم الله على مسلك آدم حيث خالف هو وزوجه أمر الله وأطاعا إغراء الشيطان لهما .

٩ - اجتباء الله آدم . وتوبته عليه . وهدايته له .

١٠ - أمر الله لهم بالهبوط وترقب هُداه ، فمَن اتبع هُداه فهو فى هدى وسعادة ، ومَن أعرض عن هدى الله شقى فى الدنيا . وساء مصيره فى الآخرة .

*

● عناصر القصة فى « الإسراء » :

١ - إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم . وامتثالهم الأمر .

٢ - مقولة إبليس ومحاجته ربه . مبرراً لماذا لم يسجد لآدم ؟

٣ - عناده وإعلانه لو أُخِّرَ إلى يوم القيامة ليُضِلنَّ ذُرِّية مَن كرَّم اللهُ عليه - يقصد آدم - إلا قليلاً منهم .

٤ - إمداد الله لإبليس فى الغواية والإغواء متوعداً له ولمن تبعه بإدخالهم النار .

٥ - بيان أن وعد الشيطان أولياءه ما هو إلا غرور .

٦ - عصمة الله عباده - الأحقاء - من غواية إبليس - وسلبه كله سلطان عليهم . فهم فى مأمن منه .

*

● عناصر القصة فى « الحِجْر » :

١ - مدخل القصة .

٢ - إخبار الله الملائكة أنه خالق بَشراً من صلصال من حماٍ مسنون .

٣ -أمره الملائكة بالسجود له إذا سوّاه . وتمتثالهم هذا الأمر .

٤ - مخالفة إبليس أمر ربه .

٥ - سؤال الله - وهو أعلم - إبليس عن سبب مخالفته أمره بالسجود لآدم عليه السلام .

٦ - إعتذار إبليس وحُجّته .

٧ - أمر الله إبليس بالخروج من الجنة وإحلال لعنة الله على إبليس .

٨ - طلب إبليس من الله أن يجعله من المنظرين إلى يوم البعث

٩ - إستجابة الله له .

١٠ - عناد إبليس وإعلانه تزيين المعاصى وإغواء الناس إلا المخلصين من عباد الله .

١١ - إعلام الله إبليس بحصانة عباده المخلصين من إغوائه .

١٢ - أن جهنم مصير مَن يتبع إبليس . وأن الله أعد لهم سبعة أبواب يدخلون منها النار لكل باب منها فريق مقسوم .

*

● عناصر القصة فى « الكهف » :

١ - إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم . وامتثالهم هذا الأمر .

٢ - مخالفة إبليس .

٣ - إنكار أن يتخذ الناس إبليس وذُرِّيته أوليا ء من دون الله ، وهو لهم عدو .

٤ - مَن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله ، فبئس البدل بدله .

وبسورة الكهف تنتهى مصادر القصة فى العهد المكى . وتبدأ مرحلة جديدة فى العهد المدنى تتمثل فى سورة البقرة .

*

● عناصر القصة فى سورة « البقرة » :

١ - إخبار الله الملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة .

٢ - تعجب الملائكة من هذا الجعل ، وسببان لهذا التعجب .

٣ - رد الله عليهم .

٤ - تعليم الله آدم الأسماء كلها .

٥ - عرضهم على الملائكة ، ومطالبتهم بالإنباء بأسمائهم على سبيل الاختبار المؤدى إلى العجز .

٦ - تنزيه الملائكة الله . وتفويضهم الأمر إليه .

٧ - أمر الله آدم أن يخبرهم بالأسماء . وامتثال آدم عليه السلام هذا الأمر .

٨ - استئثار الله بغيب السموات والأرض . وعلمه بظواهر الأمور وبواطنها .

٩ - أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم وامتثالهم هذا الأمر .

١٠ - مخالفة إبليس واستكباره وصيرورته من الكافرين .

١١ - أمر الله آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وأن يتمتعا بما فيها من أنعام .

١٢ - تحريم الله عليهما قربان شجرة فيها عيَّنها لهما . فإن قرباها صارا ظالمين .

١٣ - إغواء الشيطان لهما . وأكلهما من الشجرة المحرَّمة . وإخراجه لهما مما كانا فيه .

١٤ - أمر الله لهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض مع تحقق العداوة بينهم واستقرارهم فى الأرض واستمتاعهم فيها إلى حين .

١٥ - تلقى آدم كلمات من ربه . وتوبة الله عليه .

١٦ - تكرار الأمر بالهبوط وترقب هدى الله فمَن اتبع هدى الله آمن وسلم . ومَن عصاه أدخله النار وأخلده فيها .

* *

وبعد هذا التحليل لعناصر القصة فى مصادرها الأصلية ننظر فيها على الوجه الآتى :

أولاً : المعانى المشتركة فى جميع المصادر ، مع التعرض لفروق الصياغة ما أمكن .

ثانياً : المعانى المشتركة فى مجموعة دون أخرى ، مع التعرض لفروق الصياغة كذلك .

ثالثاً : المعانى التى لم تتكرر قط .

١ - المعانى المشتركة فى جميع المصادر :

المتأمل فى نصوص القصة فى جميع مصادرها يدرك أن المعانى التى لم يخل نص منها - بل هى مشتركة بينها كلها - هى المعانى الآتية :

(١) أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

(٢) امتثال الملائكة هذا الأمر .

(٣) مخالفة إبليس أمر ربه

ففى « البقرة » جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾(١)

وفى « الأعراف » جاء قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾(٢) .

وفى « الحجْر » جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ من رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ المَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾(٣) .

---

(١) البقرة : ٣٤ (٢) الأعراف : ١١ (٣) الحجر : ٢٨ - ٣١

وفى « الإسراء » جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ (١) .

وفى « الكهف » جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (٢) .

وفى « طه » جاء قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ (٣) .

وفى سورة « ص » جاء قوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

فهذه المعانى الثلاثة وردت - كما ترى - فى جميع المصادر لأنها العناصر الكبرى التى تدور حولها أحداث القصة .

ونلحظ من النظر فى النصوص أن سجود الملائكة قد عطف فى جميع المواضع على القول لهم بالسجود . قد عطف بالفاء . وهذا يفيد سرعة امتثال الملائكة لأمر ربهم وأنهم لم يترددوا قيد أنملة .

أما مخالفة إبليس فقد صورت بصياغة مختلفة ففى « البقرة » : ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥) .

وفى « الأعراف » : ﴿ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) الإسراء : ٦١ — (٢) الكهف : ٥٠ . — (٣) طه : ١١٦

(٤) سورة ص : ٧١ - ٧٤ — (٥) البقرة : ٣٤ — (٦) الأعراف : ١١

وفى « الحِجْر » : ﴿ إلا إبْلِيسَ أَبَى أن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [1] .

وفى « الإسراء » : ﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [2] .

وفى « الكهف » : ﴿ إلا إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ ﴾ [3] .

وفى « طه » : ﴿ إلا إبْلِيسَ أَبَى ﴾ [4] .

وفى سورة « ص » : ﴿ إلا إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ [5] .

والتفنن فى العبارة قد أفاد إسناد أقبح أوصاف الذم للعين إبليس .

كما نجد فروقاً - كذلك - فى التمهيد : ففى « البقرة » لم يتقدم عليها تمهيد . أما فى « الأعراف » فقد كان التمهيد صدر آية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [6] ، ثم قال : ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ [6] . والعطف بـ « ثم » المفيدة للترتيب مع التراخى يدل على أن فى التعبير تجوزاً . إذ ليس المخلوق والمصوَّر هم المخاطبين بل آدم عليه السلام ليصح الترتيب . والمعنى : « خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صوَّرناه بعد ذلك » .

والمجاز فيها مرسل والعلاقة المصححة هى المسببية . إذ وجود المخاطَبين مسبب على وجود المراد بالحديث وهو آدم .

كذلك مهَّد لها فى « الحِجْر » بالحديث عن خلق الجان والإنسان : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ من صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ من نَّارِ السَّمُومِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [7] .

---

(1) الحجر : ٣١ — (2) الإسراء : ٦١ — (3) الكهف : ٥٠ .

(4) طه : ١١٦ — (5) سورة ص : ٧٤ — (6) الأعراف : ١١

(7) الحجر : ٢٧ - ٢٩

أما « الإسراء » فلم يأت فيها تمهيد مثل « البقرة » . وكذلك « الكهف » .

و « طه » تقدَّم القصة فيها تمهيد هو فى الواقع إجمال بديع للقصة كلها . ومدخل لسرد أحداثها بالغ الجودة : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (١) كان هذا هو مدخل القصة فى « طه » . كما سردت بعده أحداثها سرداً محكماً .

وكذلك خلت سورة « ص » من التمهيد المباشر للقصة . وبذلك تكون القصة قد مُهِّدَ لها فى ثلاثة مواضع هى : الأعراف - الحِجْر - طه .

ولم يُمهَّد لها تمهيداً مباشراً فى أربعة مواضع هى : البقرة - الإسراء - الكهف - سورة « ص » .

وكذلك نجد فروقاً فى الأمر بالسجود . فتارة يكون بصريح الأمر من الفعل « سجد » نفسه وذلك فى خمسة مواضع هى : البقرة - الأعراف - الإسراء - طه - الكهف .

أما فى الحِجْر وسورة « ص » فلم يأت بالأمر الصريح من الفعل . بل تقدَّم عليه « أمر » من فعل آخر « وقع » وجعل السجود حالاً . من فاعل ذلك الفعل الذين هم الملائكة . ومن دقة النظم أن هذه العبارة جاءت فى السورتين فى سياق حديث واحد : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢) .

ولعل السر فى هذا التصرف - ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ بدلاً من : ﴿ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ - أن التفصيل فى هاتين السورتين فى هذا الموضوع بالذات حيث قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحي ﴾ بعد قوله فى الحِجْر : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ وبعد قوله فى سورة « ص » : ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ أن هذا التفصيل فيه شرح أكثر لبيان قُدرة الله سبحانه

(١) طه : ١١٥

(٢) الآية : ٢٩ ، من الحجر ، وهى نفس الآية : ٧٢ ، من سورة « ص » .

وذلك أمر أدعى إلى تعظيم اللّه القادر . والانكباب من عَلٍ على الجباه تقديراً له حق قدره . وذلك لأن : ﴿ فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ فى معنى الانكباب الفورى وهو معنى زائد على مجرد الأمر الوارد فى المَوَاضع الآخرى : ﴿ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ .

ويلاحَظ - كذلك - أن إحدى هاتين العبارتين جاءت فى سورة « ص » ، وسورة « ص » هذه هى أول سورة تحدثت عن القصة ، وهى مكية . فإن سورة الحِجْر مكية كذلك . والقوم فى مكة شديدو العناد للإسلام . فناسب حالتهم هذه التفصيل فى القول والاتجاه به نحو القوة . وذلك ما تكفلت به السورتان : سورة « ص » والحِجْر .

* *

● ملاحظة جديرة بالتسجيل :

هذه خلاصة وجيزة لما اشترك من عناصر القصة فى جميع المصادر . ونرى أن نذكر ملاحظة جديرة بالتسجيل هى أن الإشارة جاءت عابرة عن قصة آدم فى سورة الكهف . وهى وإن اشتملت على العناصر الثلاثة التى لم يخل منها مصدر من مصادر القصة . فإن جانب القصص غير ظاهر فيها .

وإنما جئ بها تمهيداً لإنكار أن يتخذ الناس إبليس وذُرِّيته أولياء من دون اللّه .. والعهد المكى لم يكن فى حاجة إلى تفصيل بعد أن تحدثت عنها خمس سور مكية فى تفصيل ووضوح .

لذلك جاءت آية « الكهف » لمحة عابرة إلى حديث طويل معلوم وذائع أمره . كما أن هذه السورة على وجازة ما جاء فى آيتها من حديث القصة فإنها اشتملت على جديد لم يُصرَّح به فى غيرها .

وذلك الجديد هو : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (١) فنسبته إلى الجن . والحكم عليه بالفسق لم يرد إلا فى آية « الكهف » .

---

(١) الكهف : ٥٠ .

وهذا يعطينا قيمة عظيمة هى أن القصة المتكررة فى القرآن لم تخل من جديد وإن قصرت فى موضع دون آخر .

٢ - المعانى المشتركة بين مجموعة دون أخرى :

من المعانى المشتركة بين مجموعة دون أخرى : سؤال الله - سبحانه - إبليس عن عدم امتثاله لأمره وما ترتب على ذلك من أمور .

وقد ورد هذا السؤال فى ثلاثة مصادر .

الأول - الأعراف ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى من نَّار وَخَلَقْتَهُ من طِين * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ * وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ، لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

الثانى - الحجْر ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ من صَلْصَال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (٢) .

---

(١) الأعراف : ١٢ - ١٨ (٢) الحجر : ٣٢ - ٤٤

الثالث - سورة « ص » ، قال سبحانه : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

والباحث يرى أن السؤال قد اختلف فى صياغته من موضع إلى آخر . وأنه قد ترتب عليه أمور :

١ - اعتذار إبليس وحُجَّته إنه مخلوق من نار ، وآدم من طين مع اختلاف فى الصياغة .

٢ - ردٌ عليه من الله رافض لعذره وآمر له بالخروج أو الهبوط من الجنة ، منكر عليه أن يتكبر فيها ، موجب عليه اللعنة مع الاختلاف فى طرق تعريف اللعنة . مرة بـ « الـ » . وأخرى بالإضافة إلى الله .

٣ - طلب إبليس أن ينظره ربه إلى يوم البعث . واستجابة الله له .

٤ - إعلان إبليس - مقسماً مرة ، ومعللاً أخرى - ليغوين الناس إلا مَنْ يعصمه الله .

٥ - إعلام الله إبليس بحصانة عباده المخلصين . وتوعده لإبليس بأن يملأ منه جهنم وممن اتبعه أجمعين .

٦ - إن فى المواضع الثلاثة فروقاً دقيقة فى الصياغة . وفى تصوير المعانى . سواء فيما قاله الله لإبليس أو فيما حكاه القرآن من مقولة اللعين .

---

(١) سورة ص : ٧٥ - ٨٥

٧ - إن سورة الإسراء تشترك معها فيما فيما ترتب على السؤال دون أن يرد فيها ذكر له لأن مقولة إبليس فيها نزلت منزلة إبائه السجود :

﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ (١) .

* *

● ملاحظات :

ويرى الباحث - كذلك - أن هذه العناصر التى اشتركت فيها كل من الأعراف . والحِجْر . وسورة « ص » . والإسراء . كان مهدها مكة لأن هذه السور مكية النزول . وحال القوم فى مكة من الإعراض والصدود والجدل العقيم فى محاربة الدعوة الجديدة تناسبه عناصر القصة المذكورة بما فيها من قوة وعنف فى الرد على إبليس وتوعده بالعذاب هو ومَن اتبعه . كما أن رفض الحُجَّة التى بنى عليها اللعين اعتذاره وإهدارها من الأساس شبيه برفض الإسلام لدعاوى وحجج المعاندين من مشركى مكة .

كما يرى الباحث أن اختلاف الصياغة من موضع إلى آخر أمر اقتضاه المقام ولم يكن مجرد اتفاق .

ونضرب لذلك مثلاً :

قال إبليس فى « الحجْر » معتذراً عن مخالفته أمر ربه : ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (٢) .. بينما نسب خلقه إلى الطين فى كل من الأعراف والإسراء وسورة « ص » .

---

(١) الإسراء : ٦١ - ٦٢ (٢) الحجر : ٣٣

والطين سابق على الصلصال والحمأ المسنون . قال الراغب : الصلصال تردد الصوت من الشئ الجاف ومنه قيل : صل المسمار ، وسمى الطين الجاف صلصالاً قال : ﴿ مِّن صَلْصَالٍ كَالفَخَّارِ ﴾ ، ﴿ مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [١] .

فأوثر الصلصال فى « الحجْر » لتقدمه فى قوله تعالى : ﴿ إنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [٢] ولعل إيثار هذا أيضاً على أن يقول : « من طين » لأن مبدأ خلق الإنسان هنا قوبل بمبدأ خلق الجان ، ولما قال فى خلق الجان : ﴿ من نَّارِ السَّمُومِ ﴾ ناسب أن يكون المقابل له : ﴿ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ لأن الطين إذا قوبل بالنار جف ويبس وسُمِعَ له صوت إذا حُرِّك .

ومما يؤيد هذا قوله فى الرحمن : ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ من صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [٣] . فآثر الصلصال فى مقابلة المارج الذى من نار .

أما إيثار الطين فى الأعراف والإسراء وسورة « ص » فحيث لم يقتض المقام سواه ولأنه أسبق وجوداً من الصلصال .

هذا مثل أذكره للقياس ولبيان أن كل اختلاف فى الصياغة إنما هو لسبب وداع . وليس لمجرد التعبير الخالى من الدقائق والأسرار .

ومن المعانى التى اشتركت فيها مجموعة دون أخرى : أمر الله آدم وحواء أن يسكنا الجنة بعد طرد إبليس منها .

وهذه مرحلة تاليه فى بناء القصة للمرحلة السابقة من مخالفة إبليس وعناده وما ترتب عليها .

فلننظر فى مصادرها وصياغاتها :

---

(١) المفردات : ص ٢٨٤ (٢) الحجر : ٢٨ (٣) الرحمن : ١٤ - ١٥

- **سكنى الجنة :**

جاء أمر الله لآدم عليه السلام أن يسكن الجنة هو وزوجه فى ثلاث سور :

الأولى : « البقرة » ، قال سبحانه : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

الثانية : « الأعراف » ، قال سبحانه : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

الثالثة : « طه » ، قال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (٣) * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (٤) .

ولعل أول ما يلاحظه الباحث فى هذه النصوص الثلاثة أن الأمر بالسكنى فى الجنة جاء صريحاً فى آيتى البقرة والأعراف . وخولف ذلك فى طه لأن ما فيها نصح وتحذير لآدم وزوجه من إغواء الشيطان لهما . لأنه لهما عدو . فجاء قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ دليلاً على تمكنهما من الجنة . حيث نهاهما الله أن يخرجهما منها الشيطان .

وفى طه - كذلك - تفصيل لمظاهر النعيم التى كانا ينعمان بها فى الجنة . ويقابل هذا التفصيل فى البقرة والأعراف الإذن لهما بأن يتمتعا بما شاءا حيث كانا فيها مع زيادة وصف الأكل بـ « الرغد » فى البقرة .

---

(١) البقرة : ٣٥
(٢) الأعراف : ١٩

(٣) الراجح فى إفراد الخطاب هنا - كما أرى - هو أن آدم بما يحمل من مسئولية القوامة وتدبير أمر الأسرة يكون أول مَن يشعر بالشقاء .
(٤) طه : ١١٧ - ١١٩

كما يلاحظ الباحث أن آية البقرة قد صُدِّرت بقوله : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ ﴾ ، أما الأعراف فقد حُذفَ منها القول وصُدِّرَت بالنداء وحده : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ ، كما صُدِّرت آية طه بالقول مسبوقاً بالفاء دون الواو كما فى البقرة : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ .

ولعل السر فى ذلك أن القول فى البقرة عطف على نظيره فى صدر الآية السابقة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ ﴾ .

أما فى الأعراف فقد حُذفَ القول . وبُدِئَ فى خطاب آدم بالنداء لأنه قد سبق عليه قوله تعالى : ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً ، لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) فلو قال بعده : « وقلنا .. » لتوهم متوهم أن « قال » فى الآية السابقة ليست من قول الله لإسناده إلى ضمير الغائب وإسناد « قلنا » لضمير المتكلم ، وقد عرفنا حرص القرآن على إسناد القول إلى ضمير المتكلم فى موضع الأمر بالسكنى لآدم وزوجه .

والأظهر هنا أن الواو للاستئناف فى : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ ﴾ حتى تظهر المغايرة التامة بين مأمور بالخروج مذءوماً مدحوراً ، ومأمور بالتمكن معزَّزاً مكرَّماً .

أما العطف فى طه بـ « الفاء » : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ فلما فى « الفاء » من الترتيب والتعقيب . وما تفيده كذلك من معنى السببية . إذ تقدَّم عليها امتناع إبليس عن السجود له .

فأبان العطف بـ « الفاء » ترتب نصح الله لآدم على امتناع إبليس عن السجود . وأن ذلك حدث دونما فصل بين الامتناع والنصح - هذا من حيث الترتيب والتعقيب - أما من حيث السببية فإن كون إبليس ممتنعاً عن السجود لآدم . فذلك سبب فى أنه عدوهما والحقود عليهما .

* *

---

(١) الأعراف : ١٨

● وسوسة الشيطان لهما وما ترتب عليها :

وهذه المرحلة من القصة قد اشتركت فى الحديث عنها مجموعة من السور هى :

« البقرة » قال سبحانه : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

« الأعراف » قال سبحانه : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ ﴾ (٢) .

تلك هى مواضع ورود مرحلة وسوسة الشيطان لآدم وزوجه . حسداً منه وحقداً عليهما على أن بقيا فى الجنة وطَرِدَ منها .

والذى نلاحظه هنا أمور :

أولاً : أن السورتين المكيتين اتفقتا فى التفصيل والتعبير عن إغواء الشيطان لهما بالوسوسة ، بينما عبَّرت عنه السورة المدنية بالإزلال . كما جاءت فيها المعانى مجملة .

ثانياً : أن التفصيل فى كلتا السورتين المكيتين - مع اختصاص الأعراف بنصيب وافر فيه - صوَّرَ لنا لقطات هامة هى : الغرض من الوسوسة - أسلوب الخداع الذى سلكه اللعين فى الإضلال ، وهذا الأسلوب اعتمد على الإغراء والتأكيد بالقسم - بدو سوءات آدم وحواء - اجتهادهما فى سترها بورق الجنة ، تأنيب الله لهما على ما بدر منهما . ومخالفتهما نصحه .

---

(١) البقرة : ٣٦ - ٣٧

(٢) الأعراف : ٢٠ - ٢٢

ثالثاً : أن البقرة وطه اتفقتا فى الإشارة إلى توبة الله عن آدم واجتبائه له . وانفردت الأعراف بالحديث عن تندمهما ودعائهما ربهما بالمغفرة والرحمة . فكأن ما فى البقرة وطه من الإشارة إلى التوبة واجتباء الله لآدم استجابة لذلك الدعاء الذى انفردت به الأعراف خاصة وأن كُلاً من السورتين - طه والبقرة - نزلتا بعد الأعراف . إذ أن الأعراف هى السورة الثانية التى تحدثت عن قصة آدم بعد سورة « ص » ، وهذا يفسر لنا سر التفصيل فيها لهذه المرحلة أكثر مما ورد فى طه . وهى قسيمتها فيه ..

* *

● أمر الله لهم بالهبوط إلى الأرض :

وهذه مرحلة جاءت فى بعض المصادر دون بعضها .. ومصادر ورودها هى :

« البقرة » قال سبحانه : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّى هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١) .

« الأعراف » قال سبحانه : ﴿ قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٢) .

« طه » قال سبحانه : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ٣٨ - ٣٩ (٢) الأعراف : ٢٤ - ٢٥ (٣) طه : ١٢٣ - ١٢٧

من التأمل والمقارنة بين هذه النصوص يخرج الباحث بما يأتى :

أولاً : أن الأمر بـ « الهبوط » جاء بصيغة الجمع فى البقرة والأعراف لأن المخاطَب ثلاثة : آدم وزوجه وإبليس .

وجاء بصيغة التثنية فى طه . ولعل سره أن المأمور بالهبوط فريقان : آدم وزوجه فريق ، وإبليس فريق آخر .

ثانياً : أن الأمر فى البقرة وطه قد اقترن ضمير المخاطَب فيه بالتوكيد بلفظ : « جميعاً » ولم يرد ذلك فى الأعراف .

ثالثاً : أن التصريح بـ « ثبوت العداوة بينهم » أمر مشترك بين الأعراف وطه ، أما آية البقرة هنا فقد خلت منه . لأنها جاءت تأكيداً بالهبوط للآية التى قبلها . وفيها صرَّح اللّه بثبوت تلك العداوة . فاكتفى بها .

رابعاً : أن ترقب هُدى اللّه قد صُرِّحَ به فى كل من البقرة وطه .. ولم يأت فى الأعراف إطلاقاً .

خامساً : أن بيان أن « مَن اتبع الهدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، أو « فلا يضل ولا يشقى » من خصائص سورتى البقرة وطه مع اختصاص طه بشئ من التفصيل إذا ما قورنت بالبقرة . هذا البيان لم يرد فى الأعراف . لأنه تابع لترقب الهُدى الذى لم يرد فيها كما مرَّ .

سادساً : التصريح بـ « الاستقرار فى الأرض والتمتع فيها إلى حين » من خصائص سورتى البقرة والأعراف . فيما تقدم عن هذه الآية . والأعراف فى الآية المذكورة مع اختصاص الأعراف بشرح تفصيلى لأدوار سُنَّة اللّه التى سيخضعون لها فى الأرض قال : ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (١) .

---

(١) الأعراف : ٢٥

ولكل من هذه الفروق دواع ومقتضيات يطول بنا الحديث لو تتبعناها . على أن هناك فروقاً دقيقة بين الألفاظ المتقابلة فى هذه المواضع . نضرب مثلاً بواحد منها .

فقد جاء فى البقرة : ﴿ .. فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ ﴾ (١) .

وجاء فى طه : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ (٢) .

الفعل « تبع » مخفف فى البقرة ومُشدَّد فى طه . يقول جماعة : « إن تشديد الاتباع لسبق التصريح بمعصية آدم . وقد سبقه أيضاً الاتباع مشدداً فى نفس السورة فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ (٣) ، وفى توجيه التشديد وعدمه آراء أُخَر لعل هذا أقواها .

وتوجيه آخر أراه حرياً بالقبول ، هو أن القرآن فى مكة كان يتجه كثيراً نحو القوة والعنف لغلظة القوم وتماديهم فى الضلال . بخلاف المدنى الذى كان يميل إلى الهدوء والشرح والتفصيل .

هذه آخر مرحلة يتحدث عنها العهد المكى - مرحلة الهبوط من الجنة والاستقرار فى الأرض - وقد اشترك العهد المدنى معه فى بيان هذه المراحل مع الفروق التى لحظناها بين النصوص جميعاً .

لكن بقى هناك شئ هام . وهام جداً لم ترد إليه إشارة واحدة فى العهد المكى ، وإنما استأثر به العهد المدنى . شئ هام تكاد حكاية القصة فى المدينة تختلف به عن حكايتها فى مكة اختلافاً أساسياً . أن العهد المدنى قد أضاف جديداً إلى هذه القصة .. فما هو ذلك الجديد ؟

---

(١) البقرة : ٣٨ (٢) طه : ١٢٣

(٣) المناهج الجديدة فى تفسير آيات الله المجيدة ص ٧٩ - الدكتور عبد الغنى الراجحى - والآية من سورة طه : ١٠٨

• الجديد فى القصة فى العهد المدنى :

إن الجديد الذى ورد فى العهد المدنى عناصر بارزة فى القصة أرجأها الله تعالى فلم ترد فى المكى . وهى تتمثل فيما يلى :

أولاً : جاء فيه أنه قال للملائكة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) ، ولم يقل لهم كما قال فى المكى : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ﴾ (٢) - مثلاً - كما فى سورة « ص » .

وجعل آدم خليفة مرحلة ارقى من خلقه ولاحقة به فى الوجود .

ثانياً : جاء فيه أن الملائكة تعجبوا من هذا الجعل وبنوا تعجبهم على وصفين فى المجعول . ووصفين فيهم .

أما الوصفان اللذان فى المجعول : فكونه مفسداً فى الأرض وسافكاً للدماء .

وأما الوصفان اللذان فيهم : فكونهم مسبِّحين بحمد الله ومقدِّسين له .

فردّ الله عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون .

ثالثاً : وجاء فيه تعليم الله آدم الأسماء كلها ومسمياتها وأعده بذلك لمباراة بينه وبين الملائكة ليتحقق له الانتصار عليهم .

رابعاً : وجاء فيه أن الله عرض المسميات على الملائكة وطلب منهم أن ينبئوه بها فلم يستطيعوا وفوّضوا الأمر إلى الله مسبِّحين له .

خامساً : وجاء فيه أن الله أمر آدم أن ينبئهم بالأسماء ففعل . فلما أنبأهم بأسمائهم قال الله لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٣) .

وأول ما يلاحظه الباحث - هنا - أن نص السورة (البقرة) حين اشتمل على معان جديدة لم ترد فى غيره قبلاً . كما وضحناها آنفاً . واشتمل على معان

---

(١) البقرة : ٣٠ . (٢) سورة ص : ٧١ (٣) البقرة : ٣٣

تحدثت عنها السور المكية ، فإنه فى بناء القصة فى المدينة قدَّم القرآن المعانى الجديدة ، وبعد الفراغ منها ساق المعانى التى وردت فى العهد المكى . وبذلك اكتمل بناء القصة . ولم يعد فيها موضع لإضافة جديدة .

فى المدنى كانت عبارة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) بديلاً عن عبارة : ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً ﴾ (٢) .

لأن العهد المكى كان عهد تكوين فى كل شئ .. تكوين للعقيدة الصالحة ، تكوين للأخلاق الإنسانية الفاضلة ، تكوين لجماعة تؤمن بالحق وترفض الباطل . فناسبه من قصة آدم عليه السلام مراحل التكوين الأولى . مراحل الخلق والإيجاد من الطين أو الصلصال والحمأ المسنون .

أما « الجعل » فمناسب للعهد المدنى لأنه طور لاحق للإيجاد والخلق . ولأن مفعوله خليفة ، والخلافة مجعولة لآدم متنقلة فى ذُرِّيته جيلاً بعد جيل لأن فى الجعل معنى التحويل من شئ إلى شئ .

قال العلأمة العمادى (٣) فى تفسير أول سورة الأنعام :

« والجعل هو الإنشاء والإبداء كالخلق . خلا إن مختص بالإنشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية . وهذا عام له كما فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (٤) ، وللتشريعى كما فى قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ (٥) . وأيّاً ما كان فهو إنباء عن ملابسة مفعوله بشئ آخر يكون فيه أو له أو منه » .

فالخلق لا يُطلق إلا على الإيجاد والإبداع . أما الجعل فقد يُستعمل فى معنى الخلق . وقد يفارق ذلك المعنى إلى معان أخرى كما ذكره العمادى . ولذلك وضع بإزاء الخلافة لأن الخلافة مجعولة لا مخلوقة .

---

(١) البقرة : ٣٠ .		(٢) سورة ص : ٧١

(٣) هو العلأمة أبو السعود صاحب التفسير المشهور بـ « إرشاد العقل السليم » .

(٤) الأنعام : ١		(٥) المائدة : ١٠٣

ومن ملائمات القصة فى البقرة للعهد المدنى أن اليهود كانوا فى المدينة وهم أهل كتاب . ولهم بماضى الأمم وحقائق الخلق دراية . فجاءهم القرآن بتفاصيل دقيقة من جعل الخلافة لآدم . ومحاورة الملائكة ربهم . وتعليم آدم الأسماء . وعجز الملائكة عن التنبئو بها . وتحقيق ذلك لآدم .

ومن تلك الملاءمة أيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) .

فهذه للعبارة تؤدى إلى جانب المقصود منها معنى آخر هو تهديد ظاهرة النفاق التى جدّت فى المدينة ولم تعرف عنها مكة شيئاً .

فيها تهديد لهم بكشف أسرارهم وإظهار خفاياهم لأن النفاق يقوم على كتمان الكفر وإظهار الإيمان والطاعة .

* *

● ملاحظة مهمة أخرى :

ومن الملاحظات الهامة فى نصوص القصة كلها فى جميع مصادرها أن بعض المعانى تُذكر مع بعض معيَّن . فإذا لم يُذكر ذلك البعض المعيَّن لم يذكر - كذلك - ما جرى المنهج القرآنى على ذِكره معه .

فسؤال اللّه إبليس عن عدم السجود يُذكر معه بعد إعتذاره طلب إبليس من ربه أن يجعله من المنظَرين . ويُذكر معه - كذلك - إعلان إبليس تصديه لإضلال الناس إلا عباد اللّه المخلصين .

وهذا المعنى جاء فى كل من سورة « ص » - والحِجْر - والإسراء . ولم يرد فى هذه السور الثلاث الأمر لهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض .

وإذا ذُكِر الهبوط من الجنة إلى الأرض ، ذُكِر معه ترقب الهُدى . فمَن اتبعه هَداه إلى الحَق . ومَن خالفه هلك .

---

(١) البقرة : ٣٣

وقد ذُكِر هذا المعنى فى سورتى البقرة وطه . ولم يخالف هذا المنهج إلا فى الأعراف حيث ذُكِر فيها الهبوط ولم يُذكر ترقب الهُدى . ولعل السر فى ذلك أن طه نزلت بعد الأعراف مباشرة فأرجى ذلك إليها .

كذلك فإن إعلان توبة اللّه على آدم عليه السلام قرينة ذكر الهُدى وترقبه ذلك فى البقرة وطه .

إن المنهج القرآنى يسير على اعتبارات دقيقة فى بناء القصة وائتلاف أجزائها ، وتظهر هذه الجوانب الحكيمة كلما أطال الباحث النظر فى نصوصه وقارن ودرس واستنتج .

وفوق هذه العناصر المشتركة بين كل النصوص . ثم المشتركة بين مجموعة دون أخرى نجد لكل نص ملامح خاصة لم تأت فيما عداه . فما هى إذن ؟

* * *

● الملامح الخاصة بكل مصدر من مصادر قصة آدم :

نضرب مثلاً ، ولا نستقصى . وليكن ذلك بحسب وضع السور فى المصحف ، ولنبدأ بسورة البقرة .

إن العهد بهذه السورة ليس ببعيد . إذ يكاد ما جاء بها يكون ملامح خاصة لها .. فليس فيها مكرر سوى أمر السجود والهبوط وترقب الهُدَى . وما عدا ذلك فخاص بها .

والأعراف : اختُصت فيما اختُصت به بذكر تندم آدم وحواء ودعائهما اللّه بالمغفرة والرحمة وإلا كانا من الخاسرين .

والحِجْر : اختُصت بذكر الصلصال والحمأ المسنون . وبذكر السبعة الأبواب للناروأن لكل باب جزءاً مقسوماً .

والإسراء : اختُصت بوضع مقولة إبليس موضع إبائه السجود . وبالتصريح بحقده على آدم : ﴿ أرأيْتَكَ هَذَا الَّذى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ (١) وبالإمداد له فى الضلال ، وأن يجلب عليهم بخيله ورجله ، وأن يشاركهم فى الأموال والأولاد . وأن وعده لهم ما هو إلا غرور .

والكهف : اختُصت بوصف إبليس بأنه كان من الجن وأنه فسق عن أمر ربه ، وبإنكار أن يتخذ هو وذُرِّيته أولياء من دون الله .

وطه : اختُصت بإجمال جامع ورد على وجه التمهيد للقصة : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (٢) .

وبتفصيل النعيم الذى سيلقاه آدم وحواء فى الجنة . وبأن الله اجتبى آدم وهداه .

وسورة « ص » : اختُصت بقوله تعالى : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ (٣) ... إلى غير هذه الأمور يطول بنا الحديث لو تتبعناها جزئية جزئية . وكم فى هذه النصوص من الحِكم والأسرار ؟

* *

● لماذا اختلفت أساليب الحكاية والمحكى عنه واحد :

هذا سؤال نعيده مرة أخرى بعد أن أشرنا إليه فى مدخل البحث . فما جوابه إذن ؟

● الجواب :

أولاً : أن الاختلاف راجع فى الأغلب إلى اختلاف الأحوال . ففى كل عبارة جاءت على نهج معيَّن رعاية ومناسبة لمقام الحديث . ويتصل بهذا المظهر من مظاهر التحدى حيث يكون المعنى الأصل واحداً . وتحدث بتكراره زيادات ومعان ثانية لم يزدد بها إلا حلاوة وطلاوة .

---

(١) الإسراء : ٦٢ (٢) طه : ١١٥ (٣) سورة ص : ٧٥

على خلاف المعهود فى بلاغة الناس . فإن التكرار فيه يُعرِّضه للقوة والضعف والتهافت وإن وُفِّقَ فى موضع خُذِلَ وسقط فى موضع آخر .

ثانياً : الفروق اللفظية التى يجئ عليها المكرر عندما نبحث عن أسرارها يتجلى لنا بوضوح لماذا آثر القرآن لفظاً على لفظ . وأسلوباً على أسلوب مما يؤدى فى النهاية إلى الإقرار اليقينى بإعجاز القرآن .

ثالثاً : يقول الإمام البقاعى فى تفسيره سورة البقرة : « إن المقصود من حكاية القصص فى القرآن إنما هى المعانى . فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميعها ولم يكن هناك تناقض . فإنها كانت حين وقوعها بأوفى المعانى ، ثم إن الله تعالى يُعبِّر لنا فى كل سورة يذكر القصة فيها بالألفاظ المناسبة للمعانى ، ويطرح ما لا يقتضيه المقام (١) .

* * *

● خلاصة :

ذلك هو جانب التكرار فى القرآن الكريم . فليأت قصاصو العالَم بأدب مثله ، وليرنا الطاعنون أين موضع العيب فيما جاء فى القرآن مكرراً ؟ وإلا فكفى لغواً .

فإن كانوا مكابرين قلنا لهم :

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا . وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ

وإن كانوا ضالين قلنا لهم :

وَإِذَا كُنْتَ لَمْ تَرَ الهِلَالَ فَسَلِّمْ لِأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَارِ

* * *

(١) المناهج الجديدة فى تفسير آيات الله المجيدة ص ٣٩ - الدكتور عبد الغنى الراجحى .

الفصل الرابع

خصائص يغلب عليها جانب المعنى

١ - ثراء معانى القرآن :

وهذه خاصة من خصائص التعبير القرآنى . فيها يقول الجاحظ :

« إنه - أى القرآن - قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها . وإذا أراد المتكلم العادى التعبير عن المعانى التى أرادها القرآن لم يصل إلى بغيته إلا بلفظ أطول . وأقل دلالة » (١) .

فالقرآن ينتقى من الألفاظ جوامعها وأغناها بالدلالة ، ويختار من أدوات التعبير ما يعطيك من المعنى ما هو دائماً - متجدد متدفق ، بحيث يسع وجهات النظر المختلفة .

« وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت خُبراً به ، ووقفتَ على معناه محدوداً ، ولو رجعتَ إليه كَرَّة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد ، غير ذلك الذى سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك حتى ترى للفظة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة . كلها صحيح أو محتمل للصحة ، وكأنما هى فص من الماس يعطيك كل ضلع فيه شعاعاً ، فإذا نظرتَ إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدرى ما تأخذ عينك وماذا تدع » (٢) .

---

(١) البيان والتبيين ص ٩٤

(٢) النبأ العظيم - محمد عبد الله دراز ص ١١١ - ١١٢

لذلك فإنك ترى الناس يذهبون مذاهب شتّى فى بيان المراد من لفظ فيه ، أو جملة .

والاختلاف فى بيان المراد من ألفاظ القرآن وجمله كان مورداً غنياً للمفسرين والمشرِّعين والفقهاء . وجهودهم فى ذلك معروفة لا تحتاج إلى بيان . وذكر مقاتل فى صدر كتابه حديثاً مرفوعاً : « لا يكون الرجل فقيهاً كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة » (١) .

* *

● لماذا كان المعنى فى القرآن ثريا ؟

ساعد على ثراء معانى القرآن أمور نوجزها فيما يلى :

١ - ما فى طبيعة بعض ألفاظه من مرونة وغنى بحيث ترى للكلمة الواحدة عدة معان ، لا تنكرها اللغة بحسب الوضع ، ولا يرفضها الدين من حيث العمل والاعتقاد .

٢ - ما فى طبيعة بعض تراكيبه من عموم وشمول فيما يحسن فيه العموم والشموم . فتختلف وجهات النظر حول المراد ، ويشمل هذا الفهم المتعدد وصف « واحد » ، هو أنه فهم لا يتنافى مع طبيعة النصوص ، ولا يتنافى مع حقائق الشرع كاختلافهم حول ليلة القَدر ، والليلة المباركة التى يُفرق فيها كل أمر حكيم ، والمراد بالليالى العَشر فى سورة الفجر ، والمراد بالشفع والوتر ... وغير ذلك كثير لا يكاد يخلو منه موضع فى القرآن .

٣ - ما فى وجوه قراءاته من تباين يختلف معه المعنى ويتعدد ويتكاثر مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) - برفع اسم الجلالة مرة على أنه فاعل ، وإسناد الخَشية إليه يكون حينئذ بمعنى : التجلة والتكريم .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى : ١/١٠٣ .

(٢) فاطر : ٢٨

وبنصب اسم الجلالة مرة على أنه مفعول به قُدِّمَ على الفاعل الذى هو « العلماء » لإرادة الاختصاص . وكثير من وجوه القراءات الصحيحة تضفى معانى جديدة متسقة مع أغراض الشرع وقواعد اللغة .

٤ - صلاحية ما فى جمله من قيود لتعلقها بأكثر من جهة ، فيتعدد المعنى بتعدد جهات التعلق ، حيث لا مانع من ذلك شرعاً . وسنضرب لذلك بعض الأمثلة فيما يأتى .

٥ - ما فى فواتح سوره من غرابة اختلف الفهم حولها . وساعد التعبير على ذلك الاختلاف ، وما زالت تلك الفواتح حتى الآن نوعاً من المكنون الذى لا يقف على حقيقة معناه إلا الله . ونقدم فيما يأتى بعض النماذج :

● توارد المعانى على اللفظ الواحد :

القرآن يستخدم اللفظ الواحد فى مواضع متعددة ، وكل موضع يراد به معنى غير الذى أُريد به فى الموضع الآخر .

ومن ذلك كلمة « هُدَى » وما اشتق منها . فقد ورد فيه هذا اللفظ فى سبعة عشر موضعاً مراداً به سبعة عشر معنى كذلك . وهاك أمثلتها :

بمعنى « البيان » كقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدىً مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ .

(البقرة : ٥)

وبمعنى « الدين » كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ .

(آل عمران : ٧٣)

وبمعنى « الإيمان » كقوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ .

(مريم : ٧٦)

وبمعنى « الداعى » كقوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد : ٧) .

وبمعنى « الرسل » كقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّى هُدىً ﴾ [١] (البقرة : ٣٨).

---

(١) ويجوز أن يراد به : « كتاب أو بيان » .

وبمعنى « المعرفة » كقوله تعالى : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

(النحل : ١٦)

وبمعنى « الرشاد » كقوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

(الفاتحة : ٦)

وبمعنى « القرآن » كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ .

(النجم : ٢٣)

بمعنى « التوراة » كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ ﴾ .

(غافر : ٥٣)

وبمعنى « الاسترجاع » كقوله تعالى : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ .

(البقرة : ١٥٧)

وبمعنى « الحُجَّة » كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

(البقرة : ٢٥٨)

وبمعنى « التوحيد » كقوله تعالى : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ ﴾ .

(القصص : ٥٧)

وبمعنى « السُنَّة » كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

(الزخرف : ٢٢)

وبمعنى « الإصلاح » كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ .

(يوسف : ٥٢)

وبمعنى « الإلهام » كقوله تعالى : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

(طه : ٥١)

وبمعنى « التوبة » كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) .

وبمعنى « النبى ﷺ » وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ ﴾ (البقرة : ١٥٩) .

نص على هذا صاحب البرهان [١] . على أن بعض المعانى هنا يمكن أن تتداخل ، ويمكن كذلك أن تُفسَّر بمعنى غير ما أثبتناه نقلاً عن صاحب البرهان . والتفرقة بين هذه المواضع قائمة على اعتبارات دقيقة ونسبية .

* *

● السوء :

ومثل هذا اللفظ فى الاستعمال على وجوه كثيرة : لفظ « السوء » ، ولنضرب لذلك أمثلة :

بمعنى « الزنا » كقوله تعالى : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً ﴾ .

(يوسف : ٢٥)

وبمعنى « الضر » كقوله تعالى : ﴿ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ (الأعراف : ١٨٨) .

وبمعنى « الذنب » كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ (النساء : ١٧) .

وبمعنى « الهلاك » كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ (الرعد : ١١) .

وبمعنى « العذاب » كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ (الأحزاب : ١٧) .

وبمعنى « الأذى » كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ .

(الأعراف : ٧٣)

---

(١) نفس المصدر .

وبمعنى « المنكر » كقوله تعالى : ﴿ أَنجيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ .
(الأعراف : ١٦٥)

وبمعنى « القبح » كقوله تعالى : ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ (النحل : ٥٩) .

وبمعنى « البلاء » كقوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (النحل : ٦٢) .

وبمعنى « الحزن » كقوله تعالى : ﴿ إن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ .
(آل عمران : ١٢٠)

وبمعنى « العورة » كقوله تعالى : ﴿ يُوَارِى سَوْءاتِكُمْ ﴾ .
(الأعراف : ٢٦)

وبمعنى « الجثة » كقوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِى سَوْأَةَ أخِيهِ ﴾ .
(المائدة : ٣١)

وبمعنى « الهزيمة » كقوله تعالى : ﴿ فَانَقَلبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ (آل عمران : ١٧٤) .

وبمعنى « الظلم » كقوله تعالى : ﴿ إن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ ﴾ (النساء : ١٤٩) .

وبمعنى « الخيانة » كقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ (يوسف : ٢٤) .

وبمعنى « الميل إلى النساء » كقوله تعالى : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ .
(يوسف : ٥١)

وبمعنى « الكفر » كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُاْ السُّوأَى أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الروم : ١٠) .

وبمعنى « السباب » كقوله تعالى : ﴿ وَيَبْسِطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ﴾ (١) (الممتحنة : ٢) .

وبمعنى « الجنون » كقوله تعالى : ﴿ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (٢) .

(هود : ٥٤)

وبمعنى « السواد » كقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (٣) .

(طه : ٢٢)

فقد بلغت المعانى التى استخدم القرآن فيها هذه المادة عشرين وجهاً كما ترى ، والتفرقة بينها تعتمد على اعتبارات دقيقة مثل « هُدَى » السابقة . وكفى بهذين الموضعين دليلاً على طريقة القرآن فى استخدام الكلمة الواحدة فيه على معانٍ شتَّى .

فى الموضعين السابقين استخدم القرآن كلمة واحدة - مع اختلاف صيغها - فى معانٍ متعددة كما رأينا . وذلك إحدى طريقتين له فى استثمار اللفظ .

* *

● احتمال اللفظ لمعان متعددة :

والآن نعرض طريقة أخرى له فى استثمار اللفظ أيضاً وهى الطريقة التى يحتمل اللفظ فيها أكثر من معنى فى تركيب واحد بخلاف الطريقة المتقدمة .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٤) .

هذا جزء آية البقرة المذكورة ، وهى تذييل على ست كلمات - كما ترى - فيهن واحدة وهى موطن السر فيما نهدف إليه فيها وهى كلمة « حساب » فانظر إلى ما تحمله هذه الكلمة من معان :

---

(١) فسَّر الزمخشرى « السوء » هنا بخيانة السيد ، أو مقدمات الزنا : الكشاف : ٣٥٢/٢

(٢) المصدر السابق : ٤٠٩/٤ — (٣) نفس المصدر : ٣١٥/٢

(٤) البقرة : ٢١٢

فقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَنْ يشاء من عباده دون أن يحاسبه أحد لماذا رزقه ؟ لأنه يعطى عن حرية تامة .

وقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير محاسبة لنفسه ، خشية نفاد ما بيديه لأنه غنى .

وقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَن يشاء ، حيث لا يكون فى حسبان المرزوق جهة وكيفية الأرزاق ، لأن ذلك قد اختص الله به .

وقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَن يشاء بغير معاقبة أو محاسبة له على عمله لأنه يغفر لمن يشاء ، ويعذب مَن يشاء لا معقب لحكمه .

وقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَن يشاء رزقاً كثيراً ، لا يدخل تحت حساب أو حصر (١) .

هذه خمسة معان احتملتها هذه الكلمة الجامعة لا يشذ واحد منها عن طبيعتها وإن بدا بينها - أى المعانى - التباين فى الأرجحية والمرجوحية . فأقواها فيما يبدو : الرزق الكثير ، وأقلها قوة - فيما يبدو كذلك - أن يترك الله حسابه ومعاقبته إذ لا ضرورة تقتضيه ، هو وجه محتمل فقط .

* *

● **الجمل والفقرات :**

ذلك شأن مفرداته . أما شأن تراكيبه فعجب عاجب . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢) .

فقد حكى الزمخشرى فى بيان قوله تعالى : ﴿ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ ﴾ ثلاثة آراء :

الأول : إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محياً ، وأن يستووا مماتاً ، لافتراق أحوالهم .

---

(١) النبأ العظيم - محمد عبد الله دراز - ص ١١٣ (بتصرف) . (٢) الجاثية : ٢١

إحياءً : حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصى .

ومماتاً : حيث مات هؤلاء على البشر بالرحمة والوصول إلى ثواب اللّه ورضوانه وأولئك على اليأس من رحمة اللّه ، والوصول إلى هول ما أعد لهم .

الثانى : إنكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة ، لأن المسيئين مستو محياهم فى الرزق والصحة . كما يرزق المحسنون ويصحون . وإنما يفترقون فى الممات .

الثالث : أن يكون : ﴿ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ كلاماً مستأنفاً . على معنى : أن محيا المسيئين ومماتهم سواء ، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم . كلٌ يموت على حسب ما عاش عليه [1] .

وقال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [2] .

قال العلامة أبو السعود فى بيان هذه الآية : « .. والمعنى أنه تعالى ناصر لرسوله فى الدنيا والآخرة . من غير صارف يلويه وعاطف يثنيه . فمَنْ كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ، ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ، ومباشرة ما يردده من المكايد فليبالغ فى استفراغ المجهود وليجاوز فى التحدى كل حد معهود ، فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق خنقاً مما يرى من خلال مساعيه ، وعدم إنتاج مقدماته ومباديه ، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ - يعنى حبلاً إلى سقف بيته : ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أى ليختنق من قطع إذا اختنق لأنه يقطع نفسه بحبس مجاريه وقيل : ليقطع الحبل

---

(١) الكشاف : ٢٢٩/٣ ، وقد تابعه أبو السعود فى الرأيين الأول والثانى .

(٢) الحج : ١٥

بعد الاختناق ، على أن المراد به فرض القطع وتقديره ، كما أن المراد بالنظر فى قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ تقدير النظر وتصويره . أى فليصوِّر فى نفسه النظر ، هل يذهب كيده ذلك الذى هو أقصى ما انتهت إليه قُدرته فى باب العنادة والمضارة ما يغيظه من النُصرة . كلا . ويجوز أن يراد : فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه ؟ وقيل : المعنى : فليمدد حبلاً إلى السماء المظلة ، وليصعد عليه ثم ليقطع الوحى ، وقيل : ليقطع المسافة حتى يبلغ شأنها فليجتهد فى دفع ضرره .

ويأباه - يعنى هذا الرأى الأخير - أن مقاصد النظم الكريم بيان أن الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من إذهاب ما يغيظ ، ومن البيِّن أن لا معنى لفرض وقوع الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيما قطع الوحى . فإن فرض وقوعه مخل بالمرام قطعاً .

وقيل : كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله به ورسوله عليه الصلاة والسلام من النُصرة ، وآخرون من المشركين يريدون إتباعه - عليه السلام - ويخشون أن لا يثبت أمره ، فنزلت .

وقد فُسِّر « النصر » بالرزق ، فالمعنى أن الأرزاق بيد الله تعالى ، لا تُنال إلا بمشيئته تعالى فلا بد للعبد من الرضا بقسمته . فمن ظَنَّ أن الله تعالى غير رازقه ، ولم يصبر ولم يستسلم . فليبلغ غاية الجزع ، وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يغلب القسمة ولا يرده مرزوقاً [١] .

* * *

● القراءات وتعدد المعنى :

أما أثر القراءات فى تكثير المعنى القرآنى وثراء ما يستنبط منه ، فيتضح من الأمثلة الآتية :

---

(١) تفسير أبى السعود : ٤/١١ - ١٢

أولاً : ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (١) .

فقد تعددت القراءات فى كلمة « غير » فجاءت مرفوعة ، ومنصوبة ، ومجرورة ، فالرفع على أنه صفة للقاعدين ، والنصب على الاستثناء ، والجر على أنه صفة للمؤمنين .

والمعنى على الأول : « لا يستوى القاعدون الأصحاء من المؤمنين والمجاهدون » .

وعلى الثانى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين إلا أولى الضرر » . والمستثنى منه : إما « القاعدون » وإما « المؤمنون » .

وعلى الثالث : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين الأصحاء » (٢) .

ثانياً : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

فقد قرئت كلمة « أنفُسكم » على وجهين . أولهما : ضم الفاء والمعنى عليه : قد جاءكم رسول من جنسكم وأنفسكم ليس بغريب عليكم . ومصداق هذا قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِه ﴾ (٤) .

---

(١) النساء : ٩٥

(٢) مصدرنا فى هذه النقول كتاب : الحجة فى علل القراءات السبع لأبى على الحسن بن أحمد الفارسى : ١١٩/١ ، تحقيق على النجدى وآخرين .

(٣) التوبة : ١٢٨ (٤) الجمعة : ٢

والوجه الثانى - أنفَسكم بفتح الفاء والمعنى عليه : « لقد جاءكم رسول من أذكاكم وأطهركم قلباً ونفساً » .. وكلا المعنيين لائق به عليه السلام .

ثالثاً : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (١) .

الآيتان تتحدثان عن أهل سبأ . وعن النعمة التى وهبهم إياها الله . حيث أدنى منهم مواطن النفع ، وحقق لهم الأمن فى سيرهم وجعل القرى التى تقع على طريق سفرهم متقاربة بحيث يقيلون فى قرية ، ويبيتون فى أخرى حتى يصلوا القرية التي بارك الله فيها .

وهذا معنى قوله : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ والشاهد فى الآية الثانية فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ بنصب « رَبَّنَا » على أنه منادى مضاف . وبناء « باعد » على السكون أمراً من المباعدة وهى قراءة حفص .

وقد أخرج الزمخشرى وغيره من المفسرين المعنى على هذا الوجه فقال :

« بطروا النعمة ، وبشموا من طيب العيش ، وملُّوا العافية . فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى ، وقالوا : لو كان جنى جناننا أبعد كان أجود أن نشتهيه ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ، ويتزودوا الأزواد . فعجل الله لهم الإجابة » (٢) .

وقد أورد الزمخشرى فى الآية قراءات أخرى نتعرض لواحدة منها لأنها هى التى تدخل فى موضوعنا لاختلاف المعنى معها . وهى : ﴿ فَقَالُواْ رَبُّنَا بَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ . برفع « رَبُّنا » على الابتداء وفتح الدال والعين من « باعد »

---

(١) سبأ : ١٨ - ١٩

(٢) الكشاف : ٣/٤٥٦

ماض من المباعدة والمعنى على هذا يختلف من حيث الصياغة ، ومن حيث المقصود .

فعلى القراءة الأولى تكون العبارة إنشاءً طلبياً ، وعلى الثانية خبر لا إنشاء .

وقد خرَّج الزمخشرى المعنى على هذا الوجه فقال : « والمعنى خلاف الأول هو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفههم ، كأنهم يتشاجون على ربهم ويتحازنون عليه » (١) .

إنهم فى الأول يشكون من قرب أسفارهم ويطلبون بُعدها . وفى الثانى يشكون من بُعد أسفارهم ، على الوجه الذى ذكره الزمخشرى ، ويطلبون قربها .

* *

● القيود وتعدد المعنى :

قال سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ (٢) .

والشاهد فى قوله « حبه » فقد اختلفوا فى مرجع الضمير على رأيين :

أولهما : أن يكون الضمير راجعاً للطعام لذكره قبله . والمعنى : أنهم يطعمون الطعام وهم يحبونه لاحتياجهم إليه ، وتعلق أغراضهم به ، وهذا عملاً بقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ البِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٤) .

وثانيهما : أن يكون الضمير راجعاً إلى اسم الجلالة من باب الإضمار ولا ذكر لقوة ظهوره . والمعنى عليه : ويطعمون الطعام على حب الله لا حب غيره ، أى

---

(١) الكشاف : ٤٥٦/٣

(٢) الإنسان : ٨

(٣) آل عمران : ٩٢

(٤) الحشر : ٩

لا يريدون عليه جزاءً ولا شكوراً . ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى بعده : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (١) أى أنهم يطعمونهم مخلصين العمل لله .

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

والشاهد فى هذه الآية : ﴿ « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ .

فإن الله سبحانه – لما بيَّن لرسوله نوعى الآيات المنزَّلة عليه : نوع واضح فى الدلالة لا يُختلف فيه ، ونوع محتمل لعدة وجوه .. لما بيَّن له ذلك قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ .. ثم قال : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ ﴾ .

والعلماء فى تفسير هذا لهم وجهان :

الأول : أن الواو للعطف . والمعنى عليه : أن تأويل المتشابه شركة بين الله وبين «الراسخين» فى العلم . فهم يعلمونه بإلهام منه سبحانه ، وعليه أيضاً فإن موضع الجملة بعدها : « يقولون » استئنافيه ، أو هى حال من الراسخين » (٣) .

الثانى : أن الواو استئنافية . فهى ليست عاطفة . والمتشابه هو الذى استأثر الله وحده بعلمه دون سواه .

وعلى هذا فإن موضع الجملة « يقولون » خبر « الراسخون » وهذا الرأى – فيما يبدو – أقوى من السابق ، لخلوه من الاعتراض لأن الأول اعترض عليه بعضهم فقال : « كيف يجوز فى اللغة أن يعلم الراسخون ، والله يقول :

---

(١) الإنسان : ٩ (٢) آل عمران : ٧ (٣) الكشاف للزمخشرى : ١/ ٢٦٠.

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ وإذا أشركهم فى العلم انقطعوا عن قوله : « يقولون » لأنه ليس هنا عطف حتى يوجب للراسخين فعلين »[1] .

ولهذا حاول بعض العلماء الرد فقالوا : إنَّ « يقولون » هنا فى موضع الحال . كأنه قال : « والراسخون فى العلم قائلين : آمنا به » .. كما قال الشاعر :

الرِّيحُ تَبْكِـــى شَجْوَهَا وَالبَرْقُ يَلْمَعُ فِى غَمَامِهْ

أى لامعاً .

وقيل : المعنى : « يعلمون ويقولون » فحذف واو العطف كقوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾[2] والمعنى : يقولون : علمنا وآمنا . لأن الإيمان قبل العلم محالٌ . إذ لا يتصور الإيمان مع الجهل : وأيضاً لو لم يعلموها لما كانوا من الراسخين ، ولم يقع الفرق بينهم وبين الجهال[3]

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِى ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ، وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلَ ﴾[4] .

نسوق هذه الآية دليلاً من نوع آخر على ما تحتمله القيود من وجوه فى الإعراب ، يتبعها اختلاف فى المعنى .

قال صاحب الكشاف : « تلقون » : فإن قلت : بِمَ يتعلق ؟ يجوز أن يتعلق بـ « لا تتخذوا » حالاً من ضميره و بـ « أولياء » صفة له ويجوز أن يكون استئنافاً . والباء فى « بالمودة » إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها فى : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾[5] وإما ثابتة على أن مفعول :

---

(١) البرهان للزركشى : ٧٣/٢
(٢) القيامة : ٢٢
(٣) البرهان للزركشى : ٧٣/٢
(٤) الممتحنة : ١
(٥) البقرة : ١٩٥

« تلقون » محذوف . معناه : تلقون إليهم أخبار رسول الله بسبب المودة التى بينكم وبينهم ... فإن قلت : « وقد كفروا » حال ممَّ ؟ قلت : إما من « لا تتخذوا » وإما من « تلقون » أى لا تتولوهم أو توادونهم وهذه حالهم .. و « يخرجون » استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوهم . أو حال من «كفروا » (١) .

فأنت ترى إلى أى مدى كانت القيود فى هذه الآية محتملة للوجوة الإعرابية التى تبعها اختلاف فى المعنى .

* *

● سر هذه الظواهر :

لماذا جاء القرآن على هذه الوجوه ؟

نرى الزمخشرى يجيب على هذا السؤال فيقول :

فإن قلتَ : « هلَّا كان القرآن كله محكماً » ؟ يعنى دلالته قطعية فى كل موضوع . قلت : لو كان كله محكماً لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال . ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به . ولما فى المتشابه من الاستيلاء والتمييز بين الثابت على الحق ، والمتزلزل فيه . ولما فى تقادح العلماء وإتعابهم القرائح فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله (٢) .

هذا كلامه . وهو - وإن كان فى الدفاع عن ورود المتشابه فى القرآن - فإن له بما نحن فيه نسباً وصلة .

* * *

---

(١) الكشاف للزمخشرى : ٤/٩٠٤ .

(٢) الكشاف : ١/٢٥

٢ - دقة النظم :

وهذه - أيضاً - خاصة من خصائص الأسلوب القرآنى ، يغلب فيها جانب المعنى على جانب اللفظ .

ونضرب لذلك ثلاثة أمثلة ...

أولاً - فى تاريخ الأمم :

قال سبحانه : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالجَرَادَ وَالقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ﴾ (١) .

فى هذه الآية نجد خمسة أسماء مسرودة سرداً إجمالياً . والشأن فى مثلها ألا تكون موضعاً للجمال . ولا مجالاً للتصرف فى القول . ولكنها فى هذا الموضع تجد فيها نوعاً من الجمال التأليفى المبنى على قاعدة وقانون .

لأن هذه الأسماء الجوامد تتفاوت فيما بينها خفة وثقلاً . فأخفها على اللسان : الطوفان والجراد والدم ، وأثقلها : القُمَّل والضفادع .

فقدَّم الطوفان لخفته ، ولمكان المدين فيه ، ليأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد لأنها تلى الطوفان فى الخفة . وفيها مد كذلك .

فهما بمثابة ترويض للسان متدرجة فى النطق ، وبعدهما جاء بالاسمين الثقيلين - القُمَّل والضفادع - بادئاً بأخفهما :« القُمَّل » اطراداً على السُنَّة التى شرحناها . ولمكان الغنة فيه .

ثم جاء بالاسم الخامس : « الدم » وهو أقلها حروفاً ، وأكثرها خفة ليسرع اللسان بها بعد ذلك الجهد الطويل . وما أشبه هذا برحلة طائر يبدأ سيره وئيداً وئيداً فإذا ما اقترب من بُغيته ، قبض من جناحيه ، وبطأ من سيره تأبياً (٢) للنزول .

---

(١) الأعراف : ١٣٣

(٢) تأبياً : استعداداً . أساس البلاغة مادة : « أب » .

إذن فقد راعى القرآن فى هذا السرد الذى تكاد تنعدم فيه الروابط إلا رباط العطف المجرد راعى فيه قاعدة فنية جمالية . بنيت على هيئات الكلم أنفسها وأحوالها من حيث الخفة والثقل . وعلى هذا التناسق الذى كان مثار العجب . قدَّم ما هو جدير بالتقديم . وأخَّر ما هو جدير بالتأخير .

ويمكن أن نفهم النص على وجه آخر ، وعلى قانون آخر غير الذى تقدَّم الحديث فيه . وهذا القانون هو ما سبق أن ذكرناه : « قطع النظير عن النظير » .

فقد سبق أن خرَّجنا عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (١) حيث قطع الظمأ عن الجوع وهما نظيران ، والضحاء عن العرِى وهما نظيران كذلك . وقلنا : إن الداعى إلى هذا العمل هو تكثير النِعَم . ويرى بعض الباحثين أن الآية تضمنت ضرورات الحياة الأربع : الطعام ، والكساء ، والمسكن ، والشراب (٢) .

وفى آيتنا هذه قطع للنظير عن النظير ، فقد ذكر الطوفان أولاً . وكان الظاهر يقتضى أن يذكر بعده الضفادع لأنه تعيش - غالباً - فى الماء ، ويكثر وجودها فيه ، ثم الدم ، لأنه كان يظهر - حسب ما اقتضه حكمة اللّه - فى الماء .

لكنه خالف هذا الظاهر لأنه لئلا يتوهم متوهم تقليل الآيات بحسبان الطوفان والضفادع والدم كالآية الواحدة . ففصل بينها لهذا الغرض . ثم قدَّم الجراد على القُمَّل لظهوره أمام النظر أكثر ولأنه شئ خارجى عن الإنسان . وأخَّر القُمَّل لاختفائه وعدم وقوع الرؤية عليه كثيراً .

* *

---

(١) طه : ١١٨ - ١١٩

(٢) مجلة الصحية النفسية التى تصدر بالقاهرة - العدد السادس ص ٩ - السنة السادسة .

ثانياً - فى التشريع :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِى أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [١] .

قال صاحب الظاهرة القرآنية [٢] بعد أن ذكر هذا النص :

« هذا نص أساسى يقرر فى نفثة واحدة من الوحى ، تشريع الزواج بجميع تفاصيله وشروطه القانونية الضرورية ، وهو ينظم بصورة ما المحرَّمات من النساء مشتملاً بذلك على حكمين جوهريين . هما : الاستيعاب والحصر الشامل للحالات المشار إليها ، وتصنيفها فى نظام منطقى . وترينا مناقشة النص تصنيفاً للحالات المحرَّمة بدرجه القرابة العصبية والترتيب النزولى : الأم والبنت والأخت - والعمة والخالة - وبنت الأخ ، وبنت الأخت من القرابة المباشرة . والمرضعة وأخت الرضاعة من القرابة الرضاعية ، ولا يحل للرجل أن يتزوج أم امرأته ، أو ابنتها أو أختها . فدرجة القرابة هنا مقيسة بالنسبة للمرأة ، ويمكن أن نلحظ - أيضاً - فى هذا التصنيف أفضلية رباط الذكورة على رباط الأنوثة ، فابنة الأخ تُذكر قبل ابنة الأخت ، والقرابة المتصلة بالزوج تُذكر قبل القرابة المتصلة بالزوجة ، مع أسبقية رباط الذكورة » . (انتهى كلام صاحب الظاهرة القرآنية) .

ويمكن تلخيص الأسس التى بنى عليها تحليله للآية الكريمة فى العناصر الآتية :

---

(١) النساء : ٢٣

(٢) هو مالك بن نبى الجزائرى فى كتابه المذكور ص ٢٢٥ - ٢٢٦

١ - القرابة المباشرة .　　　　٢ - الترتيب النزولى .

٣ - أفضلية علاقة الذكورة .

ولا يستطيع أحد أن يقلل من قيمة هذه الاعتبارات التى أوردها الكاتب . وقد أشار القاضى أبو بكر الباقلانى - قبل صاحب الظاهرة القرآنية - إلى شئ من هذا التفصيل فى هذه الآية فى كتابه المعروف « إعجاز القرآن » .

ونحن مع الرجلين فيما ذهبا إليه . ولكننا نرى إمكان تحليل الآية على وجه اخر لا يختلف عما ذهبا إليه . وإن اشتمل على جديد لم يلحظاه هما .

وهذا الوجه هو : أن هذه الحالات الثلاث عشرة المحرَّمة المنصوص عليها فى الآية الكريمة ترجع إلى عنصرين أساسين هما :

أولاً - حُرمة ذاتية : ويدخل تحت هذا الضابط سبع حالات هى : الأم - البنت - الأخت - العمة - الخالة - بنت الأخ - بنت الأخت .

وقد روعى فى ترتيب هذه الحالات السبع ما يأتى :

١ - أهمية الحُرمة .　　　　٢ - ثم علاقة الذكورة .

ولهذا ذُكِرت الأم فى صدر الحالات لعظم حُرمتها ، ولأن المخاطَب جزؤها ، ثم البنت لأنها تلى الأم فى عظم الحُرمة ، ولأنها جزء المخاطَب . ثم الأخت لاتحادهما فى أصل الولادة . ثم العمة ، لأنها أقرب النساء إلى المخاطَب بعد المذكورات . ثم الخالة لنفس السبب .

وقُدِّمت العمة على الخالة - مع اتحاد درجة القرابة - لتفضيل علاقة الذكورة على الأنوثة . إذ القرابة فى العمة من جهة الأب ، وفى الخالة من جهة الأم (أخت الأب ثم أخت الأم) .

كذلك قُدِّمت بنت الأخ على بنت الأخت لعلاقه الذكورة مع الاتحاد فى درجة القرابة .

وأُخِّرتا عن العمة والخالة - فوق ما ذُكِر - لأن القرابة فى العمة والخالة من جهة الأصول - الآباء والأمهات - وفى بنت الأخ وبنت الأخت من جهة الفروع : الأخوة والأخوات ... وهكذا .

ثانياً - حُرمة عارضة : وتحت هذا الضابط ست حالات وهى فيما بينهما نوعان :

١ - ما كانت العِلّة فيه الرضاعة .

٢ - ما كانت العِلّة فيه الزواج .

والنوع الأول تحته حالتان : الأم من الرضاعة . والأخت من الرضاعة . وقد ذُكرتا على هذا الترتيب ، فقُدِّمت الأم على الأخت تشبيهاً لها بالأم الحقيقية من حيث الحُرمة وما ثبت لها هناك من أحكام . وتلتها الأخت لما تقدَّم

وقد صُدِّرَ هذا القسم بما صُدِّرَ به القسم الأول . الأم هناك هى أول من ذُكِر وهى هنا كذلك مع مراعاة الترتيب النزولى فى جميع الحالات .

وقُدِّم سبب الرضاع على سبب الزواج لأسبقية الأول وجوداً .

والنوع الثانى تحته أربع حالات :

١ - أم الزوجة .	٢ - بنت الزوجة .
٣ - حلائل الأبناء .	٤ - الجمع بين الأختين .

وقُدِّمت الأم هنا - كما قُدِّمت فى القسمين الأولين - فالنظم يجرى - كما ترى - على نسق واحد . ثم بنت الزوجة المدخول بها . تشبيهاً لها بالبنت المولودة من الزوج ، ثم حلائل الأبناء ، وأخيراً الجمع بين الأختين .

* *

● سؤال لا بد منه :

وهنا يمكن أن يرد سؤال مؤداه : إن ما ذهبتم إليه من أسبقيه علاقة الذكورة على الأنوثة غير ملحوظ هنا بل النظم يخالفه صراحة . إذ قُدِّمت بنت الزوجة - والعلاقة فيها الأنوثة - على حليلة الابن - والعلاقة فيها الذكورة - فما دفاعكم - إذن - عما تقولون ؟ وكان مقتضى منهجكم أن تُقدَّم حليلة الابن على بنت الزوجة ؟

● وجواب من ثلاثة وجوه :

الأول : أن التقديم - هنا - جار على اعتبار بنت الزوجة المدخول بها مثل بنت المخاطَب فهى - إذن - جزؤه . حيث إنها تربى فى حجره ، وتحت رعايته ، وقد أشار إلى هذا المعنى الزمخشرى حيث يقول [1] :

« فإن قلت : ما فائدة قوله : ﴿ فِي حُجُورِكُمْ ﴾ ؟ قلت : فائدته التعليل للتحريم وأنهن لاحتضانكم لهن ، أو لكونهن بصدد احتضانكم وفى حكم القلب فى حجوركم إذا دخلتم بأمهاتهن ، وتمكن بدخولكم حكم الزواج ، وثبتت الخُلطة والألفة وجعل الله بينكم المودة والرحمة وكانت الحال خليقة بأن تجروا أولادهن مجرد أولادكم ، كأنكم فى العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم ».

ويرى العلاَّمة أبو السعود ما يرى الزمخشرى . فقد قال فى توجيه عِلَّة التحريم فيها : « فإن كونهن بصدد احتضانهم لهن ، وفى شرف التقلب فى حجورهم ، وتحت حمايتهم وتربيتهم مما يقوى الملابسة والشبه بينهن وبين أولادكم ويستدعى إجراءهن مجرى بناتهم » [2] .

الثانى : يمكن جعل هذين الحالين - أى حُرمة حلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين - نوعاً مستقلاً . وعليه فإن النسق يجرى على منهج واحد من تقديم عِلَّة الذكورة على الأنوثة .

---

(١) الكشاف : ١/٣٨٣ (٢) تفسير أبى السعود : ٣/١٠٥ .

والأساس الذى يمكن صحة هذا الاعتبار عليه هو كونه ابتدأ هذا النوع بما علاقته الذكورة . والذكورة مقدَّمة على الأنوثة فى هذا النظم . لذلك أرى جعله نوعاً مستقلاً جرى فيه النظم على النهج المألوف .

الثالث : أن النظم الكريم حين تحدَّث عن أصل الزوجة - وهى الأم - ناسب ذلك الحديث عن فرعها . وهى البنت ، حتى لا يكون الكلام مقطوعاً حيث يجب اتصاله لو أقحم حليلة الابن بينهما . وحين أُخِّرت الحليلة جاء النظم دقيقاً محكماً .

والظاهر أن أقوى هذه الوجوه هو الوجه الأول ، يليه الثانى ، ثم الثالث فالترتيب بينها نزولى .

وأياً كان التوجيه فإننا نرى فى هذه الآية إعجازاً فى الأسلوب ودقة فى النظم. قد وضح لنا وجه الحكمة فيها . ونذكر فيما يلى نصين لرجلين تباينت عصورهما ، والتقت أفكارهما فيما للقرآن من قوة السبك وروعة البناء وإحكام الروابط بين مفرداته وجمله . أولهما : للقاضى أبى بكر الباقلانى معقباً على الآية التى درسناها من عدة زوايا .

● الباقلانى وبلاغة القرآن :

يقول الباقلانى : « ... والكلام فى ذكر حكم هذه الآية وفوائدها يطول . ولم نضع كتابنا لهذا ، وسبيل هذا أن نذكره فى كتاب « معانى القرآن » إن سهَّل الله لنا ملاءه وجمعه . فلم تنفك هذه الآية من الحكم التى تخلف حكم الإعجاز والتأليف والفائدة التى تنوب مناب العدول عن البراعة فى وجه الترصيف .. ثم فى جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ فى الكلمات الأفراد والألفاظ الآحاد . فقد تجد ذلك مع تركيب الكلمتين والثلاث . ويطرد ذلك فى الخروج والابتداء والفواصل ، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة أو باجتماع ذلك ، أو فى بعض ذلك مما يخلف الإبداع فى أفراد الكلمات » (١) .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى (على هامش الإتقان للسيوطى) ص ٨٨ - ٨٩

في هذا النص يسوق القاضي ثلاث حقائق :

أولاها : أن هذه الآية مليئة بالحكم وليس كتابه « الإعجاز » موضعاً لتقصيها ، بل موضعها كتاب في عزمه أن يضع أصوله إن سهَّل لله .

ثانيها : أن القرآن في بعض المواضع لا يستعير ، ولا يُشبِّه ، ولا يستخدم شيئاً من البديع في الكلمات المفردة ، وليس معنى هذا خلو هذه المواضع من الإعجاز .

ثالثها : بل يكون فيها ما يخلف بلاغة الكلمات المفردة ، ويؤدي مؤداها في ثبوت الإعجاز لما فيه من الحكم والدقائق والأسرار - مثل الآية المتقدمة - فقد حفلت بدقائق النظم ، وقوة التأليف الذي يقوم مقام وجوه البلاغة الظاهرة .

*

● الرافعي وبلاغة القرآن :

والنص الثاني للناقد الأديب مصطفى صادق الرافعي . يقول فيه [١] :

« ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن ، وبين كلام البلغاء . أن نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعياً . بحيث يبنى هو عليها . لأنها في أصل تركيبه ، ولا تبنى هي عليه . فليست فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شئ من مثل هذا يصح في الجواز ، أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه ، فضلاً عن أن يفي به ، وفضلاً عن أي يربى عليه . ولو أدرت اللغة كلها على هذا الوضع » .

وهنا - كذلك - ثلاث حقائق هامة :

أولاً : أن بلاغة القرآن ليست مستجلبة مقسورة في مواضعها . بل هي من روح التعبير نفسه ، لا مارقة عنه ، ولا غريبة فيه . خالية من كل مظاهر التكلف البغيض .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٣٩

ثانياً : بهذا يفارق القرآن كلام البلغاء . فهم إن أحسنوا فى موضع أساءوا فى آخر ، وإن قوى أسلوبهم فى حالة ضعف فى حالات . فما من أديب بارع إلا أنت واجد فيما يقول ما هو له ، وما هو عليه . وليس كذلك القرآن فهو سام فى كل مواضعه .

ثالثاً : إنك لو ذهبت تضع لفظاً فى القرآن بدل لفظ طلبت محالاً إن زعمتَ أن ما وضعته ساد مسد ما رفعت ، أو زائد عليه . ولو خدمتك اللغة بكل ما فيها من أدوات التعبير وقوانين الجمال .

فالرجلان ينهلان من معين واحد . وإن اختلفت لدى كل منهما ملامح الفكرة واختلفت - كذلك - طرق الصياغة . فالهدف واحد . هو أن القرآن معجز بأسلوبه وطرق نظمه ، مباين لكلام البلغاء ، لا فرق فيه بين مجاز وحقيقة ، وتفصيل وإجمال .

* *

ثالثاً - فى مقالات اليهود :

والمثال الثالث نذكره ملخصاً من كتاب « النبأ العظيم » وضع الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله - فإن فيه علامات ناطقة وآيات حق شاهدة على روعة النظم القرآنى . وإحكام الربط بين كلماته ومعانيه . وقد أدار الباحث تحليله حول هذه الآية الكريمة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ ، قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ٩١

● نصح وعناد :

هذه قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل ، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فى :

١ - مقالة ينصح بها الناصح اليهود . إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

٢ - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين .

٣ - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة . ألستم آمنتم بها لأن الله أنزلها . فالقرآن - كذلك - أنزله الله .

هذه المعانى كلها ضمنها القرآن هذه الكلمات : ﴿ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ تفسير ذلك أنه عدل عن صريح اسم القرآن إلى كنايته ﴿ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشئ بحجته . فأخرج الدليل والدعوى فى لفظ واحد .

*

● طى اسم الرسول :

ولم يذكر المنزَّل عليه - محمد ﷺ - مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .

أتدرى لماذا ؟ لأنه لو ذُكِر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائداً ، وفى نظر الحكمة الإرشادية مفسداً .

أما الأول : فلأن الخصوصية لا مدخل لها فى الإلزام . فأدير الأمر على القَدْر المشترك وعلى الحد الوسط الذى هو عمود الدليل .

وأما الثانى : فلأن ذكر هذا الاسم - محمد - على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج الضغائن ويثير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التآلف، والإصلاح .

وفى هذا الحذف - فوق ما ذُكِر - إشارة إلى طابع الإسلام وأنه ليس دين تفرقة وخصومة ، بل هو دين جامع لما فرَّقة الناس من الأديان ، داعياً إلى الإيمان بالكتب كلها على حد سَواء ، لأن الله أنزلها . كما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أُوتِىَ موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا يفرق بين أحد منهم .

*

● جواب اليهود :

وكان جواب اليهود : أن الذى دعانا إلى الإيمان بالتوراة . ليس كونها أنزلها الله فحسب ، بل لأنها أُنزلت علينا . والقرآن لم ينزل علينا . فلكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أُمة شِرعة ومنهاج هذه المعانى أوجزها الله فى قوله : ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهذا هو المقصود الأول ، وقد زاد فى إيجاز هذه العبارة أن حَذف منها فاعل الإنزال : « الله » لتقدم ذكره فى نظيرها .

ومن الواضح أن الإيمان بما أُنزل عليهم يومئ إلى كفرانهم بما أُنزل على غيرهم - ومنه القرآن - وهذا هو المقصد الثانى . ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شفاعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ويفضح أمرهم . فكيف أبرزه ؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً لهم ، ولم يُنقل عنهم ذلك نقلاً ضمن ما قالوه . لأنهم لم يقولوه صراحة . بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم . فقال : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل ؟

وجاء التعبير ﴿ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ محدداً للجريمة أبين تحديد . لأنهم كما كفروا بالقرآن كفروا بالإنجيل ، وكلاهما وراء التوراة . ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة لعدم تزاحمه لهم فيما بين أيديهم .

وهذا لفظ جامع مانع ، وغاية فى توخى الصدق فى الاتهام . فعداوة اليهود الحاقدة للقرآن لم تمنع القرآن من الإنصاف والعدالة .

* *

- **دور الرد والمناقشة :**

وجاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسرّوه

فترى القرآن لا يبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابهم . بل يتركها مؤقتاً كأنها سليمة ليبنى عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول : « كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله ؟ لا بل ﴿ هُوَ الحَقُّ ﴾ كله وهل يعارض الحق الحق . فيكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر » ؟

ثم يترقى فيقول : « وعجيبة العجائب أن الحق الذى كفروا به جاء ﴿ مُصَدِّقاً ﴾ لما سبق من الكتب المنزّلة - ومنها التوراة التى آمنوا بها - فكيف يُكَذِّب به مَنْ يؤمن بها » ؟

ثم يستمر مفنداً حالتهم فيقول : « لو أن هذا الكتاب جاء مُصدِّقاً لمقاصد فى الكتب المنزّلة بعده ، وكانت هذه المقاصد مما طمسها التحريف لكان لهم عذر فى كفرهم . لكن كيف يكون لهم عذر وقد جاء هذا الكتاب ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ مما يتلونه ويدرسونه ويعلمونه » ؟

فانظر إلى الإحكام فى صنعة البيان . إنما هى كلمة رُفِعَت وأخرى وُضِعَت فى مكانها عند الحاجة إليها . فكانت حسماً لكل عذر ، سادة لكل باب من أبواب الهروب ، بل كانت بمثابة حركة تطويق للخصم أتت فى خطوة واحدة هادئة رزينة .

* *

- **إفحام الخصم :**

وبعد هذا التعليق الفاضح للخصم ، الكاشف لنواياه السيئة ، القاطع عليه طريق النجاح . انبرى القرآن للرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه . وهو دعواهم الإيمان بما أُنزل عليهم فأوسعهم إكذاباً .

وبيَّن أن الكفر والجحود داء دفين فيهم ، ومرض مزمن توارثوه جيلاً عن جيل . فليس الذى أتوه اليوم إلا حلقة متصلة السلسلة بماضيهم اللعين . وساق على ذلك الشواهد والوقائع التاريخية بما لا سبيل لإنكارها . جهل بالله ، وانتهاك حُرم الأنبياء وتمرد على الأوامر : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

هنا تبرز حقائق يجب أن نتأملها :

١ - تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة لأن السامع يفهم من تكذيبهم بما يُصدِّق كتابهم أنهم صاروا مُكذِّبين لكتابهم نفسه ، وهل الذى يُكذِّب مَنْ يصدقك يبقى مُصدِّقاً لك ؟

غير أن هذا المعنى إنما أُخِذَ ، استنباطاً من أقوالهم ، وإلزاماً لهم بمآل مذاهبهم ، [illegible] بطر[illegible] من واقع أحوالهم . فكانت هذه هى مهمة الرد الجديد .

وهكذا كانت كلمة : ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ مغلاقاً لما قبلها مفتاحاً لما بعدها ، وكانت آخر درجة فى سلم الغرض الأول هى أول درجة فى سلم الغرض الثانى . فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام ، وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان ، تدريجاً له على مدارجها وتنزيلاً له على قدر حاجتها . وفى وقت تلك الحاجة .

٢ - وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلى . وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقى لتلك الجرائم . فلم يقل : فلمَ قتلَ آباؤكم أنبياء الله واتخذوا العجل وقالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ (١) لأنه لو جاء القول - كذلك - لقالوا : تلك أمة قد خلت .

ولو زاد : وأنتم مثلهم . لجاء هذا التدارك بعد فوات البيان . فكان اختصار الكلام على هذا الوجه إسراعاً بتسديد الحُجَّة إلى هدفها . وأنهم سواسية فى الجُرم فعلى أيهم وضعتَ يدك فقد وضعتها على الجانى الأثيم .

---

(١) البقرة : ٩٣

٣ - وقد زاد هذا المعنى ترشيحاً بإخراج الجريمة الأولى - وهى جريمة القتل - فى صيغة الفعل المضارع تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن ، وكأنه - بذلك - يعرض على النظارة هؤلاء المجرمين أنفسهم ، وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية .

٤ - ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبى العربى الكريم ، وباباً من الإطماع لأعدائه فى نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله . فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فثبّت قلب النبى ، وقطع أطماعهم ، كما أشارت هذه الكلمة إلى إرادة التجوز فى الكلام .

٥ - وانظر كيف جئ بالأفعال فى الجرائم التالية على صيغة الماضى بعد أن وطّأ لها بهذه الكلمة : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعى حين لم تبق حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦ - وانظر إلى الآداب العالية فى عرض الجريمة الثانية - وهى جريمة الشرك - فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها وأشد نُكراً فى العقول نبّه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها . فلم يقل : اتخذتم العجل إلهاً ، بل طوى هذا المفعول الثانى للتصريح به فى صحبة الأول وبياناً لما بينهما من مفارقة . وكم فى هذا الحذف من تعبير وتهويل .

٧ - ثم انظر إلى النواحى التى أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضاً عن كل زيادة لا تمس إليها الحاجة البيانية فى الحال . فقال : ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (١) ولم يبيِّن مدى هذا التصديق . أفى أصول الدين فحسب ؟ أم فى الأصول وبعض الفروع ؟ . وإلى أى حد .. فليبحث علماء التشريع .

وقال : ﴿ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ (١) فمَنْ هؤلاء الأنبياء ؟ وكم عددهم ؟ .. فليبحث علماء التاريخ .

---

(١) البقرة : ٩١

وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (١) فكم هى ؟ .. وما هى ؟ ...

وقال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ (٢) فما صيغة هذا الميثاق ؟ وعلى أى شئ أعطوه ؟ ... لا أحد يدرى .

إن حكمة البيان القرآنى لأجَلّ من أن تعرض لمثل هذه التفاصيل فى مثل هذا الوضع . وليس فى تركها عيب أو نقص .

٨ - إنك تلمح وراء هذا البيان قوة قوية . أعلى من أن تنفعل بمثل هذه الأغراض . قوة تؤثر ولا تتأثر . تصف لك الحقائق فى أمانة خيرها وشرها فى عزة مَن لا ينفعه خير . واقتدار مَن لا يضره شر . وهذا شأن القرآن أبداً وسمته التى لا يشركه فيها قسيم .

انظر إليه حين يجادل عن القرآن فلا يزيد فى وصفه على هذه الكلمة : « هو الحق » ، نعم .. إنها كلمة تملأ النفس ، ولا يتطلب الموصوف بها وصفاً أشرف من هذا الوصف الذى يحوى كل الفضائل (٣) .

ولنكتف بهذه الأمثلة الثلاثة دليلاً على ما فى القرآن من دقة النظم . وقوة الربط حتى فى المواضع التى ليست هى مظنة لذلك . ولقد تعمدنا أن تكون أمثلتنا الثلاثة من هذا القبيل .

* * *

٣ - اختلاف الأغراض :

وهذه خاصة من خصائص القرآن الكريم ، يعمد فيها إلى الجمع بين الأغراض المختلفة فى موضع واحد ، ويمزج بينها مزجاً فنياً قوياً لا تحس فيه بقلق أو اضطراب . بل تحس بالتناسب والالتئام . وليس ذلك فى مقدور أحد من الناس .

---

(١) البقرة : ٩٢ (٢) البقرة : ٩٣

(٣) انتهى ملخصاً من كتاب « النبأ العظيم » ص ١١٤ - ١٢٥

فالشعراء الفحول كانوا يجمعون فى أشعارهم بين النسيب والمدح ، أو الفخر والهجاء ، وهم إذ يفعلون ذلك كانوا يسلكون فيه مسالك الاستعانة ببعض الألفاظ والعبارات التقليدية . مثل : دع عنك ذا ... وما أشبهه . وأحياناً كانوا يقتضبون القول اقتضاباً فتجئ أشعارهم مفككة ركيكة ، ومعانيهم مضطربة قلقة ، وأساليبهم متنافرة .

وفحول الخطباء والكُتَّاب حتى يومنا هذا إذا حاولوا الجمع فى مقال أو خطبة بين معانى متعددة احتالوا واستعانوا . فيحسنون حيناً ، ويخطئون أحياناً . ذلك شأنهم فى المعانى المتقاربة ، والأغراض المتناسبة . ويركبون لكل شطط إن حاولوا الجمع بين الأضداد أو الأمور المختلفة فى أنفسها من غير تضاد .

* * *

● صناعة القرآن :

أما صناعة القرآن فقد أرت نُقَّاد الفنون وخبراء الأساليب روعة الانسجام بين المعانى المختلفة فى جوهرها . المنفصلة بطبيعتها . فهو - على ما امتاز به أسلوبه من اجتناب سبيل الإطالة ، والتزام جانب الإيجاز بقدر ما يتسع له جمال اللغة - قد جعله أكثر الكلام افتناناً فى شئون القول ، وأسرعه تنقلاً بينها . من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل ... إلى ضروب شتَّى من المعانى والفنون تبدو وكأنها وحدة واحدة ، شديدة التماسك .

« وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد ، ويجاور بينها فيخرج بذلك محاسنها ومساويها فى أحلى مظاهرها . ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة فى أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون فى إحكامها يسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير والتفريع ، والاستشهاد أو الاستنباط ، أو الاحتراس ... إلى غير ذلك ، وربما جعل اقتران معنيين فى الوقوع التاريخى ، أو تجاور شيئين فى الوضع المكانى دعامة لاقترانهما فى النظم . فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجاً وما هو بخروج ، فإن لم يكن بين المعنيين نسب

ولا صهر بوجه من تلك الوجوه - رأيته يتلطف فى الانتقال من أحدهما إلى الآخر إما بحسن التخلص والتمهيد ، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وجه يتلاقى فيه المتباعدان ويتصافح المتنافران » [١] .

فالطريقة المفضَّلة فى القرآن أنه لا يسترسل فى الحديث عن الجنس الواحد من المعانى استرسالاً يرده إلى الإطالة المملة ، بل يعرض فى الوحدة - السورة - الواحدة مجموعة من المعانى يربط بينها برباط خاص .

هذا هو الرأى الصائب الذى عليه جُلّة العلماء وفضلاؤهم ، والذى يؤيده الواقع وتنطق به الآيات .

* * *

● هل فى القرآن اقتضاب ؟

وقد خالف فريق من الباحثين - بحسن نيّة وضعف إدراك - ما أجمع عليه السَلَف والخَلَف فادعوا غير ذلك ، وهم واهمون . قال أبو العلاء بن غانم : « إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم . وأن ليس فى القرآن شئ من حسن التخلص » [٢] .

وقال العز بن عبد السلام : « المناسبة علم حسن ، ولكن يُشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره . فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيها ارتباط . ومَن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك ، يُصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة . وما كان كذلك لا يتأتى فيه ربط - بعضه ببعض [٣] .

* *

---

(١) النبأ العظيم - محمد عبد الله دراز ص ١٥٧ - ١٥٨ (بتصرف) .

(٢) الاتقان : للسيوطى : ١٠٩/٢ . والمثل السائر لابن الأثير .

(٣) المرجع السابق

● مبنى الشُبهة :

وقد بنى هؤلاء فكرتهم على ثلاثة اعتبارات :

أولها : ما فى القرآن من تعدد الأغراض والمقاصد .

ثانيها : الامتداد الزمنى والمكانى . حيث استغرق نزوله ثلاثاً وعشرين سنة فى موطنين مختلفين لهما اعتبارات متعددة ، وهما : مكة ، والمدينة ، وقد اختلفت الموضوعات التى عولجت فى كل منهما عن الأخرى .

ثالثها : نزوله مفرقاً مُنَجَّماً حسب المناسبات والدواعى ، فسورة البقرة - مثلاً - استغرق نزولها تسع سنوات . وجمعت فى آياتها أحداثاً كان الفارق الزمنى بين وقوعها كبيراً .

وقد وهم الغانمى والعز بن عبد السلام فى ذلك وهماً كبيراً . ولو أنهما لجآ إلى الفكر وأحسنا النظر بدارسة عقد المعانى فى القرآن نفسه لرجعا عما قالاه ، ولاستغفرا الله ربهما .

*

● رد الشبهة :

وقد فنَّد المتأخرون شُبهات هذه الفكرة ، وضربوا أمثلة كثيرة لجودة الربط بين المعانى فى القرآن ، من المواضع التى يظن المتعجل أن الربط معدوم بينها .

من هؤلاء ضياء الدين بن الأثير فى « المثل السائر » ، والزركشى فى « البرهان » .

جاء فى المثل السائر : « وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى : إن كتاب الله خال من التخلص . وهذا قول فاسد ، لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه ، والكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن الكريم مواضع كثيرة كالخروج من الوعظ والتذكير والإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهى ووعد ووعيد ، ومن محكم إلى

متشابه ، ومن صفة إلى نبى مرسل ومَلَك منزّل إلى ذم شيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان آخذ بعضها بركاب بعض »[1] .

* * *

● حسن التخلص فى القرآن :

فمما جاء من التخلص فى القرآن الكريم قول الله تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلَّا رَبَّ العَالَمِينَ * الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

---

(١) المثل السائر : ٣/١٢٨

(٢) الشعراء : ٦٩ - ١٠٢

قال ضياء الدين معلقاً على هذا النص الحكيم : « فانظر أيها المتأمل فى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه بركاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعانى ، فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة حتى كأنه أُفرِغَ فى قالب واحد . فخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هى فيه من التعرى عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الإلهية فعظَّم شأنه ، وعدَّد نعمه ليُعْلِم بذلك أن العبادة لا تصح إلا له . ثم خرج من ذلك إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه . فتدبر هذه التخلصات اللطيفة فى أثناء هذا الكلام » (١) .

وهذا أحد مواضع ذكرها ابن الأثير للتدليل على ما للقرآن من قوة الربط والانتقال من معنى إلى آخر انتقالاً مناسباً لا اقتضاب فيه . وما أرانا فى حاجة إلى ذِكر بقية الأمثلة التى أشار إليها بقوله : « وفى القرآن مواضع كثيرة من التخلصات » .

وابن الأثير موفق كل التوفيق فيما أوضحه ، وهو على طوله ، لم يف بما يمكن أن يستخلصه الباحث للربط بين تلك المعانى التى ذكرها . ومع هذا القصور الملحوظ فى توجيهه فإن فيه كفاية لحاجة المتعجل ، ودفعاً لشُبه المتطفل .

وقال الزركشى : « ... وبهذا يظهر لك اشتمال القرآن على النوع المسمى بالتخلص ، وقد أنكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى . وقال : ليس فى القرآن منه شئ لما فيه من التكلف . وليس كما قال : « ومن أحسن أمثلته قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) ، فإن فيه خمس تخلصات . وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله ، ثم تخلَّص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها . ثم رجع إلى ذِكر النور والزيت يستمد منه . ثم تخلَّص منه إلى ذِكر

---

(١) المثل السائر – تحقيق طبانة والحوفى : ١٢٨/٢ – ١٣٠.

(٢) النور : ٣٥

الشجرة ، ثم تخلَّص من ذِكرها إلى ذكر الزيت - ثم من ذِكر الزيت إلى صفة النور وتضاعفه . ثم تخلَّص منه إلى نعمة الله بالهدى على مَنْ يشاء » [(١)] .

ثم قال : ومنه قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [(٢)] فإنه سبحانه ذكر أولاً عذاب الكفار وأنَّ لا دافع له من اللّه . ثم تخلَّص إلى قوله : ﴿ تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [(٣)] بوصف : ﴿ اللّهِ ذِي المَعَارِجِ ﴾ [(٤)] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [(٥)]... إلى قوله : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾[(٦)].

فهذا تخلص من قصة إبراهيم وقومه إلى قوله هذا . وتمنى الكفار فى الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل ، وهذا تخلص عجيب .

ثم أخذ يسوق أمثلة كثيرة موضحاً ما فيها من اختلاف الأغراض وحسن الربط بينها شأنه شأن ابن الأثير . بَيْدَ أن ابن الأثير أطول منه باعاً ، وأوسع تحليلاً فيما عرض له .

هذه هى النظرة الصائبة إلى أسلوب القرآن ، وبذلك يُدرك خطأ المخالفين .

* * *

● قانون الربط بين الكلام :

ويضع الإمام بدر الدين الزركشى قانوناً لهذه الروابط فى الجمل والمعانى غير المعطوف بعضها على بعض ، وكانت موضع توهم ألا ارتباط بينها . ويُجمل هذا القانون فى ثلاثة اعتبارات هى :

---

(١) البرهان فى علوم القرآن : ٤٣/١

(٢) المعارج : ١ (٣) المعارج : ٤ (٤) المعارج : ٣

(٥) الشعراء : ٦٩ - ٧٠ (٦) الشعراء : ١٠٢

أولاً – التنظير :

فإن إلحاق النظير بالنظير دأب العقلاء ، ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (١) . عقب قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً ، لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) فإنَّ الله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يمضى لأمره فى الغنائم على كره من أصحابه ، كما مضى فى خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون .

وذلك أنهم اختلفوا يوم « بدر » فى الأنفال ، وحاجوا النبى ﷺ وجادلوه . فكره كثير منهم ما كان من فعل الرسول ﷺ فى النفل ، فأنزل الله هذه الآية ، وأنفذ أمره بها . وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله فى شئ ما . بعد أن كانوا مؤمنين . ووصف المؤمنين ثم قال : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ .

يريد أن كراهتهم لما فعلته من الغنائم ككراهتهم للخروج معك .

وقيل معناه : أولئك هم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق .

كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (٣) .

وقيل : الكاف صفة لفعل مضمر وتأويله : افعل فى الأنفال كما فعلت فى الخروج إلى بدر وإن كره القوم ذلك ... فشبّه كراهتهم فيما جرى من أمر الأنفال وقسمتها بالكراهة فى مخرجه من بيته ... وكل ما لا يتم الكلام إلا به من صفة أو صلة فهو من نفس الكلام (٤) .

---

(١) الأنفال : ٥
(٢) الأنفال : ٤
(٣) الذاريات : ٢٣
(٤) البرهان فى علوم القرآن : ١/٤٧

وقد ذهب الزمخشرى مذهباً قريباً من مذهب الزركشى . وننقل فيما يأتى توجيهه للآية الحكيمة . قال : « أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم فى كراهة ما رأيتَ من تنفيل الغزاة مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب .

وأن ينتصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدَّر فى قوله : ﴿ الأنفَالُ للَّه وَالرَسُول ﴾ [1] أى الأنفال استقرت للَّه والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراَج ربك إياك من بيتك وهم كارهون » [2] .

وعلى ما ذكره صاحبا « البرهان » و « الكشاف » فالمناسبة واضحة . إذ الكلام لم يخرج عن طريقة التشبيه ، ولا يقال إن الجمع فى الصورة التشبيهية بين المشبه والمشبه به ، مع وضوح وجه الشبه ، اقتضاب أو جمع بلا تلاؤم .

ثانياً - المضادة :

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [3] .

فإنَّ أول السورة كان حديثاً عن القرآن الكريم وأنَّ من شأنه كيت وكيت .

وأنه لا يهدى الذين من صفاتهم كيت وكيت . فرجع إلى الحديث عن المؤمنين ، فلما أكمله عقَّب بما هو حديث عن الكفار . ففيهما جامع وهمى بالتضاد من هذا الوجه وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل : « وبضدها تتبين الأشياء » .

فإن قيل : هذا جامع بعيد ، لأن كونه حديثاً عن المؤمنين بالعرض لا بالذات ، والمقصود بالذات الذى هو مساق الكلام ؛ إنما هو الحديث عن الكتاب لأنه مفتتح القول .

قلنا : لا يُشترط فى الجامع ذلك . بل يكفى التعلق على أى وجه كان ، ويكفى فى وجه الربط ما ذكرنا ، لأن القصد تأكيد أمر القرآن والعمل به ،

---

(١) الأنفال : ١ (٢) الكشاف : ١٥٤/٢ (٣) البقرة : ٦

والحث على الإيمان به . ولهذا لما فرغ من ذلك قال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا .... ﴾ (١) فرجع إلى الأول (٢) .

ثالثاً - الاستطراد :

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٣) .

قال الزركشى : قال الزمخشرى : « هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد . عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها . إظهاراً للمنة فيما خلق اللّه من اللباس . ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة . وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى » (٤) .

والزركشى - هنا - لم يتعرض لتعريف الاستطراد ، معتمداً على ما ذكره الزمخشرى فى توجيه الآية .

* *

● فيما بين الزركشى والباقلانى :

كما حكى عن القاضى أبى بكر الباقلانى أنه جعل من قبيل الاستطراد قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ من شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ✻ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلاَئكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٥) .
قال : كأن المراد أن يجرى بالقول الأول إلى الإخبار عن كل شئ يسجد للّه . وإن كان ابتداء الكلام فى أمر خاص (٦) .

(١) البقرة : ٢٣ (٢) البرهان : ٤٩/١ (٣) الأعراف : ٢٦
(٤) البرهان : ٤٩/١ (٥) النحل : ٤٨ - ٤٩ (٦) أى القاضى أبو بكر .

ثم علّق الزركشى على كلام القاضى بقوله : « انتهى . وفيه نظر » [١] .. لكنه لم يبين وجه النظر المخالف ولعله أراد أن بين الآيتين ارتباطاً ظاهراً ، وليستا من قبيل الاستطراد ، فإن كانت هذه وجهة نظر الزركشى فنحن معه . وإلا فإن عبارته فى حاجة إلى إيضاح

والحق يقال .. فصاحب البرهان قد أشار إلى مقصد عام وهام فى مسألة الجمع بين المعانى التى يبدو عليها عدم التناسب فى الظاهر . وإن كان عزا ما ذكره إلى أنه نوع من الاستطراد . قال : « ومنه الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع كقوله تعالى : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [٢] ، فإن هذا القرآن نوع من الذكر لما انتهى ذكر الأنبياء ، وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعاً آخر وهو ذكر الجنة وأهلها فقال : ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ فأكد تلك الإخبارات باسم الإشارة .

* * *

● رد جديد على الشُبهة :

فيما مضى قدر كاف مما ذكره العلماء فى هذا الموضوع . فلندل بدلونا فيه بأمثلة غير التى تقدمت لهم .

ولنعمد أولاً إلى وحدة كاملة (سورة) من وحدات القرآن نتخذ منها شعاعاً لمعرفة ما فى التنزيل الحكيم من أسس قوية للربط بين المعانى والأحكام بين الصياغات المختلفة .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن

(١) البرهان : ١/ ٥٠ . (٢) سورة ص : ٤٩

ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ * إِلا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (١) .

والمتأمل فى هذه السورة يستطيع أن يحللها إلى العناصر الآتية :

١ - مقدمة قصيرة من آية واحدة مصدَّرة باستفهام تشويقى لما بعدها . ولإثارة الشعور والاستعداد النفسى لموضوع الحديث .

٢ - إجابة على هذا الاستفهام التشويقى المثير ، وقد استعدت النفس لتلقى هذه الإجابة واشتاقت إليها .

وهذه الإجابة تشتمل على جزئين أساسيين :

أولهما : حديث عن المكذبين وما يعتريهم يوم الحشر من أسى . وما أُعِدَّ لهم فى النار من شراب وطعام .

ثانيهما : حديث عن المؤمنين الصادقين وما يغمرهم من سرور يوم الجزاء ، وما أعد الله لهم من مظاهر النعيم فى دار الرضوان .

٣ - عود للحديث عن المكذِّبين موبخاً لهم فى أنهم صائرون إلى ما صاروا إليه ، وعندهم من الآيات ما لو تأملوها لآمنوا وصدَّقوا ، ولأنقذوا أنفسهم من العذاب المؤلم والمصير المهين .

---

(١) سورة الغاشية كاملة .

٤ - إرشاد للنبى عليه الصلاة والسلام ، يبيِّن له حدود وظيفته ، ويحثه على المضى فى الدعوة غير آبه بكفر مَنْ كفر ، ولا إعراض مَنْ أعرض .

٥ - خاتمة فيها للنبى تسلية . وللمكذِّبين وعيد شديد . لو تدبروه لكفوا عما هم فيه ولدخلوا فى زُمرة المهتدين .

هذه أغراض خمسة رئيسية اشتملت عليها السورة الواعظة منذرة ومبشرة ومرشدة .

والمتأمل يدرك فى وضوح أن علاقة العنصر الثانى بجزئيه - عقاب العصاة ، وإثابة المصدِّقين - بالمقدمة القصيرة المثيرة هى علاقة الجواب بالسؤال لأن هذا الاستفهام : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ؟ يلزمه سؤال من النبى عليه السلام . فكأنه قال : لا . لم يأتنى . فكَانَ الجواب : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ * لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ .

وهذا هو الجزء الأول من العنصر الثانى .

أما الجزء الثانى فهو : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .

وبهذا استوفى الحديث أركانه : سؤال وجواب عن أهل النار ، أو كالسؤال والجواب .

ويلاحظ الباحث أن الجزء الثانى - وهو الحديث عن أهل الإيمان - لم يعطف عن نظيره المقدَّم عليه . وهو الحديث عن أهل الكفر . وكان من حقه أن يعطف عليه لأنه قسيمه .

فلماذا إذن قدَّم الحديث عن أهل النار . وأخَّر الحديث عن أهل الجنة ولم يعطف اللاحق على السابق ؟ سؤال هام .

أما التقديم فبداهة أنه ليس للتكريم .. بل لداع بيانى أراه فيما يأتى :

فقد تصدَّر السورة هذه الآية : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ . والغاشية هى القيامة بأهوالها الشداد أو هى النار المحرقة . كما نص على ذلك المفسرون[١] ، وفى التنزيل ما يقوى كلاً التفسيرين فقد جاء فيه : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [٢] ، وجاء فيه : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ [٣] بَيْدَ أن إرادة القيامة هنا أولى للتقسيم الذى بعدها .

فإذا استقر ذلك فإن الأولى بالتقديم من الفريقين هو فريق النار لتتلاءم الألفاظ ، فالشدائد يناسبها خشوع الوجوه لا نعومتها . إرهاقها لا سرورها ورضاها . أما ترك العطف بين القسمين فأرجح أن يكون لتغاير الفريقين تغايراً تاماً فى جميع الأحوال : كفر وإيمان ، صلاح وفساد ، ذل وإرهاق ، وكرامة وسرور ، نار حامية وجنة عالية ، عين آنية وعين جارية ...

ولو عطف الفريق الثانى على الفريق الأولى لتوهم متوهم اشتراكهما فى شئ أى شئ من أجله صح العطف . ولدفع هذا التوهم ترك العطف فى الظاهر ، وإن بقى مقدَّراً منوياً كما يرى بعض العلماء .

ولما كان القرآن كتاب هداية وإرشاد . فإن منهج التربية الدينية والخُلُقية فيه يقتضى تقديم بعض النصح ليهتدى الضال بعد أن بان له ما أُعِدَّ لأمثاله من العذاب .

لذلك ناسب أن يلفت القرآن أنظارهم لفتاً قوياً إلى آيات القُدْرة التى تهدى إلى الإيمان فجاء قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

ذلك نصحه لمن ضَلَّ ..

---

(١) الزمخشرى فى الكشاف : ٥٩٢/٤ ، وأبو السعود : جـ ٤

(٢) العنكبوت : ٥٥ (٣) إبراهيم : ٥٠ .

والآن أفتظن أن القرآن يهمل صاحب الدعوة - محمداً ﷺ - وقد أجهد نفسه فى هداية هؤلاء .

لقد ذكر القرآن على سمعه هذه الآيات العظام التى يشاهدونها ولا يتأملونها ، يمرون عليها صباح مساء وهم عنها غافلون . إنه متابع باهتمام هذه النُذُر ، وهذا التبشير واع لما ذكره الله من آيات وأعرض عنها القوم .

ألم يذكرهم بها فلم يهتدوا . ماذا بقى الآن ؟ أيستخدم معهم أسلوباً آخر غير الكلمة والذكرى ؟ أيترك هذه الذكرى التى لم يقدِّروها حق قدرها ؟

لم يترك القرآن صاحب الرسالة في حيرة من أمره . بل يقدِّم له التوجيه الرشيد فيلتفت إليه قائلاً : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .

وهذا تثبيت لنفس النبى عليه السلام . حين يبيِّن له ربه أن سلطان الذكرى هو عنوان الرسالة ، ولكن هناك خاطراً لم يزل فى نفس الداعى الحريص على هداية الناس المخلص لهم فى النصح .

... وهؤلاء يارب ... هؤلاء العتاة الذين لم يثمر فيهم نصح . ولم يزعنوا لإصلاح .. وهنا يواصل القرآن إتمام الصورة : ﴿ إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ .

ولكن كيف ذلك ؟

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ .

وهنا يُسدل الستار . مرحلة بدأت ثم انتهت . وبين البدء والنهاية صور ومشاهد تلتئم كلها برباط وثيق .

كل مشهد يسلم للذى وراءه .. وهكذا تتابع المناظر فى إطار واقعى أو إرشادى أو نفسى . إطار مهما كانت خيوطه فإنه من وحدة واحدة .

ذلك دأب القرآن فى الربط بين المعانى فى السورة الواحدة .

*

ولنذكر مثالاً آخر من غير هذا النوع . سورة نبحث عن العلاقة بينها وبين السورة التى قبلها والسورة التى بعدها حسب ترتيبها فى المصحف . وعن العلاقة التى بينها وبين السورة التى قبلها والسورة التى بعدها حسب ترتيبها فى النزول . أى نبحث فيها من جانبين . هما اللذان أشرنا إليهما :

● الكوثر وجارتاها فى المصحف :

أما السورة فهى قوله تعالى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (١) . « صدق الله العظيم »

هذه السورة ، هى أقل سور القرآن الكريم فى عدد الكلمات والجُمَل . وتتكون من خبر ، ثم أمرين معطوف ثانيهما على أولهما . ثم خبر أيضاً . ومع قصرها هذا فإنها جمعت بين الأغراض الآتية :

١ - الامتنان والمدح : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ المخاطَب محمد ﷺ يمتن الله عليه بأن أعطاه الخير الكثير . ومن كان كذلك فهو للمدح أهل وموضع .

٢ - الأمر بالطاعات من صلاة ونحر وتقرب لله وشكر له على نعمه : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .

٣ - الذم . فإن مَنْ كان أبتر لا عقب له فهو مذموم : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ .

هذه ثلاثة أغراض اشتملت عليها هذه السورة القصيرة . ولا شذوذ فى هذا الجمع . وإنما إحكام والتئام .

---

(١) سورة الكوثر كاملة .

فالمشركون كانوا يُعيِّرون النبى محمداً عليه السلام بأنه أبتر لا عَقَبَ له . فبيِّن الله أنه أعطى محمداً عليه السلام الخير الكثير . ثم أمره أن يصلى لله وينحر من أجله شكراً له على هذه النعم .. جاء فى كتب التفسير :

« أعطيتَ مالا غاية لكثرته من خير الدارين الذى لم يُعطه أحد غيرك . ومعطى ذلك كله : أنا إله العالمين . فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان . إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم . فاعبد ربك الذى أعزَّكَ بعطائه . وشرَّفك وصانك من سوء الخُلُق . مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله . وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرتَ مخالفاً لهم فى النحر للأوثان » [(١)] .

وبهذا تبدو قوة المناسبة بين : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ﴾ و : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ، أما مناسبة الخاتمة : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ لما تقدمها من الآيتين المذكورتين فواضحة . وذلك من وجهين : .

أولهما : تكملة السرور للنبى عليه السلام ودفع أقاويل الشرك عنه . فبعد أن بيِّنَ له أنه أعطاه الخير الكثير ، وأمرَه بفعل الطاعات شكراً له . أعلمه أن الأبتر هو مبغضك وراميك بالبتر . لأن مَنْ شأنه مثل شأنك ليس بأبتر . فجاءت الآية تذييلاً تعليلياً لما قرر وثبت .

وثانيهما : رد على مَنْ رمى النبى عليه السلام بالبتر ، والسورة مسوقة لتنفى عن النبى عليه السلام هذه الصفة .

ذلك هو نظام عقد المعانى فى نفس هذه السورة . وحدات متآلفة ملتئمة لا ينكر قوة ربطها لا جاهل أو معاند .

فما هما - إذن - جارتاها فى المصحف ، وفى النزول . وما الرابط بينهما ؟

---

(١) الكشاف : ٤/٦٤٥

والجواب : سبقت سورة « الماعون » سورة « الكوثر » في المصحف . وسورة « الماعون » تقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (١) . « صدق الله العظيم » .

ولحقت بها سورة « الكافرون » وهي تقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٢) « صدق الله العظيم » .

في سورة « الماعون » جاء تفسير الذي يُكذِّبُ بالدين بأنه الذي يَدُعُّ اليتيم ويزجره ولا يعطف على المسكين ولا يحض على طعامه . وفي هاتين الصورتين إهانة وحرمان .

وجاء فيها - كذلك - الدعاء بالويل والهلاك للمصلّين الذين يسهون عن صلاتهم ويراءون الناس بعملها . ولا يمدون يد العون لأحد . وفي هاتين الصورتين - السهو والرياء - مخالفة لمبادئ الدين ، وفي منع الماعون بخل بغيض .

فجاءت سورة « الكوثر » تأمر النبي ﷺ بالصلاة ، تلك التي أضاعها المكذِّب بالدين ، وتأمره بالنحر لله ليتصدق على المحتاجين ، وفي هذه رعاية

---

(١) سورة الماعون كاملة . (٢) سورة الكافرون كاملة .

لحق اليتيم والمسكين اللذين أضاعهما المكذِّب بالدين . وفيه أيضاً تعريض بالمرائين فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ حيث أمره اللّه بأن يصلى له لا لغيره ... وبأن ينحر لوجهه ، لا ليقال إنه كريم معطاء .. أرأيت إلى أى مدى تتوثق عرى السورتين

هذه هى علاقة « الكوثر » بما قبلها : « الماعون » ، فما هى - إذن - علاقتها بما بعدها : « الكافرون » .

لقد جاءت خاتمة « الكوثر » : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ ، وشانئ الرسول عليه السلام هو الكافر وليس بينه وبين الرسول أسباب عداء سوى الإيمان الذى يدعو إليه الرسول . والكفر الذى عليه الكافر .

وهذا النقص الذى كانوا يرمون به النبى عليه السلام - وهو منه براء - نوع من الحرب النفسية كانوا يوجهونها ضده علّه يهون أو يلين . ذلك هو ختام « الكوثر » فجاء مطلع « الكافرون » نداء إلى أولئك الكفار الشانئين قاطعاً عليهم كل أمل فى مصالحة صاحب الرسالة مهما بلغوا من الكيد له : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ... الآيات .

وهذه علاقة « الكوثر » بما بعدها - أرأيت نسجاً من القول محكماً كهذا النسج . ؟ لا ... إنه القرآن وحده .

*

● الكوثر وجارتاها فى النزول :

ثم ما هى علاقة « الكوثر » بما سبقها وما لحقها بحسب النزول . لنرى ذلك . جارتاها فى النزول : « العاديات » و « التكاثر » ، الأولى سابقة عليها نزولاً . والثانية لاحقة بها نزولاً ، وهى واسطة العقد .

والمناسبة بين الجارتين واضحة . فـ « العاديات » تقول :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالعَادِيَات ضَبْحاً * فَالمُورِيَات قَدْحاً * فَالمُغِيرَات صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِه نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِه جَمْعاً * إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّه لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ (١) .

« صدق الله العظيم »

ففى « العاديات » هذه حكم على الإنسان بأنه كافر بنعمة ربه لا يشكرها . وأنه شاهد على نفسه بذلك . وأنه مولع بحب الخير العاجل راء فيه كل أسباب السعادة والحياة المرضية .

فجاءت « الكوثر » تقول للرسول : إن الله أعطاك خيراً كثيراً . فاعبده وانحر وتصدق ، فإنك ليس مثلهم تُعطى فتبطر . وتجمع المال وتحب منه المزيد . لكن اشكر نعمة ربك بالطاعة والإنفاق .

أليست هذه أوثق رابطة . وأنسب علاقة ؟

وتقول « التكاثر » :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلْهَاكُمُ التَكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ المَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٢) .

« صدق الله العظيم »

---

(١) سورة العاديات كاملة .

(٢) سورة التكاثر كاملة .

الشانئ فى سورة « الكوثر » يقول إن محمداً ﷺ صنبور ليس له ولد ولا عقب . وهم يفتخرون بما لديهم من مال . وما لهم من عترة وأولاد وأحفاد ، يتكاثرون فيما بينهم بعدد رجالهم وفرسانهم . ذلك عندهم مقياس الفضيلة : مال وولد .

فجاءت هذه السورة تبيِّن لهم ضلال ما هم فيه . وأن ما عندهم من الولد والمال لاه لهم عن عمل الخير ، شغلهم حتى ماتوا ، أو شغلهم التكاثر بعَدِّ الرجال حتى ذهبوا يعدون مَنْ مات منهم ، وسيكون ذلك حسرة عليهم يوم القيامة .

أما محمد عليه السلام الذى يعيِّرونه بعدم العقب ، فقد أعطاه لله خيراً كثيراً فهو فيه لربه طائع غير شحيح ولا بخيل ، ولا هو شاغل له عن عمل الخير من طاعات لله كالصلاة والإنفاق وكالنحر .

أوَ ليست هذه رابطة جامعة وثُقت عرى الجار بالجار . فبدتا - أى السورتان - كأنهما وحدة واحدة .

ذلك منهج القرآن الحكيم . انسجام والتئام بين الألفاظ ومعانيها . التئام وانسجام بين الكلمة والكلمة . التئام وانسجام بين الجملة والجملة . التئام وانسجام بين الفقرة والفقرة . التئام وانسجام بين السورة والسورة . التئام وانسجام ساريان فيه جميعه . وتلك دعامة من دعامات الإعجاز وآية من آيات الحكمة .

* *

● ملاحظتان مهمتان :

أولاهما : أن القرآن يُفضِّل الجمع بين المعانى فى الموضع الواحد دفعاً للسآمة وتجديداً للنشاط من أن تسترسل النفس فى معنى واحد يستبد بها ما دامت قارئة أو سامعة . فقارئ القرآن وسامعه هما دائماً فى جديد من المعانى والمشاهد من قصص إلى تشريع . ومن تشريع إلى تبشير ، ومن تبشير إلى إنذار . ومن إنذار إلى عتاب . ومن عتاب إلى تهديد ، ومن تهديد إلى تذكير . وهكذا

هو شبيه بالروضة الفيحاء لا تزال أمام ناظريك منها ألوان شَتَّى من الزهور، وأنسام عذبة تحمل إليك أجمل الروائح وأطيب الشذا فتدفع عنك الإيحاش، وتملأ نفسك سروراً وبهجة، وتشجيك أنغام طيورها بأعذب الألحان.

وثانيتهما: أن الله تعالى - جلّت حكمته - يريد أن يُيَسِّر للناس الانتفاع بكتابه الكريم ويُسَهِّل لهم الاستفادة منه. ولما كانت مقاصد القرآن متعددة فحرى به أن يبث تلك المقاصد فى ثناياه وتضاعيفه. حتى لا يتوقف الإلمام بها - كلها أو بعضها - على تتبع ما لا يتيسر تتبعه منه. فأى سورة تقرأ تضع أمام ناظريك هدفين أو ثلاثة أهداف. أو عدداً أى عدد من المواعظ والأحكام والقصص والتهذيب والتوجيه والإرشاد، وهو - بهذا - يلبى حاجة المتعجل، ويلبى حاجة المتأنى على حد سواء فقد رأينا أقصر وحداته: «الكوثر» أبت إلا أن تعرض عدداً من المعانى والمقاصد.

* *

● سياسة حكيمة:

وتزيد هذه المقاصد والأهداف كلما طالت السورة. كالبقرة وآل عمران والنساء.

وهذه سياسة حكيمة فارق القرآن بها مؤلفات البَشر من أبعد طريق، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (١).

* * *

٤ - الإقناع والإمتاع:

« فى النفس الإنسانية قوتان، قوة تفكير، وقوة وجدان. وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى. فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به. وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لَذة وألم. والبيان

(١) القمر: ١٧

التام هو الذى يوفى لك هاتين الحاجتين . ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين فتجد حظها من الفائدة العقلية . ومن المتعة الوجدانية معاً » .

● الناس ثلاثة أنواع :

وليس هذا القدر فى السلوك الإنسانى القولى بمستطاع . فالناس - هنا - كيف كانوا أنواع ثلاثة :

الأول : فريق يجلو لك الحقيقة ناصعة بيضاء - هذا همه - ولا يبالى ما أصاب تعبيره من جفاف . ونبو عن الطباع . وأنت حين تقرأ لهذا الفريق تكون كمن ينحت فى الصخور بأطراف أصابعه . ليستخرج منه معدناً نفيساً قَلَّ أو كثر . ورواد هذا الفن هم الفلاسفة والعلميون والعقليون . ومَن على شاكلتهم .

الثانى : فريق يمتع عاطفتك بما يثيره من صور وخيالات فى ذهنك وشعورك ، ولا ينفك يسبح بك بين صور الفن والخيال حتى ينسيك - إذا صدق فى الشعور - حدود الزمان والمكان فتنطلق معه فى دنيا غير دنياك ، يسحرك بيانه ، وتطويك أنغامه . فإذا سرى عنك وأُبْتَ من سبحك لم تجد فى حوزتك شيئاً إلا ظلالاً باهتة لمؤثر غامض .

الثالث : فريق يمسك العصا من الوسط - كما يقولون - فيجمع بين النزعتين . ويمزج بين الطريقتين ولكنه بمنأى عن التوفيق - مع شدة حرصه عليه - فأحياناً تأتى عباراته عاطفية على حساب العقل ، وأخرى تأتى عقلية على حساب العاطفة . فإن رأيتَ مَن يقضى بينهما بالعدل فى موضع ، فاعلم - مقدماً - أن عهده بذلك لن يطول . وأن ما رأيته منه من توفيق للعدل فلتة لم يجر بها طبع . وندرة لا تتكرر كثيراً .

* *

● المستحيل .. ممكن ! ؟

وهذا الذى استحال على الناس . أو كان فى حكم المحال ، تراه أروع ما يكون فى الذكر الحكيم . فيه حظ النفس وعواطفها ومشاعرها . وفيه مطلب العقل وحججه وبراهينه ، تراهما متجاورين متآلفين دون أن يطغى أحدهما على الآخر . وإن برز أحدهما فى موضع فإن تلك سياسة بيانية . ومقتضى مقام .

* *

● منهج خُلُقى حى :

اقرأ - مثلاً - قوله تعالى فى تشريع القصَاص : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِى القَتْلَى ، الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى ، فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (1) .

وانظر إلى الاستدراج إلى الطاعة فى افتتاح الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ... ﴾ .

وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين فى قوله : ﴿ أَخِيهِ ﴾ وقوله : ﴿ بِالمَعْرُوفِ ﴾ ، وقوله : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ .

والامتنان فى قوله : ﴿ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

والتهديد فى ختام الآية : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم وازن بين الاستدراج إلى الطاعة فى مطلع الآية . والتهديد فى خاتمتها . وأنزل ذلك من نفسك .. وانظر حالها كيف تكون .

---

(1) البقرة : ١٧٨

ثم انظر فى أى شئ يتكلم القرآن - هنا - أليس فى فريضة مفصلة ، وفى مسألة دموية . وجناية من أخطر جنايات النفس ؟

وسبيل هذا أن يُصاغ فى قوانين ، تحدد الجريمة ، وتضع أساس المعاقبة عليها فى كلمات جافة لا تعرف الليونة . ولا تميل إلى المهادنة .

لكن منهج التربية والتوجيه الخُلُقى فى القرآن الحكيم هو سر ذلك البيان الرفيع الذى يتيح لصاحب الحق الأخذ بحقه . وفى نفس الوقت يهديه للتى هى أقوم . ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) .

وقد نهجَ القرآن هذا المنهج فى جميع تشريعاته : فى الطلاق والظِّهَار والإيلاء ، فى تقسيم الإرث والتركات ، فى تشريع الصيام والحج والزكاة ، فى إبرام العقود ووضع المواثيق ، فى مباشرة الحقوق ومعاملة الأسرى والرقيق . فى كل أولئك يضع ضمانات العدالة ، وأسس ضبط النفس .

فتراه يقول عندما أباح للمعتدى عليه أن يأخذ بحقه : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

فالآية هنا تبيح لمن اعْتُدَى عليه أن يَعتدى على المعتدى .. ولكن استعمال هذا الحق أُحيط بثلاث ضمانات أو ضوابط :

١ - أن يكون الاعتداء الواقع من المعتدَى عليه ، مثل الواقع من المعتدِى حسما للتمادى من أيهما .

٢ - وقد سمى الثانى اعتداءً ، وكان حقه أن يسمى : جزاءً . لماذا ؟ .. لأن اللفظ الثانى يغرى المظلوم على التمادى . أما الأول فإنه يشعر وهو يباشر حقه فى الرد على مَن ظلمه ، أنه يباشر اعتداء . فيكف ولا يطيل .

---

(١) الشورى : ٤٠ . (٢) البقرة : ١٩٤

٣ - الأمر باتقاء اللّه ، ليقف المجازِى عند حده فلا يزيد فى انتصاره لنفسه من ظالمه عما وقع به هو من الظلم .

وقد أكدَّ هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ترغيباً لهم فى العدل ، والوقوف عند المطلوب المباح ومَنْ مِنَ المخاطَبين لا يريد أن يكون اللّه معه .

ومثل هذا التوجيه قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعلنَا لِوَلِيهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ﴾ [1] .

وقد لا تكون هنا غرابة فالنزاع بين مسلمين مطلوب منهم أن يحسنوا المعاملة فيما بينهم .

* *

● التسامح مع المخالفين :

لكن الباحث يرى أن هذا منهج عام للقرآن فيما يحسن فيه ترقيق العواطف .

قال سبحانه : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ، فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] .

فالعفو والصفح مطلوبان حتى مع المخالفين ، ما دام الموضع ليس قتالاً ومناجزة مطلوباً فيه الغلظة والعنف .

وانظر أيضاً إلى هذا التوجيه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

---

(١) الإسراء : ٣٣ (٢) البقرة : ١٠٩ (٣) التوبة : ٦

فالمجار – هنا – مشرك ، والمجير رسول الله ، والآمر بالإجارة هو الله . هذه أسس عامة فى المعاملة .

* * *

● عودة للتشريع :

ثم انظر إلى القرآن حين يُشرِّع الطلاق . فإن الأمر بالمعروف ، والتسريح بالإحسان ، والعفو .. مواقف لا يكاد ينفك عنها نص من نصوص التشريع فيه . قال تعالى فى سورة البقرة :

﴿ والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِى أرْحَامِهِنَّ إن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَلِكَ إنْ أرَادُواْ إصْلاَحاً ، وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسَانٍ ، وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إلاَّ أن يَخَافَا ألاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، فَإنْ خِفْتُم ألاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ، تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ، فَإن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أن يَتَرَاجَعَا إن ظَنَّا أن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فَأمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُواْ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلاَ تَتَّخِذُواْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً ، وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * وَإذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أجَلَهُنَّ

فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ، ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

هذه أحكام الطلاق وآدابه ، تتحدث عنها هذه الآيات . فلم يسلك فى بيانها الأسلوب التقريرى الجاف . كما هو الشأن فى الحديث عن الأحكام خارج القرآن ، وإنما جعلت الآيات للعاطفة والنفس نصيبها من الخطاب . حثاً لها على التيقظ والعمل ، كلما اقتضى المقام ذلك .

وقد استعان القرآن على حمل المخاطَبين والمتنازعين للاعتراف بالحقوق والإنصاف فى الخصومة بعبارة تُشوِّق النفس إلى الإنصاف ، لأنه يثيرها ويستكشف ما فى خبايا النفس من أسرار لا يُتوصل إليها بالعنف كما يُتوصل إليها بالملاينة والإثارة كما جاء فى هذه الآيات .

* *

● لقطات مثيرة :

تأمل هذه اللقطات : ﴿ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحاً ﴾ .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ .

---

(١) البقرة : ٢٢٨ - ٢٣٢

﴿ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُواْ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ .

﴿ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

* *

● **نصيب العاطفة :**

ونصيب العاطفة من هذا البيان جانبان :

١ - أن يذكر الأمر الأولى بالاعتبار فيثير القرآن فى العاطفة مشاعر النبل للإقبال عليه والعمل به .

٢ - أن يذكر الأمر الأولى بالترك أو الذى لا يليق . فيثير فيها مشاعر النفور لتنأى عنه

وفى بعض الألفاظ دلالة مشعة على كلا الجانبين : الترغيب والتنفير . فعند حدوث النزاع يسمى الإبقاء على الحياة الزوجية « إمساك » ، والإنسان لا يمسك إلا بشئ له فيه منفعة .

● **إغراء :**

وهذا إغراء على الحفاظ بكيان الأسرة ، والعدول عن الطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله ... وضرورة تشريعية لا يُلجأ إليها إلا فى حالة اليأس التام من إصلاح الأمور .

وقد صرّح القرآن نفسه بهذا المعنى فى موضع آخر ، فقال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (١) .

---

(١) النساء : ١٩

كما سمى القرآن الطلاق « تسريح » لا ترغيباً فيه ، وإنما لما يجب على المسلمين من حُسن المعاملة ، وجمال الكيفية التى يوقعون بها الطلاق حيث اقتضته الضرورة ولا بديل له .

لأن التسريح فى الأصل : الإرسال للمرعى . ففيه إيحاء للأزواج العازمين على الطلاق أن يُحسنوا معاملة زوجاتهم ، ولا يُسيئوا إليهن . ولم يكتف القرآن بالدلالة اللغوية للفظ « تسريح » حتى اشترط أن يكون : « تسريح بإحسان » كما وصفه على لسان نبيه محمد ﷺ يخاطب زوجاته : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ [1] .

قال الراغب : « السرح : شجر له ثمر – وسرحت الإبل : أصله أن ترعيه السرح ، ثم جُعِلَ لكل إرسال فى الرعى .. والتسريح فى الطلاق نحو قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [2] . وقوله : ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ [3] مستعار من تسريح الإبل كالطلاق فى كونه مستعاراً من إطلاق الإبل » [4] .

وقال فى مادة « م س ك » : « إمساك الشئ التعلق به وحفظه قال تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [5] ، وقال : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ﴾ [6] ، وقال : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ » [7] .

فهذان اللفظان اللذان يترددان كثيراً فى تشريع الطلاق حظ النفس منهما أكثر من حظ العقل . وهما مختاران اختياراً دقيقاً للدلالة على المراد منهما .

---

(١) الأحزاب : ٢٨ (٢) البقرة : ٢٢٩ (٣) الأحزاب : ٤٩

(٤) المفردات ص ١٢٩ – ٢٢٠. (٥) البقرة : ٢٢٩ (٦) الحج : ٦٥

(٧) المصدر نفسه ص ٤٦٨ – والآية من سورة الزخرف : ٤٣

ثم انظر مرة أخرى إلى هذه الصورة : ﴿ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١) .

وتأمل كلمات : « تعضلوهن » ، « تراضوا » ، « بالمعروف » . قال الراغب فى مادة « ع ض ل » : « العضلة : كل لحم صلب فى عصب ، ورجل «عضل»: مكتنز اللحم ، وعضلته : شددته بالعضل المتناول من الحيوان نحو : عصبته . وتجوز به فى كل منع شديد قال : ﴿ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ قيل : خطاب للأزواج . وقيل : للأولياء » (٢) .

والظاهر أن حقيقة التعبير هنا هو المنع . لكنه استعير له اللفظ الوارد فى الآية لما فيه من إيقاظ العاطفة ، وتحريك النفس نحو ما هو مطلوب .

* *

• ترقيق العاطفة :

وهذه صورة أخرى من صور ترقيق العاطفة عند النزاع فى الطلاق :

قال سبحانه : ﴿ لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ ، حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ من قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُم لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣) .

الآية الأولى خطاب للمتنازعين قبل المس ، والحال أنهم لم يفرضوا للنساء فريضة فالملابسة هنا بينهم ضعيفة . ومع أن الآية قد نفت عنهم الحرَج إذا طلّقوا فى هذه الحال فإنها أوجبت عليهم إمتاعهن كل حسب قُدرته غنياً أو فقيراً ،

---

(١) البقرة : ٢٣٢ (٢) المفردات ص ٣٣٨ (٣) البقرة : ٢٣٦ - ٢٣٧

وسمى هذا المتاع : ﴿ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ . وهذا التعبير يثير عند الأزواج مشاعر المروءة والنخوة ويستل من النفوس السخائم فتبذل ما وجب عليها فى رضا وحنان ، والمستفيد هنا المطلّقات .

والآية الثانية خطاب لهم - كذلك - والحال أن الطلاق وقع قبل المس وقد فرضوا لهن فريضة . فعلى الزوج - إذن - أن يبذل لها نصف ما فرض . هذا حق للمطلّقة واجب على المطلّق . فلها أن تستمسك بحقها . وعليه أن يؤديه لها .

ذلك أصل المسألة وأساس القضاء الذى لا يجوز له أن يعدل عنه ، لأنه مأمور بأخذ الحقوق وإعطائها لمستحقيها .

* *

● الدعوة إلى الإصلاح :

لكن القرآن الذى يفسح المجال دائماً أمام المتنازعين للتسامح والتصالح ، لأنهما فى النهاية يؤديان إلى المودّة والإخاء بينهم ، لم يقف عند حد بيان أصل المسألة . فتراه بعد أن قررها يقول : ﴿ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ، وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ .. ﴾ .

فأداء النصف واجب على المطلّق . وللمطلّقة أن تعفو عنه كله أو جزئه ، أو يعفو وليها .

فهذا الاستثناء أول درجة فى سلم المصالحة . ولكن هل القرآن وقف بالمسألة عند حد الاستثناء ؟ لو كان الأمر كذلك لكان وافياً فى الإذن بالتصالح ، والأخذ بالحسنى من جانب صاحب الحق . لكن القرآن لم يقف بها عند هذا الحد . بل ذكر بعد الاستثناء ما يُرَجِّح العمل به ، ويُرَغِّب المطلّقات أو أولياءهن فيه . فقال : ﴿ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

أليس فى ذلك ترغيب شديد إلى العفو بين المتنازعين . إنه كذلك . وهنا تبدو المسألة قد كملت من جانبيها القضائى والاستثنائى ، أو القانونى والأخلاقى ، مع الترغيب فى الثانى دون الأول وليس عند هذا الحد - أيضاً - يقف القرآن .

بل يُوجِّه إرشاده إلى طرفى النزاع لا صاحب الحق منهما ، ولا مَن عليه الحق . إرشاد جامع للأخذ بالحُسنى : ﴿ وَلاَ تَنسَوُاْ الفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ .

نصيحة غالية لا أتصور المتنازعين عند سماعها إلا آذاناً واعية ، وقلوباً فسيحة . وأنفساً صافية لم يبق فيها من آثار الخصومة إلا الذِكرى .

وتأتى - بعد ذلك - الفاصلة فتضع المتنازعين تحت رقابة دقيقة لا يعزب عنها شئ ، تكافئ المحسن بالإحسان .. والمسئ بمثل ما فعل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وهنا يُسدل الستار ، وتتم الصورة من جميع مقوِّماتها : وضوح التشريع وأصول الحكم ، والترغيب فى العفو والإحسان . والتنفير من الظلم والإساءة .

هذه مُثُل من الأحكام والتشريع القرآنى ، لسنا فيها - بإيجاز - المنهج الذى يسير عليه القرآن فى بيان تلك الأحكام ، إنه لم ينح بها النحو التقريرى كما هو الشأن فى مثل هذه القضايا . وإنما خاطبَ بها النفس الإنسانية بكل مدركاتها : العقل والمنطق والعواطف والمشاعر . دون أن تحس بضعف فى الصياغة ، ولا قصور فى المعنى . يبيِّن للإنسان فيه مصادر أخذه ، ومجالات إعطائه . مُحبِّباً إلى نفسه ومشاعره وروحه عمل الخير ، ومُكَرِّهاً لها عمل ما هو دون الخير ، من شر خالص . أو خير خلاف الأولى .

* * *

● الجدل القرآنى :

ولكنتا لا نقف عند حد الأحكام والتشريع فيه . لتأييد هذه السمة الأسلوبية فى القرآن التى أسميناها : الإقناع والإمتاع .

بل نستعرض مثلاً فى مجال آخر ، غير الأحكام والتشريع ، وإن كان الشأن فيه أن يسلك فى بيانه المنهج التقريرى العقلى . ذلك المجال هو : الجدل القرآنى لخصوم الدعوة الإسلامية .

وموضوعات هذا الجدل متعددة لكننا نختار منها موضوعين اثنين لنرى كيف جادلهم فيها القرآن ، وأى منهج سلك .

وهذان الموضوعان هما : قضية التوحيد ، وما يتعلق بها ، ثم قضية البعث وما يتعلق بها .

● قضية التوحيد :

جاء القرآن ينكر على المشركين ما هم فيه من عبادة الأصنام ، وفكرة تعدد الآلهة ، وأن يكون هناك صلة بين الخالق الحقيقى المخصوص بالعبادة ، وبين هذه الأصنام التى يتقرّبون بها - فى زعمهم - إلى اللّه . كما حكى عنهم القرآن : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (١)

وكانت هذه هى القضية الأولى التى يواجهها الإسلام . ولقد قطع القرآن - فى مكة - شوطاً كبيراً فى محاربة هذا الضلال . لافتاً الأنظار إلى الحقيقة . ممثلاً وواعظاً ، مجادلاً ومحاوراً ، منذراً ومبشراً ، مناقشاً وهادياً .

كان القوم يبررون ما هم عليه بحجج واهية تتلخص فى :

١ - التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم .

٢ - أن هذه الآلهة وسيلة للتقرب إلى اللّه .

٣ - أن فكرة وحدة الخالق أمر مستحدَث

* *

(١) الزمر : ٣

● عرض مقولة المشركين :

ولقد حكى القرآن طرفاً من شُبهاتهم لأول مرة فى سورة « ص » المكية . حيث إن السور التى نزلت قبلها وهى : « اقرأ - القلم - المزمل - المدثر - المسد - التكوير - الأعلى - الليل - الفجر - الضحى - الشرح - العصر - العاديات - الكوثر - التكاثر - الماعون - الكافرون - الفيل - الفلق - الناس- الإخلاص - النجم - عبس - القدر - الشمس وضحاها - البروج - التين - قريش - القارعة - القيامة - الهُمَزة - المرسلات - سورة ق - البلد - الطارق - القمر »[(١)] .

لم يرد فيها شئ من مقولاتهم فى هذا المجال . وقد صوَّر لنا القرآن فى سورة « ص » اعتراضهم وما استندوا عليه من دليل فقال : ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إلهاً وَاحداً ، إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَن امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى المِلَّةِ الآخِرَةِ إنْ هَذَا إلا اخْتِلاَقٌ * أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ ؟[(٢)] .

فكرة التوحيد عند هؤلاء القوم فكرة عجيبة ، صاحبها مختلق لها ، لأن الرواية لم تنقلها لهم . إنها لمؤامرة .. فليثبتوا على آلهتهم . هذا تصورهم للموضوع .

والمِلَّة الآخرة التى اتخذوها سنداً هى مِلَّة عيسى عليه السلام . لأن النصارى حرَّفوها فصاروا مثلثين لا موحدين .

أو هى مِلَّة قريش وما كانت عليه من عبادة الأصنام[(٣)] .

* *

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى : ١٩٣/١

(٢) سورة « ص » : ٥ - ٨

(٣) ذكر هذين القولين الزمخشرى فى الكشاف : ٥٦/٤

● موقف القرآن من هذه الشُبهة :

وكان موقف القرآن من هذه الدعاوى هو موقف المنكر المبطل لما يدّعون . قال :

﴿ .. بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ، بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأَسْبَابِ * جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ ، أُولَٰئِكَ الأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ (١) .

وفى هذا الرد يبدأ القرآن بحقيقة هامة . ثم يمضى فى الإنكار والتوبيخ لهؤلاء المعاندين فيبيّن أولاً أنهم فى شك من ذكر الله . وأن هذا الشك سيزول إذا ذاقوا العذاب ثم يأخذ فى توبيخهم فيقول :

أهؤلاء يملكون خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب فيصيبوا بها مَن يشاءون ويصرفوها عمّن يشاءون ؟ ويتخيروا النبوّة لبعض صناديدهم ويترفعوا بها عن محمد عليه السلام ؟ لا ... هم لا يملكون ذلك . إذن فليس لهم من الأمر من شئ فليخسأوا .

أم لهؤلاء مُلك السموات والأرض وما بينهما ؟ إن كان لهم فليرتقوا فى الأسباب ويصعدوا المعارج إلى العرش فيستولوا عليه ، ويدبروا الأمر .

إذن فليس لهم مُلك السمٰوات والأرض وما بينهما فلذلك لم يرتقوا فى الأسباب .. إذن فليخسأوا .

ثم يبيّن لهم حقيقة أمرهم ، وسوء مصيرهم ، فيقول : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ .

---

(١) سورة « ص » : ٨ - ١٤

وفى هذا تسلية وقوة عزم للرسول عليه الصلاة والسلام ألا تبال بما يقولون فإن مصيرهم الهزيمة ، ولن ينتصروا عليك بحال .

ويكمل الرد بسوق أمثلة ووقائع تاريخية حيث كذّبت أقوام الرسل . فهلكوا .

وينتهى دور سورة « ص » فى أن هؤلاء ضالون فى عقيدتهم متطفلون فيما ليس لهم فيه ، عاجزون عن امتلاك أمرهم فضلاً عن عجزهم عن امتلاك شئون غيرهم . وأنهم لا محالة مهزومون .

ثم يجول معهم القرآن جولات أخرى مبيِّناً لهم أن هذه الأصنام التى يتخذون منها آلهة يعبدونها ما هى إلا أشكال جامدة لم ولن تنفع ، ولم ولن تضر .

* *

● طريقان لدعوة الناس إلى الحق :

وهذه الحقيقة مرة يخاطبهم بها خطاباً مباشراً ، ومرة يسوقها لهم على لسان الأنبياء والرسل السابقين :

أولاً : الخطاب المباشر . قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ من دُونِ اللَّه أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ منَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شركٌ فِى السَّمَوٰاتِ ، ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

أى وربى لو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية فى إبطال عقيدة الأصنام لكان القرآن قد أبطلها من أساسها بحيث لم تقم لها حُجَّة بعد . لا عند عابديها ، ولا عند غيرهم من الناس .

ولما وسع المخالفين - لو أنصفوا - إلا التسليم والإذعان . عرض واضح ودليل قاطع .

* *

---

(١) الأحقاف : ٤

● استدراج يؤدى إلى العجز :

فقد نصبت الآية التماثيل والأصنام أمام النظّارة . لافتة أنظار أتباعها إليها . وقد حضرت فى الذهن والخيال أشكالاً جامدة صماء خالية من كل سبب للحياة . أُحضرت - هكذا - ليحكم عليها وهى حاضرة .

أجل هذه هى : تماثيلكم وأصنامكم التى تدعونها من دون الله . أليس كذلك ؟ إذن فإنّا سائلوكم أسئلة فأجيبوا عليها . ولتكن إجاباتكم مقرونة بالدليل والشاهد .. اسمعوا إذن :

١ - هذه هى الأرض ممتدة واسعة ، فيها أنهار وبحور ، فيها زروع وكروم ، فيها منازل وجبال وصحارى ، فيها ذلك وفيها غير ذلك .

فأرونى ماذا خلق أصنامكم منها . كلها أو بعضها . ؟ إن زعمتم أن شيئاً من ذلك لهم فأقيموا الدليل .. ؟

لندع الأرض وما عليها ...

هذه السموات الطِباق ، خلقها الله ورفعها - هكذا - فى الفضاء ليست لها عمد ترتكز بها على الأرض .

نبئونى ألاصنامكم شِرك فيها ؟ ما هو نصيبهم منها ؟ وكيف ؟

إن زعمتم ذلك فأتوا بالدليل .. وإلا فأنتم مضللون مخدوعون . ولا يحق لكم أن تستمروا على هذا الضلال ، والداعى يدعوكم إلى الصواب .

أتدرون ما هو الدليل الذى نطلبه منكم على صحة دعواكم ؟ إن هذا الدليل يتلخص فى خطوتين أيسرهما عسير ؟

الأولى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا ﴾ هل فى مقدوركم ذلك ؟ ألا فافعلوا وإنَّا لمنتظرون .

أعجزتم ؟ .. نحن نعذركم لأننا نعلم أنكم عاجزون . فنخفف عنكم فى كيفية الدليل ، دعوا الكتاب .... حيث لم تأتوا ولن تأتوا به .. وأتوا بأيسر الأمرين .

الثانية : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أثارة أية أثارة من علم تؤيدكم . أهذه صعبة ؟ صعبة كذلك - أم مستحيلة .. إنها مستحيلة .

أعجزتم عن هذه وتلك . فاعلموا الآن أنكم كاذبون فى دعواكم .. لأنكم لم تشفعوها بدليل . فكفوا إذن ولا تسترسلوا فى أباطيلكم .. وضعوا نُصب أعينكم قول الشاعر :

وَالدَّعَاوِىَ مَا لَمْ يُقِيمُواْ عَلَيْهَا   بَيِّنَـــاتٍ أَبْنَاؤُهَـــا أدْعِيَـــاءُ

هذه جولة حكيمة مفحمة . لم يحاورهم القرآن فيها محاجياً أو ملغزاً ، وإنما حاورهم فى وضوح ، وفى سهولة .. اتخذ من الأرض ومن السماء وحدات للقياس ، وألزمهم الحُجّة فى نص لم تزد كلماته على التسع والعشرين كلمة .. انتصر عليهم وتركهم منهزمين .

* *

● نماذج أخرى فيها دلالة التوحيد :

ثم تتوالى بعد الجولات على نفس الصورة من الوضوح والسهولة ، ولفت الأنظار إلى حقائق الكون ، ومظاهر الطبيعة التى هى وحدات القياس الوجدانى والمنطق الروحى . بعيداً عن التعقيد والغموض .

﴿ أَمِ اتَّخَذُواْ آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ * أَمِ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ، هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

أو : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ (٢) .

أو : ﴿ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ، أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً ، أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُاْ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

* *

● حوار حي :

أرأيتَ حواراً مثل هذا الحوار ؟ أرأيتَ بياناً أوضح من هذا البيان . أرأيت قياساً أصوب من هذا القياس . أرأيتَ براهين أقطع للشبهات ، وأفحم للخصم وأثبت للمطلوب من هذه الأقيسة ؟

---

(١) الأنبياء : ٢١ - ٢٤ (٢) المؤمنون : ٩١ (٣) النمل : ٥٩ - ٦٤

قل لى بربك : أى جزئية من هذا القياس يمكن أن ينكرها الخصم إنكاراً يستطيع أن يجازيه عليه منصف . أليست هذه حقائق مسلمة . وقوانين راسخة رسوخ الجبال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... ﴾ .

انظر كيف اجتمع الاستدلال والتهويل والاستعظام فى هذه الكلمات القليلة .. بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات ووضوحها . ودقة التصوير لما يعقب التنازع من الفساد الرهيب . إن الدليل هنا : برهانى خطابى شعرى معاً [١] .

فهل نجد مثل هذا فى كتاب من كتب الحكمة النظرية ؟

لكن القرآن ينهى الخلاف فى هذه القضية فى كلمات لا تبلغ عدد أصابع اليدين . فوازنها بما كتب عنها فى أسفار الفلسفة . وبحوث الحكماء .

* *

● منطق تصويرى :

نحن لا نشاهد فى الكون فساداً ، وإنما نظاماً ودقة . وحياة وحركة . كواكب تدور فى أفلاكها فى نظام عجيب . وسموات مظلة ، وأرضاً مقلة ، وأنهاراً جارية وريحاً سارية .

ذلك هو النظام .. إذن فالله واحد لا شريك له ، وإلا لسقطت السموات على الأرض ولتعطلت الكواكب ، وغار الماء . مقدمات الدليل ثابتة مسلّمة . فالنتائج - كذلك - ثابتة مسلّمة ... وليس وراء ذلك مطلب .

والمثال الثانى مثل الأول .. لو كان لله ولد ، لكان معه إله . ولو كان مع الله إله - سبحانه - لحدث النزاع ولذهب كل إله بما خلق .

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث .. إذن فالله واحد لا شريك له .

* *

---

(١) النبأ العظيم : محمد عبد الله دراز

● الكون دلالة التوحيد الكبرى :

أما المثال الثالث ، فقد طوّف فى أرجاء السموات والأرض والتقط وصوّر واستدل وذكر . فى أسلوب خطابى العبارات . استدلالى الموضوعات . يقينى المقدمات . الصورة تلو الصورة ، والمشهد إثر المشهد . والدليل عقب الدليل . فى حركات سريعة خاطفة .. ووثبات صائبة .

« وهكذا تشترك مشاهد الأض والسماء مع ما يقع لهم من الأحداث كل يوم .. مع الأحاسيس الفطرية التى تلجئ الإنسان إلى القوة الكبرى عند الشدة تشترك فى مخاطبة الحس والخيال ولمس البصيرة والوجدان ، لتركيز عقيدة التوحيد فى النفوس .. ومثل هذا كثير جداً فى القرآن ، مكرر مع تنوعه - تكرر صور القيامة ومشاهد النعيم والعذاب » (١) .

* *

● ضعف الأصنام :

ونذكر مثلين ضربهما القرآن لضعف الأصنام ، بعد أن شنّع على هذه الأباطيل مما خاطب الله به المشركين خطاباً مباشراً :

أولهما : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

ذلك مثلهم ... فهل بيت العنكبوت بغريب عن أفكارهم ، أم هو شئ مألوف لهم يرونه صباح مساء . وهل فى بيت العنكبوت قوة يأوى إليه ضعيف أم حصانة يلوذ بها واجف (٣) ؟ ليفكروا ..

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب ص ١٨٨ (٢) العنكبوت : ٤١

(٣) علمت من برنامج « الغلط فين » أن خيوط نسيج العنكبوت تستعمل لرقتها فى صناعة الفضة .

ثانيهما : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (١)

ذلك مثلهم فى عدم النفع . وهذا مثلهم فى عدم الإيجاد أو جلب النفع لأنفسهم ، وإن شاءوا فليجربوا فعناصر القصة تتألف من الأصنام والذباب وفتات الطعام فليغروا الذباب بحمل شئ منه ، وليطلبوا من الأصنام إعادته . فهل يمكنهم ذلك ؟ فليفكروا .

* *

● نُذُر على ألسنة الرسل :

ثانياً - ما ساقه الله على لسان رسله ..

قال سبحانه على لسان إبراهيم : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٢) .

● إبراهيم يجادل قومه :

هذا طرف من قصة إبراهيم مع قومه . إنه يسألهم عمن يعبدونه ليبيِّن لهم أن هذا المعبود لا ينفع ولا يضر .

---

(١) الحج : ٧٣

(٢) الشعراء : ٦٩ - ٨٢

قال لهم : ما تعبدون ؟ قالوا له : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال لهم : هذه الأصنام التى تعبدونها ، وقد اتخذتموها أرباباً من دون اللّه هل لهم سمع يسمعونكم به إذا دعوتم ؟ . وهل لهم قدرة على النفع والضر فتعبدوها طمعاً فى النفع وخوفاً من الضر .

قالوا له : بل وجدنا أباءنا كذلك يفعلون . وهنا يظهر التقليد الأعمى فى فكرة الأصنام .. مجرد أن أباءهم كانوا يفعلون ذلك .

والتقليد حجة ضعيفة .. استدرجهم إليها إبراهيم فى حواره معهم . ومشركو مكة يسمعون ويرقبون الأحداث إلى أى مصير تنتهى . فالقضية قضيتهم . والليلة بنت البارحة .

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام الحوار بعد أن استدرجهم إلى الاعتراف بعجز آلهتهم : أرأيتم هذه الأصنام التى تعبدونها أنتم وأباؤكم الأقدمون . إنهم عدو لى إلا رب العالَمين . وقوله : « عدو لى » تصوير للمسألة فى نفس ليعلموا أنه نصحهم بما نصح به نفسه .

لأن رب العالَمين هو الذى خلقنى ، وهو الذى خلق كل شئ ، وهدانى ، وهو القادر على أن يؤتى كل نفس هداها . وهو يطعمنى ويسقين . ويطعم كل شئ ويسقيه . ويشفينى إذا مرضت ، ويشفى كل مريض .

وهو الذى يميتنى ويحيينى ، ويميت كل حى ويحييه ، والذى أطمع أن يغفر لى خطاياى يوم الدين .

وذلك لأنه « اللّه » القادر على كل شئ ، المالك لكل شئ .. فليس ما تدعونهم – وقد علمتم شأنهم – مثله ، وليس كمثله شئ .

أفى هذا التوجيه قسر للعقول ؟ أو فيه إلغاء لفكر الإنسان الحر ، مهما كان موقفه من العقيدة التى يدعو إليها الداعى .

فليقارنوا بين مَن دَعوهم آلهة . وبين الإلٰه الحق وليختاروا لأنفسهم ما يحلو .

* *

● وهود يجادل قومه :

وقال سبحانه على لسان هود : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أَجْراً ، إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الَّذى فَطَرَنى ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْه يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ * قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِه فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ، مَا من دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِه إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ، إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (١) .

فى هذه الآيات الثمانى تبدأ حياة أمة ، ثم تنتهى . أمة ضلت طريق الحق ورسولها يدعوها إلى ذلك الطريق . أخلص لهم رسولهم - هود - فى النصح والإرشاد ونهاهم عن عبادة الأصنام . وأمرهم أن يعبدوا الله - وحده - ويستغفروه . فإذا فعلوا هطلت عليهم نعمه :

يرسل السماء عليهم مدراراً فتجود الأرض بالخيرات ليأكلوا هم وأنعامهم من فضله ويحيوا حياة سعيدة .

ويزدهم قوة إلى قوتهم . فلا يطمع فيهم طامع ، ولا ينال منهم عدو .

(١) هود : ٥٠ - ٥٨

لكنهم لووا أعناقهم قائلين : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِى آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ويرمونه بالسوء من بعض أصنامهم ، فيبرأ منهم ، ويُشهد اللّه ويُشهدهم على براءته من شركهم .

ثم يغريهم على أن يكيدوه مجتمعين إن استطاعوا هم وآلهتهم ، وليفاجئوه بهذا الكيد دون أن ينظروه .

وبيِّن لهم أنه توكل على اللّه ربه وربهم ، الذى هو آخذ بناصية كل دابة . رب له الغلب وجنده هم المنصورون . وصراطه هو المستقيم .

وبيَّن لهم - كذلك - أنه قد أبلغهم رسالة ربه فإن أعرضوا أهلكهم اللّه وبدّل غيرهم ولا يضروه شيئاً .

● نجاة وهلاك المخالفين :

وتنتهى القصة بأن اللّه نجى هوداً والمؤمنين معه . نجاهم من عذاب غليظ .

وهلكت عاد . فلم يستطيعوا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم ، ولم تستطع آلهتهم أن ينصروهم .

نصره اللّه ونجاه ومَن آمن معه . لأنه قادر عظيم آخذ بناصية كل شئ .

وخذلتهم آلهتهم لأنها عاجزة حقيرة تتأثر بعوامل الدهر ، ولا تؤثر فى شئ ، وهذا هو موضع العبرة فى كلمات قصار ، فليتدبرها مشركو مكة والملحدون فى كل زمان ومكان : ﴿ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٢) .

فى الأمثلة السابقة جميعاً يجرد القرآن الأصنام من كل صفات القوة والتأثير، ويضعها فى مكانها الحقيقى من عالَم الجمادات ، فهى لا تنفع عابداً لها

---

(١) هود : ٥٣

(٢) هود : ٦٠.

ولا تضر عاصياً ، ويستهدف القرآن من وراء هذا صرف الناس عن هذه النزعة الضالة ، موجهاً لهم الوجهة السليمة فى الاعتقاد القلبى والسلوك العملى .

* *

● السخرية من الأصنام :

وفى مواضع أخرى يسخر القرآن الكريم سخرية لاذعة من الأصنام وعابديها ، ونذكر من ذلك مثالين :

● مثال على لسان إبراهيم :

أولهما : قول إبراهيم عليه السلام لقومه حينما واجهوه بتحطيمه أصنامهم :

﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُواْ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُواْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ * فَرَجَعُواْ إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

لقد أفلح إبراهيم عليه السلام فى رسم هذه الخطة التى أفحم بها خصومه . وأراهم عجز آلهتهم عياناً حيث لم يدفعوا الضر عن أنفسهم . ثم استدرجهم من هذه الواقعة إلى أن يلقنهم الحقائق التالية :

---

(١) الأنبياء : ٥٧ - ٦٧

إن هذه الأصنام فاقدة القدرة على النطق ، كما أنها فاقدة القدرة على أى شئ فهى جماد .

إن المعبود الذى يستحق العبادة مَن ينفع ويضر ، وهؤلاء حيث ثبت عجزهم عن نفع أنفسهم فحرى ألا يُعبدوا لعجزهم عن نفع غيرهم وضره .

إن قومه مسلوبو العقل الرشيد . إذ لو كانوا عقلاء لصرفهم تفكيرهم عن هذا الضلال المبين .

أما السخرية اللاذعة فإننا نراها فى العبارات الآتية :

﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ .

وقد علم وعلموا أنهم لا ينطقون .

﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ ﴾ .

وفى هذا توبيخ لهم وسخرية بأصنامهم . وإنكار أن يكونوا عابدين لها . وهى لا تنفع ولا تضر .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ .

* *

● ومثال على لسان موسى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ، وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ، لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً * إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (١) .

يا لسخريه القَدَر . إله ... إله يُحرق – هكذا بالتكثير – ثم يُنسف ويذرى فى اليم .. ما أتفه هذا الإله . وما أتعسه .

(١) طه : ٩٥ – ٩٨

وما أضل وأتعس مَن اتخذه إلٰهاً .. إن كان إله فليدفع عن نفسه التحريق والنسف .. وكيف له ذلك ؟

ما موقف النفس والعقل معاً من هذا الإله المحرَّق المنسوف نسفاً . إن النفس لتسخر منه وتحتقره . وإن العقل ليرفضه ، ويصد عنه .

العقل والنفس معاً ينفضان أيديهما منه . إنه لخيال . بل إنه لوهم .

وبعد أن يستقر فى العقل والنفس هذا المعنى ، تأتى العقيدة الصحيحة لتتمكن أيما تمكن بعد تجربة أثبتت فشل فكرة التعدد واتخاذ الأصنام آلهة من دون الله .. جاء دور الحق . ليؤمن به العقل ، وتعظمه النفس : ﴿ إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ .

* *

● منهج تربوى :

ثم انظر إلى هذا المنهج التربوى الرشيد ، والاستدراج الحكيم الذى ساقه القرآن على لسان النبى إبراهيم عليه السلام .

قال سبحانه فى سورة الأنعام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ، إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَباً ، قَالَ هَٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّى ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً ، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ، فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (١) .

فقد أنكر إبراهيم على أبيه وقومه أن يتخذوا أصناماً آلهة ، ورماهم بالضلال المبين ثم سلك معهم مسلك مجاراة الخصم فيما يزعم من باطل ليستعرض شُبهة واحدة تلو الأخرى . فيبطلها . وهكذا حتى إذا ما بقى له شئ يمكنه التمسك به دفع شُبهه مرة واحدة وأثبت المطلوب الذى يريد إثباته .

* * *

● عرض ونقد :

ولستُ مع بعض المفسرين والكُتّاب الذين يُجوِّزون أن يكون إبراهيم قال ذلك فى فتوته على سبيل الاعتقاد متدرجاً من صورة إلى أخرى . حتى اهتدى إلى الحق . لستُ مع هؤلاء لأسباب ..

أولاً : إن هذا يتنافى مع الرسالة لأن القرآن صريح فى أن إبراهيم إنما قال ذلك وهو رسول .

ثانياً : إنه فى أثناء هذه المراحل بعد أن رأى القمر بازغاً ، وقبل أن يرى الشمس قال : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فمَن هو ربه إذن ومَن هم القوم الضالون إن لم يكونوا هم الذين اتخذوا الأصنام أرباباً من دون الله ؟

---

(١) الأنعام ٧٤ - ٨٢

ثالثاً : إن القرآن افتتح هذا الفصل بإنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه وقومه أن يتخذوا أصناماً آلهة . ووصفهم بالضلال المبين .

رابعاً : إن إبراهيم عليه السلام فرغ من تجاربه هذه إلى إثبات العقيدة الصحيحة فى زمن لا يزيد عن يوم وليلة .

• إيضاح ذلك :

إنه رأى - والله أعلم - الكوكب فى أول الليل فقال : هذا ربى .. فلما أفل فى جزء من الليل نفسه بزغ القمر . فأقلع عن فكرة الكوكب وأقبل على فكرة القمر . فلما أشرقت الشمس فى الصباح وسطع ضوؤها فلم يعد معه وجود للقمر أقلع عن فكرة القمر . وأقبل على فكرة الشمس ..

وذلك كله فى ليل سابق ويوم لاحق . وأى تفسير غير هذا يلزم منه امتداد زمن التجارب الثلاث فنحتاج إلى تخريجات لسنا فى حاجة إليها مع إمكان هذا الإيضاح الذى أوردناه .

وإذا تقرر ذلك فهل كان انتقال إبراهيم عليه السلام من مرحلة عدم الاهتداء إلى الإله الحقيقى ، إلى مرحلة الاهتداء إليه انتقالاً طبيعياً فى هذه المدة الوجيزة ؟

قد يُجاب على هذا بأن صفاء الفطرة يمكن معه مثل هذا الانتقال السريع . ونحن نقول بدورنا : إن صفاء الفطرة هذا كفيل بصيانة إبراهيم عليه السلام من مثل هذا التخبط ، والقرآن نفسه يقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (١) .

* *

(١) الأنبياء : ٥١

● هدفنا من النقد :

والذى نهدف إليه من هذا كله هو أن ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام ليس إلا مجاراة للخصم من حيث الظاهر ، واستدراجاً إلى الإنكار عليهم بصور عملية يشاهدونها ويحسونها حتى يهتدوا إلى الإيمان الحق . فإذا كان الكوكب وهو فى السماء ، والقمر وأثره فى الكون ظاهر . والشمس وهى مصدر الدفء والنور .. إذا كانت هذه الأشياء العلوية الفائقة مرفوضة أن تكون أرباباً . فما بالك بالتماثيل والأصنام التى كان يعبدها قوم إبراهيم ؟

ذلك ما يمكن استخلاصه من القصة على وجه مقبول ملائم لمقام الرسالة ، وصيانة الرسل من الزيغ فى أصل العقيدة المؤهلين لإبلاغها ونشرها .

* * *

● قطب واحد :

والآن - وبعد هذه المثل جميعاً - ما هى الطريقة التى سلكها القرآن فى قضية التوحيد ؟ إن محور العبرة فى هذا المجال يدور حول قطب واحد . مهما اختلفت النماذج وصياغة التعبير .

ذلك القطب يرتكز على جانبين :

أولهما : إثبات كل صفات الجلال والعظمة لله . بحيث يؤمن العقل بوجوده ، ويرفض أن يكون له شريك .

وكانت أدلة هذا الجانب مظاهر الكون من الخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، وإنزال الماء وإنبات الزرع المختلف الأحجام والألوان والطعوم . وإرسال الرياح وتسيير السحاب وكشف الضر وإيصال النفع .

هذه مظاهر نُسِبت إلى الله ، ولا تصح نسبتها إلا إليه . إذن فهو موجود فى الواقع ، وفى العقل ، وفى النفس والوجدان .

وهذا الكون يسير على نظام دقيق لا تخلف فيه ، تصرف منسوب إلى إله عظيم القُدرة ، مطلق الإرادة . إذن فهو واحد ليس له شريك فى الواقع . وفى العقل ، وفى النفس والوجدان .

ثانيهما : إثبات صفات العجز المطلق ، والضعف المهين ، والشلل الكلى عن كل حركة ، نافعة أو ضارة . لتلك الأصنام التى يدعونها آلهة . إذن فليست هى آلهة فى الواقع ، وفى العقل ، وفى النفس والوجدان .

وإذا ثبت أنها ليست آلهة ، لأنها مخلوقة لا خالقة ، مقدور عليها لا قادرة ، إذن فهى ليست شريكة للّه فى الواقع ، وفى العقل ، وفى النفس والوجدان .

• المشكلة الثانية - قضية البعث :

فى المشكلة السابقة - مشكلة تعدد الآلهة والتوحيد - اعتمد المشركون فيما اعتمدوا على شُبهة هى أقوى ما عندهم وأضعف ما يعتمدون عليه فى نفس الوقت ، تلك الشُبهة هى شُبهة التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم .

لقد رددوا هذه الشُبهة كثيراً كلما دعاهم الدعاة إلى توحيد اللّه ، وترك ما هم فيه من ضلال .

وفى هذه المشكلة اعتمدوا كذلك على شُبهة واحدة هى أقوى ما يمكن أن يُقال لدى منكرى البعث ، وهى - كذلك - أضعف شُبهة يمكن أن تقف أمام تقرير هذه الحقيقة فى الواقع وفى الاعتقاد

وكافيك من خصم أقوى ما لديه من دليل أضعف ما يمكن أن يعترض به عليك . ولقد ناقش القرآن شُبهتهم هذه ودحضها بما ساق من براهين قوية . وحجج مفحمة .

ولنذكر شواهد ذلك فيه ..

• رد شُبه الإنكار :

أولاً - قال سبحانة مبيِّناً مقوله منكرى البعث . مفنداً لها :

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُواْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّه ، قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُل مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* سَيَقُولُونَ لِلَّه ، قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّه قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) .

بدهى أن عناصر الموضوع الذى اشتمل عليه النص الكريم تتلخص فيما يأتى :

الأول : فكرة إنكار البعث .

الثانى : أدلة هذه الفكرة كما يصورها زاعموها .

الثالث : الرد عليها من وجوه .

العنصر الأول صوَّره القرآن بعد مقدمة قصيرة بقوله : ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُواْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ .

الثانى : وهو أدلة هذه الفكرة . جاء الحديث عنها ضمن الحديث عن العنصر الأول ، فاستبعادهم للبعث سببه : استحالة إعادة الأجسام بعد الموت وصيرورتها تراباً وعظاماً .

* *

---

(١) المؤمنون : ٨١ - ٩١

● سببان للإنكار :

هذا سبب أصيل فى دعواهم . وقد قوّاه لديهم سبب آخر ، لكنه سبب إضافى ثانوى هو : أن آباءهم الأقدمين قد وُعِدوا مثلهم هذا الوعد . لكنه لم ينفذ.فدل ذلك على عدم وقوعه - كما يزعمون - فهو من أساطير الأولين وحكاياتهم .

هذان هما جانبا القضية .

وجاء دور الرد . فكيف بدأ القرآن الرد عليهم ؟

رد القرآن الكريم عليهم بمقدمات مسلمة لديهم . أو لا محيص لهم من التسليم بها لأنها لائحة بيِّنة .

ثم رتب على هذه المقدمات النتائج الملزمة التى لا تحتمل شكاً ولا إنكاراً ولا مكابرة ولا استبعاداً . وخاطب عقولهم وطالبهم بالتأمل والذكرى ، وحذرهم خشية الله وعقابه ، وأهاب بهم أن يتركوا الجهالة وألا يخدعوا أنفسهم بباطل القول وغروره .

فالله وحده هو خالق الكون . وما فيه من عجائب تدل على عظيم قدرته وحريته إرادته : مغيث الملهوف ، وحامى المكروب ، ومؤمِّن الخائف ، ولا يقدر أحد أن يمنع بطشه إذ نزل .

إن كل حركة .. وكل سكون فى الكون هو مصدره : خالقه وموجده ، ومكيفه بكيفية خاصة ، وخالق الشئ ابتداء على غير مثال سبق لا يعجزه أن يعيده على ما كان عليه ، أو فى أية صورة أراد .

* *

● صحة البعث حقيقة :

فالدليل على صحة البعث مستقى من خلق أنفسهم ، وخلق الكون وما فيه من مظاهر مختلفة فليتأملوها .

ولقد كان أول ما لفت إليه القرآن أنظارهم الأرض ومَن فيها . لأنه أقرب مشهد إليهم إذ عليها يحيون ، وفيها يحرثون ويزرعون . ثم ترقى معهم إلى

السموات السبع خطوة أخرى لأن السموات أظهر ما يُشاهَد بعد الأرض . وما دام الأمر تأملاً فى السموات فليتأملوها كذلك فى العرش العظيم . ومَن ربهما ؟ أليس ربهما الله ؟

وإذا عرف أن العرش مصدر القُدرة والسلطان فقبل أن يخطو بعيداً عنه خطوة واحدة ليذكروا مَن بيده ملكوت السموات والأرض ، وملكوت كل شئ . أليس هو الله ؟

ومن رقة الجدل القرآنى ولين معرضه فإنه فى ختام كل مشهد يذكر عبارة تستل من المعاندين عنادهم .

فبعد المشهد الأول يقول : ﴿ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وبعد المشهد الثانى يقول : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وبعد المشهد الثالث يقول : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ، وبعد المشهد الرابع يقول : ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ .

إن مشاهد البعث بعد هذه النماذج الماثلة أمام النظر ، المتكررة على تطاول الدهر لهى جزء من مشهد لما هو واقع ملموس . هى عملية إعادة لأشكال ورسوم وُجِدَت قبل ولم تكن لها حقائق تأتى مطابقة لها فما أسهل العود.

* *

● استدلال ممتع :

« فقد عرض القرآن دلائله وبراهينه فى أسلوب أدبى رائع . يستهوى نفس العربى فينفتح فؤاده - وهو لا يدرى - لسماع ما يُعرض عليه مأخوذاً بعذوبته وجماله . ثم يرى نفسه مسوقاً للتأمل فيما يسمع ، والتدبر فيما يُلقى إليه . وإن كان مخالفاً لعقيدته ومفنداً لرأيه ومبطلاً لما درج عليه من مذاهب وأهواء .

« ولم يتوجه القرآن بالدليل إلى العقل وحده . لكنه خاطب جميع القوى المدركة والمؤثرة فى النفس الإنسانية .. وتدرج فى الدليل من مرحلة إلى أخرى مستخدماً الإثارة الوجدانية تارة . وتحريك العاطفة تارة أخرى . وهز مشاعر

الرجاء والخوف . ووجّه النظر إلى المُحَس المشاهَد . وقاس عليه البعيد الغائب . وقطع السبيل على المجادل وسد جميع الثغرات أمام الناظر ، حتى لا يجد غضاضة فى التسليم ، ولا مرارة فى القبول ، ولا محيصاً من الإذعان » (١) .

* *

● دعوى مردودة :

قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِى العِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَىٰ وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) .

هنا مثل مضروب لاستبعاد البعث . عظام إنسان محروقة مصحونة ذراها منكر البعث أمام الرسول قائلاً : مَنْ يحيى العظام وهى رميم ؟! والاستفهام هنا إنكارى .

هذه دعواه فبماذا ردها القرآن ؟

هذا المنكِر للبعث الضارب للمثل (٣) ، نسى حقيقة هامة . لو تأملها لما ساغ له أن ينكر كما لم يسغ له أن يضرب المثل .

إنه نسى خلقه من أين جاء وإلى أين يذهب . فلنجاره على نسيان خلقه ، ولنكتف بتلك الإشارة إلى هذا النسيان فى عرض دعواه .

---

(١) نفحات من عبير الأدب : محمد سرحان - اللغة العربية ص ٣٢

(٢) يس : ٧٨ - ٨٣

(٣) فى الكشاف أنه أُبَى بن خلف وجماعة من المشركين هم : أبو جهل والعاص بن وائل والوليد ابن المغيرة ، وقد تطوع لهم أُبَى بمحاجة الرسول ففعل ما فعل فنزلت الآيات (الكشاف: ٢٣/٤) .

إن القرآن الكريم لم يطلب من هذا المنكِر وأمثاله صعباً ، بل طلب منهم أن ينظروا حولهم حتى يتبين لهم أن الذى يحيى العظام وهى رميم هو الذى أنشأها أول مرة ، وهو بخلقها وبخلق كل شئ عليم .

فإن شكُّوا فى هذا فلينظروا إلى النار التى يوقدونها . وفيها متاع لهم . الذى جعل لهم هذه النار من الشجر الأخضر - وبينهما تناف كما ترى - هو الذى يحيى العظام وهى رميم .

بل فلينظروا إلى السموات والأرض . هذه الأجرام العظيمة ، أوَ ليس الذى خلقها قادراً على أن يحيى الموتى . بلى إنه لقادر . إنما أمره إذا أراد سريع التكوين . وبيده مقاليد السموات والأرض ، ومقاليد كل شئ :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ (١) ، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (٣) ، ﴿ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾ (٥) .

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ ، وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ

---

(١) الانبياء : ١٠٤ (٢) الأعراف : ٢٩ (٣) لقمان : ٢٨

(٤) الشورى : ٢٩ (٥) الطارق : ٥ - ١٠ (٦) طه : ٥٥

لكَيْلاَ يَعْلَمَ من بَعْد علْمٍ شَيْئاً ، وَتَرَى الأَرْضَ هَامدَةً فَإذَا أنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (١) .

هذه الأطوار التى يمر بها الإنسان نفسه فى مراحل نموه وتكوينه ، واقع ثابت لا يمكن إنكاره . وهو لا بد له من موجد مؤثر غير متأثر حسبما يقتضى العقل . أليس الذى أوجد هذه المخلوقات فى أطوارها المختلفة بقادر على إعادتها . بلى إنه لقادر . فما هى الحُجَّة التى يمكن أن يرتكن إليها المنكرون بعد .. ؟

لا شئ ....

● ومثال آخر :

﴿ بَلْ عَجبُواْ أن جَاءَهُم مُّنذرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكَافرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجيبٌ * أءذَا متْنَا وكُنَّا تُرَاباً ، ذَلكَ رَجْعٌ بَعيدٌ * قَدْ عَلمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ منْهُمْ ، وَعندَنَا كتَابٌ حَفيظٌ * بَلْ كَذَّبُواْ بالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فى أمْرٍ مَّريجٍ * أفَلَمْ يَنظُرُواْ إلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا من فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فيهَا رَوَاسىَ وَأَنبَتْنَا فيهَا من كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ * تَبْصرَةً وَذكْرَىٰ لكُلِّ عَبْدٍ مُّنيبٍ * وَنَزَّلْنَا منَ السَّمَاء مَاءً مُّبَاركاً فَأَنبَتْنَا به جَنَّات وَحَبَّ الحَصيد * وَالنَّخْلَ بَاسقَات لَّهَا طَلْعٌ نَّضيدٌ * رزْقاً لِّلْعبَاد ، وَأَحْيَيْنَا به بَلْدَةً مَّيْتاً ، كَذَلكَ الخُرُوجُ ﴾ (٢) .

إن هذه الآيات العظام والمشاهد الضخام ، التى يمرون عليها ليلاً ونهاراً ، إذا قيس بها أمر البعث كان فى نفسه أيسر منها فعلاً ، ينكرون وقوعه فى وقت لا ينكرون فيه ولا يُقبل منهم لو أنكروا هذه المقدمات ؟

فليفكروا بعقولهم ففيما ذكر للعقل مجال . وليتأملوا بحواسهم ففيما ذكر للحواس جمال .

* *

---

(١) الحج : ٥ (٢) سورة ق : ٢ - ١١

• منزع الأدلة فى المشكلتين :

لقد استعرضنا - فى إيجاز - علاج القرآن الحكيم لمشكلتى التوحيد والبعث . ونستطيع أن نقول - فى اطمئنان - إن منزع الأدلة التى ساقها القرآن لمحاجة المخالفين هو الطبيعة بما فيها من ظواهر وسنن ، ونظام واتساق . والطبيعة كتاب مفتوح كل إنسان قادر على قراءته وفهمه .

وهى متجددة أمام النظر فيها آيات وعبَر . ولذلك نستطيع أن نفهم سر اختيار القرآن هذا المصدر لسوق الأدلة ، ولفت الأنظار ، لأن القرآن يميل إلى اليُسر والسهولة وينأى عن التعقيد والصعوبة . ففى الكون والطبيعة تتجلى مظاهر القدرة الخلاّقة العظيمة ، قُدرة الله الكبير المتعال :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

وإذا كان منزع الأدلة فى المشكلتين واحداً ، هو الطبيعة الناطقة المتجددة تجدد الحياة نفسها . فإن طريقة الاستدلال تختلف من مشكلة إلى أخرى .

وقد ذكرنا القانون الذى أقامه القرآن لإثبات وجود الله ، ووحدانيته ، وإبطال فكرة الأصنام والتعدد فى الآلهة .

والآن ما هو القانون الذى أقامه القرآن لإثبات وقوع البعث ؟

فى سهولة يمكن أن يقال : إن هذه الظواهر المشاهَدة المرئية قد ثبت أن الله فاعلها ، ولم يكن لها قبل خلقها مثال احتذى فى إيجادها . بل خلقها من العدم .

وهذه حقائق ثابتة بالضرورة .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ - ١٩١

إذن فإن الذى قدر على البدء ، كان - من باب أولى - قادراً على الإعادة .

وبذلك تصبح مسألة البعث من أسهل مظاهر التكوين لأنها إعادة . هذا بالنسبة لنا وإن كان بالنسبة لله يستوى المبدإ والمعاد فى اليُسر والإمكان .

ثم ما هى خصائص الجدل القرآنى ؟

● خصائص الجدل القرآنى :

تتمثل خصائص الجدل القرآنى - حسبما يصل إليه الباحث فى نصوصه - فى الملاحظات الآتية :

أولاً : انتزاع الأدلة من الأحوال المحسوسة دونما إلغاز أو غموض - كما ألف الناس فى أقيستهم ومحاوراتهم .

ثانياً : سهولة تصور تلك الأدلة بحيث لا يمكن إنكارها لوضوحها وسرعة فهمها .

ثالثاً : أن القرآن لا يقف أمام العقل وحده يخاطبه . بل يوجه إرشاده إلى كل القُوَى المدركة فى الإنسان ، عقل ونفس ، عواطف ووجدان .

رابعاً : أن الأسلوب الجدلى فى القرآن الكريم يميل دائماً إلى جانب الإنصاف ويستدرج الفكر بكل روافده إلى الحق مُطوِّقاً الخصم من جميع ثغوره مفنداً كل شُبهة لديه فلا يدعه حتى يستلب منه كل ما يمكن أن يستمسك به فى أسلوب حكيم مقنع وتصوير سهل ممتع .

لقد لمس القرآن الوجدان واتبع طريقة التصوير فبلغ الغاية بمادته وطريقته وجمع بين الغرض الدينى والغرض الفنى من أرفع طريق وأقرب طريق [١] .

* *

(١) التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب .

● **حقيقة مهمة :**

وبقيت حقيقة هامة لا بد من الإشارة إليها . ذلك فإن القرآن بجدله الحكيم المقنع الممتع لم ينهزم فى أى معركة . بل كُتِبَ له النصر فى جميع معاركه الفكرية التى خاضها سواء فيما ذكرناه من قضيتى التوحيد والبعث .. أو فيما لم نذكره من قضايا أخرى ، وما أكثر ما خاض القرآن من قضايا فكرية ومشاكل وجودية مثل قضية التحدى للقرآن الكريم وقضية التحريم والتحليل وقضية خلق السموات والأرض وقضية صحة الرسالة . وقضية نسبة الصاحبة والولد للّه - سبحانه - هذه كلها قضايا خاضها القرآن فانهزم الخصم وانتصر هو .

أما تمسك الخصم بما يرى - فى بعض القضايا - فليس لقصور فى الدليل ، ولا لغموض فى الفكرة ، بل كان ذلك مسبباً عن عنادهم وتماديهم فى الباطل . وصدق اللّه إذ يقول : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ (١) .

* * *

٥ - التصوير والتشخيص (٢) :

القرآن كتاب كل شئ . فيه من جميع ألوان المعارف والعلوم والفنون ما ظهر منها وعرفه الناس ، وما لم يظهر فى ضمير الغيب .

هو كتاب تاريخ وعلوم وعقيدة ، وتشريع وقصص وآداب ، وجدل وفلسفة وحكمة ووعظ وهداية وإرشاد ، وإصلاح وتهذيب وتوجيه . وصدق اللّه العظيم حيث يقول : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾ (٣) .

هذه المعارف والفنون والعلوم المختلفة ، والأهداف والمقاصد المتباينة فصَّل القرآن الكريم الحديث عنها بطريقة هى أفضل طرق التعبير وأقومها . وهى

---

(١) النمل : ١٤

(٢) سبق الحديث عن هذه الطريقة فى الفصل الثالث عند دراستنا لألفاظ القرآن وسيأتى لها تفصيل فى مجازات القرآن من هذا البحث

(٣) الأنعام : ٣٨

طريقة : التصوير والتشخيص ، سواء أكانت المعانى ذهنية ، أو غير ذهنية فذلك منهجه فيها ، وسمته التعبيرية الغالبة عليها .

وفضل هذه الطريقة على غيرها معروف ، لأن المعانى فيها لا يخاطَب بها العقل وحده بل تشترك معه كل قُوَى الإدراك : السمع والبصر ، الشم واللمس، والذوق . والعواطف والشعور والأحاسيس ، فحين يخاطب القرآن الناس بهذه الطريقة يصبح الإنسان بكل شعوره وحواسه آلة إدراك وتذوق وتأمل .

ونذكر فيما يلى نماذج هذه الطريقة مع بيان أثرها فى النفس والشعور كلما أمكن ذلك .

١ - نماذج بَشرية :

للإنسان جانب كبير فى القرآن الكريم ، يرقب سلوكه ويضبط أحواله . والناس بحسب سلوكهم وعقائدهم فى القرآن الكريم أنواع وصنوف . وقد تحدَّث القرآن عنهم حديثاً رائعاً صوَّر لنا فيه تلك الأنواع تصويراً فاق ما يخطه الرسام بخطوطه وألوانه .. ومساحاته وزواياه .

فأحبار اليهود - مثلاً - أو الكفار أو المنافقون ، دأبوا على الغدر والخيانة ولم يرعوا لله عهداً ولا ذمة .

رصد القرآن الكريم هذا السلوك الشائن . وسجله فى آية من سورة البقرة حيث يقول سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) .

● جرائم ثلاث :

فى الآية ثلاث جرائم ارتكبها الأحبار أو المنافقون أو الكفار كما جاء فى كتب التفسير ... وتلك الجرائم الثلاث هى :

---

(١) البقرة : ٢٧

١ - نقض عهد الله .

٢ - قطع ما أمر الله به أن يوصل .

٣ - الإفساد فى الأرض .

ونقض العهد هو عدم الوفاء به ... لكن القرآن عبَّر عنه بالنقض فقال : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ من بَعْدِ ميثَاقه ﴾ ، والميثاق بمعنى التوثقة أى الإحكام والتوثيق ، وهذا التعبير مجازى لأن النَقَض حقيقة هو : نقض البناء والحبل [١] وهو « انتثار العقد من البناء والحبل والعقد . وهو ضد الإبرام » [٢] وهو فك التركيب والفسخ فيما هو محسوس . والمآل واحد فى جميع التفسيرات . وهذا يقضى بكون النقض واقعاً على العهد مجازاً شُبِّهَ فيه المعنوى بالحسى تصويراً للمعنى وتشخيصاً ليكون أوضح وأمثل أمام النظر . قال الزمخشرى فى توجيه المجاز فى الآية المذكورة :

« النقض : الفسخ وفك التركيب . فإن قلتَ : من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد ؟ قلتُ : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ، ومنه قول ابن التيهان فى بيعة العقبة : يا رسول الله ، إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها . فنخشى إن الله عزَّ وجَلَّ أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك . وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشئ المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شئ من روادفه ، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه . ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه ، وعالِم يغترف منه الناس ، وإذا تزوجتَ امرأة فاستوثرها . لم تقل هذا إلا وقد نبهتَ على الشجاع والعالِم بأنهما أسد وبحر ، وعلى المرأة بأنها فراش » [٣] .

والاستعارة التى يقصدها الزمخشرى هنا هى الاستعارة المكنية لأن تحليله لمجاز الآية ينطبق عليها .

---

(١) مختار الصحاح ص ٦٧٦ (٢) مفردات الراغب ص ٥٠٤

(٣) الكشاف : ١/ ٩٠

وعلى هذا فإن العهد قد سمى بالحبل . فالحبل مشبَّه به ، حُذف ورُمزَ له بشئ من لوازمه الذى هو النقض . والقرينة هى إثبات النقض للعهد . أما الجامع بين الحبل والعهد ، فهو الإحكام والاستيثاق .

وقد أظهر المجاز المعنى فى صورة المحسوس ليكون أبين وأظهر ، وليُنَفِّر من هذا السلوك المشين لأن فك إحكام الحبل هدم لعمل بذل فيه صاحبه جهداً ، ولأن الحبل بعد فكه يصبح عديم الجدوى .

*

● « نقض » .. فى القرآن :

وقد جاءت هذه الكلمة « نقض » بمعنى المجاز أيضاً فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، مراداً بها فيها ما أريد بها هنا . مثل قوله تعالى :

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١) .

وجاء قبل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴾ (٣)

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ .. ﴾ (٥) .

---

(١) النحل : ٩٢ (٢) النحل : ٩١ (٣) الأنفال : ٥٦

(٤) الرعد : ٢٠ (٥) البقرة : ٢٧

وقوله : ﴿ فبمَا نَقْضهم مِّيثَاقَهُمْ وكُفْرهم بآيَات اللّه وَقَتْلهمُ الأَنبيا ءَ بغَيْر حَقٍّ وَقَوْلهمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فبمَا نَقْضهم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسيَةً ، يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَّوَاضعه وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ به ، ولاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائنَة مِّنْهُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ، إنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

● نتيجة :

هذا التتبع لاستعمالات كلمة « نقض » فى صورها المختلفة فى القرآن الكريم ، يضع أمامنا حقيقة هامة ، هى أن القرآن قد عبَّر بها فى كل موضع من مواضعها المذكورة سواء مثبتة أو منفية . عبَّر بها عن إبطال العهد وعدم الوفاء به بعد الالتزام والتحمل .. وإبطال العهد أمر معنوى .. أما النقض فهو فسخ التركيب فى المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما (٣) فهو أمر حسى .

واستعماله فى المعنوى مظهر من مظاهر إبراز القرآن للمعانى المعقولة فى صورة المحسوسة اعتناءً بالمعنى ، وإظهاراً له فى أجلى صور الوضوح .

* *

● القطع والوصل :

وكذلك جاء التعبير فى بيان الجريمة الثانية التى ارتكبها المخالفون وهى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ (٤) .

فالقطع والوصل مستعملان فى غير ما خصهما به الوضع . لأن القطع مستعمل حقيقة فى الأجسام الصلبة المتماسكة . فهو فى أمر حسى .. وكذلك

(١) النساء : ١٥٥

(٢) المائدة : ١٣

(٣) تفسير أبى السعود : ٩٢/١

(٤) البقرة : ٢٧

الوصل مستعمل فى المحسوسات والمراد منهما فى الآية - كما يرى العلاَّمة أبو السعود : « يحتمل كل قطيعة لا يرضى اللّه سبحانه وتعالى بها كقطع الرحم ، ومعاداة المؤمنين ، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام ، والكتب فى عدم التصديق ، وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير ، أو تعاطى شر ، فإنه يقطع ما بين اللّه تعالى وبين العبد من الوصلة التى هى مقصودة بالذات من كل وصل وفصل » (١) .

وهذه كما ترى أمور معنوية قد عُبِّرَ عنها بما يُعبِّر به عن الحسية جرياً على سُنَّة القرآن فى التصوير والتشخيص .

وقد وردت المادة « ق ط ع » على سبيل المجاز وعلى سبيل الحقيقة . فمن المجاز ما ورد فى هذه الآية : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ ، ونوع المجاز فيه استعارى حيث شبَّه تركهم ما أمر اللّه به أن يؤتى بقطع ما هو موصول متماسك . والقرينة حالية إذ سياق الحديث فى التكاليف الشرعية .

والجامع بين المستعار منه والمستعار له زوال الأثر فى كل . فالموصول إذا قطع ذهبت قوته والانتفاع به ، وما أمر اللّه به أن يؤتى إذا ترك زال أثره من رضوان اللّه وإثابته .

*

● قطع ووصل فى القرآن :

وقد طابق القرآن بين القطع والوصل . كما طابق بين : « ينقضون » و « ميثاقه » إذا أخذنا برأى مَن يقول : إن الميثاق المراد به التوثقة كالميعاد المراد به الوعد (٢) - والاستعارة تصريحية تبعية ..

ومن استعمالات القرآن المجازية لهذه الكلمة النصوص الآتية :

---

(١) تفسير أبى السعود : ٩٣/١

(٢) الكشاف : جـ ١ ، وتفسير أبى السعود : جـ ١

﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

﴿ أئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ (٢)

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَائِبِينَ ﴾ (٣) .

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾ (٤) .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُواْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٥) .

﴿ ورَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ (٦) .

﴿ وَتَقَطَّعُواْ أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ، كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ (٧) .

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ (٨) .

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ (٩) .

وإنما كان التعبير فى هذه النصوص مجازياً استعارياً لاستعمال اللفظ : « قطع » فى الأمور المعقولة . للمبالغة فى بيان المعنى وتوكيده وتقريره ، كما هو الملحوظ فى كل مجاز .

أما استعمالاتها الحقيقية فيه فكثيرة منها المواضع الآتية :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ﴾ (١٠) .

---

(١) الأعراف : ٧٢ (٢) العنكبوت : ٢٩ (٣) آل عمران : ١٢٧

(٤) الأعراف : ١٦٠ (٥) محمد : ٢٢ (٦) البقرة : ١٦٦

(٧) الأنبياء : ٩٣ (٨) النمل : ٣٢ (٩) الحجر : ٦٦

(١٠) المائدة : ٣٨

﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ (١) .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (٢) .

وكذلك استعمل القرآن مادة : « و ص ل » بمعنى الوصل استعمالاً مجازياً فى المواضع الآتية مراداً بها فيها ما أريد بها هنا :

وهى : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

ولم يستعمل القرآن هذه المادة « و ص ل » إذا كان مراداً بها « الوصل » استعمالاً حقيقياً بل مجازياً . وإنما استعمل ذلك فى مواضع مقصود منها « الوصول » دون « الوصل » مثل قوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ (٥)

والملاحظ أن استعمال المادة الأولى « ق ط ع » فى القرآن أكثر من استعمال مادة « و ص ل » وأن جانب المجاز فى المادتين هو الغالب

وهو فى « و ص ل » بمعنى « الوصل » شامل لجميع مواضع ذكرها .

* *

- **ضعف العقيدة :**

ونموذج آخر : قال تعالى فى سورة الحج : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (٦) .

---

(١) طه : ٧١ (٢) يوسف : ٣١ (٣) الرعد : ٢١

(٤) القصص : ٥١ (٥) القصص ٣٥ (٦) الحج : ١١

﴿ وَمِنَ النَّاسِ ﴾ - أى وبعض الناس . وهذا الفريق يعبد الله ما دامت فضائله كثيرة عنده يرفل فيها صباح مساء . صحة ومال وولد . فإذا تبدلت هذه النعَم وابتلاه الله بشئ من الخوف والجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات تبدل إيمانه كفراً ، وطاعته معصية ، وأخذ ينعى حظه فى الحياة .

قال العلأمة أبو السعود : « روى أنها نزلت فى أعاريب قدموا المدينة ، وكان أحدهم إذا صح بدنه ، وأنتجت فرسه مُهراً سوياً ، وولدت امرأته ولداً سوياً ، وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبتُ منذ دخلتُ فى دينى هذا إلا خيراً، واطمأن . وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبتُ إلا شراً ، وانقلب » [١] .

والمعنى أن هذا الفريق يعبد الله على ظاهر من الإيمان لم يتمكن الإيمان من قلبه ... وفى التعبير بـ « الحرف » دقة بالغة فى تصوير الحالة النفسية لمن كان شأنه هكذا ، والحرف لغة : الطرف ، وهو حافة الشئ . والواقف عليه لا يقر له قرار : « إن الخيال ليكاد يجسم هذا « الحرف » الذى يعبد الله عليه هذا البعض من الناس ، وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسى فى وقفتهم وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب ، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف بالتزعزع ، لأنها تنطبع فى الحس وتتصل منه بالنفس » [٢] .

*

● صورة أدبية موحية :

هذا موطن جمال وتشخيص فى هذه الآية الكريمة ... وهناك صورة أدبية موحية بينها وبين هذه الصورة « حرف » اتساق وتلاؤم . وهى : ﴿ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ .

---

(١) تفسير أبى السعود : ٩/٤ - ١٠ .

(٢) التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب ص ٤٢

فى الصورة الأولى إيماء إلى حقيقة الحالة النفسية التى يكون عليها هذا الفريق ، ثم ماذا بعد تصوير الحالة النفسية ؟

إن المشهد الذى يصوِّره لنا القرآن فى الجانب المقابل ، حركة عنيفة تؤدى إلى الهلاك السريع والتحطم البالغ ... ﴿ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴾ والانقلاب على الوجه ذهاب بالصورة إلى قمة التأثير النفسى تنفيراً من هذه الحالة المشينة .

وإنَّا لنلمح التناسق العجيب بين هذين المشهدين « الحرف » و « الانقلاب » فإن مَن يقف على طرف سرعان ما يهوى ساقطاً لا يلوى على شئ ، وتلك نتيجة لازمة يدركها الخيال وإن لم يصرح بها فى التعبير (١) .

هذه الصور الدائبة الحركة ، والشخوص البارزة بديل من معنى ذهنى مجرَّد ، كان يمكن أن يؤدى بهذه العبارات : من الناس فريق يعبد اللّه على إيمان ضعيف فإن كرَّمه اللّه بالنعَم هَدئ وقَرَّ . وإن ابتلاه بالمصائب ثار وفر ، وهلك مع الهالكين . وبين الطريقتين بون شاسع وفرق جسيم .

*

● إثارة الخيال :

لقد اشترك فى إدراك هذه الصورة حاسة البصر حيث يتخيل لها ذلك الرجل الجالس أو الواقف على الطرف المتأرجح بين الثبات والتزعزع . وإن البصر يرقب ذلك الشبح وهو يهوى إلى الأرض فى حركة سريعة حين زلَّت به القدم ... وحاسة السمع إنها لتكاد تتخيل صوت ارتطامه بالأرض الصلبة ، يخرق صماخ الأذنين فيتمزق الجسم شر ممزق ، ويتهشم العظم وتتناثر أشلاؤه هنا وهناك .. وعواطف الحيرة والقلق ، ثم الشفقة والرثاء . ثم الذهن حين يقارن ويتأمل ويحكم .

ووراء ذلك كله يكمن سر التعبير كما جاء فى الآية الكريمة ..

* *

---

(١) سحر البيان فى مجازات القرآن : بحث لنا مخطوط قدمته لكلية اللغة العربية للحصول على درجة الماجستير فى البلاغة عام ١٩٦٨

● صورتان متماثلتان :

وهناك صورتان مماثلتان لهذه الصورة . أولاهما قوله تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ، وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

هذه الصورة برزت فيها المعانى شخوصاً مرئية . فى عالم محسوس مجسَّم ، ونماذج فنية معروضة للنظَّارة . لو استطاع رسام أن يبرزها بخطوطه وألوانه لكانت براعة تُحسب له فى عالَم التصوير ، والمصوِّر يملك الريشة واللوحة والألوان ، ولكن هنا ألفاظ فحسب صوَّر بها القرآن هذه المعانى حية نابضة بالحركة . فملأت الشعور والوجدان وأغنت عن الريشة واللوحة والألوان .

*

● مقومات الجمال فى النص :

ولننظر إلى جمال التعبير فى مواطن جماله : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ﴾ .. والاعتصام هو ذلك التماسك القوى بشئ مجسَّم محسوس « الحبل » مثلاً ... وحبل اللّه دينه . سمى حبلاً على سبيل الاستعارة . والاعتصام ترشيح للمجاز .

يقول الزمخشرى : « قولهم » : « اعتصمت بحبله » : يجوز أن يكون تمثيلاً - أى استعارة تمثيلية - لاستظهاره به ووثوقه بحمايته ، بامتساك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه . وأن يكون « الحبل » استعارة لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد ، أو ترشيحاً لاستعارة الحبل بما يناسبه . والمعنى : واجتمعوا على استعانتكم باللّه ووثوقكم به ولا تتفرقوا عنه . أو اجتمعوا على

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

التمسك بعهده إلى عباده ، وهو الإيمان والطاعة ، أو بكتابه . لقوله عليه السلام : « القرآن حبل الله المتين لا تنقضى عجائبه » [1] .

*

• مجازان تمثيليان :

فالمجاز فى الآية يحتمل التركيب - أى استعارة تمثيلية - والإفراد على أن يكون الاعتصام كما قال : ترشيحاً للمجاز ، والمجاز المرشح أبلغ من المجرد ، ولكل مقام .

وفى الآية مجاز تمثيلى آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ وهو قريب من : ﴿ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ فى كونه مجازاً تمثيلياً ، ونموذجاً بَشرياً . وكون مكمن السر الجمالى فيهما « الحرف » و « الشفا » إذ هما متحدان معنىً مختلفان لفظاً .

شبّه حالهم وهم على الكفر والمعاصى بحال مَن يقارب السقوط فى حفرة من النار ، وشبّه هداية الله لهم إلى الإيمان والطاعات بإنقاذ مَن كاد يهوى فى النار ، وإبعاده عنها وتحقق السلامة له .

• تحليل المجاز فى ﴿ شَفَا حُفْرَةٍ ﴾ :

قال صاحب الكشاف : « وشفا الحفرة وشفتها : حرفها بالتذكير والتأنيث ... فمثلت حياتهم التى يُتوقع بعدها الوقوع فى النار بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها » [2] .

فانظر كيف عمد القرآن إلى تجسيم المعنى لتأكيده وتقريره ، وللعناية بإيضاحه حتى يثير فى أنفسهم مدى الهلاك الذى كانوا مشرفين عليه ، فتبين لهم نعمة الله فى أجلى مظاهرها ، أوَ ليس الذى ينجيك من الهلاك المحقق واهباً لك حياة جديدة .

---

(١) الكشاف : ١/٣٠٢ - ٣٠٣

(٢) الكشاف : ١/٣٠٤

إن التردى فى حفرة - مجرد حفرة - فيه تعرض لخطر جسيم . فما بالك إذا كانت هذه الحفرة مستعرة بالنار ؟

ليتأمل الخيال وليصوِّر تلك الحفرة عمقاً واتساعاً كيف يشاء . فتلك فراغات متروكة له يدركها كيفما يريد .

وصورة ثالثة .....

قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

هاتان صورتان شاخصتان : بُنيان أسس على تقوى من الله ورضوان . أساسه التقوى والرضوان ، فهو قوى متين .

وبُنيان أسس على قواعد ضعيفة على طرف جرف هار .. فهو فى غاية الضعف لا يلبث أن ينهار .

قال الزمخشرى : « أسس بنيانه على أضعف قاعدة وأرخاها وأقلها بقاء . وهو الباطل والنفاق الذى مثله ﴿ جُرُفٍ هَارٍ ﴾ فى قلة الثبات والاستمساك . وضع « شفا الجُرف » فى مقابله التقوى . لأنه جعل مجازاً عما ينافى التقوى . فإن قلتَ : ما معنى : ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ قلتُ : لما جعل الجُرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل : فانهار به فى نار جهنم ، على معنى : فطاح به الباطل فى نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز . فجئ بلفظ الانهيار الذى هو للجُرف ، وليصوِّر أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جُرف هار من أودية جهنم فهوى به ذلك الجُرف فهو فى مقرها . والشفا : الحرف والشفير . وجرف الوادى : جانبه الذى يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً ، والهار : الهائر وهو المتصدع الذى أشرف على التهدم والسقوط » (٢) .

---

(١) التوبة : ١٠٩ (٢) الكشاف : ٢/٢٤٤

فالمجاز هنا تمثيلى مركّب . ولتحقيق تصوير المعنى بصورة المحسوس كانت أجزاء الصورة كذلك مجازية .

فالبنيان هو الدين الخالص . وشفا الجُرف الهار هو الباطل والنفاق . وجاء من ذلك كله ذلك المعنى الآسر .

قال الزمخشرى معلقاً على هذا البيان الرفيع : « وأنت لا ترى كلاماً أبلغ من هذا الكلام .. » (١) .

هذه الصور الثلاث آثر القرآن أن يخرجها هذا المخرج الماثل الشاخص .

* *

● موازنة بين الصور الثلاث :

ولنوازن بين هذه الصور الثلاث ، التى كان « الحرف » و « الشفا » يمثلان فيها أجمل لقطة من لقطات الخيال . ولنقدم لهذه الموازنة بتمهيد :

أولاً : إن أبطال أو شخوص هذه الصور مختلفون حالاً مع التقارب فى الوصف العام ، فالذى يعبد اللّه على حرف - الذى هو بطل الصورة الأولى - عنده حظ من إيمان وإن ضؤل . فهو - إذن - على شُعبة من هدى ، وبسبب نجاة.

ثانياً : أما أبطال الصورة الثانية : ﴿ وكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ .. ﴾ فإن حالهم الذى دل عليه لفظ : « كنتم » كانت متناهية فى الخطورة حين كانوا متلبسين بتلك الحال . واستجابتهم إلى داعى الهدى ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ دليل على حسن استعدادهم لتلقى التربية الصالحة إذا ماتهيأت لهم ظروفها ، وحمل مشعلها هاد صالح على قدر عظيم من الخُلق والفضيلة .

ثالثاً : وأما بطل الصورة الثالثة : ﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فذو نفس خبيثة . أصرت على رفض الهدى ،

(١) الكشاف : ٢/ ٢٤٤

ولجت فى عتوها ونفورها . فليس لها من ماضيها أو حاضرها ما يشفع لها ويدفع عنها سوء المصير .

* *

● أثر هذه الفروق :

إذا وضعنا أمامنا هذه الفروق الواضحة بين أبطال الصور الثلاث . ثم عمدنا نحلل التعبير إزاء كل صورة منها ، رأينا الدقة والسحر يتمثلان أروع تمثيل فى الصور الثلاث .

فـ « الحرف » فى الصورة الأولى : ﴿ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ و « الشفا » فى الصورة الثانية : ﴿ وكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ نلحظ بينهما هذا الفرق : أن « الحرف » متروك على حالته . لم يستتبع بوصف يفيد أكثر من أنه حرف ، حرف وكفى ، أما « الشفا » فقد وُصِفَت بأنها حفرة من النار . هناك حرف مجرد ، مطلق حرف ، وهنا شفا ممتدة على محيط حفرة تشتعل فيها النار .

لماذا كان التعبير هكذا .... ؟

ولعل السر العجيب فى ذلك أن مَن يعبد الله على حرف هو على شُعبة من إيمان فى حال عبادته . فهو إذن على شئ من هدى . ولما كان حظه من الإيمان لا يؤهله لاحتمال الشدائد والصبر على المكروه - وقَلَّ أن يسلم منهما إنسان - ناسبت حاله تلك حال مَن يقف على طرف شئ يخشى سقوطه منه وترديه . ولكن كيف ؟ .. يسقط وكفى .

أما الأوس والخزرج فقد كانوا قبل إسلامهم فى ضلال وحروب أذهبت من نفوسهم المروءة وطبعتهم بطابع وحشى . فناسب من هذه الوجهة أن تشبه حالهم بحال مَن يقف على طرف حفرة تتأجج فيها النار وتستعر . فمَن تردى منهم هلك واحترق .. ولكن الله سلَّم .

هناك مجرد وقوف على حرف . وهنا وقوف على طرف حفرة تضطرم بالنار .

الصورة الثانيه أكثر رهبة من الأولى ، وأسوأ مصيراً - لأن المخالفة المستوجبة للعقاب فى الأولى أهون شأناً منها فى الثانية .

وتأتى الصوره الثالثة .. وقد علمنا موقف بطلها السادر فى الضلال ، المعرض عن الهدى المتصف بالكفر والنفاق . لأن الجزاء من جنس العمل . فهو أشد خطراً من سابقيه ، وأفظع ذنباً . فجاء التعبير القرآنى أشد ما يكون اتساقاً مع ما ثبت له من صفات الكفر والنفاق : ﴿ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ .

فـ « الشفا » - هنا - غير الشفا وغير الحرف هناك : الشفا شفا جرف . والجرف ما يجرفه السيل . إذن فهو شفا رخو هش تغوص فيه الأقدام ، بل الركب والأجسام ... هذه واحدة .

وهو ﴿ هَارٍ ﴾ .. هكذا بالنص . متفتت لا تبثت عليه خطىً ، ولا يمكن عليه سير ، ضعف فوق ضعف فأنّى يستقيم له بنيان ؟ ... وهذه ثانية .

﴿ فَانْهَارَ بِهِ ﴾ انهار به فعلاً ، وليس مشرفاً على الانهيار . وهنا تكمل نهاية المأساة من حيث نتائجها الطبيعية . تكمل بالتردى والسقوط الذى كان متوقعاً ، لأن المقدمات صادقة ، موصلة - لا محالة - إلى هذه النهاية ... وهذه ثالثة .

﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ لم يكن السقوط على الأرض وفى قاع الحفرة فحسب . لماذا ؟ لأن قاع الحفرة أو سطح الأوض قد يكون - كذلك - رخواً هشاً .

فقد يتوهم متوهم أن الساقط عليه قد ينجو وإن تعرض لطفيف الإصابات . فكان هذا الاحتراس الحكيم الدافع لكل وهم : ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهى - أى النار - كفيلة بهلاكه ولو لم يسقط فيها . بل ولو دخلها فى زينة عروس ... وهذه رابعة .

ثم « النار » ليست هى مطلق نار . فقد تكون ضعيفة لا تصيبه إلا بالحروق التى - يمكن النجاة منها . لذلك ، ودفعاً لهذا الاحتمال - كذلك - كانت النار المنهار فيها هى نار جهنم وهى معلوم شأنها :

﴿ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ (١) .

﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ (٢) .

﴿ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ﴾ (٣) .. وهذه خامسة .

* *

● ملاحظة أخرى فى الموازنة :

وصفوة القول : لقد ناسب التعبير القرآنى حال كل من الصور أدق مناسبة قدر لها تقديراً دون إيجاز مخل ، ولا إطناب ممل (٤) .

بقيت ملاحظة أخيرة ..

فقد جاء فى الصورة الأولى قوله تعالى : ﴿ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ ﴾ (٥) .

---

(١) المدثر : ٢٨ - ٢٩ (٢) المعارج : ١٦ (٣) البقرة : ٢٤

(٤) سحر البيان فى مجازات القرآن - إعداد مقدم البحث (مخطوط) ص ٣٧ - ٤١

(٥) الحج : ١١

وجاء فى سورة آل عمران : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [1] .

الانقلاب فى الموضعين مجاز تصويرى على طريقة الاستعارة التمثيلية ، شبهت فيه أحوال معقولة بصور محسوسة . ومع ذلك نلحظ بينهما فرقين هامين :

أولهما : الانقلاب فى آية الحج على الوجه . أما فى آية آل عمران فعلى العقبين . الأول انكفاء على الوجه الذى هو أشرف ما فى الإنسان . والثانى سقوط إلى الخلف .

ثانيهما : جاء بعد الانقلاب فى آية الحج قوله تعالى : ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ .

وهذه الخاتمة تجعلنا فى يأس من إصلاح حال مَن كان الحديث فى شأنه . كما أننا نتبين مدى خسرانه وكونه ظاهراً لفداحته .

وجاء بعد الانقلاب فى آية آل عمران قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

وهذه الخاتمة تدلنا على شيئين :

أن الانقلاب لا يضر إلا صاحبه فلا يلحق بالله - سبحانه - منه شئ . وأن الله مع هذا كفيل بجزاء الشاكرين .

الخاتمة - كما ترى - فى الموضعين مختلفة من حيث الدلالة : الأولى ميئسة ، والثانية فاتحة لأبواب الرجاء .

* *

---

(١) آل عمران : ١٤٤

● سر الاختلاف .

والسر - والله أعلم - أن آية آل عمران وردت فى مقام عتاب من الله لعباده الذين تأثروا بإشاعة قتل النبى ﷺ أو موته يوم أُحد . وفى العتاب تأنيب وتأميل ، تأنيب على ما بدا فى الماضى ، وتأميل فيما يجب التحلى به فى المستقبل . لذلك كانت الخاتمة فى آل عمران رقيقة باعثة على الرجاء والإنابة .

أما آية الحج فإن الذى يرتد عن دينه إذا ما ابتلاه ربه ويستبدل الكفر بالإيمان والاساءة بالإحسان والمعصية بالطاعة . قد أحل بنفسه عذاب ربه وباع دينه بدنياه فخسرهما معاً . فليس معه بقية من رشاد يُرجَى بها هدايته . ومصيره إلى النار لا محالة .

لذلك كانت الخاتمة معه قاسية أليمة . كخاتمة حياته ، وعاقبة أمره .

* * *

٢ - جمادات .. حية :

نجد فى القرآن الكريم الجماد يتكلم ، والمعنويات تُوصف بما يوصف به الأحياء العاقلين ، كما أُسند إلى هذه الأنواع أحداث لا يأتى بها غير مَن كانت له حياة حقيقية وعقل وإرادة وتدبير ، ترى ذلك فتسحر ، ولا تستطيع أن تنكر منه شيئاً أو تحس بمخالفة فى التعبير للسنن الذى ينبغى أن يكون عليه

والحديث فى ذلك طويل ومتعدد الجوانب .. ولكننا سنضرب مثلاً لتأكيد القاعدة ولبيان أن طريقة التصوير والبعث هى طريقة القرآن المفضلة . ومنهجه المتبع فى بيان المقاصد المختلفة .

وأمثلة ذلك كثيرة منها : ﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمٰوٰات وَالأرْض وَالجبَال فَأبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وَأشْفَقنَ منْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ ، إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (١) .

---

(١) الأحزاب : ٧٢

فأنت ترى السموات والأرض والجبال - هنا - جماعة من الإناث العاقلات .

فهمن معنى العرض ، وخطر الأمانة فطلبن من الله أن يعفيهن من حملها وأشفقن منها ، إنه لتمثيل رائع أن ترى الجمادات تخاطَب فتعقل وتفكر فتتكلم .
وقد جرى المفسرون على تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا ﴾ أى : أبَيْنَ الخيانة فيها وأشفقن من الخيانة .. ويفسرون « الأمانة » بالطاعة أو التكاليف الشرعية [1] .

ولماذا لا نجرى الإباء على حقيقته - كما سبق - ويكون المعنى : طلبن من الله إعفاءهن من حملها . وحملها الإنسان ، على أن يراد بالأمانة ما يؤمَن عليه الإنسان من مال وغيره . لا مطلق طاعة ولا عموم التكاليف .

وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إلَى السَّمَاء وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أوْ كَرْهاً قَالَتَا أتَيْنَا طَائعِينَ ﴾ [2] .

تكاد كتب التفسير تجمع على أن المراد من أمر السماء والأرض فى هذه الآية أنه أمر تكوين . أى قال لهما : كونا وتشكلا على الهيئة التى نشاهدهما عليها [3] .

وفى تحليل معنى الأمر يقول الزمخشرى : « إنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أمرهما ، وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع . وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل . ويجوز أن يكون تخييلاً ويُبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلَّم السماء والأرض وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما . فقالتا : أتينا على الطوع لا على الكُره . والغرض تصوير أثر قُدرته فى المقدورات لا غير من غير أن يحقق شئ من الخطاب والجواب » [4] .

---

(١) تفسير النسفى : ٤/٣١٧ - ٣١٨ ، كشاف الزمخشرى : جـ ٣ ، وتفسير أبى السعود : جـ ٤

(٢) فصلت : ١١

(٣) النسفى : ٤/٨٥ ، وأبو السعود جـ ٤

(٤) الكشاف : ٤/١٤٨

وأياً كان نوع المجاز تمثيلاً أم غيره فإن شاهدنا فى الآية ظاهر ، حيث أسند إلى السماء والأرض ، وهما جمادان ، أحداثاً إنما هى من اختصاص العقلاء .

وقال سبحانه : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ من جَنَّات وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتِ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينِ ﴾ (١) .

الآيات تتحدث عن قوم فرعون لما جاء الهلاك فهلكوا ، تاركين وراءهم ما كانوا فيه من نعمة وفضل .

أراد الله أن يبيِّن لنا حقارتهم ، وأنهم غير مأسوف عليهم حين هلكوا لعصيانهم وفسادهم . فقال : ﴿ فَمَا بَكَتِ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ .

ففى نفى بكاء السماء والأرض عليهم تهكم بهم ، لأن العرب كانوا إذا مات لهم عظيم قالوا فى تعظيم مهلكة : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس (٢) ، وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه . والقرآن بلغتهم نزل . فجاء نافياً ذلك البكاء المخصوص عنهم ليدل أنهم ليسوا كمن يعظم فقده .

ونقل الزمخشرى عن الحسن : « فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون . بل كانوا بهلاكم مسرورين » .

وفسَّر هذا - أى الزمخشرى - بقوله : « يعنى : فما بكى عليهم أهل الأرض » (٣) .

وعلى ما ذكره فإن التعبير من قبل المجاز العقلى الذى أسند فيه البكاء منفياً إلى ما ليس له . والعلاقة المحلية . أما القرينة فاستحالة أن يكون من السماء والأرض بكاء .

---

(١) الدخان : ٢٥ - ٢٩ (٢) الكشاف : ٣١٨/٤ (٣) الكشاف : ٢١٩/٤

وفى الآية شاهد ثان فى قوله تعالى : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ حيث أسند الوصف : ﴿ كَرِيمٍ ﴾ إلى غير ما هو له حقيقة ، وهو ﴿ مَقَامٍ ﴾ وذلك كثير فيه ، وسيأتى له بعد بعض التفصيل .

*

● كواكب مضيئة :

وقال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ (١) .

الكواكب والشمس والقمر أجرام سماوية فلا يأتى منها ما يأتى من العقلاء . وقد أجراها القرآن فى هذه الآية مجرى العقلاء فى موضعين :

أولهما : فى ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ حيث أعاد عليها الضمير الذى يعاد به على العقلاء . وكان حق التعبير أن يقال : رأيتها .

ثانيهما : فى قوله : ﴿ سَاجِدِينَ ﴾ حيث أجرى عليهم الوصف الذى من حقه أن يجرى على العقلاء - كذلك - وكان حق التعبير أن يقال : ساجدة لا « ساجدين » ولتوجيه ذلك طريقان :

أولهما : ذكره المفسرون وهو : « لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء - وهو السجود - أجرى عليها حكمهم ، كأنها عاقلة . وهذا كثير شائع فى كلامهم أن يلابس الشئ من بعض الوجوه فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة » (٢) .

وهذا توجيه حسن ومقبول ..

ثانيهما : ولم أره لأحد . وهو أن هذه الكواكب والشمس والقمر لما كانت رموزاً وكنايات عن عاقلين ، حيث صرَّح المفسِّرون بأن المراد بالكواكب : أخوته ،

---

(١) يوسف : ٤

(٢) الكشاف : ٢/٣٤٦

والشمس والقمر : أبواه - لما كانت كذلك - عوملت معاملتهم فأجرى عليها ما جرى عليهم .

والفرق بين التوجيهين : أن الأول عام يمكن الانتفاع به فى غير هذا الموضع ، والثانى خاص به دون سواه .

وقال سبحانه : ﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾(١) .

عامل الشمس والقمر ، والليل والنهار معاملة جمع المذكر العاقل . فأجرى عليها ضميره . لأن الدقة والنظام اللذان يُشاهَدان فى سير هذه الكواكب والظواهر الكونية خليق أن يأتى من حكماء العاقلين ، لا من أجرام وظواهر . وهذا سوغ أن تكون مثلها فعوملت معاملتها .

والخلاصة أن ما يجرى مجرى العقلاء فى القرآن الكريم . إنما هو للمبالغة فى المعنى لتأكيده وتقريره . وأن كل موضع وردت فيه هذه السمة ، اشتمل المقام فيه ما يسوغ هذا الصنيع فى حكم البلاغة . ليكون المعنى أوقع فى النفس ، وأيسر فى الفهم ، وأمثل للنظر . وليس فى هذا الاستعمال مخالفة للوضع اللغوى أو العُرف البيانى ، وإنما هو مسلك البلغاء الفاقهين لأسرار المعنى وتصاريف الأساليب . وهو فى القرآن على أسمى وجه وأرفع منزلة .

* * *

٣ - نماذج عامة :

تحدثنا فى الصفحات السابقة عن لونين من ألوان التعبير القرآنى نهج فيهما منهج التصوير والتمثيل فى النماذج البَشرية السابقة . ثم حياة الجمادات . وعرفنا سر كل أولئك . ونذكر فى الصفحات التالية نماذج عامة تجلت فيها هذه السمة فوهبت الجماد حركة والمعنويات تجسيماً . والخفيات ظهوراً . وكل ذلك

---

(١) يس : ٤٠ .

فى لمحات ساحرة من فن القول . وجمال التصوير ، الليل والنهار والريح والصباح من الأمور المعقولة - هكذا استقر فى أذهان الناس وهكذا كان الواقع .

● الليل والنهار والصبح :

ولكنها فى القرآن أنفس حية . وأجسام تتحرك وتتصرف تصرف الأحياء :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١) ، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (٢) ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ (٣) .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ أى أقبل بظلامه لتسكن الحركة ، ويئوب كل إلى مأواه .. وأين كان الليل قبل أن يقبل بظلامه ؟

الصبح حى يتنفس . إن هذا التنفس الصادر عن الصبح هو حركة الكون كله ، تلك الحركة التى يصحو بصحوها الوجود - إنسان وحيوان وطيور - عمل دائب وحركات سريعة متداخلة هى سر التقدم والعمران .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يسرى إلى متى . ومتى جاء ؟

والليل عاقل مختار يريد شيئاً ويفعله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ .

وإنك لترى الليل والنهار متسابقين فى مباراة حامية لا تكف عن الحركة كل منهما يبغى الآخر : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ (٤) .

● الريح :

والرياح ليست ظواهر كونية فحسب ، ولكنها مشيئة مريدة لها وظيفة تؤديها فى فهم وإدراك : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (٥) .

أى بما تحمل من ماء أو طلع النخل متنقلة من ذكورها إلى إناثها . فالتعبير قد أكسبها حياة حيوانية تلقح وتنتج .

---

(١) التكوير : ١٧ - ١٨ (٢) الفجر : ٤ (٣) الأنعام : ٧٦
(٤) الأعراف : ٥٤ (٥) الحجر : ٢٢

والريح طيبة ، وعاصفة ، وعقيم ، وعاتية ، أوصاف لا تُطلق إلا على عقلاء . ولكنك تجد فى القرآن الريح موصوفة بهذا الوصف : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ (١) .

ولم يكن الجائى هنا هو الريح وحده بل الموج كذلك جاء ساعياً بلا قدم من كل مكان : يمين وشمال ، أمام وخلف .

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (٢) العُقم فى الأصل يُطلق على المرأة التى لا تلد ولكنه هنا جاء وصفاً للريح التى لا تأتى بخير .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (٣) أى شديدة البطش . فهى جند من جنود اللّه الذين لا يُغلبون .

● الأرض تهتز وتنشط :

والأرض ليست تلك الكتلة المنبسطة التى يسير عليها الناس . ولكنها كائن عاقل كذلك ، تراها « هامدة » مرة و « خاشعة » مرة أخرى .. وتراها فتاة خضرة تمرح وتفرح ويهزها الطرب : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٤) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ (٥) . وهكذا تصبح الأرض بلمسة واحدة مصدراً للنشاط والحركة .

* *

---

(١) يونس : ٢٢ — (٢) الذاريات : ٤١ — (٣) الحاقة : ٦
(٤) الحج : ٥ — (٥) فصلت : ٣٩

● الدعاء له طول وعرض :

والدعاء كلمات يتنفس بها المكروب ، قد تكون خفية همسات نفس ، وقد تعلو علواً نسبياً فيسمعها المتضرع ومَن يليه ، ولكنها لا تزيد على هذا الحد . ولا يستطيع الخيال أن يبرزها إلا فى حدودها الطبيعية .

لكن القرآن - كتاب المعجزات - جعل أمام الخيال من تلك الكلمات الهامسة ، وخلجات النفس المكروبة . جعل منها دنيا عامرة فسيحة لها عرض يقصر دونه أحد وأقوى بصر . اسمع إليه يقول : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ (١) .

فهذا الإنسان ظالم كفور لا يلتزم الاعتدال لا فى حال النعمة ، ولا فى حال النقمة .. فإذا كان فى نعمة نسى معطيها وكفر حقها . ولكن هذا المعنى أدى فى صورة شاخصة ومنظر ماثل : ﴿ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ ﴾ إنه لعقوق وكفران وسوء معاملة . فإذا ابتلاه اللّه بشئ من « الشر » ملأ الدنيا طنطنة وضراعات ذاهباً بها فى كل مكان لا يزال يدعو ويتضرع لتعود إليه السلامة : ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ فالدعاء له عرض وطول . وطوله لا يقع تحت ضابط ، فليوصف عرضه ، وإذا كان العرض هكذا ممتداً . فما بالك بالطول ؟ ليعمل الخيال.

ومثل هذه الصور قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

فالضر ماس . إذن فهو له جارحة ، وهو لشموله لتفكير الإنسان ، وما يصيبه منه من قلق واضطراب سابغ لكل جزء فيه ، ومحيط به حتى لكأنه لا يكاد يُرَى من وراء هذا الغطاء الكثيف . هذه الاعتبارات أوحى بها قوله تعالى :

---

(١) فصلت : ٥١ (٢) يونس : ١٢

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ ﴾ ، والكشف لا يكون إلا للأغطية والحجب المحسوسة كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [1] .

* *

● الحيرة والقلق :

ثم انظر إلى الحيرة والقلق ، كيف يبرزهما القرآن فى عبارات حساسة شديدة الحساسية : ﴿ ... وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ [2] .

هذه الأرض الواسعة ضاقت حتى كادت تنخنق أنفاسهم . لذلك تجد أنفسهم قد ضاقت عليهم هى الأخرى ... فإلى أين يذهبون ... أيخرجون من أنفسهم ؟ ... إنهم لو خرجوا منها - وكان ذلك مستطاعاً - لوجدوا أنفسهم فجأة فى الأرض . أو ليست هذه الأرض هى التى وجدوا فيها أنفسهم - فرضاً - قد ضاقت عليهم من قبل ... فإلى أين المصير ؟

إلى الله وحده .. لا ملجأ منه - لا أرضاً ولا سماءً ولا نفساً - إلا إليه .

* *

● لفتة خاطفة :

قل لى بربك : هل فى مقدور إنسان - مهما أوتى من البلاغة والبراعة - أن يصوِّر هذه الحالة النفسية كهذا التصوير فى دقة وإيجاز واستقصاء لجوانب الصورة الواقعية والمحتملة .

لا .. ليس فى إمكان بَشر .

إنه الله وحده .. وكتابه الحكيم سجل أمين حافل بهذه الصور الخلابة والمعانى الآسرة .

* * *

---

(١) سورة ق : ٢٢ (٢) التوبة : ١١٨

محتويات الجزء الأول

	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	٣
تقديم	٧
الباب الأول : مدخل إلى البحث	
(٢٣ - ١٠٤)	
الفصل الأول : وظيفة التعبير اللغوى وتطورها	٢٥
الآراء حول نشأة اللغة	٢٦
أنواع التعبير اللغوى	٢٨
تطور التعبير اللغوى	٢٩
اللغة - إذن - ما هى ؟	٣١
عناصر اللغة	٣٢
عناصر المعنى اللغوى	٣٦
الجملة اللغوية	٣٧
الأسلوب اللغوى : معناه ، وأنواعه ، ووظيفته	٤١
الأسلوب العلمى	٤٥
الأسلوب الأدبى	٤٧
الفروق بين العلمى والأدبى	٤٨
صلة التعبير اللغوى بالتفكير	٤٩
مناقشة سريعة - صلة التعبير اللغوى بالذكاء	٥١
وظيفة اللغة - إذن - ماهى ؟	٥٣
الفصل الثانى : قيمة الوجوه البلاغية فى جمال التعبير اللغوى	٥٧
العصر الجاهلى	٥٨
العصر الإسلامى	٦٠
العصر الأموى	٦١
العصر العباسى	٦٤
كتاب البديع وسبب تأليفه - البديع خمسة	٦٧
محاسن الكلام	٧٢

الصفحة

قدامة بن جعفر ٧٣
ابن طباطبا ٧٤
أبو هلال العسكرى ٧٦
قيمة كتابه ٧٧
الطبع والصنعة ٧٩
صلة البلاغة بقضايا النقد الكبرى ٨٠
تقديم اللفظ على المعنى ٨٣
قيمة هذا المذهب - نظرة عادلة ٨٦
وقفة ٩٠
قيمة مذهب عبد القاهر ٩٢
الموازنة بين معنى ومعنى ٩٣
القاضى الجرجانى ٩٦
حصيلة هذه الجولات ٩٨
الألفاظ ٩٩
المعانى ١٠٠
منارات على الطريق ١٠٢

الباب الثانى : خصائص التعبير فى القرآن الكريم
(١٠٥ - ٤٨٤)

الفصل الأول : الإعجاز العلمى والتشريعى ١٠٧
الصرفة ١٠٧
رأى آخر للنظام ١٠٩
تعقيب ١٠٩
أشياع المذهب من غير الاعتزال ١١٠
رأى متطرف ١١١
ابن حزم والصرفة ١١٢
الرمانى والقول بالصرفة ١١٣
ما هو مذهب الجاحظ فى الإعجاز ؟ - نقد مذهب الصرفة ١١٤
مقارنة جديدة ١١٦

الصفحة

ثلاثة مآخذ	١١٩
وهم زائل	١٢٠
كيف تحدى القرآن العرب ؟	١٢٢
دليل آخر فى إبطال القول بالصرفة	١٢٣
هل عورض القرآن ؟	١٢٤
التسليم بوجود المعارضات يخدم قضية الإعجاز	١٢٥
الإعجاز العلمى - الإعجاز التاريخى والغيبى	١٢٧
القيمة التاريخية لقصص القرآن	١٢٩
حكمة أميِّة النبى وقومه	١٣١
الإعجاز من حيث الكشوف العلمية	١٣٢
الإعجاز التشريعى	١٣٤
قيمة هذه النظريات	١٣٥
الفصل الثانى : الإعجاز البيانى الأدبى	١٣٧
الواسطى - الرمانى	١٣٨
اضطراب الرمانى فى الرأى	١٣٩
نماذج من تحليلاته	١٤٠
الخطابى	١٤٢
الباقلانى	١٤٤
وقفة مع الباقلانى	١٤٧
البديع والإعجاز عند الباقلانى	١٤٨
عبد القاهر الجرجانى	١٤٨
الإعجاز كامن فى النظم - استدراك منصف	١٥٠
جلال الدين السيوطى	١٥٢
نماذج من تحليلاته	١٥٤
الرافعى - وجوه الإعجاز البيانى عند الرافعى	١٥٦
إيضاح لازم	١٦٠
قيمة ما انتهى إليه الرافعى - ما يؤخذ عليه - دفاع عنه	١٦١
محمد عبد الله دراز	١٦٢

الصفحة

خصائص أسلوب القرآن عند دراز	١٦٣
تعقيب	١٦٤
محمد عبد العظيم الزرقانى	١٦٥
اجتهد فخالف نصاً	١٦٧
عبد الكريم الخطيب	١٦٨
ليس فى الجديد جديد	١٦٩
محمد أبو زهرة	١٧٠
عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)	١٧١
نماذج من تحليلاتها	١٧٣
تنويه	١٧٥
آراء منثورة فى الإعجاز القرآنى : النظم والتأليف	١٧٦
البلاغة والفصاحة	١٧٧
روحانية القرآن	١٨٠
الإعجاز لا يمكن وصفه	١٨٢
الأسلوب المنطقى والعلمى - الموضوعية والتجرد	١٨٣
تعقيب ونقد	١٨٤
دور البلاغة فى الأسلوب الجميل	١٨٥
رأى جامع	١٨٨
الفصل الثالث : خصائص يغلب عليها جانب الألفاظ	١٩٠
فواتح السور	١٩١
الحروف	١٩٣
نقد وتحليل	٢٠٢
أرجح الآراء فى هذا المجال	٢٠٣
تمثيل وإيضاح	٢٠٦
المجموعة الشرطية - خصائص المجموعة الشرطية	٢٠٧
سر الحروف الساكنة	٢١٠
حقيقة كبرى	٢١١
معان إضافية موحية	٢١٢

الصفحة

مطالع سور المجموعة الشرطية ٢١٤
سر « إذا » ٢١٥
إيثار غير « إذا » ٢١٦
ظاهرتان عامتان ٢١٧
فواصل القرآن ٢١٨
آراء العلماء حول السجع فى القرآن ٢١٩
دليل السجع من القرآن نفسه ٢٢٢
رد هذا الدليل ٢٢٣
وظيفة الفواصل اللفظية ٢٢٥
وظيفة الفواصل المعنوية ٢٢٦
اختلاف الفواصل لاختلاف المعانى ٢٢٧
اختلاف الفواصل مع اتحاد المعنى ٢٢٨
فواصل تحتاج إلى تأمل ٢٣٠
دليل من الشعر العربى ٢٣١
أقسام الفواصل ٢٣٣
بحث جديد فى الفواصل القرآنية ٢٣٥
فواصل الآى الطوال ٢٣٦
فواصل الآى القصار ٢٣٨
غرضان من سورة الغاشية ٢٤٠
السر فيما أرى - نص آية التداين ٢٤٢
تحليل آية التداين ٢٤٣
دليل يؤيد هذه الفكرة ٢٤٤
ألفاظ القرآن - روعة اللفظ القرآنى فى نفسه ٢٤٥
ألفاظ حسنت فى القرآن وعيبت فى غيره ٢٤٦
سمات أخرى لحسن اللفظ فى القرآن ٢٤٩
سياسة لغوية ٢٥١
توجيه القرآن لانتقاء الألفاظ ٢٥٢
ملحظ بيانى دقيق ٢٥٣

الصفحة

إيثار أحد اللفظين للمناسبة	٢٥٤
كنايات القرآن عما يقبح التصريح به	٢٥٥
شُبه مردودة	٢٥٧
وجود الرد	٢٥٩
إصابة اللفظ القرآنى	٢٦١
طريق الدلالة فى اللفظ القرآنى - الظل	٢٦٢
الجرس	٢٦٣
الظل والجرس	٢٦٤
تناسب اللفظ القرآنى مع معناه - من أمثلة التهديد والوعيد	٢٦٦
الذم	٢٦٨
إجمال - الترغيب	٢٧٠
العتاب	٢٧٣
عتاب النبى صلى الله عليه وسلم	٢٧٤
عتاب المؤمنين	٢٧٦
التشريع	٢٧٧
منهج الالتزام	٢٧٨
التزام الجمع - التزام الإفراد	٢٧٩
التزام التنكير	٢٨١
التزام النفى - التزام الإثبات - وجه آخر لنظرية الالتزام	٢٨٢
الأب ليس والداً ؟!	٢٨٣
ملحظان هامان	٢٨٥
اعتراض مدفوع	٢٨٦
والوالدة ... أب ؟! - سر التغليب	٢٨٦
النعمة ليست نعيماً ؟!	٢٨٧
معنى النعيم فى « التكاثر »	٢٨٩
مغزى السؤال	٢٩٠
المرأة ليست زوجاً ؟!	٢٩١
استعمال كلمة المرأة	٢٩٣

الصفحة

شبهة وردها	٢٩٤
استعمال كلمة زوج - النغم القرآنى - دعائم النغم القرآنى	٢٩٦
أثر هذه الخصائص فى التسمية	٢٩٧
فرق جديد بين القرآن وغيره	٢٩٨
مجيئه على تفاعيل الشعر فى الظاهر	٢٩٩
النغم القرآنى عند المحدَثين - مطاعنهم فى القرآن مبعثها الإعجاب ...	٣٠١
لماذا سموه شعراً ؟	٣٠٢
خاصتان بارزتان	٣٠٣
النغم فى الآيات القصار	٣٠٤
مراحل إعداد الطعام	٣٠٥
مشاهد مطوية	٣٠٦
مشهد أخروى مثير	٣٠٧
هندسة الجمل - ثلاث فواصل متحدة	٣٠٨
مغزى الفاصلة معنوى أولاً	٣١١
شمس الدين بن الحنفى والفواصل القرآنية	٣١٢
وقفة ناقدة	٣١٧
توجيه ابن أبى الإصبع لموضع مماثل	٣١٩
التكرار	٣٢١
وظيفة التكرار فى القرآن - تكرار الأداة	٣٢٢
تكرار الكلمة مع أختها	٣٢٤
تكرار الفاصلة - تكرار الفاصلة فى « القمر »	٣٢٥
تكرار آخر فى « القمر »	٣٢٨
التكرار فى « الرحمن »	٣٢٩
والجواب : الإنذار والوعيد وبيان مآل الضالين عظة للإنسان	٣٣٠
التكرار فى « المرسلات »	٣٣١
سبب عام	٣٣٢
التكرار فى القصة	٣٣٣
دواعى التكرار فى القصة	٣٣٤

الصفحة

دراسة تحليلية لقصة آدم ٣٣٥
نصوص القصة فى القرآن الكريم : فى سورة البقرة ٣٣٥
فى سورة الأعراف ٣٣٦
فى سورة الحجر ٣٣٧
فى سور : الإسراء - الكهف - طه ٣٣٨
فى سورة « ص » - ترتيب مصادر القصة بحسب النزول ٣٣٩
عناصر القصة فى سورة « ص » ٣٤٠
عناصر القصة فى « الأعراف » ٣٤١
عناصر القصة فى « طه » ٣٤٢
عناصر القصة فى « الإسراء » - عناصر القصة فى « الحجر » ٣٤٣
عناصر القصة فى « الكهف » - عناصر القصة فى « البقرة » ٣٤٤
المعانى المشتركة فى جميع المصادر ٣٤٦
ملاحظة جديرة بالتسجيل ٣٥٠
المعانى المشتركة بين مجموعة دون أخرى ٣٥١
ملاحظات ٣٥٣
سكنى الجنة ٣٥٥
وسوسة الشيطان لهما وما ترتب عليها ٣٥٧
أمر الله لهم بالهبوط إلى الأرض ٣٥٨
الجديد فى القصة فى العهد المدنى ٣٦١
ملاحظات مهمة أخرى ٣٦٣
الملامح الخاصة بكل مصدر من مصادر قصة آدم ٣٦٤
لماذا اختلفت أساليب الحكاية والمحكى عنه واحد ؟ ٣٦٥
خلاصة ٣٦٦
الفصل الرابع : خصائص يغلب عليها جانب المعنى ٣٦٧
ثراء معانى القرآن ٣٦٧
لماذا كان المعنى فى القرآن ثرياً ؟ ٣٦٨
توارد المعانى على اللفظ الواحد ٣٦٩
السوء ٣٧١

الصفحة

احتمال اللفظ لمعان متعددة ٣٧٣
الجمل والفقرات ٣٧٤
القراءات وتعدد المعنى ٣٧٦
القيود وتعدد المعنى ٣٧٩
سر هذه الظواهر ٣٨٢
دقة النظم ٣٨٣
أولاً : فى تاريخ الأمم ٣٨٣
ثانياً : فى التشريع ٣٨٥
حرمة ذاتية ٣٨٦
حرمة عارضة ٣٨٧
سؤال لا بد منه ، وجواب من ثلاثة وجوه ٣٨٨
الباقلانى وبلاغة القرآن ٣٨٩
الرافعى وبلاغة القرآن ٣٩٠
ثالثاً : فى مقولات اليهود ٣٩١
نصح وعناد - طى اسم الرسول ٣٩٢
جواب اليهود ٣٩٣
دور الرد والمناقشة - إفحام الخصم ٣٩٤
مهمة الرد الجديد ٣٩٥
اختلاف الأغراض ٣٩٧
صناعة القرآن ٣٩٨
هل فى القرآن اقتضاب ؟ ٣٩٩
مبنى الشبهة - رد الشبهة ٤٠٠
حسن التخلص فى القرآن ٤٠١
قانون الربط بين الكلام ٤٠٣
التنظير ٤٠٤
المضادة ٤٠٥
الاستطراد ٤٠٦
فيما بين الزركشى والباقلانى ٤٠٦

الصفحة

رد جديد على الشبهة	٤٠٧
« الكوثر » وجارتاها فى المصحف	٤١٢
« الكوثر » وجارتاها فى النزول	٤١٥
ملاحظتان مهمتان	٤١٧
سياسة حكيمة - الإقناع والإمتاع	٤١٨
الناس ثلاثة أنواع	٤١٩
المستحيل .. ممكن ؟! - منهج خلقى حى	٤٢٠
التسامح مع المخالفين	٤٢٢
عود للتشريع	٤٢٣
لقطات مثيرة	٤٢٤
نصيب العاطفة - إغراء	٤٢٥
ترقيق العاطفة	٤٢٧
الدعوة إلى الإصلاح	٤٢٨
الجدل القرآنى	٤٢٩
قضية التوحيد	٤٣٠
عرض مقولة المشركين	٤٣١
موقف القرآن من هذه الشبهة	٤٣٢
طريقان لدعوة الناس إلى الحق	٤٣٣
استدراج يؤدى إلى العجز	٤٣٤
نماذج أخرى فيها دلالة التوحيد	٤٣٥
حوار حى	٤٣٦
منطق تصويرى	٤٣٧
الكون دلالة التوحيد الكبرى - ضعف الأصنام	٤٣٨
نُذُر على ألسنة الرسل - إبراهيم يجادل قومه	٤٣٩
هود يجادل قومه	٤٤١
نجاة هود وهلاك المخالفين	٤٤٢
السخرية من الأصنام - مثال على لسان إبراهيم	٤٤٣
مثال على لسان موسى	٤٤٤

الصفحة

منهج تربوى ٤٤٥
عرض ونقد ٤٤٦
هدفنا من النقد - قطب واحد ٤٤٨
قضية البعث ٤٤٩
رد شُبهة الإنكار ٤٥٠
سببان للإنكار - صحة البعث حقيقة ٤٥١
استدلال ممتع ٤٥٢
دعوى مردودة ٤٥٣
منزع الأدلة فى المشكلتين ٤٥٦
خصائص الجدل القرآنى ٤٥٧
حقيقة مهمة - التصوير والتشخيص ٤٥٨
نماذج بَشرية - جرائم ثلاث ٤٥٩
« نقض » فى القرآن ٤٦١
نتيجة - القطع والوصل ٤٦٢
« قطع » و « وصل » فى القرآن ٤٦٣
ضعف العقيدة ٤٦٥
صورة أدبية موحية ٤٦٦
إثارة الخيال ٤٦٧
صورتان متماثلتان - مقومات الجمال فى النص ٤٦٨
مجازان تمثيليان - تحليل المجاز فى « شفا حفرة » ٤٦٩
موازنة بين الصور الثلاث ٤٧١
أثر هذه الفروق ٤٧٢
ملاحظة أخرى فى الموازنة ٤٧٤
سر الاختلاف - جمادات حية ٤٧٦
كواكب مضيئة ٤٧٩
نماذج عامة ٤٨٠

الصفحة

الليل والنهار والصبح - الريح	٤٨١
الأرض تهتز وتنشط	٤٨٢
الدعاء له طول وعرض	٤٨٣
الحيرة والقلق - لفتة خاطفة	٤٨٤
محتويات الجزء الأول	٤٨٥

* * *

رقم الايداع : ٤٥٥٨ - ٩٢
I.S.B.N.977 - 00 - 3403 - 5